الإِعْجَازُ القُرْآنيُّ

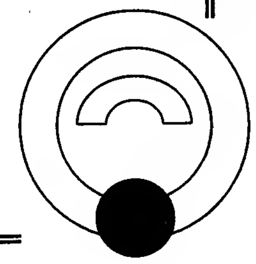
التبيان ـ التكوُّن ـ القراءة

مُدْخَلٌ

لنظرية معرفيّة في نشوء الكَوْن ونظام الكائنات

الكتاب الأول

عباس أمير



دار أسامة للنشر والتوزيع

الأردن – عمّان

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً ﴾ (الإسراء: ٨٠)

الإهـــداء

وردَ عن نبي الرّحمة،

" إنّ القُرآنَ يَلقَى صاحِبَهُ يَوْمَ القِيامَة حينَ يَنْشَقُّ عنهُ قَبْرُهُ كالرجلِ الشّـــاحبِ يقولُ له: هلْ تَعرفني؟ فيقولُ: ما أعرِفُكَ، فيَقُولُ له: أنا صَاحِبكَ القرآنُ الذي أظمـأتكَ فيَّ وأسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وإنّ كلّ تاجرٍ من ورَاءِ تِجارَتِه، وإنّكَ اليومَ من وراءِ كلِّ تجـــارة، قالَ: فيُعطى المُلكَ بيمينهِ والخُلْدَ بشماله، ويُوضع على رأْسِهِ تاجُ الوَقَار، ويُكسَى والداه حُلّتَينِ، لا يَقُومُ لهما أَهْلُ الدّنيا، فيَقولان: بِمَ كُسِيْنَا هذا؟ قال: فيُقال لهمـــا: بـأَخذِ ولدكما القرآن.." صدق رسول الله.

(مصنّف ابن أبي شيبة-كتاب فضائل القرآن)

إلـــى روح امرأة صبرت وصابرت ورابطت وهي تعطف عينيـــــها علـــى وحيدها خمساً وثلاثين من السنين ثم أغمضتهما وفي الموق دمعة بعد أن قضـــــى الله أمراً كان مفعولاً.. والدتي..

إلـــى روح رجلٍ احترم فيّ رجولته... والدي...

اللّهم يا من قضيت عليّ بالإحسان إليهما وقرنت الإحسان إليهما بعبـــادتك.. اعطف عليهما إحسانك، أنت الولي بالإحسان بحقّك على القرآن وبحقّ القرآن عليك..

مقدّمة – أو في المنهاج

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله، به الحمد وإليه الحمد، حمداً ليس لنا بلوغ غايته، اللهم لا نُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك...

والصلاة والسلام على من أرسله ربُّه بالهدى ودين الحقّ ليُظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون، النّبي العربي المبين، محمد، القرآن الناطق، آخر الأنبياء وأولهم السابق، وعلى آله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وعلى صحبه الميامين الذين استنّوا بسنّته واتّبعوه، وعلى من والاه بإحسان إلى يوم الدّين...

ما أرسل الله سبحانه من رسولٍ إلاّ وأظهر به ومعه ما يُؤيّد نبوّته من تأييدات إلهية، كأن تكون تأييد موسى بعصاه التي لقفت سحر السحرة، أو بفلقه البحر أو انبجاس الحجر عيون ماءٍ روّاءٍ..

ومن مثلها تأييد عيسى بيده التي كانت تُبرئ الأكمه والأبرص، أو بخلق الطير من الطين، أو بإحياء الموتى...

ولقد أرسل الله سبحانه، نبيّ الرحمة بدين الحقّ، دين الإسلام، لا إلى قوم بعينهم،أو أمّة بذاهّا ولعصر دون غيره، وإنما إلى الناس جميعاً في كلّ الأمكنة والأزمنة. ولقد أيّده سبحانه بمعجزات وتأييدات مِن مثل ما أيّد به السابقين من الرسل، كأن تكون تسبيح العصا بين يديه الكريمتين أو مجيء الشجرة إليه أو تظليل الغمامة له... الخ، ولكن تلك التأييدات والمعجزات لم تكن بالتي هي خاصّة نبي الرحمة بوصفه الرسول الذي أُرسل للناس جميعاً فلا محدوديّة لرسالته ولا تقييد لمعجزته بكائن أو مكان أو زمان.. ولهذا لا بدَّ من تأييد جامع، لا يحدّه المكان أو الزّمان، تأييد كليّ شمولي لا سبيل إلى الإحاطة بشيء مما هو سمّته في الإعجاز، لا بالنسبة إلى عصر البعثة حسب

وإنّما بالنسبة إلى العصور كلّها، ولا بالنسبة إلى من بُعث فيهم النّبي حصراً، وإنما بالنسبة للبشر جميعاً، ولا بالنسبة إلى مكان بعينه، هو مكان الجزيرة العربية، وإنما بالنسبة إلى الأمكنة كلّها...

لقد كانت التأييدات السابقة للتّأييد المحمّدي، تأييدات بصرية من حيث هي معروضة للإدراك الحسيّ بالنسبة للإنسان، (العصا، فلق البحر، انفجار الماء من الصخر، إبراء المرضى، خلق الطير من الطين... الخ)، أمّا التأييد المحمدي الشامل، فكان تأييداً سمعياً من حيث هو معروض للإدراك الحسيّ بالنسبة للإنسان. فالتأييد هو القرآن الكريم الذي أنزله الله سبحانه وتعالى تبياناً أو كشفاً وإظهاراً وإيضاحاً لكلّ شيء مما هو غير واضح معرفياً بالنسبة إلى زمن النزول ومكانه قبل ألف وأربعمائة من السنين، ومّما هو غير واضح مما يستجدّ من مشكلات وتساؤلات معرفية بالنسبة إلى الأمكنة والأزمنة اللاحقة بلا استثناء...

ولقد أدهشت المعجزة المحمّدية أولئك المعنيين بالقول وفنونه، شعره ونثره، اختيار كلماته أو رصفها وتنظيمها،علوُّ معانيه أو روعة الإبانة عنها.. فقالوا في القرآن ما قالوا، وافترقوا فيه شعبتين، شعبة آمنت وشعبة جحدتْ، فقالت التي جحدت، إنه شعر، أو سحر، أو أساطير الأولين، أو إنه مفترى وإنهم قادرون على مثله، وتحدّاهم القرآن بأن يأتوا بمثله، وما زال يتحدّى الجاحدين أينما كانوا ومتى كانوا.. وما زال يُعجزهم كما أعجز السابقين...

ولقد توهّم من توهّم، لقصوره المعرفيّ، أن الإعجاز القرآني، لا يتعدّى كونه تأليفاً بديعاً ونظماً عجيباً، فرأى في نفسه القدرة على مجاراة بلاغته وتقوّل شيءٍ على منواله وسِمْتِه، فحاول من حاول، وليس ثمّة أبين من محاولة ابن الراوندي، ومن قبله محاولة مسيلمة الكذّاب، تلك المحاولة البائسة التي ثبت فشلها بلاغياً، أي فنيّاً، وما هي إلاّ فاشلة قبل ذلك، فالفشل البلاغي نتيجة طبيعية لفشل أعمق، ألا وهو فشل القدرة

البشرية مهما كانت، وعجزها مهما أوتيت من فصاحة القول وبلاغته، عن الكشف والإيضاح والإظهار الكلي الشمولي لما وراء الكلمة، لا حصراً فيما يتعلّق بالانفعال النّفسي أو الدهش الذّوقي أو الشعور الداخلي، بأمر ما معجب أو ممتع أو مدهش تجيء الكلمة للتعبير عنه أصدق تعبير..وإنما فيما يتعلق بالإحاطة الفكرية بالذي يراد كشفه وإبانته، وما ذاك إلاّ لأنّ سعي المتكلم إلى الإبانة الصادقة الدقيقة المطابقة تماماً لما يُريد بيانه أو كشفه، تعني ما تعني تضحيته بشطر الحسن والجمال الذي لابدّ للكلمة البليغة من الاتصاف به.. فإذا حرص المتكلم على إظهار شطر الحُسن والجمال في كلامه، ضحى بجهة البيان والكشف والإيضاح والمطابقة والمقاددة لما أراد بيانه...

ولقد فات أولئك الذين يرزحون تحت وطأة قصورهم المعرفي، وهم يذهبون إلى القول أن في نظم القرآن فساداً، وأن في أسلوبه لحناً، وأنّ في معانيه تناقضاً، وأن في نقله اضطراباً... وأنه لم يُجعل علماً للنبي، وإنما هو عرضٌ والعرض لا يدلّ على الله أو على النّبوة... لقد فاتهم جميعاً أن الكلمة القرآنية ليست تبياناً لما في النفوس الإنسانية حسب، وإنما هي تبيان لما في الأشياء جميعاً سماءً وأرضاً وما يتعلق بهما.. وهل بمقدور أحد من بني البشر ذلك؟.. فهي إذن تبيان كلي وليس تبيانها الكلّي إلاّ بقرنها بأختها، ثمّ قرن الآية بالآية والسورة بالسّورة..ثمّ قرن الجميع بآيات الله خارج القرآن، فالقرآن تبيان لكل شيء... وما يبدو على ظهر هذه الأرض أو من على صفحة السماء غير منتظم ظاهراً ماهو إلا منتظم داخلاً وعمقاً، ولا بدّ من ردّ المظهر إلى الظاهرة والظاهرة إلى العمق المشترك الكائن فيها والكائنة به... وكذلك هو النص القرآني.. ولقد فات أولئك الواهمين وهم يخضعون لآلية الإدراك الجزئي المحدود، أن الاختلاف المظهري سنة الله في الكون، كما هو سنّته في القرآن، فالقرآن تبيان لكل شيء من تلك الأشياء المختلفة ظاهراً ، فالذي يُميّز الأشياء هو الاختلاف المظهري الكائن بينها حجماً وكتلة، لوناً وهيئة... ولكن الاختلاف نابع من صلب الوسط الكوني المشترك الذي

ثبتت فيه تلك الأشياء.. وهذا هو الإعجاز القرآني وهذه هذه بلاغة كلمته التي بيّنت وما زالت تبين وتكشف عن ذلك الوسط الكوني الذي يجمع الشيء على الشيء ويقرن الشيء بالشيء،ودونما تضحية بشطر الجمال والحسن البادي من على الكلمة القرآنية، والذي هو مطابق للحسن أو الزينة البادية من على سطح الأرض وصفحة السماء...

إنّ مما تقضي به مقدّمات الأمور،وضع الأشياء مواضعها وبما يكشف عمّا هو سابق منها أو لاحق، وعما هو أصل ومترتب، على أن السابق بالنسبة إلى ما بعد المقدّمات سيكون خافياً مُضمراً منسرباً في النتائج،وإن الأصل بالنسبة إلى المترتب عليه سيكون مُدخلاً ليس للمترتب من رجاحة بيانٍ وبلوغ إبانة إلاّ بالتدليل عليه (على المدخل). فما المترتب إلاّ ظاهر الباطن، وما المدخل إلاّ الباطن الذي سيلجأ إليه المترتب في كلّ مرّة من مرّات كشفه وإبانته وإظهاره. فالمترتب نابت في صلب الأصل وعالق برحمه العلوق الذي يوفر له ميزته في التكوّن والتمثل،ثمّ في القدرة على التعالق مع غيره من ترتبات قضى بها الأصل، وهيأت لها أسبابها سعة المدخل. فالترتبات متباينة ظاهراً متداخلة باطناً وعمقاً التداخل الذي يقرن بعضها ببعض ويلبس بعضها بعضاً فيكشف بعضها عن بعض. فكل مترتب كاشف عن نفسه وعن غيره من جهة ومنكشف بنفسه وبغيره من جهة أخرى، فالمترتبات تخليط ألوان عدّة في لون واحد، وعن لون واحد هو لون الأصل...

وما الذي لابدّ من وضعه موضعه من هذه المقدّمة إلاّ السؤال التالي ؛

تُرى ما الحكمة الكائنة الكامنة وراء جعل معجزة آخر الأنبياء وخاتمهم معجزة قول أو معجزة كلمة؟ ثمّ لماذا تتخذ المعجزة من اللسان العربي مَعبراً لإعجازها المطلق والشامل؟ ثمّ، وبتخليط آخر للون الأصل، واستنباتاً للسؤال في السؤال... تُرى هل نقدر أن نجعل من الظاهرة القرآنية بوصفها معجزة لسانية، مدخلاً لقراءة الكون في الآفاق وفي الأنفس، أي بتعبير آخر، هل نقدر أن نجعل من البلاغة القرآنية، بلاغة

(أحسن الحديث) مدخلاً لقراءة بلاغة السماء وبلاغة الأرض وبلاغة الزرع والطير والبحر.. بجملة القول هل نقدر أن نجعل من الفكر البلاغي العربي الذي سلك القرآن مسالكه في أرضه مدخلاً لتبين معرفيّ، وهل نقدر أن نجعل منه مدخلاً كونيّاً لقراءة الفعل الإلهي، فعل الخلق، وذلك بعد توسيع كفاءة ذلك الفكر ثمّ إسقاطه على الكائنات فيزياء وكيمياء وأحياءً ورياضة؟

هذا هو السؤال الرئيس الذي يتكوّن به هذا الكتاب محاولاً من خلال ثلاثة أبواب أو مداخل، الإجابة عنه، إجابة تنحو بصاحبها منحى علمياً قدر المستطاع...

إذا كان هدف العلم هو إحراز تقدّم ما في فهم الأشياء من حولنا وفي أنفسنا عن طريق تقديم الحلول المناسبة لما كان يُشكل تساؤلاً أو قضية مشكلة حتى لحظة تحقق الفهم... إذا كان ذلك هو هدف البحث العلمي، فعلينا أن ننظر إلى القرآن الكريم نظرة أخرى، نظرة تعلو به (وهو العالي)، على الإحاطات أو المحاولات التي تنحو به منحى التبعيض والتجزيء والتحييز والتضييق.. نظرة ترى إليه على أنه المادة المعرفية الجامعة للعلم بكلّ شيء، والداعية إلى تعلم ذلك العلم. فالقرآن الكريم سؤال كونيّ كبير وإجابة معرفية شاملة في وقت واحد، ولا بدّ لنشاطنا المعرفي من التعشّق أو العلوق بالسؤال وبالإجابة في وقت واحد، فالذي يسأل ويُجيب هو القرآن، والذي يتعلّم التساؤل والإجابة نحن، فنحن حيثيات الإجابة ومقارباتها وتكوّناتها المنسجمة مع قدراتنا المعرفية والشاحذة لها والموسّعة من كفاءتها في تبيّن الحلول المعرفية المكنونة في القرآن الكريم وفي عقولنا الجامعة، وإلاّ فإن العقل البشري لا يُقدّم حلولاً، إنّه يتبيّن الحلول كلّها، مما يعلم ومما لا يعلم، وما تلك الحلول إلا المسطورة فيه منذ أبيه آدم حتّى قيام الساعة...

فإذا كان الأمر كذلك، أي إذا رأينا إلى القرآن الكريم بوصفه المادة المعرفية الجامعة، والمفروغ من صدقها وهي تبيّن كلّ شيء، فواجب علينا أن نتوقّف كثيراً عند

السطح الظاهر لهذه المادة، أي عند الذي يواجهنا بوصفنا مدركين من تلك المادة المعرفية، على أن التوقف عند السطح لابدّ أن يُحيلنا ويرجع بنا إلى العمق الذي نبت السطح في صلبه وعلق برحمه وبلا مباينة أو مفارقة، بل مداخلة ومخالطة... ويقيناً أن الذي يواجهنا من على سطح تلك المادة المعرفية هو الكلمة القرآنية التي هي تبيان للفعل الإلهي الخلاّق، تلك الكلمة المسطورة بين دفتي الكتاب على وفق نظام تركيبي واضح المعالم، لم يجئ كذلك إلاّ وثمّة وراء مجيئه حكمة بالغة... فالكلمة القرآنية المختارة وتنظيمها أو ترتيبها وتكرارها أو تنوّعها،ومخالفتها العرف اللغوي البشري السائد قبل نزولها أو موافقته... كلّ ذلك سؤال كوني كبير وإجابة جامعة، فما القرآن بتبيان لشيء دون شيء، ولا هو كمثل قول الذين "يقولون ما لا يفعلون".. القرآن قول إلهيّ، وبلاغة القول الإلهي فعلهُ، فعل الخلق، فالقول تبيان لما تكوّن به وظهر وبان وكشف عن وجوده... وإذا كنّا نبحث عن إجابات وحلول وتفهّمات لما يُحيط بنا من أشياء، أي من مظاهر الفعل الإلهي الخلاّق، فعلينا العود إلى نظام التبيان وبلاغته، فالبلاغة هاهنا بلاغة الـ"هناك" مع فارق الظهور، فالكلمة القرآنية، بين دفّتي الكتاب مظهر صوتي، والكلمة القرآنية بين دفّتي عالم الشّهود (السماء السابعة والأرض السابعة)، مظهر بصريّ، والمظهر الصوتي أوفى في الإبانة وأنجع في تقديم الحلول والإجابات المعرفية الكليّة من المظهر البصري.

وبموجب بلاغة التوقف والتأني عند الكلمة القرآنية الكاشفة عن كلّ شيء، لابد من الخلوص إلى عدم الفصل بين المظهر والظاهرة، أو بين السطح والعمق، ولقد كان السطح البليغ للكلمة القرآنية مدخلنا إلى قراءة العمق المشترك الكائن والكامن وراء السطح والمكوّن لحركيّته، باعتبار أن تنوّع الطرائق واختلافها سمة الكلام البليغ وهو يبين المعنى الواحد، كما يعرف أهل البلاغة... وترتب على ذلك عدم الفصل بين الحسن والحقيقة، فالحسن القرآني حسن الحديث، الذي ينبثق من صلب القول الحق فلا

فكاك بينهما. ولهذا لم نفصل بين بلاغة القرآن وحقيقته المعرفيّة، بل داخلنا بين البلاغتين، ثمّ داخلنا بين البلاغة القرآنية الظاهرة بين دفتي الكتاب وبين البلاغة القرآنية في الآفاق والأنفس...

إن سعينا إلى الإمساك بالعميق والكلّي والأصل الذي لابدّ للمظاهر من أن تردّ إليه، خَلُصَ بنا إلى أولية القرآن وكونيته. فالقرآن تبيان لخلق الكائنات وإيضاح لأولية ظهورها مما يعني أن كلماته وآياته نماذج كشف وإيضاح لأوليّة التكوين وتسلسلاته، ثمّ لأصله الجامع، أصل رتق السموات والأرض.فالتبيان هو الصورة أو الحقيقة المجرّدة من الشيئيّة بإزاء الصورة أو الحقيقة المتشّيئة، فهما (القرآن والكون الخارجي) وجهان لحقيقة واحدة، مع فارق أن الوجه القرآني للكون وجه صوتيّ ثمّ وجه موجز وأخيراً وجه عميق كلّي وشموليّ يسجّل ما جرى للكون وما يجري فيه من حيث ركائزه الكونية المشتركة، أي من حيث سنّته الداخلية، والذي علينا هو أن نتوقّف كثيراً عند تلك السنّة وركائزها بوصفها الخلاصة المعرفية بالنسبة إلى العرض أو الشرح أو المتن. أما الوجه الكونيّ الخارجي للقرآن، فهو وجه بصريّ متنوّع ومختلف ومتعدد ومظهريّ مُفرّق في الكائنات جميعاً، فالوجه الكوني هو تسنّن الأشياء على وفق السنّة القرآنية وركائزها، فهو أي هذا الوجه، هو المتن أو الشرح أو العرض بالنسبة إلى الخلاصة، فهو كمثل المادة المصنوعة بالنّسبة إلى اا—(كتالوج)...

وبالجمع بين الوجهين، نصل إلى امتلاك أنموذجنا القرآني المتكامل، شرط الإخلاص لموضوعية التبيان ونظامه اللساني وبلاغته الكونية التي ستُحيلنا دوماً إلى الأصل البلاغي لـ (كلّ شيء) ممثّلاً بالقرآن مرّة، وبالكلمة الأولى، كلمة التكوين، كلمة الـ"كن فيكون"، وبالمظهر القرائي لتلك الكلمة، وهو أيضاً كلمة أولى، ألا وهي كلمة "اقرأ".. والذي يترتب على الأصل (الشيء الجامع ـ الـ"كل شيء")

هو الأشياء أو التشيّؤ، أما الذي يترتّب على الأصل التكويني "كـن فيكـون" فهو التكوّن، بينما يترتب على الأصل القرائي "اقرأ" التقرّؤ، أي التجمّع والتضامّ والتتامّ..

ومن عند الأصل الأخير أصل التتام يسلك الأنموذج القرائي مسالكه المعرفية ويبيّن مخرجاته التي وإن اختلفت مظهراً فإنّها متّحدة عمقاً وظاهرة. وبموجب ذلك يجمع بين بلاغة القول وبلاغة الأشياء فيزياءً وكيمياء وأحياء ورياضة، ثمّ يجمع بين بلاغة القول وبلاغة الأشياء، وبلاغة الإدراك بياناً وعرفاناً وبرهاناً، وعلى الطرف الآخر سمعاً وبصراً وقلباً وعقلاً جامعاً هو حاصل ضمّ كلّ مواضع الإدراك في الرأس (الدماغ) و(القلب) بوصف الأخير (القلب) ملتقى جَمْع السائل الحيوي (الدم) ودفقه، و(العظام) بوصفها مجمع العلم الوراثي المسطور في الإنسان...

ثمّ يجمع بين بلاغة الخلق الإنساني، بوصف الإنسان مركز الكون الشيئي وبلاغة الخلق الكونيّ، فيُحكّم الأنموذج الإنساني في قراءة الكون، مختلفاً في ذلك عن الأنموذج المعرفي الغربي الذي يُحكّم الأنموذج الشيئي الفيزيائي في قراءة الإنسان... وهو في ذلك كلّه، وبموجب بلاغة الجمع والقرن والضمّ التي يُطالبنا بها القرآن يجمع بين الآراء التفسيرية والنظرات القرائية جميعاً فلا يُفرق بين أهل الظاهر وأهل الرأي، ويُلاقح السنّة بالشيعة والسنة والشيعة بالمتصوّفة والجميع بالمعتزلة وبالعكس...وما ذاك إلا لأنه يرى إلى المادة المعرفية القرآنية بوصفها مادة جامعة ومحفّزة معرفياً على الاختلاف، وما الاختلاف إلاّ مظهر من مظاهر التنوّع الغائب في صلب الوحدة.فليس ثمّة جهلٌ مطلق في ضوء البلاغة الكونية إلاّ حينما يكون الإنسان منكراً لوجود الله سبحانه، وما عدا ذلك تبقى الأمور نسبية، والنسبية تخليط للألوان المعرفية، ولا بدّ من وجود اللون الأبيض خلف المظهر التخليطي للألوان ولو بقدر، والذي يعنينا هو (القدر) لا غيره...

وبموجب بلاغة الجمع القرآني، فإنّ الأنموذج البلاغي في قراءة الكون، يجمع بين العلوم الطبيعية جميعاً،الجمع الذي يُنجيه من اتّباع الأنموذج الفيزيائي الغربي، فالأنموذج

الفيزيائي الغربي الذي صارَ نظريةً تفرض نفسها على العلوم الأخرى ثمّ علـــى وعـــي الإنسان بالكون والكائنات ليس بشيء لدى الأنموذج البلاغي القرآني إلاّ بقدر عُلوقـــه بالأنموذج الإنساني ومدخله المعرفي، أي الأنموذج اللساني. وهاهنا ســـيقرن الأنمـــوذج البلاغي القرآني الرؤية الشيئية البصرية للكون بالرؤية اللسانية السمعية، فيتّفـــق معـــها حينما لا تتقاطع مع الرؤية السمعية ويختلف معها وينحيها حينما تختلف مـــع الرؤيـــة السمعية، مستمدّاً ثقته من إيمانه بصدق القرآن وشموليته وقدرته على الإحاطة بـــ"كـــلّ شيء". وسيترتب على ذلك ويتمظهر، الكثير من التبيّنات والرؤى التي تُحاول إيضـــاح المضمون التصوري للحقيقة الفيزيائية، منها ما يتعلق بالنظرية النسبية، ومنها ما يتعلـــق بنظرية ماكس بلانك عن (كمّ الفعل)،ومنها ما يتعلق بآراء هيزنـــبرج في الاحتماليـــة واللايقين.. وعلى الطرف الآخر، ما يتعلّق بثبات السرعة القصوى للضوء، والجينـــات الوراثية.... الخ. وهو أي الأنموذج البلاغي، يتّخذ في ذلك كله من الكلمة القرآنيـــة الأولى كلمة "كن فيكون" كلمة الإقراء والإبانة، مدخلاً معرفياً متكاملاً، يحرص علـــى الإخلاص لموضوعية التبيان القرآني وبلاغته بلاغة "أحسن الحديث" ودونما تدخـــل في تغيير أو تبديل أو تأويل للكلمة القرآنية التي هي طباق الحقيقة الفيزيائيـــة والكيميائيـــة والأحيائية الكونية، وإنما باستثمار بليغ لسعتها الدلالية محاولاً من خلالها –ما أمكنـــه- أن يجمع الحقائق المعرفية من هنا وهناك في البيان القرآني كلمات وآيات وســـور، وفي السنة النبوية الشريفة وفي أقوال آل البيت، وفي تبينات المتبينين (المفسرين) سنة وشـــيعة أو معتزلة أو متصوفة، أو متفلسفة أو معنيين بالأحكام الفقهية أو معنيين بإعراب القرآن وبلاغته... ثم في آراء ونظريات المعنيين بالعلوم الطبيعية... وهو في ذلك كله يحـــرص على إعادة التكوّن إلى أصله والتفرّق إلى قرئه وجمعه، مؤمناً بالسنّة الإلهية التي جعلـــت (الفَرْق) مترتباً على أولية الجمع والقرء، وثابتاً في صلب الجمع، فأبـــانت عـــن ذلـــك بتسميتين كونيتين للكتاب العزيز، ألا وهما "القـــرآن" و"الفرقـــان"... وغايتـــه أي –

الأنموذج البلاغي- في ذلك تجاوز البعثرة المعرفية، ثمّ تخطّى الكثير من التصورات المخيّبة للآمال بسبب من قصور النظريات العلمية التي تستند إلى المدخل البصري الشيئي في قراءة الكون والكائنات بعيداً عن القرآن...

الذي يسعى إليه الأنموذج البلاغي، هو أن لا يتعامل مع الكلمة القرآنية بوصفها محتوى حسب دون الاعتبار ببلاغتها، فالتعامل معها على وفق هذه الكيفية وإن حقق للمتبيّن تبياناً ما، تعامل قاصر، القصور الذي من مظاهره تأخرنا المعرفي – نحن المسلمين- مقارنة بغيرنا في الوقت الذي نتوفر فيه نحن على خلاصة الكشف والإيضاح والإظهار لما في الآفاق وما في الأنفس ممثّلاً بالتبيان القرآني... وكما يحرص هذا الأنموذج على عدم التعامل مع الكلمة القرآنية على أنها محتوى حسب،فإنه يحرص على عدم التعامل معها على أنها شكل مُلذّ ومدهش نفسياً أو جمالياً حسب. فالتعامل معها على هذا النحو، لا يراعي فيها كونيتها ثمّ كونية حسنها، باعتبار الحسن مُدْخلاً قرائياً معرفياً، وليس الشأن في المدخل التوقف عنده، بل الولوج به ومن خلاله إلى ما وراءه والذي وراءه هو العلم والتعلم والبيان والتبيُّن والكشف والتكشّف...

إنه يجمع بين الشكل والمضمون والسطح والعمق والحسن والبيان، الجمع الذي يُحقق له التعامل مع الكلمة القرآنية تعامل عالم الفيزياء مع المظاهر الكونية وتعامل علم الكيمياء مع التركيبة الداخلية لتلك المظاهر، وتعامل عالم الأحياء أو (البيولوجيا) مع الدفق الحيوي للتراكيب ومظاهرها، وتعامل عالم الرياضيات مع المنطق الرياضيّ الذي يحكم التراكيب ومظاهرها وحيواتها... ومن قبل، فإنه يتعامل مع الكلمة تعامل الطفل المندهش بالأشياء من حوله، ويحلّق في آفاقها تحليق الباحث الجمالي في عوالم من الخيال الخلاّق أمام منظر من مناظر الطبيعة، وينجذب إليها انجذاب الفراش إلى سراج مشتعل في ليلة مظلمة...

إن التعامل مع الكلمة القرآنية على وفق هذه النظرة البليغة معرفياً، ثمّ استنطاقها وتبيّن ما وراء (خريطتها) من جبال ووديان وأنهار وأشجار... كفيل بتحقيق الرجاحة التي نُريد لأنموذجنا المعرفي بوصفنا مسلمين،وبما يُنجينا من الكثير، بدءاً بمشكلة (الفرقة الناجية)، وانتهاء بتلك التهمة التي يتوجّه بها العلمانيون إلى البحوث الإلهية من حيث هي قائمة على الحدوس الظنيّة والتكهنات.. فنحن مع الأنموذج البلاغي لا نحتكم إلى ما هو غير موجود، بل إلى ما هو موجود وواضح سواء في القرآن أم خارجه، ولكن من حيث أن الموجود كلمة ذات وجهين صوتي أول وبصري ثان، فإذا أوصلنا الوجه الصوتي –ونحن وحدنا المسلمين المهيأون للوصول من خلاله- إلى المعرفة التي يصل إليها العلمانيون من خلال الوجه البصري بالتجربة والمشاهدة الحسية، تحقّق لنا كسبنا وخلصنا إلى الإيمان بالغيب الذي هو خاصّتنا المعرفية إيماناً راجحاً معرفياً. وإلاّ فمن ذلك الذي وراء العلم الكائن والمكنون في الكتاب؟ فإذا دللنا على تابعية الأنموذج البصري الغربيّ لأنموذجنا كمثل تابعية الكتب السماوية للقرآن فلا حجّةَ بعد ذلك، أو على الأقل ازداد إيماننا برجاحة أنموذجنا، لأننا على يقين أنهم لا يرضون عن أنموذجنا حتّى نتّبع ملّتهم، فهم يربأون على الاعتراف لنا بشيء من معرفة، فكيف بالمعرفة كلّها...

أمّا الذي ينهض بذلك كله تساؤلات وإجابات، إبانات وتبيّنات، ظواهر ومظاهر، أصول ومترتبات، فثلاثة ألوان قرائية متداخلة، أما الباب الأول فعني بالتبيان من حيث هو خاصّة القرآن الإلهية، وبالتبيّن من حيث هو خاصة القرآن البشرية. فالتبيّن مترتب على التبيان أو البيان. فالتبيان هو الأصل المتبوع المفروغ من صدقه، وهو العلم الكليّ الشمولي الذي ينصبّ على الكشف عن الأصل الجامع للأشياء جميعاً، ألا وهو أصل "كلّ شيء" الذي يلتقي عنده كل ما هو شيئي التكوين وإن افترق بعضه عن بعض أو تعدد أو اختلف.. فالـ "كل شيء" هو المرتكز الكوني ثمّ المعرفيّ العميق

الذي بتبيّنه أو بتبيّن مداخلاته التكوينية وسياقاته القرآنية تتضح الرؤية البصرية وتتوحّد، وبتوحّدها يزول الشك وتتماشى الفروض المعرفية مع المشاهدات... أما التبين فهو كل ما يتعلق بمحاولات المدرك في الاستنطاق والاستثارة المعرفيـــة للداخــــل –للـــذات المدركة– بوساطة الخارج القرآني وبلاغته اللسانية الصوتية أو الشـــيئية البصريـــة... فالتبين متعدد ومختلف ومتنوّع، وما تنوّعه إلا أمر تكويني أو كوني لا بدّ منه وهو ينبثـق من صلب التبيان بكل ما لذلك التبيان من ثراء معرفي.

ولقد ترتّب على ذلك المدخل تبيّنات عدة توزعتها أربعة فصول، أُجريت فيـــها ملاءمة التبيان والتّبين ضمناً وصراحة، عمقاً وسطحاً، فأخرجت وحدة التبيان وتنـــوّع التبين، وكان للتبين مظاهره أو تلويناته المعرفية التي بدأت بالمنهاج وانتـــهت بالوجهـــة الشيئية للمنهاج ممثّلة بالمخارج أو المخرجات المعرفيّة وما يترتّب عليها من مظاهر علميّة مختلفة. وكما أُجْرِيَ الباب الأول أجريت بلاغة البابين التاليين ومن المدخـــــل عينـــه مدخل البلاغة الكونية، ولقد نهض بالباب الثاني، باب (الــ"كن، والتكـــوّن) ثلاثـــة فصول وعلى عدّة مباحث أو مظاهر، وكذلك نهض الباب الثالث والأخير، باب (القَرْء والتقرّؤ)، على ثلاثة فصول لكل فصل تبيانه وتبيّناته...

والذي ينتظم الأبواب الثلاثة ومصطلحاتها الإجرائية، أو أزواجها المعرفية، مـــن مثل (التبيان والتّبين، الــ"كن" والتكوّن، القرء والتقرّء) وما يترتب على هـــذه الأزواج من مواجهات إجرائية أو مزاوجات معرفية من مثل: (الجمع والفرق، الرتق والفتـــــق، الوصل والبعد، العلم والتعلّم، النظام والانتظام، الإيحاء والإستيحاء، الســـنّة والتســـنّن، والسطر والاستطار...)، الذي ينتظمها جميعاً هو المدخل القـــرآني، مدخـــل البلاغـــة القرآنية، الذي قضى مما قضى باتباع القرآن في تسلسل الأبواب وإجراء المصطلحـــات. فالمصطلحات الإجرائية مصطلحات منبثقة من الأرضية القرآنية،فهي وليدة هذا البحـــث وهي مرتكزات منهجية في البحث العلمي جديدة كلّ الجدّة وقابلة للإجراء لا في هذا

الكتاب حسب وإنما في كتب أخرى ستصدر تباعاً إن شاء الله...

ولأنّ البلوغ مرتبة أبعد من الوصول، فالوصول أوّل البلوغ، والبلوغ آخر الوصول، قضت بلاغة البحث بترتيب أبوابه الترتيب الذي أشرنا إليه من قبل. فالبحث يُعنى بالعميق والكليّ والأصل والسابق والمدخل، العني الذي يوفر له بناء السطحي والجزئي والمترتب واللاحق والمخرج، بناءً يلُمّ شتات الأشياء في وحدة واحدة معرفياً. وعنيه هذا الذي قَضى به عودُه إلى القرآن الكريم ومحاولته تبين كونيته وانتظام الأشياء على وفق تبيانه، ألزمه بالبحث عن الوجيز أو الصغير القرآني الذي يقود إلى الكبير أو المتعدّد الكوني الخارجي. ولقد هُدي البحث وصاحبه بحمد الله إلى الـ"كلّ شيء" القرآني الذي انتظم في آية التبيان، واقترن بأكثر من ثلاثين آية قرآنية، فكان الباب الأول باباً في المنهاج القرآني أو الشرعة القرآنية في استحصال التبيّن وتكوينه ثمّ استقراء مظاهره في الآفاق والأنفس.

ومن جانب آخر، فقد كان إيمان كاتب هذه السطور بكونيّة القرآن وإحاطته العلمية بالأشياء، يلزمه بالبحث عن مدخل أو مفتاح قرآني طالما بحث عنه مذ كان البحث محاضرات متفرقة في مادة (التعبير القرآني)، يُلقيها على طلابه في قسم اللغة العربية من أقسام كليتي التربية والآداب وغيرهما، وعلى مدى خمس سنوات دراسية (١٩٩٦-٢٠٠٠م)... وتبيّن له المدخل بتوفيق الله سبحانه فكان آية التّبيان، ثمّ قادته آية التّبيان إلى الـ"كلّ شيء" ثمّ قاده الـ"كلّ شيء" الوجيز إلى مقابله التكويني الأول، ألا وهو وجيز الـ"كن فيكون" وهكذا جاء البابان الأول والثاني وبينهما مواجهة قرآنية مضمرة وظاهرة. وتبين للبحث أن المدخل البلاغي في قراءة الـ"كن فيكون" بوصفها السابق والأصل والأول الذي له قرنه بكلمة "شيء"، يكفيه لتبيّن ما يُمكن تبيّنه من بلاغة الخلق الإلهي الكائن في الآفاق والأنفس، فلاقَحَ البلاغةَ الكونية بالبلاغة القرآنية وأجرى الثانية في الأولى فخرج بالإجراء زرعٌ مختلف ألوانه..

ولقد استلزمت المواجهة بين البابين الأول والثاني، جمعاً بعد فرق، فكان الباب الثاني الذي اهتدى إلى وجيزه المعرفي، وجيز الآيات الخمس الأولى في التنزيل، أول سورة العلق، وأول الأول، كلمة "إقرأ"، فكان الباب الثالث جامعاً للمنهاج، منهاج التّبين وإجراءاته، إجراءات التّكوّن...

وهنا يكتمل الكتاب بجزئه الأول ويليه جزءان إن شاء الله، على أن هذا الكتاب منهاج جامع، سيترتب عليه تبيان. وما المنهاج ها هنا إلاّ تبيّن سمته أنه يتعلم بالقرآن ويتوسّم بوسمه، فإذا وثق بشيء مما فيه فلثقته بالقرآن، وإن قصر والقصور سنّة الله في الإنسان، فالأمر يعود إليه ومن قبل إلى صاحبه من حيث هو محدود القدرة والعلم...

والذي لابدّ من التنويه إليه، هو أنّ معالم هذا المنهاج قد لا تتبدّى للوهلة الأولى وإنما بعد جمع وضمّ للباب على الباب والفصل على الفصل والمبحث على المبحث، ثمّ للتبيّن على التبيان، وللتبيّنات المتسلسلة على صنوها... فالمنهاج تبين يتكون من جهة، وتبين وتكوّن من جهة أخرى لا بدّ لهما من جمع وضمّ...أو جامع وضامّ.

إنها محاولة في تأسيس فكر قرآني بلاغي قائم على أساس من الاستقراء العلمي بغضّ النّظر عمّا يترتب على تلك المحاولة من نتائج، أو بالأخذ بنظر الاعتبار تلك النتائج، فالنتائج نظريات أو لنقل مناقشات واقتراحات جديدة تحاول جاهدة إيضاح المضمون التّصوري للحقيقة الكونية المترابطة في الآفاق والأنفس، ومن قبل في القرآن الكريم، والذي تستلزمه تلك النتائج هو التدليل عليها عملياً من قبل الباحثين المختصّين بالعلوم الصرفة خاصة...

وقد يلحظ القارئ الكريم، مما يلحظ في هذا الكتاب، أنّه يتخلله شيء من التكرار، مرّة في إيراد آية بعينها أكثر من مرة، ومرة في العود إلى تبيّن ما سبق للبحث أن فرغ منه، وما الأمر بخاف على البحث ولا بالذي لا يُمكن تلافيه، ولكنها سنّة القرآن في التكرار وبلاغته، فالتكرار سنّة لا بدّ منها، خاصة وأن البحث يُؤسس لمنهاج

قرائي في التلوين المعرفي القاضي بعرض الآية الواحدة على أكثر من مجـال معـرفي ثمّ عرض المجال المعرفي المحدّد على أكثر من آية، لتبيّن وحدة التّكوّن والتّقرّء فيمـا بـين المتكونات أو الأشياء، ومن قبل لتبين القدرة البلاغية الكائنة في الآية الواحـدة وهـي تسلك مسالكها في الشيء وغيره ومن بعد لتبيّن وحدة المدخل القرائي وتماثلـه وهـو يعرض شرعته على الأشياء أو المتكونات، فتستجيب جميعاً لمدخليّته أو لقرآنيته الكائنـة أو المكنونة في العمق من الأشياء جميعاً، عمق الـ"كلّ شيء". ومن جانب آخر، فقـد كانت الغاية من التكرار هي استحصال الإيضاح التدريجي للتسلسل الكوني في القـرآن وفي الإنسان وفي الأشياء بالنسبة للقارئ، الذي يُطالب البحث بالإيضاح، كما يُطـلب الباحث بالحرص على بلاغة الاستيضاح خاصة وهو يواجه خليطاً معرفياً ذا مرجعيـات بلاغية (لغوية) وأخرى علمية محض وثالثة فلسفية...

أمّا كاتب هذه السطور فمدين لله سبحانه، هو المنّان الدّيّان، بكل ما في هـذا البحث من حسنات، له الحمد أوّلاً وآخراً... ومن بعد فإنه لاهجٌ بالدعـاء لوالديـه تغمّدهما الله برحمته الواسعة وقد علماه حبّ القرآن، ومن ثمّ فإنه مدين لطلابه بـالفضل وهم يشدّون من أزره كلّ يوم وينتظرون منه جني ما بـذروه فيـه مـن تسـاؤلاتهم البليغة... وعدا طلابه وشائج رَحِمِهِ- أقربائه ممن يفخرون به ويدعون له، ومن بعـد الأصدقاء الذين أخلصوا له الحبّ هناك في بلده، أو هنا بين إخوته في الأردن، وخاصـة أعضاء أسرة أدباء المستقبل.... ومن ثمّ عائلته التي ترى في هذا الكتاب نصرها الأبيـض بعد صبر ومصابرة...

والله من وراء القصد ..

عباس أمير

عمّان

٢٠ صفر ١٤٢٣هـ

الموافق ٣ أيار ٢٠٠٢م

الباب الأول

التبيان والتبيّن

قراءة التبيان – تكوّن التبيّن

الفصل الأول

بلاغة المنهاج

المركز والإحاطة

أوّلاً: المتبيّنون:

لقد اهتمّ المسلمون بالتبيان القرآني وبحثوا في فنونه وسماته ومواطن إعجازه البياني وبما يشهد لهم بالعلم والتدبّر. ولقد تعدّدت طرقهم في النّظر واختلفت وجوه التعبير عن حالة الدهش التي كان عليها العرب وهم يتدبرون بيان القرآن، سماعاً وقراءة، فاختلفت وجوه الإعجاز البياني تبعاً لاختلاف المتبيّنين وطرائقهم في التّبين والتّكشف، فقال من قال منهم أنّ التحدي والإعجاز وقع في الكلام القديم الذي هو صفة الذات، وأن العرب كُلِّفَتْ في ذلك ما لا يطاق وبه وقع عجزها، وقال غيرهم، أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم وكان مقدوراً لهم، وردّ ثالث الإعجاز إلى الألفاظ، وبنى هذا على الرأي رابع، فقال إنّ الإعجاز واقع في تأليف الألفاظ وترتيبها أو نظمها وترصيفها، وانتهى القول بوجوه الإعجاز إلى من قال إنه واقعٌ في نظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه[1].

وبغضّ النظر عما استندت إليه تلك الآراء والتوجيهات، أو ما يترتب عليها من موجّهات فإنّ البحث التبيّني العربي في التبيان القرآني وإعجازه، ظل يدور في جهة الكلم القرآني المعجز، لا من حيث هو تبيان لكل شيء خارج القرآن، بل من حيث هو تبيان لنفسه أو لذات الكلام الذي خبرت العقلية العربية فنونه، بكل ما لتلك الفنون من صفات وسمات بلاغية أسّس ذاكرتها الجمالية الموروث الجاهلي العربي، شعراً ونثراً..

---

(١) انظر: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن،خرّج حديثه وقدّم له وعلّق عليه مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م: ج٢/ ص١٠١ وما بعدها. وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت٩١١هـ، الإتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت-لبنان (د. ت)، ج٢/ص١٤٨ وما بعدها، والدكتور وليد قصّاب، التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري، دار الثقافة، الدوحة-قطر، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص٣١٤ وما بعدها.

فكان من نتائج ذلك، أن لم يكن ثمّة ربط بين الإعجاز اللساني القرآني، والإعجاز الخلقي الكوني في عالم الشهود ، الربط الذي يُبيّن أن القدرة الإلهية التي جعلت من القرآن ﴿ تِبْياناً لِكلِّ شيء ﴾ (النحل: ٨٩)، هي ذاتها القدرة التي خَلَقَت كلّ شيء فأتقنت، ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (النمل:٨٨). وأحسنتْ؛ ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ (السجدة:٧).

وهكذا لم يحط البيانيون ببلاغة الحكمة الإلهية التي جعلت من الإعجاز البياني اللساني تحديداً، آخر المعجزات وأكملها، فتوقّفوا عند الألفاظ وفصاحتها ثمّ تأليفها وترتيبها ونظمها ولكن دون ربط للغة بالفكر وللفكر بالعلم وللعلم بالمعلوم، الربط الذي يجعل من الألفاظ وترتيبها صورة بيانية للأشياء وفصاحتها ثمّ تأليفها وترتيبها ونظمها، وبما يعمل على أن يوسّع من دائرة الكلمة القرآنية لتصير كلمة الوحي طباق كلمة الكون، فبيانها بيانه وقراءتها قراءته، والإحاطة بها إحاطة به، طالما أنّ الذي يُبيّن كلّ شيء وحَياً، هو ذاته الذي خلق كلّ شيء؛ ﴿ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام:١٠٢). فالمحيط بكلّ شيء وحياً هو ذاته المحيط بكل شيء في الكون؛﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً ﴾ (النساء:١٢٦). وما إحاطة الكلام إلاّ تبع لإحاطة المتكلم، علماً وقدرة وحياة وإرادة، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ (الطلاق:١٢). ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الحج:٦)، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (يس:٨٢).

ولكن المتبيّنين –على اختلاف مشاربهم وموجّهات قراءاتهم– يُصرّون على أن الذي يُبيّنه القرآن ويكشف عنه ويوضّحه هو حصراً، معرفة الحلال والحرام، والثواب والعقاب، فهو إذن لا يبيّن إلاّ ما يحتاج إليه الناس في أمور الشرع أو الدين، وذلك لأن العلوم إما دينية أو غير دينية، أما العلوم التي ليست دينية فلا تعلق لها –عندهم– بقوله

تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النحل:٨٩)[1]. فالمتبيّنون لا يعنيهم تماثل الكينونية اللسانية للـ"كل شيء" الواردة في الآية السابقة، آية التبيان،مع كينونة الـ"كل شيء" الواردة في (الأنعام)؛ ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾، والتي هي ذاتها في؛ ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾؛ وهي ذاتها في ﴿ وهوَ ربُّ كُلِّ شيء ﴾ (الأنعام: ١٦٤)، وهي ذاتها في: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام:٩٩)، وهي ذاتها في؛ ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ (يّس:١٢)؛وهي ذاتها في؛ ﴿ أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (فصلت:٢١)؛ وهي ذاتها في؛ ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يّس:٨٣)...

وما ذلك القصور في التّبين، إلاّ نتيجة طبيعية لعدم امتلاك الأنموذج القرائي الذي يوحّد بين البيانين،بيان الوحي وبيان الكون وفق نظرة شمولية ترتفع على تفاوت القراءة، طالما أن المقروء يعلو ويرتفع على التفاوت؛ ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ (الملك:٣)، فالتبيان أنموذج معرفي شمولي، لا يقتصر تبيانه على أمر الدين دون أمر الدنيا، وكيف يكون ذلك، وهو الذي يدعو إلى تدبر الـ"كل شيء" والتفكّر به،

[1] انظر: أبو جعفر محمد بن محمد الطبري (٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م، مج٨، ج١٤/ص١٦١، ومحمود بن عمر الزمخشري ت٥٢٨هـ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل في وجوه الأقاويل، رتّبه وضبطه وصححه مصطفى حسين أحمد، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ط٢، ١٣٧٣هـ-١٩٥٣م، ج٢/ص٤٨٩. وأبو الفضل بن الحسن الطبرسي ت٥٤٨هـ، مجمع البيان في تفسير القرآن، تصحيح وتحقيق وتعليق، السيد هاشم الرسولي المحلاّتي والسيد فضل الله اليزدي الطبطبائي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٠٦-١٩٨٦م، ج٥-٦/ص٥٨٦. ومحمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، ت٦٠٤هـ، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ج٢٠/ص١٠١.

بغية الانتهاء إلى ما وراءه. فأمر الدين من حيث هو علم لا يتقاطع مع أمر الدنيا وعلم الكون، بل هما متضامّان التّضام الذي يُحيل بموجبه أحدهما على الآخر. وهذا ما أنتبه إليه، وتبيّنه خير تبيّن، ابن مسعود، الذي ينقل عنه الطبري، قوله في آية، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، "أنزل في هذا القرآن كلّ علم، وكلّ شيء قد بُيّن لنا في هذا القرآن"[1]. فابن مسعود يجمع بين الـ"كل علم" والـ"كل شيء" بجامع البيان، على أن الـ"كلّ شيء" عنده، هي الـ"كل شيء" الدينية والدنيويّة، أو على أنها الأنموذج الشمولي المقابل لأنموذج العلم الشمولي المتمثل بالإنسان، والتي بموجبها يصير العلم بالدين (العلم المعنوي) مرتكزاً على العلم بالدنيا بوصفها متكوّنات حسيّة، أو شيئية. وها هنا يصير الـ"كل شيء" الذي أنزل القرآن لتبيانه هو الـ"كل شيء" الديني الدنيوي، أو الحسيّ المعنويّ، وبموجب ذلك يصير الأنموذج القرائي ذا شعبتين أولاها شعبة التبيان، التي هي شعبة الوحي، والثانية شعبة الذي يجري عليه التبيان، أي شعبة الكون، باعتبار أن البيان محتوى العلم كلّه[2]،ولكن تبيّن ذلك العلم متوقّف على المتبين لا على البيان، ثمّ هو متوقف على ما بعد الإدراك، أي النيل بالإدراك، فليس كلّ إدراك نيلاً..

لقد اختار الله سبحانه للإنسان أن يكون خليفته في الأرض، والمكلّف بالإفادة

---

[1] جامع البيان، مج٨، ج١٤/ ص١٦٢.

[2] ورد عن نبي الرحمة؛ "من أرادَ العلمَ فليقرأ القرآن فإنّ فيه علم الأولين والآخرين"، أخرجه عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي، ت٢٣٥هـ، المصنّف في الأحاديث والآثار، تحقيق وتعليق سعيد بن محمد اللحام، دار الفكر، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، مج٧/ص١٦٦.
وورد هكذا: "إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن فإنّ فيه علم الأولين والآخرين".
انظر: أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن الفريابي، كتاب فضائل القرآن، وما جاء فيه من الفضل وفي كم يقرأ والسنة في ذلك، تحقيق وتخريج ودراسة يوسف عثمان فضل الله جبريل، مكتبة الرشيد، الرياض، ط٢، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ص١٨٢.

من تسخير كلّ شيء له، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان: ٢٠). فالإنسان وقد نفخ الله فيه من روحه، مُكتسب بالفطرة والتكليف ومن ثمّ بطواعية الأشياء للعلم الإنساني، من صفات الإحاطة والعلم ما لم يكتسبه أو يُحط به مخلوق، ولكن بقدر، ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد: ٨)، ومحدوديّة، يتناسبان مع طبيعة الإنسان الشيئية الهالكة؛ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ (القصص:٨٨). فإحاطة الإنسان إحاطة محدودة محكومة بهلاك الأشياء وهلاك الإنسان، فلا الأشياء باقية ولا الإنسان، أي أنّ كلاً من الإنسان والأشياء في تجدّد وثبات دائمين. والذي يتبقّى من الأشياء والإنسان بعد هلاكهما هو صفة الـ"كلّ شيء"، باعتبار أنّ الـ"كلّ شيء" هو ذلك الجوهري والعميق والواحد الشمولي الذي تنبثق منه الأشياء، كما انبثق منه الإنسان من حيث هو مظهر جسدي مادي قابل للفناء والهلاك. وبموجب ذلك يُخطئ من يظنّ أنّ الصفات الظاهرة أو الجزئية الكميّة والكيفية تظلّ ثابتة الثبوت الأزلي، سواء كانت صفات الإنسان أم صفات الأشياء من حوله، بل هي في تغيّر وتبدّل دائمين مُذ كان الكون وحتى الفناء، ولو لم يكن الأمر كذلك لما قبل الكون فناءه، إلاّ سنة الله في الكائنات من حيث أن تلك السنّة في الأشياء هي صفاتها النوعية، ونواميس كونها وتكوّنها، أو لنقل من حيث هي بيان إلهي لا من حيث هي تبيّن بشري. وهذا يعني أن الأشياء جميعاً قابلة للإضافة والنقصان والتلاقح والتزاوج، ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات:٤٩). فلا شيء مكتف بنفسه الاكتفاء الذي يعني عدم تغيّره بموجب خضوعه لسنة الهلاك وحركيته الكائنة في صلب الحياة الشيئية المادية ولحظة بلحظة، ثمّ يوماً بيوم وسنة بسنة وقرناً بقرن، أفراداً وجماعات، أمّة وأمم، جزءاً وكلاً... ويُقابل ذلك أن العلم البشري في تكوّن وتحرّك مستمرين وبما يوازي حركية الطبيعة الشيئية لوسائل الإنسان في الإدراك، ومن بعد، حركية الطبيعة الشيئية للكائنات من حوله.

وهذا يعني زلل من يظن أن العلم البشري بالمكان والزمان والكائنات ثابت وكلـي، إلا إذا كان ذلك العلم علماً نبويّاً يتّصف بالإبانة، من حيث أن الإبانة درجة أعلـى مـن التبين، فالأنبياء أيضاً على درجات، وهم كذلك خاضعون لحركية التكوّن، ولهذا جـاء على لسان سُليمان: ﴿ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النمـل:١٦)، و لم يقل (أُوتينا علمَ كلِّ شيْء). فإذا كان النّبي هو الرسول المبين، ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَـؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾(الزخرف:٢٩)، وكتابه هو القرآن المبـين؛ ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ (الحجر:١)، ولسان القرآن هو اللسان العـربي المبين، ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ*نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ*عَلَـى قَلْبِـكَ لِتَكُـونَ مِـنَ الْمُنْذِرِينَ*بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (الشعراء:١٩٢-١٩٥)، إذا كـان الأمـر كذلـك، اختلفت صفة العلم، لاختلاف صفة الحركة. فالعلم هاهنا ثبوت وشمولية وكليّة كشـفاً ووضوحاً وإظهاراً وما ذاك إلا استجابة لنواميس الحركة عينها.فدوام الحركة إلى مـا لا نهاية يعني بقاءها، بينما البقاء لله الحي القيوم سبحانه. ويعني دوامها من حيث تعلقـها بالعلم النبوي، إن ختم النبوة غير حاصل بعد، بينما نبي الرحمة محمد هو خاتم النبيـين. فهو إذن خاتم العلم، أي خاتم الإبانة والكشف والإيضاح والإظهار، وكذلك كتابـه، وكمثلهما لسان كتابه...

فلا ثبوت إذن إلا للوحي المحمديّ، ولا يقابل ذلك الثبوت من حيث هو علـم كليّ إلا تلك السنة الإلهية وناموسها الكائن في الأشياء لا من حيث هي متفرقة متنوعـة مختلفة استجابة للقدرة الإلهية المطلقة في الخلق والمزاوجة، ومن ثم اسـتجابة لطبيعتـها الشيئية القابلة لتمثل تلك القدرة والتكون بها، بل إنها – أي الأشياء- ثابتـة الثبـوت الذي يقابل ثبوت الوحي، من حيث هي وحدة التنوع لا تنوع الوحدة، أي من حيـث هي ذلك النظام الكوني الكائن في صفة الـ "كل شيء" الكائنة في الأشـياء جميعـاً، استجابة لتماثل الخلق والخالقية الإلهية، باعتبار أن الخالق من حيث هـو ذات، واحـد

أحد، فخلقه وإن كان مفارقاً لصفة الصمدية الإلهية،مفارقة الشيء للذي "ليس كمثلــه شيء" فإنه متمثل ومنتفع بصفة الواحدية التي تخللت الأشياء جميعاً من حيث هي ذلــك النظام العميق الكائن في الكون وفي الإنسان؛ ﴿ مَا خَلْقُكُـــمْ وَلا بَعْثُكُـــمْ إِلاّ كَنَفْـــسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (لقمان:٢٨) ، ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (يـــس:٨٣).

وهذا ما يجيز لنا، بل يوجب علينا، بوصفنا متبينين، دوام النظر مـــرة وثانيـــة وثالثة في الحقيقة القرآنية وبهدي من بيانها الذي لا تنقضي عجائبه، استجابة لحركيـــة التبيّن، تلك الحركية الكائنة في الموت والحياة، والبقاء والزوال والمحـــدود واللامحـــدود والحسيّ والمعنويّ، والأرضي والسماوي. أما التسليم المطلق والنهائي بما هو تبين، فيعني مِما يعني تصيير التبيّن البشري بياناً نبوياً، وليس الأمر كذلك، فشتان بين التبيان النبوي للحقيقة القرآنية الكونية والتبين الذي هو تبيننا نحن الذين أرسل إليهم النـــبي.. وعـــدا ذلك فإن الاعتقاد بالتبينات على اختلافها على أنها مسلمات مفروغ من صدقها، يعـــني موت المتبين اللاحق وهلاكه علمياً مقارنة بحياة السابق وحيويته، فالسابق قرين حقبـــة زمنية من حقب الكينونة الشيئية تختلف عن الحقبة الزمنية لكينونة الأشـــياء بالنســـبة للاحق،وحينما يتبين السابق فإنه يتبين حال الأشياء وما بانت عنه كينونتها في عصـــره، وليس ذلك الحال ثابتاً كيما يتمسك به اللاحق، نعم إن اللاحق لا بـــد أن يبـــني رؤاه وتبيناته في ضوء التبينات السابقة، ولكن الضوء وسيلة الهدي لا غايته، وبناءً على ذلك، فإن الأشياء من حيث هي تكشّف مستمر لا تقبل الثبوت الذي يمنعها من الجريـــان في الزمن، وحينما يصرُّ المتبين على ذلك فإنه لا يسيء إلا لنفسه ولا يقدح إلا بتبينه مـــن حيث لا يشعر، أما البيان الكلي والشمولي وهذه هي معجزته فإنه تجاوز الأشـــياء إلى الـــ "كل شيء" المشترك، فأحاط به، والإحاطة بالكل إحاطة بالجزء، ولهذا فإن ثبوتـــه لا يعني موته وهلاكه بل دوامه وتجدده من حيث هو الثابت الكائن في صلب الحركـــة، ولهذا لا بد من البدء منه والاهتداء به والعود إليه، فإنه صالح لكل مكان وزمان، وبائن

في الكلي والرئيس والمحرك في الأشياء جميعاً.

ولكن المتبينين، وبسبب من توقفهم فيما تتحرك الأشياء من حولهم، يصرون على قلب هذه الحقيقة رأساً على عقب؛ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (لقمان: ٢١). وبتوجيه من هذه التابعية الأبوية، بياناً وتبياناً، أسسوا من حيث لا يشعرون ودون قصد سوءٍ كقصد الكافرين وجهالاتهم، أسّسوا لتبين يتبع بموجبه الكليُّ الجزئيَّ، والمطلق المحدود، والعميق السطحي والداخل الخارج والمعنى الشكل، والبيان القرآني التبين البشري واللسان العربي المبين اللسان العربي المتبين، فلووا عنق الكلمة القرآنية لتوافق الكلمة البشرية، وساقوا التركيب البياني سياق التركيب التبيني ونظروا إلى الزينة القرآنية زينة" أحسن الحديث"، نظرتهم إلى الزينة الشعرية الجاهلية، وكل ذلك بتأثير من موجهات التلقي، التي أسسها في ذاكرة المتبينين الكلام العربي خارج القرآن....

ولقد كان مهماً جداً شأنهم ذاك، لو اكتفوا بالاهتداء بتلك الموجهات بوصفها وسيلة لا بوصفها غاية، وباعتبارها طريقاً لا باعتبارها الطرق كلها. ولكنه مزلق الظن بأن البلاغة القرآنية، بلاغة كلام أو لسان، و لم يكن المتبينون ليدركون أن اللسان طباق الفكر، وأن الفكر إحاطة بالمُفَكّر فيه، وأن الإحاطة القرآنية هي أعلى وأكمل من أن تكون بها حاجة إلى إعمال فكر، بل هي إحاطة العلم المطلق التي لا بد لكل إحاطة فكرية من الامتثال لقوانينها ونواميسها العميقة والشمولية كما تمتثل الشجرة بوصفها ساقاً وأغصان وأوراق وثمار إلى ذلك الناموس العميق الذي يشكل الذاكرة الوراثية للشجرة الكائنة في البذرة. ولقد كان لزاماً على المتبينين أن يؤسسوا ذاكرتهم التأسيس الذي يجعل من البيان القرآني تلك الطاقة الكاملة التامة البليغة المخزونة في البذرة، وبحيث يكون التبين، ساقاً وغصناً وورقة وثمرة مؤسساً على ذلك البيان. فالكلمة القرآنية ليست كلمة اللاحق المهتدي بعلم السابق وبيانه، كيما يهتدي بيان القرآن

بتبيين العرب في عصر ما قبل الإسلام، بل هي كلمة (الأول) الذي علم الكلام، وكلمة (الآخر) الذي يرجع إليه الكلام، كما يرجع إليه المتكلمون جميعاً بعد الموت.

ولقد كان مهماً جداً شأن المتبينين، لو التفتوا إلى التركيب القرآني، أو ما يسمونه الرصف والترتيب والنظم، بوصف ذلك كله وجه الإعجاز القرآني البياني، الذي لا بد لاختلافه من حكمة وبلاغتها، ولا بد للمتبين من بلاغة عليا في التبين، تجعل منه تابعاً لهذا التركيب ومتمثلاً له، وموسعاً من دائرته السعة التي تجمع بين البيان والـ "كل شيء" الذي نزل الكتاب لتبيانه، أي لا بد له من بلاغة تقرأ اللغة البشرية بوصفها تبين الإنسان المحدود العلم مقارنة بإحاطة بيان الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال. فإذا خالفت اللغة البشرية الكلام القرآني، أي إذا خالف التبين البيان أخذنا بالبيان ونحينا التبين، وخاصة فيما يتعلق بالتركيب البياني الذي ما جاءَ كذلك لتحقيق حالة الدهش والإعجاب، في نفوس المتبينين حسب وإنما جاء كذلك لمقاددة ومطابقة النواميس الكونية التركيبية الكائنة في ذلك العمق السحيق من الأشياء وبما يحقق بيانها وشهودها التام إلهياً ثم يسر وسهولة تبينها بشرياً.. وهكذا تجيء حالة الدهش والاعجاب مترتبة وتحصيل حاصل،وما ذاك إلا لأن البيان الإلهي تبيان لكل شيء، وما حالة الدهش والذهول إلا متبينة متحققة بذلك البيان، بوصف تلك الحالة تمتد إلى بنية الـ "كل شيء" العميقة في الإنسان، والتي هي كمثل الـ "كل شيء" في الأشياء جميعاً، مما يعني أن تحققها دليل على موافقة الطبيعة الإنسانية السليمة لنواميس البيان.

وعدا ليِّ العنق السابق الذي خضعت له الكلمة القرآنية، بوصفها كما يرى المتبينون جارية على وفق سنن كلام العرب وخصائصه[1]، لا العكس. فقد كان من نتائج ذلك التبين، أن أخذ كل متبين بلحية أخيه، لا حباً وحرصاً وحواراً بناءً، وإنما

---

[1] انظر: أبو عبيدة معمر بن المثنى ٢١٠هـ مجاز القرآن -عارضة بأصوله وعلق عليه محمد فؤاد سزكين مؤسسة الرسالة بيروت، ط٢ ،١٤٠١- ١٩٨١: ج١/ ص٨- ١٩.

تناحراً وتكفيراً ونسبة إلى ما ينسب المستشرقون نبي الرحمة —حاشا له- إليه من الضلال الذي هو الشرك والوثنية[1]، وكان لفعل مُوجّه (الفرقة الناجية) أثره الكبير في ترسيخ لي العنق السابق، فذهب هم التبين فِرقاً، أو ذهبوا به. وكان مهماً جداً الالتفات إلى أن حقيقة الضلالة التي هي إنكار وجود الله سبحانه أو الإشراك بعبادته مختلفة تماماً عن التحير والتفكر بطرق الهدي والاهتداء إليه، ثم هي مختلفة عن طرائق التعبير عن ذلك الهدي، الذي وإن اختلفت وجوهه فإنه كائن بالإيمان المطلق، بـ (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، فليس ثمة ضلالة لموحد التوحيد الذي يلخصه الإسلام بالشهادة التي هي (كل شيء الإيمان)، وصلبه وعمقه وخلوصه ووحدته رغم تنوع ظهوره..

وكان أولى بالمتبينين وقد تنوعت طرائق التبين لديهم، ظاهراً وباطناً، سنة وشيعة، معتزلة ومتصوفة، معنيين بـ (مراد الله من النص) أو بتأويله، بأحكامه أو بعلومه، بإعرابه أو ببيانه(مجازه) ومعانيه وبديعه، بذوقه أو بتدبره، بفلسفته أو بإشاراته العلمية (فيزياء وكيمياء وأحياء ورياضة)، أن يلاقوا بين الثوابت، ويضافروا التبينات ويقرنوا بين التبين والآخر ويلاقحوا بين البلاغة والأخرى، سعياً إلى الانتهاء أو البلوغ إلى تلك الحقيقة القرآنية البيانية، حقيقة؛ ﴿ ونزلنا عليك القرآن تبياناً لكل شيء ﴾ لأن تضافر البلاغات وتلاقي أطرافها ضمن أنموذج شمولي للقراءة، يعني تكشف كل شيء وتوضحه، وبما يعمل على تذويب تنوع التبينات في وحدة البيان.

وشبيه بتوجيه تلك التابعية الأبوية بكل أشكالها وصورها السابقة، توجيه التبين البيانَ، فجرى المتبينون مجرى غيرهم، ولحدوا إلى لسان غير لسانهم، فخضع جلهم وخضعوا إلا قليلاً للنص الفلسفي والمنطقي اليوناني، فأخضعهم، ولم يخضعوه، وتسلط

---

(١) انظر عبد الله محمد الأمين النعيم ، الاستشراق في السيرة النبوية دراسة تأريخية لأراء (وات - بروكلمان فلها وزن) مقارنة بالرؤية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م: ص٥٩.

عليهم، ولم تكن لهم سلطة عليه ووجههم ولم يوجهوه، إلا ما رحم ربي، فتفرقت بهم السبل ثانية وابتعدوا عن البيان وأوهم التبين بصدقه وموضوعيته، ولا صدق ولا موضوعية إلا للسان وبيانه، وللمتلقي من لدن حكيم عليم، وكان بالإمكان تكوين ذلك الأنموذج المعرفي اليوناني، وإن لم يكن مناسباً للحقبة الزمانية – المكانية العربية، بحيث يصير وسيلة من وسائل، وبحيث تذوب المقولات، وتصهر في البلاغة العربية بوصفها أنموذجاً معرفياً متكاملاً، يتأتى تكامله من استناده إلى موضوعية المعرفة وصدقها المفروغ منه، ولكن لا باعتبار المعرفة بياناً وتبيناً، أي قرآناً وتفسيره البشري، بل بوصفها بياناً وتبياناً، أو قرآناً وحديثاً نبوياً، ثم بوصفها ذينك المكونين –القرآن والحديث– وتبينهما المشروط بالانطلاق منهما والعود إليهما، وتحكيمهما فهما متبوعان لا تابعان، ولسانهما هو اللسان الأقدر والأكمل والأكثر إحاطة بتفسير الحقيقة المعرفية التي تظهر حين قراءة الوحي بوصف قراءة الوحي الطريق الجامع الذي تلتقي عنده كل الطرق المؤدية إلى قراءة الكون.

فالذي يميز الأنموذج التبيني القرآني، هو إنه أنموذج علمي، لا يلجأ إلى ما هو خارج إحاطة الحواس كيما يفسر به الحقيقة الكونية كما يفعل علم اللاهوت الغربي أو الشرقي، بل إنه يلجأ إلى القرآن من حيث هو مظهر وتركيب وحياة كائنة في الكلم القرآني الذي يمتنع على التحريف والتبديل والقابل للتدبر والتفكر وتعدد التبين، شرط أن لا يكون التبين قاضياً بتابعية أبوية في التبين، وإنما بتابعية قرآنية، تصير بموجبها الأبوة أبوة قرآنية، كامنة ومغنية عن تعدد الآباء،ومرتفعة بشرف الأبوة إلى تمامه وكماله[1].

---

(١) ورد عن نبي الرحمة: "إن هذا القرآن كائن لكم أجراً، وكائن لكم ذخراً، أو كائن عليكم وزراً فاتبعوا القرآن ولا يتبعكم القرآن، فإنه من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة، ومن يتبعه القرآن يزج في قفاه فيقذفه في جهنم" انظر: مصنف ابن أبي شيبة، (كتاب فضائل القرآن): مج٧/ص١٦٥، وكتاب فضائل القرآن: ص١٢٩.

وبموجب ذلك تصير ملامح العالم الخارجي كائنة ومتبينة في القرآن وبه. وما عقولنا نحن المتبينين شرط سلامتها واعتدال طبيعتها إلا طباق تلك الملامح، فإذا حكمنا عليها بالجودة أو بالصحة أو بالهلاك...الخ، فإن حكمنا ذاك وهو ينطلق من القرآن ويُحكِّم القرآن ويرضى بأبوته، هو طباق ما عليه الملامح خارجنا، وكمثل ذلك الطباق كان طباق الحكم على القرآن بالعلو البلاغي، وكذلك كانت حالة الدهش التي عبر عنها الذين استمعوا إلى القرآن بادئ بدء نزوله، إنساً أو جناً. فالأنموذج المعرفي الكوني من حيث تابعيته للقرآن لا يخضع لاعتبارات الذاتي والموضوعي. وليست الحالة التي عاشها العرب دهشاً وانفعالاً ببلاغة القرآن تعبيراً عن تلك الذاتية التي كانوا يعيشونها وهم يستمعون إلى الشعر. وعلى المتبين أن لا ينسى هذه الحقيقة، فنسيانها يعني الخضوع لأهواء الذات ورغباتها ومزاجها الشخصي[1]، الذي يجعل من المتبين مساوياً بين ما هو مقول وغايته الدهش والامتاع والقبول والرضى من قبل المقول له، وبين ما هو مقول وأمر الدهش والامتاع والقبول والرضى لدى متلقيه، مترتب ثانويّ، أو لنقل أنه مستلزم من مستلزمات بيان الإحاطة الإلهية بكل شيء، في الكون والنفس، في المكان والزمان، في الحس والعقل، في الفكر والذوق، وبموجب ذلك يصير تبين ذلك الدهش والانفعال معياراً دالاً على رجاحة التبين وعلو شأنه. فهو أي ذلك الشعور ببلاغة البيان ليس خاصة أهل البلاغة وفنوها، بل هو صفة عامة لا بد من الشعور بها إنساً وجناً، وإلا فعلى المتبين أن يعيد النظر مرة أخرى بقدرته على التبين المعرفي سواء كان ذلك التبين تبيناً دينياً أم دنيوياً، فقهاً أم فلسفة أو فيزياء أو أحياء أو رياضة، أو نقداً أدبياً أو إدراكاً جمالياً..الخ. ولنؤمن بأن أمر تلك الدهشة وذلك الانفعال النفسي بكَلِم القرآن،

---

(١) انظر في العلاقة بين الذاتية والموضوعية في ضوء إسلامية المعرفة؛ فتحي حسن ملكاوي، هوية المعرفة (بحث مستل) إسلامية المعرفة، مجلة فكرية فصلية يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة السابعة، العدد ٢٦، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١، ص٥ وما بعدها.

ليس خاصة العرب وحدهم، بل هو شامل كائن في النفس الإنسانية أياً كان لسانها، شرط سلامة حسها واعتدال طبيعتها، ثم شرط تلاوة القرآن حق تلاوته وترتيله ترتيلاً،كيما يُقادِدُ بيانه بالترتيل استعداد تلك النفس لتبينه، أي استعدادها للتكون بقرآنيته الكامنة فيها حيث ذلك العمق الشمولي الذي يلاقي بينها وبين الـ "كل شيء" وبينها وبين الذي هو تبيان لكل شيء.

وأخيراً، فقد سلَّمَ المحدثون من المتبينين بما ورد عن الأقدمين من تبينات، فجروا مجراهم، وحذوا حذوهم، متوجهين بموجهاتهم، فابتعدوا عن البيان أكثر مما ابتعد السابقون - جلهم- لأنهم مارسوا ما لنا أن نسميه إيقاف الزمن البياني الإنساني، أو العودة به إلى حيث سياقات تكوين وتبين مختلفة كونياً على الرغم من أن سنة التغيير والاختلاف والحركة الدائبة في الكون وما نتج عنها من حيوات، تختلف عما كان لتلك الأشياء قبل كذا مائة من السنين. وكذلك استمر لي العنق، وتوالي القول بتابعية الأبوات، بل ظهرت أبوة جديدة، هي أبوة النظريات المادية الغربية ومنجزاتها الصناعية مذ ما بعد عصر الكشوفات الجغرافية وثوراتها الصناعية، وانتهاء بعصر الحاسوب والشبكة العنكبوتية. فكان من مظاهر تلك الأبوة الجديدة ظهور نوع جديد من التبين، أصطلح عليه بالإعجاز العلمي في القرآن، على أن الذين شغلهم هذا النوع من التبين، باحثون في العلوم الطبيعية لا يعنيهم من أمر الكلمة وبلاغتها المعجزة، إلا إنها وسيلة لما وراءها، أما أن تكون هذه الكلمة (مظهراً وتركيباً وحياةً داخلية ومنطقاً رياضياً)، هي الغاية والوسيلة، بوصفها طباق الـ "كل شيء" الكوني، فهذا ما لم يلتفت إليه حتى كتابة هذه السطور أحد من المتبينين. فكان لذلك أن ظل شأن هذه البلاغة مقتصراً على الدرس الأكاديمي الآلي، والبسيط البساطة التي تشعر بالحاجة إلى البكاء على ما آلت إليه حكمة كون آخر المعجزات معجزة لسانية. وعلى الطرف الآخر، وبما يدعو إلى الاعتبار ظلت تلك البلاغة مقصورة على باحثين ومتبينين أفذاذ، وضعوا نصاب

أعينهم، جمال البلاغة، وتأثير الصور البلاغية نفسياً وجمالياً... ولكن، ومع هذا، فليس ذلك هو الطموح، الذي يلبي تلك الحاجة المعرفية الشمولية التي تجمع بين بيان الوحي وبيان الكون، لتتلمس بلاغتين وجمالين وجلالين وإعجازين وآيتين، كل منهما وجه للأخرى، مع فارق أن وجه اللسان، هو الخلاصة، ووجه الكون هو المتن أو العرض.

إن مجرد الإعلان عن الطموح الأخير، يعني أن محاولات التفسير العلمي للقرآن، ليست بالمحاولات الموضوعية المفروغ من صدق محتواها وثبوتها، كونها تعتمد على التبين الذاتي غير المستند إلى الحقيقية المعيارية عدا حقيقة الذات التي يرى الغربيون في أنموذجها المعرفي أنموذجاً معيارياً كونه يعتمد على الملاحظات المحسوسة والتجارب المضبوطة والقياس الدقيق[1]. وما الاعتماد على الذات بوصفها البيان والتبين إلا وهم علمي كبير، أثبتت الذات الغربية نفسها بطلانة بعد أن أعلت من شأنه، وخاصة بعد أن قوضت التطورات المتلاحقة التي جاءت بها ثورة الفيزياء الكبرى ممثلة بميكانيكا الكم ومبدأ عدم التعيين أو عدم اليقين، في القرن العشرين كل ما للوضعية التقليدية من أركان ومعايير صارمة، فلم تبق تلك الثورة الكبرى، التي هي ثورة الذات المتبينة، أي مجال للقول بوجود أية حقيقة مطلقة، بل أنها فتحت المجال للتسوية بين العلم الطبيعي التجريبي وما وراء الطبيعة والتفكير الغيبي الديني[2].

فماذا يقول التفسير العلمي بعد ذلك، وهو الذي يعتمد من حيث منهاجه العلمي في التبين على عرض محتوى أو مضمون الآية القرآنية على الحقائق والكشوفات العلمية الغربية التي هي كشوفات ذات متبينة لا مبينة. فإذا تجاوزنا مرارة تلك الحقيقة التي يخضع بموجبها المتبين كلية إلى أنموذج غير أنموذجه البليغ، وجدنا أن وعي ذلك المتبين بعلمية القرآن، وعي قاصر لأنه يحيز العلمي ويقصره على آيات بعينها وردت

---

(1) انظر: المصدر السابق، ص٨.

(2) نفسه: ص١٠ .

فيها إشارات صريحة لحقائق علمية كونية،أما ما تبقى من القرآن فخُلْوٌ من أية حقيقـــة علمية عنده، وما ذاك إلا شكل آخر من أشكال التابعية الأبويـــة في التبـــين. فـــالمتبين العلمي لا يعنيه من اللسان المبين ما يعني البلاغين المختصين باللغة وآدابها، ولا يهمـــه – إلا ما رحم ربي – فصاحة الكلمة وبلاغتها، أو إشراقها وعذوبتها، أو فنيتها وجماليتها، وذلك لأنه قاصر – استثني قليلاً- عن الإحاطة بسمو القيم البلاغية اللسانية، وثانياً لأنه يتخذ من الكلمة القرآنية وسيلة للعبور إلى ما وراء الكلمة مما يبدو له منســـجماً مـــع الحقيقة العلمية الغربية التي كشف عنها المتبين الغربي وها هنا يفتقر هذا النوع من التبـين إلى معيارية الجمع بين قراءة الوحي وقراءة الكون، وإن ربط بين محتوى هذه القـــراءة وتلك، لأنه أصلاً لم ينطلق من البيان إلى التبين، بل من التبين المبني على تبين ســـابق، ومن ثم إلى البيان. فالبيان عنده تابع لمحتوى التبين لا العكس.

إضافة إلى ذلك كله، وبغض النظر عن قصوره المعرفي، فلقد أصاب هذا النـوع من التبين غير قليل من التلكؤ والخدر وهو ينتظر ما يكشف عنه الغربيون ليجد له مـــا يشير إليه في القرآن، وكذلك أصيب هذا النوع من التفسير بالتراجع، وهـــو يواجـــه مشكلة محدودية الآيات التي تتوفر على إشارات علمية صريحة، أمـــام لا محدوديـــة أو لنقل، أمام تزايد الكشوفات العلمية الغربية.

ولقد كان دحض النظريات العلمية اللاحقة منها للسابقة، ســـبباً في ذهـــاب بعض الباحثين إلى القول بعدم جواز تفسير القرآن بالعلم. ولهم الحق في ذلك، إذا كـــان منهاج التفسير العلمي هو الذي تبين لنا مما عرضنا له، ولكننا لسنا معهم، حينما يـــرون كما رأى الأقدمون أن القرآن كتاب عبادة لا كتاب علم، وهو عندنا كتـــاب كـــل شيء؛ ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَاب مِنْ شَيْءٍ ﴾. (الأنعام: ٣٨)، فهو كتاب الله المحيط بكل شيء، وكذلك كلامه ولكن كل شيء فيه بقدر، فإن قصرت إحاطة المتبـــين بذلـــك

القدر، فلا يترتب أو فلا يعني قصورها التفريط بالشيء، عِلْمَ دينٍ كان أم علم دنيا، علم عبادة أم علم عمل، علم المعنوي أم علم المادي...

ثانيا: البيان والبلاغة – المنهاج والكوْنيَّة:

إن الأساس الذي بنيت عليه البلاغة العربية من حيث هي قيم فنية عليا، هو القرآن الكريم. فالقرآن الكريم بوصفه ميدانياً للبحث والتقصي، هو الحقيقة الموضوعية التي تأكد العرب وهم من هم فصاحة وبلاغة، إنها أعلى وأتم وأبلغ من أن يكون للذات النبوية الشريفة، شأن في إيجادها عدا شأن إبلاغها إليهم.

ولقد كان البحث البلاغي العربي محاولة أو محاولات جادة ومهمة في الاستبيان والتبين، اللذين غايتهما الإجابة عن الأسئلة والاستفسارات العلمية المتعلقة بطموح الذات العربية في ممارسة الوعي بذاتها وبما حولها، ممارسة علمية فكرية. فكانت الحلول البلاغية العربية في تلك الحقبة الزمنية متماشية تماماً مع المشاهدات والتجارب والخبرات العقلية العربية، التماشي الذي حقق لتلك الذات انسجامها مع ما يدعوها إليه القرآن الكريم بوصفه الحقيقة المفروغ من صدقها فراغاً تأكد بوساطة أكثر من دليل ودليل. ولقد كانت القيم والمعايير البلاغية العربية مستلة من النص الكريم ومنسجمة مع إبانته وتبينه، وصالحة للتطبيق، لا على النص الكريم فقط، وإنما على النصوص الشعرية والنثرية العربية قاطبة. فكانت بذلك محاولة من المحاولات وميداناً من الميادين، ونشاطاً من الأنشطة الفكرية التي وضعت حلولها الخاصة لكثير مما صار في مرحلة تالية من عمر الإسلام والمسلمين، محيراً ومربكاً، وذلك حينما اتسعت دائرة الفرق الإسلامية وأيضاً حينما اتسعت الدائرة الجغرافية للبلاد الإسلامية وما ترتب عليها من تعدد الألسنة والأفكار والبلاغات، وخاصة بعد شيوع حركة الترجمة في العصر العباسي.

ولقد واكب النشاط البلاغي العربي بوصفه نشاطاً فكرياً نظرياً مجرداً، أو بوصفه تبيناً ذاتياً متنوعاً ومتغيراً أو متحركاً، واكب ذلك النشاط حركية الكون البشري الفكري من حيث حيّ نشاط هي متنام ومتنوع، فصار ذلك النشاط البلاغي متنوعاً ومتنامياً هو الآخر، فالتفت البلاغيون العرب إلى الجزئيات في المراحل اللاحقة من مراحل البحث البلاغي، بعد أن عنوا بالكليات، وصار الفكر البلاغي الذوقي الحدسي الذي يعتمد على الحس الذوقي الكلي المجرد من التعليل والتدليل بادئ بدئه، مهتماً بالتدليل والتعليل(١) وجمع البيانات ووضع الفروضات ثم فحصها وتمحيصها، وربط ذلك كله بالمشاهدات الحسية والبراهين العقلية... وهكذا صارت البلاغة العربية، على فنون ثلاثة، هي البيان والمعاني والبديع. وصار كل فن فنوناً....

و لم تكن تلك التقسيمات على حساب النص الكريم كلها، وإن جاء بعضها كذلك، وما ذاك إلا لأنها صارت تكرر نفسها أحياناً، ثم لأنها صارت تشغل البلاغيين من حيث هي أجزاء عن الكلي والشمولي، وأخيراً، لأنها صارت تزلق المتبيينن في دائرة التابعية الأبوية، ومن ثم فإنها صارت تنأى بهم عن النص الكريم إلى حيث ما تشكل من وعي تأريخي بالنص، فأحيا ذاك النأي ذاكرتهم الشعرية، مما جعلهم يسحبون معايير البلاغة القرآنية إلى الشعر، لا ليرتفعوا بالشعر والنثر إلى درجة أقرب من معايير البلاغة القرآنية العالية بل ليحاسبوا القرآن في ضوء الشعر وبلاغته.وكان الأوْلى بهم غير ذلك.

وبغض النظر عن ذلك القصور، لأنه ليس مما يعنينا كثيراً الآن، يحق لنا أن نتساءل بعد ذلك كله ، أو ليس من حقنا إعادة توجيه مسار البحث البلاغي القرآني كيما يتماشى مع بلاغة العصر المعرفي المعيش الآن؟

---

(١)انظر: الخطيب القزويني ت٧٣٩هـ، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، ط٣، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م؛ ج١/ص٣ –١٠ (مقدمة المحقق)..

أو ليس من حقنا أن نعيد توجيه مسار ذلك البحث، في ضوء إيماننا ببلاغة الحكمة التي جعلت من الكتاب تبياناً لكل شيء، وجعلت من التبيان دليلاً وحجة ومدخلاً وشاهداً ومحيطاً بكل شيء، في النفس والآفاق؟.

أو ليس من حقنا أن نعيد طرح تساؤلاتنا المعرفية الكونية على بلاغة القرآن، ثم نرى، إن كانت هذه البلاغة قادرة من حيث هي فروض وبيانات وتجارب وتعميمات، أن تحتفظ بسمتها الفكرية والعلمية بوصفها أنموذجاً معرفياً راجحاً ومهماً في تحقيق طموح الذات العربية (بوصف العربية صفة كل مسلم وإن لم ينطق بالعربية) من باب وصف الحكيم العليم للكتاب بأنه "لسان عربيّ مبين" ومن باب أن الإنسان، أي إنسان، إما عربي بالقوة أو عربي بالفعل كما يقول الفلاسفة، فالعروبة أصل البشر قاطبة، والعربية سمت الألسنة جميعاً طالما أن الوحي السماوي أي وحي لا يترل إلا بالعربية، فإن نزل كذلك ترجم كل نبي إلى قومه، كما ورد عن نبي الرحمة[1]، وطالما أن رسالة الإسلام التي جعلت من الإعجاز اللساني معجزة كونية، ليست خاصة الناطقين بالعربية، بل للعالمين جميعاً، إنساً وجناً، نطقوا بالعربية أم لم ينطقوا، فإن آمنوا بالإسلام وكتابه وإعجازه، فهم من حيث صفاهم التكوينية أكثر عتقاً وأبعد من الهجنة وأقرب من تمثل البيان بالتبيين.. فهم عرب من حيث أن العروبة خلوص وصراحة وإبانة، وهذا ما سنتحدث فيه بإفاضة في موضع قابل من هذا الكتاب.

الانطباع الأول المستحصل من قراءة جديدة للفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاته القرآنية، هو أن ذلك الفكر قد خضع لنظرة آلية في التطبيق أو التبين، مما جعله غير قادر على تلمس الحكمة الكونية الكائنة في صلب تلك البلاغة البادية من على الشكل القرآني من حيث هو مظهر وظاهرة ولكن هذا الانطباع يتبدد بعض

(1) انظر: الإتقان في علوم القرآن:ج١/ص٦٠.

الشيء، حينما نعيد النظر في الحقبة الزمنية وسياقاتها التكوينية القاضية بنوع من الحركة الفكرية المتماشية مع أول العلوق وبدء التسلسل الكوني لوجود القرآن بين أيدي المسلمين. ومن التجني ومجافاة الاعتبارات العلمية وتحميل الآخر ما لا طاقة له المطالبة بأكثر مما كان —مع مالنا من انتقادات لبعض ما كان - ولكن تلك المطالبة تصير واجبة ويصير عدمها مجافاة للاعتبارات العلمية، حينما نتوجه بها إلى محاولات التبين الحديث والمعاصر بلاغياً كان أم لم يكن، وذلك لأن الحقبة الزمنية المعاصرة وسياقاتها التكوينية تقضي بإنشاء تلك الفكرة نشأة أخرى، أو أنها تقضي بتسلسل جديد لنطفيتها ثم لعلقيتها ثم لمضغيتها وعظاميتها السابقة.

إن التابعية الأبوية، والتعامل مع التبين على أنه البيان، يعني مجافاة الاعتبارات العلمية ومن ثم، فإنه يؤدي بنا إلى اجترار القولات القديمة، ومن بعد، فإنه يؤدي بنا إلى الزهد بها، ونحن نرى الكشوفات العلمية الغربية يتبع بعضها بعضاً.

وبالنتيجة فإنه يؤدي بنا إلى توهم عجز الأنموذج المعرفي العربي أو الإسلامي، وما هو بعاجز من حيث هو إمكان موضوعي، ولكننا نحن العاجزون عن تبينه. وهكذا نصل بتأثير من ذلك كله إلى تسلسل أرذل العمر البلاغيّ قبل أوان الوصول الطبيعي علمياً، فننشغل عن بلاغة البلاغة بآلية البلاغة و(ميكانيكيتها) ونكتفي بها بوصفها مظهراً ونُعجِز أنفسنا عن تبين ظاهرتها، من حيث هي ليست إشكالاً أدبياً حسب، وليس مجالها وحقل اشتغالها مقتصراً على الحقل الجمالي الأدبي، وإنما هي إشكال فلسفي كبير، وفكر فلسفي في خطوطه الكبرى.

ولقد تبينت هذه الحقيقة للغربيين أخيراً، فلم تعد البلاغة عندهم، تدرس على أنها درس تعليمي غايته تعليم التلاميذ أو الطلاب كيفية كتابة النصوص الجميلة، وإنما

صارت هناك فكراً تأويلياً، "إنها لم تعد فناً يستهدف الإنتاج، بل نظرية للفهم"[1].

وببيان ذلك كله وفي ضوء من هديهِ، نعود ونتساءل، فنقول: أوليس من حقنا، بل من واجبنا أن نجعل من البلاغة القرآنية نظرية للفهم والتبين وأن نجعل من تلك البلاغة مدخلنا الذي هو مدخل صدق لقراءة الكون، ثم من حقنا أن ندعو إلى أنموذج معرفي يجمع بين قراءة الوحي وقراءة الكون في ضوء توسيع دائرة الكلمة القرآنية وبلاغتها لتمتد إلى الـ "كل شيء" خارج القرآن، أي من حقنا أن نؤسس أنموجنا المعرفي التبيني ـ البياني، ضمن ما بُرِّزْنا به ووسمنا بدركه ونيل كمالاته بوصفنا أمة بيان، فنجعل من نحو اللغة وصرفها وبلاغتها،شرط قرآنيتها، وإتباعنا بلاغتها في الجمع والضم والاختيار، دليلاً وحجة وفيصلاً، ثم منهاجاً وسبيلاً، هو سبيل الحكمة الإلهية التي جعلت من الحقيقة القرآنية الإلهية معجزة، وخصت المعجزة بأنها لسانية، على أن (اللسانية) التي نقصد ليست المحتوى دون الشكل، بل المحتوى الذي هو الشكل، والشكل الذي يقود إلى المحتوى، فـ "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك..." على وفق الجاحظ[2].

وبموجب ذلك، سنجنب أنفسنا الخضوع للأنموذج المادي (الفيزيقي) الغربي، كما خضع غير قليل من المتبينين القدامى للآلية المنطقية البشرية وفلسفتها اليونانية،الخضوع الذي جعل منها بديلاً جامعاً مانعاً لحكمة (فلسفة) البيان القرآني ومنطقه الكوني وبلاغته التي هي تبيان لبلاغة كل شيء خارجه، فعجزوا عن ملاقاة الأطراف،والإفادة

---

(١) انظر: أوليفي ريبول، طبيعة البلاغة ووظيفتها (بحث مستل)، ترجمة الغروس المبارك، مجلة نوافذ، دورية تعنى بترجمة الأدب العالمي، النادي الأدبي الثقافي بجدة، العدد السادس عشر، ربيع الآخر ١٤٢٢هـ – يونيو ٢٠٠١م، ص٧٧.

(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ٢٥٥هـ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون دار الجيل بيروت، ١٩٨٨:ج٣/ص١٣١

من البلاغات وتوظيف التبينات لصالح حكمة التتريل لأنهم بدأوا بالذي هو أدنى فـأتمر الذي هو أدنى موجهات كبيرة أسهمت كما أسهم غيرها في ترسيخ موجـه (الفرقـة الناجية). منها مثلاً، قضية القول بخلق القرآن أو عدمه، ثم صفات الـذات وصفـات الأفعال والكيف والتعطيل والتجسيم، والحقيقة والمجاز.. الخ. ولقد تسلسـلت تلـك القضايا التسلسل الذي فَرَقَ الأمة،(الفَرْق) الذي ما كان ليكون لو تبعت الأمة البيـان، وتبينه، لا إتْباعه وإتباع تبينه تبيَّنَ لسان الذي يلحدون إليه. فقضية المجاز مثلاً من بـين تلك القضايا فرقت المتبينين شعبتين، شعبة تقول بالمجاز وشعبة منكرة له[1]، .. وتعددت التفريعات والتقسيمات وتشيّأ المنطق اليوناني واستُنبِتَتْ الفلسفة اليونانية.. فذهب كـل فريق مذهب المؤمن المنكر لكفران مفارقه.. وما القصور قصـور البيـان وبلاغتـه - حاشا- وإنما هو قصور المتبين الذي لم يعمل على تكوين بنية كلية تابعة لبنية "تبيانـاً لكل شيء"، تقدر بكليتها تلك أن تفسر مظاهر البيان وظاهرته، الـتي هـي ظـاهرة "أحسن الحديث"، ظاهرة؛ "ما فرطنا في الكتاب من شيء"، ظاهرة المطابقة والمقـاددة والمقابلة بين زينة الكون البادية من على الأرض وفي صفحة السماء وبين زينة الكـون اللساني البادية من على شكل القرآن في مواضع من مثل؛ (يد الله)، (عين الله)، (جنـب الله)، (سجود النجم)، (كلام الجنة والنار)، (شهادة الذر)، (الختم علـى القلـوب)، (كلام الأيدي والأرجل والجلود).. الخ، إنها بعبارة أخرى عجزت عـن الجمـع –لا التوفيق أو التلفيق- بين واقعية (حسّ) أهل الظاهر و (قلب) الشيعة، و(عقل) المعتزلـة، و(ذوق) المتصوفة (ولا يعنينا من الجمع الرباعي لهذه الركائز، إلا تبيانهـا المجـرد مـن الموجهات). بعبارة ثالثة، أن تلك التفريقات والتقسيمات والتبينات الـتي لم تخضـع للقرآن وحده، لم تجرِ مجرى البيان وحكمته التي هي حكمة الجمع والضم والقرء الـتي يعلنها اسمه؛ (القرآن)، ويسمها وحيه الأول البادئ بكلمة "اقرأ"، أي؛ (إجمـعْ وضُـمْ

---

[1] انظر: البرهان في علوم القرآن: ج٢/ص٢٧٢.

وقاربْ). إنها لم تجر على وفق القرآن و لم تتبين سمْته وسمَته، حيث السمت والسمة يقضيان بالجمع بين المتباعدات والمتفرقات، استجابة لقول الجامع سبحانه؛ ﴿ إنّ اللهَ بالغُ أمرِه قدْ جَعَلَ اللهُ لكلّ شيءٍ قَدْراً ﴾ (الطلاق: ٣). وما أمر الأمة التي بان صريحها الأول جمعاً إلا جمع في آخر الزمان حينما يظهر مهدي هذه الأمة (عُجِّل فرجه الشريف) ، وإن كانت السنن الكونية قد قضت بالفرق، فيما بين الجمعين قبل الخروج ابتلاء واختباراً، فويلٌ للذين يسهمون في فرقة هذه الأمة وهم يعلمون.

وعدا ذلك كله، فقد كان (ويكون) مقدراً للفكر البلاغي العربي لولا الخضوع للتابعية الأبوية، أن يصل إلى أتم وأبعد مما وصل إليه الدرس اللساني الغربي اليوم، وذلك لأنه يستند في تبينه إلى الكلام القرآني المفروغ من مقاددة ومطابقة وإحاطة الاسم فيه للمسمى، مما يعني أنه درس علمي مبني على المشاهدة والملاحظة والوصف الواقعي، المماثل للمشاهدة والملاحظة والوصف مما هو سمة البحث العلمي ومنهجه، وبعيداً عن التأملات الذاتية. فالبحث البلاغي العربي استقراء علمي لما هو موجود بين الأيدي، أي القرآن، وكان (ويكون) ممكناً جداً الوصول من خلال تلك التأملات الموضوعية الذاتية، إلى ما وصلت إليه الكشوفات العلمية بعد ثورة الفيزياء الكبرى، القاضية بالمساواة بين التفكير العلمي والتفكير الغيبي، وبلا تفريط أو إفراط، لأن الكتاب لم يفرط بشيء علماً وبياناً، فالتبيان كافٍ تماماً، لأنه من لدن من هو كافٍ عبده، وهو مغنٍ تماماً، لأنه من لدن غنيّ مستغنٍ، فهو جامع مانع، والانطلاقة العلمية التي تعتمد عليه أساساً للملاحظة والمشاهدة، انطلاقة الذي فُصِّلَتْ له خلاصات العلم بكل شيء، بوصف تلك الخلاصات مدخلات ومفاتيح، تتخذ من بلاغة الكلمة وإحاطتها بالأمكنة والأزمنة والموجودات، طريقاً رئيساً للوصول إلى الحقيقة العلمية في عالم الشهود، أو الطبيعة.

الفصل الثانـي

اللسان
الحُسْنُ والقُرآنـيّة

أولاً: البيان والتبيُّن – أصالة الحسن وتوسم الأصالة:

حينما نؤسس منطلقاتنا المعرفية في التبين، اعتماداً على بيان القرآن، يعني أننا نؤسس لعلمنا الذاتي، ما يرقى به إلى الارتفاع على شطط الذات وعوزها ومحدودية نيلها بعد دركها. فإذا توهمنا أن الكتاب المبين، لا يتجاوز من حيث هو إمكان نيل،ما يواجه الحس البصري، ضيقنا دائرة البيان، وما نلنا بالتبين إلا أقله. إن ذلك القصور القرائي المترتب على فكرة مغلوطة مفادها، كما يزعم نفر من المتبينين؛ "إن الناحية اللغوية والأدبية والبلاغية والنحوية (..) قد استنفدها المفسرون القدامى، بحيث أن الابتكار في هذه النواحي يبقى هزيلا"[1]، قصور مرده إلى الظن بالكلمة القرآنية ظن السوء، فهو يرى إلى الكلمة على أنها وسيلة محدودة، ويرى إلى نفسه محيطاً بالكلام، وما هو كذلك، لأن الإحاطة بالكلام كله خاصة الله سبحانه، وعدا ذلك فإن لمشكلة الفصل بين جامع الكلم (القرآن) والـ "كل شيء" الذي جاء القرآن ليبين قرنه وقرءه وجمعه وتكوينه، حصة أكبر في الخضوع لذلك القصور المعرفي، ومن بعد فإنّ ذلك القصور دليل على ما ينهض هذا التبين للارتفاع عليه،ألا وهو تجاوز الفصل بين بلاغة القرآن وبلاغة الكون، ثم قصر بلاغة القرآن وحسنه الذي هو أحسن الحديث، على الجانب الجمالي دون الجلالي، أو على زينة القول دون زينة ما جاء القول ليكشف عن تكون زينته في الكون مما هو على الأرض أو ما يبدو على صفحة السماء من كواكب، وأخيراً، فإن للمآل الآلي التعليمي لا العلمي، الذي آلت إليه التطبيقات الفردية لنظرية البلاغة العربية، حصة في ذلك القصور كما للأسباب والتوهمات السابقة، التي لنا جمعها كلها في مشكلة عدم الوعي بالحكمة الإلهية التي جعلت من آخر إعجاز نبوي إعجازاً

---

(١) انظر: رضوان جودت زيادة، قراءة في كتاب الإنسان والقرآن وجهاً لوجه: التفاسير القرآنية المعاصرة قراءة في المنهج (بحث مستل)،مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة السادسة، العدد ٢٤،ربيع ١٤٢٢هـ/٢٠٠١:ص١٦٤.

لسانياً أو بلاغياً. فكان أن جردت تلك البلاغة وفنوها من حيويتها، أي من عرفاها وفلسفتها العالية وبلوغها الكوني، واكتفى من اكتفى بحسيتها وليس القصور فيها بوصفها بياناً، بل القصور فينا بوصفنا متبينين، وبموجب ذلك فإن وهم الاستنفاد، وتوهم أن الناحية اللغوية والأدبية والبلاغية والنحوية، ما عادت شروع ابتكار، أمران باطلان البطلان كله، بل، لا نبالغ إذا قلنا أن تلك الناحية التي تبين الأوائل بياها ما زالت بكراً تماماً، البكارة التي تدعونا لتبينات لا لتبين واحد، ثم لكشوفات ونظريات علمية كونية وراسخة.. وكل ذلك، شرط، أن نجعل من بلاغة القرآن وحسن حديثه، لا محتواه حسب، مدخلاً لقراءة الكون، المدخل الذي يقضي بتلقيح الـ "كل شيء" ببلاغة (كل الكلام) : القرآن الكريم ..

لا شك، إن للكلمة القرآنية وجهتين، وجهة إلهية وهي وجهة المُترل المبين، ووجهة بشرية، هي وجهة المُنْزَل إليه أو المتبِّن. وبناءً على ذلك فإن للكلمة القرآنية سمتين أو صفتين، صفة لا محدودة وصفة محدودة. أو لنقل، صفة باطن وصفة ظاهر، أو صفة عمق وصفة سطح، أو صفة لا محسوس وصفة محسوس .. وما نحن بقادرين على الإحاطة بالطرف الأول من الصفة (الإلهية، اللامحدودة، الباطن، العمق، اللامحسوس...)، وإن قدرنا على الإحاطة بشيء من علم تلك الجهة إذا شاء الله وبإذنه فإن تلك الإحاطة لا تعني نفاد القدرة الكامنة في الكلمة، لأن توهم نفادها يعني نفي الطرف الأول أو الوجهة الأولى لهويتها. وفي الوقت نفسه، تطالبنا تلك الكلمة بعدم التوقف عندها أو عند ما تبينه، التوقف الذي يوهمنا بنفادها، لأن التوقف بعد تحقق الطور الأول من التبين، يعني الاعتقاد ببيانية التبين. أي الاعتقاد بتمام الإحاطة وبلوغ غاية البيان من قبل المتبين، ومن ثم التوهم بنفاد قدرة الكلمة وغناها ومن ثم بإحصاء إمكاناها وفتوحاها وعلومها.. ولتلافي هذا الوهم الخطير لا بد من الاعتقاد بأن التبين درجات ومنازل، وأن الفراغ من تبين ما، يعني بدء تبين جديد،خاضع لوجهية الكلمة القرآنية (إلهيتها وبشريتها)، وهكذا ما شاء الله وما قدر المتبين. وبموجب ذلك وحده يتجاوز المتبين أطر الاستقبال والتلقي السلبي وعلم ظاهر الحياة الدنيا، إلى حيث العمق

السحيق، فيصير البيان موئل استبيان واستكشاف لا تنقضي عجائبه. ويصير المتبين، جارياً على سمت الكلمة القرآنية، ومشكلاً محتواه في ضوء محتواها، ومراقباً وسائله في التبين في ضوء بيانها. فإذا كانت الكلمة القرآنية مدعاة لعلوم (بيانية) كما يسميها بعض الباحثين- تبينية كما نسميها- وأخرى برهانية وثالثة عرفانية، وهي الكلمة الواحدة، إذا كان الأمر كذلك، فيصير واجباً على المتبين أن يحيط بهذه التشكلات أو التبينات مرة واحدة لا على مرات منفصلة يتخصص بموجبها (س)من الباحثين بوجهة التبين و(ص)بوجهة البرهان وآخر بوجهة العرفان، وليس الأمر بصعب مناله، إذا ما تبعنا الكلمة وأخلصنا لها واهتدينا بهدي بلاغتها، فالكلمة القرآنية البليغة من حيث وجهتها البشرية، لا تحملنا مالا طاقة لنا به. وها هنا نتخلص تماماً من تلك التصنيفات التي تجعل من (س) بيانياً، ومن (ص) برهانياً، ومن (ع) عرفانياً[1]. وكأن الذي تخاطب به الكلمة القرآنية، (س) البياني، غير الذي تخاطب به البرهاني أو العرفاني.. وما سبيلنا إلى تلافي ذلك كله، إلا إعادة النظر في حكمة الإعجاز اللساني وبلاغته، وبما يعمل على أن يجعل من المصاقبة والملاقحة والمزاوجة والمواجهة بين بلاغة الكلمة القرآنية وبلاغة الـ "كل شيء" في الآفاق وفي الأنفس، مدخلاً معرفياً كونياً، شرط أن يكون الطرف الذي تبدأ به الملاقحة، هو طرف الكلمة القرآنية وبلاغتها، على أن لا فصل بين الكلمة وبلاغتها، فبلاغة الكلمة التي هي شرطها، وشطر حسنها وطرفها المقابل لطرف بيانها، مدخل معرفي لمزيد من التبين الذي يستجلي ويستكشف الظاهرة الكائنة في صلب المظهر.

---

(1) لمزيد من التفصيل في هذا النوع من التقسيم وسلبياته، انظر: الدكتور محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية للنظم المعرفية في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان. وفيما يتعلق بتشكيلات المحتوى المعرفي الإسلامي، انظر: الدكتور وليد منير، أبعاد النظام المعرفي ومستوياته (بحث مستل)، نحو نظام معرفي إسلامي، حلقة دراسية، تحرير الدكتور فتحي حسن ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان- الأردن، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م: ص١٦٤ وما بعدها.

لقد درج المتبينون على الفصل بين طرفي الجلال والجمال اللذين هما بيان نازل من السماء وتبين متكون بذلك البيان المفارق والموضوعي، فأغفلوا التبين، وضحّوا به لأن غايتهم كما يزعمون، هي (مراد الله من النص)، وفاتهم أن ذلك (المراد)، متلون بلون التشيؤ اللساني، ولا طريق إلى ما وراء الشيء إلا الشيء نفسه من حيث هو وجوه عدة وليس وجهاً واحداً. ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ (النحل: ٤٠).

لقد فصل المتبينون بعامة بين طرفي الحسن والبيان،لأنهم لم يستكشفوا الحقيقة الكونية للكلمة القرآنية وبلاغتها، فكان من نتائج ذلك إضافة إلى ما سبق تبينه، أنهم أنكروا شطر الحسن المتمثل بالجانب المجازي مرة، وقالوا به مرة، فبان بالإنكار وبالقبول على السواء، مشكلات عقائدية كبيرة من مثل التجسيم مرة والتعطيل مرة أخرى. والمفارقة الكبيرة، أن المنكرين، وهم الذين يعتبرون بالحس، والمعرفة الحسية، قد أبوا الخضوع إلى ما لا ينكره الحس بوصفه مظهراً لسانيا بادياً من على سطح الكلمة القرآنية، فكانوا بذلك جزئيين وإن حرصوا على الشمولية. أما القائلون بذلك الحسن المتمثل بالمجاز، وهم الذين يعتبرون بالعقل والمعرفة العقلية، فقد أبوا الخضوع إلى ما لا ينكره العقل بوصفه منطلقاً ومدخلاً ومرتكزاً، طالما أن البيان العقلي به حاجة إلى ما يبين به حسياً ألا وهو التركيب المجازي فكانوا كما كان غيرهم، جزئيين وإن حرصوا على الشمولية. وما المشكل هاهنا وهناك إلا العني بالمظهر دون الظاهرة، أو العني بالظاهرة ولكن في ضمن دائرتها الضيقة التي هي دائرة الكلمة القرآنية المبينة للحلال والحرام حسب وحصراً .. ولقد كان (ويكون) مهماً جداً الجمع بين الإنكار والقبول معاً، شرط أن نحدد البيان الساري في التبين، أو (المراد) الساري في التشيؤ، أو المعنى الساري في الشكل، سريان الماء النازل من السماء ينابيع في الأرض ونسغاً في الزرع الذي تختلف ألوانه.. شرط الالتفات إلى المظهر والظاهرة في وقت واحد. أي شرط الالتفات إلى أن البيان سار في التبين، وأن التبين ما كان ليكون أو يتكون لولا سريان البيان. وهاهنا يصير البيان الساري في ﴿ يَدُ اللهِ فَوقَ أَيديهِم ﴾ (الفتح: ١٠) غير البيان

الساري في ﴿ والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسجدانِ ﴾(الرحمن:٦) مع ما بين البيانين من قرن وجمع لساني. وبموجب ذلك ننكر المظهر ونتقبله في آن معاً، شرط أن نلاقي بـــين المظـــهر والظاهرة، أو البيان والتبين. فالآية الأولى، مدعاة لقبول أول وإنكار تال، بينما الثانيـــة، مدعاة لإنكار أول وقبول تال. وكل ذلك لأن بيان الأولى هو لفظ الجلالـة؛ "الله"، وأن بيان الثانية هو (النجم والشجر). وعلى وفق البيان يجيء التبين. فبيان الأولى غير قـــابل للتشيؤ، لأنه الله الذي؛ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ ﴾ (الشورى: ١١)، وبيان الثانيـــة قـــابل للتشيؤ وما يتعلق به، لأنه (النجم والشجر) الذي هو بعض من الـ "كـــل شـــيء"، وهكذا كل ما جاء على مثل هاتين الآيتين، أو هذين البيانين والتبينين.

وكما فصل عموم المتبينين، فصل خصوصهم – أقصد المهتمين ببلاغة الكلمـــة القرآنية – وبان بفصلهم مظهر جديد من مظاهر الفرق بين الظاهرة والمظهر،أو البيـــان والتبين. ولكنه هذه المرة في صلب بلاغة الكلمة القرآنية، أي في ما يسميه البلاغيـــون العرب القدامى والمحدثون، علم البديع، وهو عندهم، فن من فنون القول البليغ، ووجـــه من وجوهه، يعمد فيه المتكلم إلى تحسين أو تزيين الألفاظ أو المعاني بألوان بديعة مـــن التجميل والتنميق الخارجي العرضي[1]. وبموجب ذلك، تصير المجانســـة بـــين كلمـــتي (ناضرة)، أي مستبشرة، و (ناظرة)، أي متطلعة بالنظر أو الإبصار، في قولـــه تعـــالى؛ ﴿وُجُوهٌ يَوْمئِذٍ ناضِرةٌ إلى رَبِّهَا نَاظِرةٌ ﴾ (القيامة: ٢٢-٢٣)، تصير تلك المقابلـــة زينـــة خارجية عرضية. وكذلك تصير المقابلة بين (أضحك وأبكى) أو بين (أمات وأحيا)، في قوله تعالى؛ ﴿ وَأَنَّه هُوَ أَضْحَكَ وأبكى وَإِنَّه هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ (النجم: ٤٣).

---

(١) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ج١/٥٠،ج٦/ص٤ وما بعدها. والسيد علي صدر الدين معصوم المدني ت ١١٢٠هـ، أنوار الربيع في أنواع البديع، حققه وترجم لشـــعرائه شـــاكر هادي شكر، مكتبة العرفان كربلاء، العراق: ج١/ص٢٩وما بعدها، واحمد الهاشمي، جواهـــر البلاغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان: ص٣٦٠، والدكتور احمد مطلوب ورفيقه، البلاغة التطبيق،وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الجمهورية العراقية ط١،١٩٨٢،ص٤١١.

وبموجب ذلك، يرى أولئك البلاغيون، أن العارفين بجواهر الكلام لا يعرجون على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته[1]. فإذا عرفنا أن فنون البلاغة جميعاً، هي فنون تحسين الكلام كما يرى بعض الباحثين[2]، خلصنا إلى أن متبيّني القرآن لا يعرجون على هذه الفنون أصلاً إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته، أي إلا بعد الاعتقاد بتبين (مراد الله من النص). وهكذا تصير سلامة المعنى وصحته موجهاً سابقاً للتبين، على الرغم من أن الثقة بسلامة المعنى وصحته لا تتكون إلا بعد المواجهة الإدراكية الكائنة بين الظاهرة القرآنية ومظهرها من جهة وبين المدرك من جهة أخرى، أي بين البيان والتبين. ولا (ثقة) عندنا إلا بعد إدراك ما يسميه ذلك البعض من المتبينين: (زينة خارجية)، قاصدين بذلك عدم إسهام ذلك المظهر (الزينة) في تبين المعنى. فهم وإن خالفوا نواميس الإدراك وحتميته ومراتبه بقولتهم تلك، فإنهم ممتثلون لحقيقة العروج إلى المعنى بعد الانطلاق من وجه الحسن أو شطره. أما ظنهم ذاك فقد أسهم بشكل أو بآخر في تضييق دائرة البيان، وقصر ممارسة التبين على وجه الجمال دون وجه الجلال، وبالنتيجة حبس البلاغة القرآنية على الكلمة بوصفها مظهراً لا صلة له بالـ "كل شيء"، فباعدوا بين بلاغتين، وكان (ويكون) مهماً جداً المقاربة بينهما، لأن المقاربة والمقارءة والملاقاة والمقارنة والملاقحة والمزاوجة، بيان القرآن الذي لا بد أن يُتَوَسَّم ويُتَّبع، سواء كان ذلك في حسن القرآن أم في زينة الأرض والسماء.

ولاستبانة أبعد غوراً، لا بد من المسارعة في العود إلى البيان نفسه، كيما نستوضح بلاغة (الحسن)، ثم نعرض عليها ما ذهب إليه أولئك المتبينون ومارسوه تطبيقاً فبعدوا وأبعدوا ..

---

(1) انظر: عبد القاهر الجرجاني ت ٤٧٢هـ، أسرار البلاغة، علق حواشيه أحمد مصطفى المراغي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة (د.تا)، ص١٣.

(2) انظر: جواهر البلاغة: ٣٦٠.

يقول عز وجل:﴿ أفمَنْ شرحَ اللهُ صدرَهُ للإسلامِ فهوَ على نورٍ من ربِّه فويلٌ للقاسيةِ قلوبهُم من ذكْرِ اللهِ أولئكَ في ضلالٍ مبينٍ* اللهُ نزَّلَ أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثانيَ تقشعرُّ منهُ جلودُ الذين يخشونَ ربَّهُم ثمَّ تلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكرِ اللهِ ذلكَ هُدى اللهِ يهدي بهِ منْ يشاءُ ومنْ يُضْلل اللهُ فما لهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر: ٢٢-٢٣).

والذي نلحظه في الآيتين المباركتين، هو إضافة كلمة (الحديث) إلى كلمة (أحسن)، فهما بموجب تلك الإضافة متضامتان مجتمعتان، الاجتماع الذي يعني أن مدخلنا إلى الاهتداء بذلك الحديث هو حسنه، فحسنه علامته،والمدرك الذي يطلب به نيلاً لا بد له من حسن يقابل حسن القرآن وإن على اختلاف، فإن توفر المدرك على ذلك الحسن، بانت به الخشية بمراتبها الثلاث، (قشعريرة الجلود، ثم لينها، وأخيراً لين القلوب). وليس الحسن هاهنا وهناك منفصلاً عن الحديث - الكتاب، أو عن المدرك. وكذلك الحسن في الـ "كل شي" ﴿ الذي أحسن كل شيء خَلْقَه ﴾. فالحسن علامة الـ "كل شيء". ولكن المتبينين أخذوا بدلالة الزنية لغوياً "الزينة: اسم جامع لكل شيء يتزين به"[1]، والتي هي شيء مترتب على وجود الشيء المُزيَّن، فهي بعده. ثم جعلوا من تلك الدلالة دلالة لـ (الحسن) الذي هو لغة،ضد القبح ونقيضه. والمحاسن: المواضع الحسنة من البدن[2]. بينما الحُسْنُ ليس مترتباً على الشيء كما يظنون، وإنما هو كائن به وظاهر من عليه وغير منفصل عنه، بدليل أن عدمه يعني قبحاً وسوءاً بينما عدم الزينة لا يعني سوءاً أو قبحاً.

([1]) انظر: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري ت٧١١هـ، لسان العرب، دار صادر- دار بيروت، بيروت ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م؛ مادة (زين).

([2]) نفسه، مادة (حسن).

لنعد إلى الإضافة الكائنة بين مادة (حسن) ومادة (حدث) في قوله تعالى؛ (((الله نزَّل أحسن الحديث)))، بعد أن نتبين بعضاً من الحركة التكوينية لمادة (حدث)...

حديث : نقيض القديم.

والحدوث : كون شيء لم يكن وأحدثه الله فحدث.

والأحداث: الأمطار النازلة في أول السنة.

والحديث : الجديد من الأشياء.

والحدث: الإبداء

وأرض محدوثة: أصابها الحدث.

ويقال للرجل الصادق الظن: مُحدَّث [ملهم] يُلقى في نفسه الشيء فيخبر به حدساً وفراسة، وهو نوع يخص الله به من يشاء من عباده[1].

إن استبطان تلك الإضافة الكائنة في "أحسن الحديث"، والاعتبار بأبوة القرآن واستقباله لا استدباره، ومن ثم التبين ببيانه، يخلص بنا إلى:

١- إن أولية الحسن هي أولية الحديث، وأوليتهما هي أولية الكتاب من حيث خصائصه وصفاته التي يقابل بعضها بعضاً بلا تفاوت. وأن مناقضة الحديث للقديم، تقضي بعدم قدم القرآن، ثم بعدم قدم الحسن، فالحسن جديد متجدد، يقضي تجدده بدوام إعجازه الظاهر بدوام حسنه بذاته، وكذلك يقضي ذلك التجدد بدوام استحسانه من قبل مدركيه، وإن اختلفوا مكاناً أو زماناً.

---

(1) المصدر السابق، مادة (حدث).

٢- إن الحسن من حيث هو أصالة، سمة القرآن وخاصته. أما من حيث هو مترتب فهو سمة الإنسان. فالإنسان يستحسن ما هو حسن أصلاً دونما تدخل في إيجاده وإن تدخل في تبين وجوده.

٣- إن تبين الحسن لا يقل أهمية عن تبين المراد - المعنى، بل إن تبين المعنى (الحكم الشرعي) واستنباطه (بالقياس) أو (الاجتهاد) هو نوع من تبين الحسن.ومن هذا المنطلق يصير تبين الحسن الخاص (البلاغي) صالحاً لأن يكون مدخلاً لتبين المراد دنيا لا ديناً حسب، علماً شرعياً وعلماً كونياً. بل إن أي تبين جديد يؤدي إلى هدى الله ﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ﴾ (الآيات)، يعني مما يعني حدوثاً جديداً للحديث، بمشيئة الله،ويعني الحدوث الجديد آية جديدة وحجة متجددة. ويترتب على ذلك، إن لكل زمن حدوثه وحداثته مع أن الحديث (القرآن) بنصه الذي بين أيدينا، هو هو، ولكل الأزمان. وهذا ما يدعونا إلى القول بوجوب الالتفات إلى أن التعامل مع التبينات السابقة، لا بد أن لا يكون تعاملاً أبوياً مقدساً، وأيضاً لا بد أن لا يبخس الناس أشياءهم فننسب لهم الأخطاء أكبرها والتهم أقساها، وإن لم يمنعنا ذلك من تحديد القصور الجزئي بغية نيل تبين أقرب إلى سياقاتنا الكونية الجديدة.

٤- كما أن الحسن في الأشياء خارج القرآن، مدعاة لتأمل وانجذاب وتشوق وعشق، كذلك الحسن في الحديث، الذي نزله سبحانه كتاباً متشاهاً مثاني...فالحسن الذي هو سمة كل شيء مما خلقه الخالق أحسن الخالقين، سبب للانفعال أو الاستجابة الفاعلة التي

إن تحققت أثمر الحسن غايته، التي هي القرب والقـــرء والجمـــع والقرن بالذي هو وراء ذلك الحسن وعلته.

وهذا هو حسن الحديث وذلك هو فعله في نفوس المحسنين؛ قشعريرة جلـــود ولينها، ثم لين القلوب بعد قشعريرة مماثلة إن لم تكن أشد وإن لم تكن مما يشـــعر بـــه كالأولى. وهذا ما يماثل فعل المطر (الحدث) في التربة الكريمة (الأرض المحدوثة). وهاهنـا يلزمنا مسارعة العود إلى الآية الحادية والعشرين من سورة الزمر، وهي الآية الســـابقة للآيتين موضوع التبين، لنجد البيان الإلهي وهو يقـــول: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنـــزَلَ مِـــنَ السَّماء مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلوانُهُ ثُمّ يـــهِيَجُ فَـــتَرَاه مُصُفرّاً ثُمّ يَجْعلُه حُطَاماً إن فِي ذَلِكَ لِذكرَىَ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾.

ترى لماذا هذا التتابع في الآيات، ثم لماذا هذا الجمع بين بيانين مختلفين ظـــاهراً، المطر والحديث، إن لم يكن القرآن تبياناً لكل شيء، سواء كان ذلك الـــ "كل شـــيء" قرآنياً أم كونياً، أي إنْ لم تكن الظاهرة الكونية تجري على وفق نظام واحد؟

ثم لماذا هذا الجمع بين هذا الإنزال (إنزال الماء) وذاك التنزيل (تـــتزيل أحســـن الحديث)، بكل ما يسم تينك الإنزال والتنزيل من تماثل الفعل والانفعال، من حيـــث أن الفعل والانفعال ظاهرة، أو من حيث هما مظهر، إن لم يكن الذي يبين بالبيان الذي هنا والبيان الذي هناك واحد، "والبيان: ما بُين به الشيء من الدلالة وغيرها"[1]؟

إن معاودة المسارعة إلى البيان وتحديداً إلى بيان سورة الطارق، حيـــث يقـــول سبحانه ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجعِ* وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدعِ* إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْـــلٌ* وَمَـــا هُـــوَ بِالهَزْلِ﴾ (الطارق: ١١-١٤) يكشف لنا ثانية عن تلك المقاربة الكائنة بـــين الظـــاهرة والمظهر أو بين البلاغة والبلاغة. فقد أقسم الخالق سبحانه بالسماء التي يرجع إليها المطر ثم ترجعه إلى الأرض مراراً وكذلك ما عدا المطر، ثم قسمهُ ســـبحانه بـــالأرض الـــتي

---

(1) السابق نفسه، مادة بين.

تصدع بما تؤمر فتسمح للمطر وغيره بالنفاذ إلى ما وراء السطح، ثم بالانشقاق عن الزرع الذي تختلف ألوانه ثم يهيج ثم يجعله الخالق حطاماً. وما جواب القسم في آيات (الطارق) إلا بلاغة القرآن (القول) في الفصل بين الهدى والضلالة، أي بلوغه ما يبلغه المطر في البيان والإبانة. فهو قول نازل من السماء، ببيانه تبين الصدور عما أنزل عليها، قشعريرة وليناً حينما تكون الأرض غاية في الخصب والانصداع بما تؤمر .. فإذا علمنا ذلك ازددنا يقيناً بالوحدة الكائنة في التنوع، ثم ازددنا تبينا للبلاغة الكونية السارية في الـ "كل شيء" بموجب بلاغه (القول)، باعتبار أن لا كينونة و تكوّن دون "كن" القول، ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾. وهذا ما يدعونا إلى إعادة النظر مرات ومرات في مثل قوله تعالى؛ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا في السَّمَاءِ ﴾ (إبراهيم: ٢٤)، على أن (زينة) المثل هاهنا، ليست زينة خارجية حسب، بل حسن كوني، وبلاغة أصلها ثابت وفرعها في السماء، سواءاً في بيان القرآن، أم في بيان الـ "كل شيء"، وبما يعمل على أن يدعونا إلى إعادة التبين، كما تعيد الأرض صدعها وإخراجها مع كل حدث يترل عليها.

٦- أن الكتاب الذي هو واحد من حيث هو ظاهرة بيان، متشابه، مثاني من حيث هو مظهر تبين بلاغي، كما أن المطر واحد من حيث هو ظاهرة، ولكنه متشابه من حيث هو مظهر نزول زمني (في أول السنة أو وسطها أو آخرها...)، أو من حيث هو مظهر نزول كيفي (قطرات المطر وأنواعه، وتركيبته الكيميائية تبعاً للسياقات المكانية والزمانية الكونية).

وكما أن الذي يظهر أو يبين بالمطر الواحد هو زرع واحد مختلف ألوانه، كذلك الذي يظهر أو يبين بالبيان الواحد، هو تبين واحد من حيث هو ظاهرة ومختلف ألوانه ووجوه علمه وتعلمه بذلك البيان، من حيث هو مظهر ..

وكما يرجع المطر إلى السماء بموجب حركة التكون وكونية الحركة، فيتحطم الزرع الذي يرجع هو الآخر إلى شق الأرض، ليخرج ثانية حينما يتزل حدث جديد، كذلك يرجع التبين إلى المتبينين، بعد رجوع البيان إلى جهة المتزل، ولكن لا ليموت تماماً، بل ليبين في سياقات زمانية ومكانية أخرى، وبمتبين جديد.. فرجع الماء إلى السماء وتحطم النبات على أثره هو ذاته عود البيان إلى القرآن وتحطم التبين على أثره، وما ذاك إلا لأجل الإيذان بإمطار وصدع جديدين، ثم بإخراج جديد،.. وكما أن إنزال المطر فصل بين حياة وموت، كذلك البيان فصل بين حياة وموت، أو بين هدى وضلالة. وكما أن الأرض القاسية الصلبة الصلدة لا تبين عن شيء على الرغم من التزول، كذلك الصدور القاسية. وبناء على ذلك، تصير التبينات السابقة، إذا نظرنا إليها في ضوء نظرتنا إلى الـ "كل شيء"، أرضاً لينة قابلة لإنبات وإخراج تبينات جديدة، أو أرضاً صلدة ميتة غير قادرة على تحفيز المتبين اللاحق على قراءة جديدة، إذا هو إنكفأ عليها وتَبِعَها و لم يجعلها تابعةً ذاته وذوات المتبينين ممن قرأ واستقرأ، بيانَ القرآن.

٧- إن الإيمان بأن لا حياة بلا ماء؛ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، وأن لا إخراج بلا ماء؛ ﴿ وَهُوَ الَّذِيْ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ٩٩)، يعني، أن الذي يتم إخراجه بالماء والذي هو نبات الـ "كل شيء" لا الـ "كل شيء"، مستودع في الأرض استيداع الذي لم يبن عن حياة، فإذا نزل الماء بانت الحياة ببيانه. فالماء إذن تبيان لكل ذي حياة، وكذلك القرآن تبيان لكل ذي حياة، أي أنه إحياء للعلم المستودع في الصدور. وإذا كانت الأشياء تبين بالماء، بموجب علم جعلي تكويني القي فيها لحظة خلقها،وإذا كان الماء هو إبانة لذلك العلم المستودع في الأرض والنازل من السماء، فالعلم الذي في الصدور هو ذاته العلم الذي في الأراضين مع فارق أن العلم هناك علم متشيء متجسد، فالشجرة مثلاً علم

ولكنها علم ظاهر بوصفه شيئاً مدركاً بالحواس. أما العلم البشري بالشجرة، فهو علم عقلي معنوي بنظام تكون ذلك الشيء المعلوم الذي هو الشجرة. وبموجب ذلك يصير التبين البشري لبيان الـ "كل شيء"، بالقرآن، ليس إلا إحياءً لذلك البيان بوصفه نظام قرء وجمع وضم علمي قرآني، كائناً في كل شيء، فكل شيء ظاهر به، وكل تبين متكون به، وكل علم، هو تعلم لعلمه المكنون في الصدور وفي الأشياء وفي الكتاب، مع فارق.

٨. لا شك، أن ليس ثمة حديث موجود قبل "أحسن الحديث"، ولا شك أيضاً أن لسان "أحسن الحديث" الذي نزله الله سبحانه، كتاباً متشابهاً مثاني، هو اللسان العربي، مع فارق أن العربية البشرية قد درست،أي قد آلت إلى عدم القدرة التامة على الإبانة والكشف قبل نزول القرآن، لأنها أخرجت إخراج الصنعة التركيبية الكائنة على حساب المعنى، على يد غير قليل من الشعراء والكهان واللاهجين... فبانت أرضها بما هو موات، وإن كانت على الطرف الآخر، طرف الكلمة الواحدة لا التركيب، قد وصلت إلى تمام رقيها وبلاغتها.. أما عربية القرآن،فجاءت لتعيد الاعتبار لبلاغة الإبانة والكشف والإظهار والعلم، الكائنة في اللسان العربي وبه، ولهذا وسم البيان ذلك الوصف بكلمة (مبين)، فقال؛ ﴿ لِسَانُ الّذِي يَلْحِدُوْنَ إِلَيْهِ أَعْجَمّي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِيْنُ ﴾ (النحل: ١٠٣).. على أن جل اللسان العربي المبين، من حيث هو كلمات لا تراكيب، هو ذاته اللسان العربي البشري، ولكن الذي اختلف هو قدرة الكلمة على الإحاطة بما وراءها وغناها في ما تؤتيه وتعطيه من علوم، وحسنها في كل ذلك الحسن الذي يقضي بالانجذاب إليها والانفعال بها والشوق إليها والدخول في محيطها وإحاطتها ثم الإبانة بها.. وكل ذلك الذي هو على مستوى الكلمة متحقق ضمن تركيب جديد له كل ما للكلمة من صفات وسمات، وبإتقان ما بعده إتقان وموازنة هي غاية الموازنة جمعاً وقرءاً وضماً؛ ﴿ قُرْآناً عَرَبِيَّاً غير ذِيْ عِوَجٍ لَعَلَّهم يَتّقُوْن ﴾ (الزمر: ٢٨).

وكما أن الأحداث أو الأمطار هي بيانات جديدة بالبيان الأول وله، ألا وهـو؛ الماء الأول؛ الذي جعل منه الحي المحيي، كل شيء حي﴿ وَكَانَ عَرَشُهُ عَلَى المَاءِ﴾(هود: ٧). كذلك الكتب السماوية بيانات جديدة لسياقات كونية جديدة، جاءت جميعها ظهورات متكررة لظاهرة البيان الأول، بيان "أحسن الحديث" الذي أنزله الله سبحانه كتاباً متشابهاً مثاني. وكذلك اللغات والألسنة، بيانات مختلفة للبيان الأول - اللسان الأول، اللسان العربي المبين، فلا وحي نزل، إلا ونزل بالعربية ثم يترجم كل نبي لقومه، كما ورد في حديث سابق ذكره. وكذلك لا حدث أو مطر نزل إلا نزل بالماء الأول ثم تترجم كل ارض ووفق السياقات الكونية المناسبة، ذلك الماء الأول زرعاً مختلفاً ألوانه، سواءً كان ذلك الماء الأول ماء العمر الأول للكون، أو ماء أول كل سنة أو أوسطها .. من عمر الكون اللاحق، حتى قيام الساعة التي ستكون علامتها نزول الماء الأول ثانية النزول الكافي لإبانة الأرض ومرة واحدة، وبكليتها عن الإبانة الكلية والأخيرة، إبانة النشور وإحياء الموتى .. وكذلك هو ماء القرآن، فهو أول بأولية الكون وآخر بآخرته، والذي ما بين الأول والآخر كتب متفرقة. وكذلك هي كلمته العربية ولسانه العربي المبين الذي هو أول وآخر وما بينهما من السنة. وهاك بعضاً من الأحاديث النبوية الشريفة في كونية العربية ولسانها المبين، ثم في قرآنية ذلك اللسان، بل في الشروع بالقول، إن العربية القرآنية، كائنة في كل شيء، وهي المدخل المعرفي لقراءة كل شيء.

- "إن العربية درست فجاءني بها جبريل غضة طرية كما شَقَّ الله على لسان إسماعيل عليه السلام"[1].

---

(1) علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري ت٩٧٥هـ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضبطه بكري حياني، صححه صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م؛ ج١١/ص٤٩٠ (حديث: ٣٢٣١٣).

- "كلام أهل السماء العربية"[1].
- "احفظوني في العرب لثلاث خصالٍ لأني عــربي والقــرآن عــربي ولسان أهل الجنة عربي"[2].

٩- وببيان ذلك كله، وببيان أن ليس ثمة أمر قد وقع قبل الحديث الذي هـــو؛ "أحسن الحديث" يتبين لنا، أن الحديث وحسنه، يستلزمان أن نضم شأننا نحن المتبينـــين إلى شأن الأرض المحدوثة، فنترك للبيان، أن يستخرج نبات كل شيء، أي علـــم كـــل شيء، مما أودعه الله سبحانه في الأرض وفي الصدور أو الألباب. وما يكون لذلـــك أن يكون دونما دوام محادثة أحسن الحديث من حيث هو شطر الحسن وبلاغة الإحســـان، وبما يعمل على ترسيخ الاعتقاد بكونية الحسن، ومن ثم، بقدرتنا على استنباط العلـــم أو تعلمه وهو المكنون في البيان، فنستظهر بذلك البيان عجائبه، ونفيد من غناه وأصالـــة كشوفاته، بعد الاعتقاد بأن الواحد الأحد الذي أنزل الماء هو الواحد الأحد الذي نـــزّل الكتاب، ومن ثم، فإن الذي يقول للشيء؛ (كن فيكون) قد جمع الشيء على الشـــيء، وضم الشيء إلى الشيء، وقرن الشيء بالشيء، وأبـــان الشيء من الشـــيء، بتلـــك الـــ"كن" الكلمة التي لم يكن ثمة قبلها شيء. وأنه قد بين ذلك ببيـــان كـــل شـــيء، "أحسن الحديث" الذي نزله تبياناً لكل شيء، كتاباً متشابهاً مثاني، من حيث هو نظـــام حسن لساني، أو من حيث هو بيان لنظام الحسن الشيئي في الكون. فـــهو متشـــابه، وكذلك نبات كل شيء متشابه، وبين المتشابه والمتشابه صلة بيان على الرغم مما يبـــدو للحس بعيداً، فالذي قرن الشيء بالشيء هناك، قرنه هنا، فجاءت الســـور والآيـــات والكلمات؛ ﴿قُرْآناً عَرَبياً لَعَلّكُمْ تَعْقِلوْنَ﴾، ﴿ حمٓ* والكتاب المبين* إنا جعلناه قُرُآنـــاً عربياً لِعَلَكُمْ تَعْقِلُونَ* وإنهُ فِي أُمِّ الكِتابِ لَدَيْنا لعليّ حَكِيْم ﴾ (الزخرف: ١-٤).

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: مج٧/ص١٥١.

(٢) المستدرك على الصحيحين: حديث رقم (٧٠٠٠)، ج٤/ص٩٨.

ثانياً: إحاطة البيان ــ قرآنيّة اللسان ثم شعريّة الألسنة:

لا لغة بلا فكر، ولا فكر بلا لغة. عبارة مفروغ من صدقها علمياً كما يؤكـد على ذلك المختصون بوظائف الدماغ، والباحثون في علم النفس، والمعنيـون بفلسـفة اللغة[1]. فالفكر واللغة وجهان لحقيقة واحدة،تصير بموجبها الطاقة العقلية مادة مدركـة بالحس السمعي أو البصري، وبالعكس. وكذلك هو الأمر في الأفق الآخر مـن آفـاق آيات الواحد الأحد، أي في أفق الكون المحيط بالإنسان المفكر- اللاغي، حيث تتحـول المادة في ذلك الكون إلى طاقة وبالعكس، فالمادة والطاقة صورتان لشيء واحد، أو همـا من نسيج واحد[2]. والعلاقة بين اللغة والفكر- على وفق بعـض البـاحثين- علاقـة حركية، "فاللغة تجهز القوالب والمعبر والشكول المنطقية واللغوية وما علـى النشـاط الشعوري إلا أن يدخل في هذه القوالب والشكول ويتماهى معها كلية حـتى يخيـل للمحلل بأن الحركة هي اللغة ذاتها وأن اللغة هي التي تتحرك. فيتطابق الشـكل مـع الحركة وتتوارى هذه وراء اللغة ولا تظهر بالنهاية سوى اللغة"[3].

ولقد جاء في التنزيل العزيز، مما سبق ذكره في آخر المبحث السـابق؛ ﴿ إنـا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾. وتبين ذلك يخلص بنـا، إلى أن القـرآن عقـال

---

(1) انظر: الدكتور وليم الخولي، الموسوعة المختصرة في علم النفس والطـب العقلـي، دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٧٦، ص ٤٢٠- ٤٢٢. والدكتور محيي الدين محسب، اللغة والفكر والعالم دراسة في النسبية اللغوية بين الفرضية والتحقيق، دار نوبار للطباعة، القـاهرة، ط١، ١٩٩٨، ص٤١. وعمر أو كان، اللغة والخطاب، دار أفريقيا الشرق، بيروت ٢٠٠١: ص١١.

(2) انظر: الموسوعة المختصرة في علم النفس والطب العقلي: ص٢٩٠.

(3) د. سامي أدهم، فلسفة اللغة، تفكيك العقلي اللغـوي، بحـث إبسـتمولوجي انطولوجـي، المؤسسة الجامعية للدراسـات والنشـر والتوزيـع، بـيروت، ط١، ١٤١٣هـــ - ١٩٩٣م: ص١٦٠.

المتعقل، أي أنه الثابت الجامع الممتنع الذي لا بد لكل ذي نشاط فكري، من الدخول في معاطفه والامتناع به وفيه، عن غيره، إلا إذا جاء غيره موافقاً له مقروءا على منوال قرئه.

والقرآن، كلام الله، وكلام الله علمه الذي قرئت له الأشياء، وقرئت به طائعة غير ممتنعة. فهو الثابت من حيث هو محتوى ومن حيث هو شكل، من حيث هو مسمى ومن حيث هو اسم،من حيث هو مراد ومن حيث هو إعراب عن المراد. فكل من المراد والمراد به صورة لحقيقة واحدة، لا بد من التعقل بها وثني الفكر واللغة مما هو بشري، ثم شدها وجمعها بحبله الموصول من السماء إلى الأرض. فالعقل حاصل جمع جهتين: المعقول والذي به تم العقل. فلا معقول بلا حبل يعقل به، ولا يسمى الحبل عقالاً إن لم يكن هناك ما يثنى به ويشد، فقد ورد عن العرب، وهم يسلسلون مادة (عقل)، ويتسلسلون بها، قولهم: عقل البعير عقلاً، ثنى وظيفه مع ذراعه وشدهما جميعاً في وسط الذراع، وكذلك الناقة. وذلك الحبل الذي يُشد به هو العقال[1].

وبناءً على ذلك، فليس ثمة شيء إلا وله عقال ومعقول يمنعه ويمسك به، ويحفظ له نظامه وانتظامه؛ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيرِ فَوْقَهُمْ صافَّات وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُن إلاَّ الرَّحمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ بَصِيرٌ﴾ (الملك: ١٩)، فالعقال هو البصر الرحماني، والمعقول هو تلك الطاقة الكائنة في المادة، أية مادة، صغيرة أو كبيرة، في شيء بعينه،أو في الشي والآخر، على أن موضع تلك الطاقة وكونها هو المركز دائماً، المركز في الأشياء جميعاً، فللأكوان مركز، وللأشياء مركز، وللكون الواحد مركز، ولكل جزء من الشيء، أو من الكون الواحد مركز، وطالما أن المادة قابلة للانقسام دوماً، فإن المركز هو المحيط دائماً. وبدءاً بالأكوان وانتهاءً بما لا يمكن دركه ونيله لتناهيه في الصغر المادي، يصلح كل شيء لأن يكون مركزاً لغيره ومحيطاً بغيره. فلا مركز مركزية مطلقة، ولا محيط

---

(١) لسان العرب، مادة (عقل).

احاطة مطلقة إلا هو سبحانه، ﴿ هُوَ ٱلأوَّلُ وَٱلآخِرُ والظَّاهِرُ وَٱلبَاطِنُ وهَوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ ﴾ (الحديد: ٣).

إن هذه الحقيقة القرآنية، التي لها الأولوية في تشكيل أنموذجنا المعرفي الكوني في كل شيء، لا بد أن تشكل أنموذجنا المعرفي في لسان الذي هو تبيان لكل شيء ـــ القرآن، وبموجب بيانها نرى إلى الكون اللساني القرآني على وفق التبينات التالية:

١. إن القرآن مركز ومحيط في وقت واحد. وإن لسانه العربي المبين مركز ومحيط.

٢. إن (مراد الله من النص) ووسيلة ذلك المراد (الكلمة)، يتعالقان تعالق المركز والمحيط.

٣. إن كل كلمة قرآنية، تصلح لأن تكون مركزاً ومحيطاً في آن معاً.وكذلك الأمر بالنسبة لكل انتظام لسانيّ في آية أو سورة.

وبناءً على ذلك كله، يصير البيان القرآني ولسانه العربي غير ذي العوج،مركزاً ومحيطاً بالنسبة للمتبين. فهو كائن فيه وكائن حوله. أما كونه فيه فماثل في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَم يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ٥) وكذلك قوله: ﴿ وَعَلَّم آدَمَ الأسْماءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١). وأما كونه حوله فماثل في القرآن ـــ الكتاب الذي بين الأيدي مرة وفي الأشياء من حوله مرة أخرى؛ ﴿ سَنُريهمْ آياتنا في الآفاقِ وَفي أنفُسهِم حتّى يتبيَّنَ لَهُمْ أنَّه الحقُّ أو لَمْ يكْفِ بربِّك أنَّه على كُلِّ شيءٍ شهيدٌ * ألا إنَّهم في مِرْيَةٍ من لقاءِ ربِّهم ألا إنَّه بكلِّ شيءٍ مُحيطٌ ﴾ (فصلت: ٥٣-٥٤). وبموجب ذلك يصير للآية القرآنية وجهان، وجه لسانيّ (وجه الكتاب الذي بين الأيدي)، ووجه شيئي في الآفاق والأنفس. أو لنقل، إنها لها وجهان، وجه سمعي ووجه بصري، والوجهان متضامان مقترنان اقتران السمع والبصر لدى مدركهما، ومن قبل، لدى الواحد الأحد الذي ﴿ليسَ كمِثْلهِ شيءٌ وهوُ السّميعُ البصيرُ ﴾ (الشورى: ١١). ومن بعد فإن الحكمة

الإلهية التي جعلت من الآية القرآنية الناطقة معجزة تتحدى أولئك الذين في صدورهم كبر وعلو في كل مكان وزمان، هي ذاتها التي أنطقت كل شيء، ﴿ وَقَالوا لجُلودِهِم لِمَ شَهِدْتُمْ علَينا قالوا أنطقَنا اللهُ الذي أنطقَ كلَّ شيءٍ ﴾ (فصلت: ٢١). فكل آية إذن، سواء كانت لسانية في الكتاب الذي بين أيدينا أم شيئية في الآفاق وفي الأنفس، هي آية ناطقة، وكل آية هنا أو هناك هي قرآن. فالقرآن مركز ومحيط، أول بالكلمة الناطقة وآخر بها، ظاهر بوصفه كتاباً مشهوداً، وباطن بوصفه مكتوباً شاهداً في العمق من كل شيء. فهو نظام كل شيء. والكتاب الذي بين أيدينا تبيان لقرآنيته الكائنة في كل شيء.

إن تسلسل البيان القرآني بوصفه مركزاً ومحيطاً، تسلسل مستمر ودائم بدوام وجود الـ "كل شيء"، وما وجود الـ "كل شي" إلا ظهور لتمركز القرآن في نقطة الدائرة من كل شيء(*). على أن هلاك الأشياء أو موتها، لا يعني هلاك المركز القرآني، بل إن هلاك الأشياء يعني تحرر الطاقة القرآنية من جهة، ومن جهة ثانية، تحول المادة إلى طاقة قرآنية ثانيةً، وهاهنا يصير تخلق الـ "كل شيء" بوصفه نظاماً جامعاً وأنموذجاً كلياً للأشياء جميعاً، على مرّ الأزمان واختلاف السياقات الكونية،إنساً وجناً وأشجاراً وأنهاراً وطيراً وكواكب ..الخ، ليس إلا إعادة للخلق الأول، أي للكلمة الأولى، أي للمركز الذي يظل هو هو وإن تعددت محيطات الدائرة ﴿ أَفَعَيِينا بالخلقِ الأوَّلِ بلْ هُمْ في لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَديدٍ ﴾ (ق: ١٥). وبموجب ذلك نرى إلى البيان القرآني على أنه الأول ـ المركز الذي تتراتب التبينات الكائنة به تراتب المحيطات حول المركز،على أن

(*) مما جاء على لسان ابن عربي المتصوف الشهير؛ "الدائرة، مطلقة، مرتبطة بالنقطة. النقطة، مطلقة، ليست مرتبطة بالدائرة. نقطة الدائرة مرتبطة بالدائرة"، أنظر: محيي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، تحقيق وتقديم د. عثمان يحيى، تصدير ومراجعة د. إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة لكتاب، القاهرة ١٩٧٢، ج١/ص٢٢٧.

أول مركز وأول محيط مرتبط بالمركز، هو التبيان النبوي، وما بعد ذلك، تبينات تبقى تلابس بعضها بعضاً. فكل تبيان (خلق) لاحق، جديد. ولكن على أن الجدة ليست جدة مفارقة، بل جدة ملابسة واختلاط. وكذلك الأمر في التبينات البشرية الكائنة بالبيان القرآني في الأكوان والأنفس، مع فارق أن تلك التبينات التي تعتمد على جمعية القرآن الداخلي (العقل)، تبينات قاصرة، لأنها تعتمد على ما هو ذاتي وشخصي وجزئي، ثمّ، على ما هو بصري من وجهي الآية القرآنية الكونية. فالإبانة هناك ليست إبانة مطلقة كما هو عليه الحال مع الإبانة التي للآية القرآنية من حيث وجهها السمعي، أي من حيث هي الكتاب الذي بين الأيدي.

ولكن ذلك اللبس البشري المستمر الحدوث، والذي بدأ بالبيان لا بد أن يرجع إلى البيان بعد تمام بلاغة التبين، لمتبين بعينه أو لمجموعة متبينين، وعلى مر العصور والحقب الزمانية، إن لم نقل على مر اللحظات، بل على مر الأقل من الزمن. وهذا ما يدعونا إلى مسارعة العود إلى التبيان النبوي، الذي ورد فيه أن القرآن لا يبلى من كثرة الرد، وأنه سيرجع إلى ربه يوم القيامة وكأنه لم يفسر أبداً..

وبموجب ذلك نذهب إلى أن تعالق المركز بالمحيط وتشارك الشيء والشيء بمركزية المحيط وإحاطة المركز، لا بد أن يبدأ من المركز باتجاه المحيط مرة، ومن المحيط باتجاه المركز مرة أخرى، وبتسلسل متناوب يبدأ بالإحياء وينتهي بالإماتة، أي يبدأ بتشكل المحيط ثم تمركزه وتشكل المركز وإحاطته.. وهكذا حتى الوصول إلى تلك اللحظة التي يتم فيها سكون الحركة، وهنا نصل إلى مرحلة﴿ وما يعلمُ تأويلَهُ إلا الله ﴾ (آل عمران: ٧) وهي مرحلة أبعد غوراً من مرحلة﴿ وما يعلمُ تأويلَهُ إلا اللهُ والراسخونَ في العِلْمِ ﴾ (الآية نفسها)، مع ما في الاعتقاد بكون الواو عاطفة لا استئنافية هنا من رجاحة تبين، مما سنستوضحه بعد حين. وما ذاك إلا لأن حركة

التبيان، هي حركة الـ"كل شيء"، المشهود من قبله سبحانه؛﴿ إن الله كان على كل شيء شهيداً ﴾ (النساء: ٣٣).

وعلى الطرف الآخر، يعني سكون الحركة (حركة المركز ـــ المحيط)، حينما نعرضها على الكون الخارجي، الوصول إلى تلك اللحظة التي ترجع فيها الأشياء من حيث هي مادة إلى الـ "كل شيء" الذي هو ناموس ونظام وسنة وقانون قرآني ناطق في الصلب من كل جزء من الشيء والأشياء. وحينها ينتفي وجود الشيء، ثم وجود الـ "كل شيء" بوصفه عمقاً، ﴿ وَلا تَدْعُ معَ اللهِ إلهاً آخرَ لا إلهَ إلا هُوَ كُلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ لهُ الحكمُ وإليه تُرْجعون ﴾ (القصص: ٨٨) . ثم لا مشاركة ولا تبين بل البيان حسب، ولا وجه بصريا بل السمعي حسب، ولا مادة أو لاشيء، بل الطاقة المطلقة، أو النور المطلق. نور العلم بعد التعلم، والبيان بعد التبين، والمسموع بعد المرئي، وعلى الطرف الآخر لا نور إلا نور وجهه الكريم سبحانه؛ ﴿ الذي لَه مُلكُ السّموات والأرضِ و لَمْ يتَّخذْ وَلداً و لم يكُنْ له شريكٌ في الملكِ وخلَقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرهُ تقديراً ﴾ (الفرقان: ٢).

مما يقضيه التعلق بالبيان القرآني ومركزيته، العود إلى التأكيد على أن للكلمة القرآنية وجهتين، وجهة تبينيّة بشرية، وأخرى بيانية الهية. أما الإلهية فهي المركز والمحيط، وأما الوجهة البشرية فكائنة في تلك المسافة الواصلة بين المركز والمحيط، أو هي تلك المسافة الكائنة فيما بين بيان الأول وبيان الآخر أو الظاهر والباطن، فليست البشرية هي الظاهر، ولا هي الباطن، بل هي الطرف من الجنبتين، وعند ذلك الطرف تتكون مراكز ومحيطات، ليس لها ولا تقدر أبداً، (وهي المقدور عليها)، أن تصل إلى المركز أو تفلت خارج المحيط. وما شأنها بضار مركز الدائرة ومحيطها، فهي ليست المركز ولا المحيط وإنما هي ما بينهما. والذي ما بين مركز الدائرة ومحيطها اختلاف ألوان واختلاطها أو لبسها الذي ما كان ليكون لولا امتداد الحياة، الذي هو ليس

امتداداً جارياً الجريان الذي لا ينقطع، فذاك لا يجوز إلا على الجهة الإلهية للكلمة، وإنما هو جار الجريان المتقطع المتناوب حياة وموتاً، وصوتاً وضوءاً، وصغراً وكبراً، وحركة وسكوناً، وظهوراً وبطوناً، وسطحاً وعمقاً، وتباطؤاً وتسارعاً، وسابقاً ولاحقاً.. الخ، في كل متكون بالـ "كن" الإلهية، كائناً أو مكاناً أو زماناً..

ولكن الوجهة البشرية للكلمة القرآنية الناطقة في الكتاب وفي الأكوان جميعاً، لم تنطق إلا بالعربية، فالعربية ظاهرة في الكتاب، باطنة في الـ "كل شي". وللاهتداء إلى عربية الـ "كل شيء" لا بد من الاعتبار والاعتداد بعربية الظاهر، عربية اللسان غير ذي العوج، بوصفه القول البليغ الذي بلغ فعله كل شيء. وهاهنا تصير العربية المبينة، عربية القرآن مركزاً ومحيطاً، وتصير التبينات جميعاً متعالقة بها وبائنة ببيانها، بيان الزرع بالماء المترل من السماء. ولا بد لتلك التبينات أن تختلف ألوانها، ثم تهيج، ثم تصير حطاماً.. وهكذا، دونما أن ينقص ذلك أو يخل بثراء تلك البلاغة وغنى ذلك اللسان. وهذا هو السر في إعجاز الكلمة القرآنية، إعجازها الكامن في قدرتها على تحفيز فكر المرسل إليه، على المحاورة والتدبر والاكتشاف. ودونما أن يقدح ذلك المتبين أو ينقص أو يخل بإتقانها وانتظامها —حينما يعمد إلى ليّ عنقها، كي يقادد بها ما يتوهمه بياناً أو مركزاً وما هو كذلك- وهاهنا يصير التشكل القرآني للكلمة والبادي من على سطح القرآن الناطق، مماثلاً لما يبدو من على سطح الأرض. فإذا كان الذي يبدو من على سطح الأرض مختلف الألوان، كان الذي يبدو من على سطح البيان مختلف الألوان. وإذا كان الذي يبدو لمن هو أعمق وأشمل في التبين، واحداً باعتبار أن الذي تشترك به تلك الألوان جميعاً هو المعتبر كان الذي هو تبيان لكل شيء، مما يبدو للقراءة الثانية، كذلك، فالذي هو اختلاف ألوان مظهر فيزيائي، والذي هو تماثل كائن بين الشيء والشيء، هو تركيب كيمائي أحيائي، أو لنقل هو ظاهرة (بايو-كيميائية) أو (كيميا-حياتية). وكذلك هو شأن الذي يبدو لنا من على سطح القرآن. ولذلك انتهى

الفكر البلاغي العربي وبأبلغ ما يكون عليه التبين، إلى الجمع بين علمي البيان والمعاني على حدة، بوصفهما متعلقين بالتركيب الداخلي –الخارجي للظاهرة القرآنية. فيما افرد البلاغيون علم البديع،ناظرين إليه– وبغض النظر عن قصور النظر في بعض النواحي–، ناظرين إليه كما ينظر الفيزيائيون اليوم إلى الصفات الفيزيائية للشيء. فجعلوه معنياً بتبين المظهر الخارجي أو الصوتي الحسي غالباً، أو الإيقاعي، للكلمة القرآنية.

وهاهنا، بوسعنا أن ننظر إلى اختلافات المتبينين على أنها اختلافات فيزيائية – بديعية، أو لنقل مظهرية. وهكذا هي لدى المتبينين جميعاً، لأنها شغلها المظهر لا الظاهرة، بل أن من المتبينين المعنيين بالظاهرة القرآنية في الكتاب وفي الكون، مسلمين أم لم يكونوا، منهم من يشغله المظهر الكائن في صلب الظاهرة ولهذا تداخلت علوم الكيمياء والأحياء والفيزياء لدى الغربيين، وما زالت لدى علمائنا إلا قليلاً، كل علم كائن بنفسه منفصل عن غيره، مما جعل من بلاغتنا القرآنية قاصرة وما هي بقاصرة من حيث مركز محيط، أو من حيث هي بيان، ولكن القصور فينا نحن المتبينين.

بل إن البلاغيين جميعاً، (أزعم أنهم كذلك جميعاً) ما زالوا يتحدثون عن الفنون البيانية القرآنية حاصرين غايتها في التأثير بالسامع التأثير الذوقي الجمالي حصراً، وكأن كونية الإدراك الجمالي منفصلة عن كلية الإدراك المعرفي لكل شيء. وكأن غاية الفنون البلاغية القرآنية هي حصراً، التأثير النفسي في المتلقي، وهذا ما بنيت على أساسه منهجية (التفسير البياني) للقرآن، ممثلة بأمين الخولي وعائشة عبد الرحمن خاصة، وغير بعيد عن هذه المنهجية، ما كتبه سيد قطب وآخرون لا حقون.

نعم إن تحقيق التأثير النفسي في المتلقي من خلال رسم المشاهد القرآنية ليوم القيامة، أو من خلال التركيب الصوري الذي تبلغ فيه القدرة التصويرية التشبيهية أو الاستعارية أو الكنائية، وخاصة تلك البادية في (المثل القرآني)، أعلى قدراتها الفنية والجمالية.. نعم إن ذلك سمة بينة من سمات لسان القرآن وعربيته. ولقد أكدنا في

موضع سابق من هذا الكتاب على قرآنية هذا التأثير النفسي، بل لقد ذهبنا ونذهب إلى أن عدم تبين ذلك التأثير وتكونه في النفس الإنسانية، عرض من أعراض كدورة وحجب مسدلة وصدأ لا بد من مراجعة النفس لإزالته وإن كانت تلك النفس نفس مسلم مؤمن، على أن الإزالة لا تقتصر على صاحب النفس وحده، بل تتجاوزه إلى السياقات الخارجية، وأهمها السياقات التربوية والتعليمية المدرسية والجامعية، وبما يعمل على إعادة الاعتبار لعربية القرآن وذوقه، ثم لسلامة تذوقه. فالتذوق السليم مدخل مهم، ورئيس لنيل عميم وتبين راجح وإيمان أشد رسوخاً.. ولكن الذي لا بد من الالتفات إليه، هو أن وجهية الكلمة القرآنية، تسلتزم وجهية الغاية الكامنة وراء تلك الكلمة.

يقول سبحانه؛ ﴿ إنّا جعَلْنا ما على الأرضِ زينةً لها لِنَبْلُوَهُمْ أيُّهُمْ أَحسَنُ عَملاً﴾ (الكهف: ٧) وببيان قوله سبحانه، يتكشف لنا أن المنطق الجمالي القرآني، يرفض الزينة التي غايتها الإمتاع حصراً،بدليل قوله سبحانه في موضع قرآني آخر؛ ﴿ يا أيّها النبيُّ قُل لأزواجكَ إن كُنتنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدُّنيا وزينتَها فتعالَيْنَ أُمتِّعكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جميلاً ﴾ (الأحزاب: ٢٨). وجاء في موضع ثالث؛ ﴿ وَزَيَّنا السَّماءَ الدُّنيا بمصابيحَ وحِفظاً ﴾ (فصلت: ١٢). وبمجموع البيان القرآني للآيات كلها، يتبين لنا، أن مبدأ التزيين القرآني المطلوب، غير منفصل إطلاقاً من مبدأ المنفعة أو الفائدة، وهو كذلك بوصفه مظهراً لقرآنية الكون وسننه ونظامه الشمولي. أما الاقتصار على الزينة وإرادها بوصفها غاية فذاك مما يرفضه القرآن رفضاً بيناً في آية نساء النبي، وما ذاك إلا لأنه لا يكون إلا بموجب الانفصال عن النظام الداخلي العميق، ومن ثم الانفصال عن الغاية الكونية التي سخرت الأشياء جميعاً للإنسان، وسخرت الإنسان للعبادة، على أن بلاغة العبادة مقترنة ببلاغة العمل. وهاهنا تصير الزينة مدخلاً لعمل بليغ، يلاقي الإنسان بموجبه بين الحسن والزينة. فالزينة التي على الأرض زائلة بهياج الزرع ثم

حطامه، فلا يبقى من الزرع إلا خلاصته الحيوية (بذرته)، وزينة الدنيا زائلة، بزوال الألوان، وهياج الشيخوخة وحطام السنين، ولا يبقى من الإنسان إلا خلاصته الإنسانية إيمانه (عمله). وكذلك مصابيح السماء، زائلة زينتها، بزوال السياقات الزمانية (انقضاء الليل)، أو بتحول تلك المصابيح إلى خلاصات ذرية أثر انهيارها على نفسها بعد انقضاء عمرها الكوني، كما ينهار الإنسان أو الزرع على نفسه، فلا يبقى من الجميع إلا الـ "كل شي" الذي يستنبت ثانية وثالثة ورابعة حتى قيام الساعة.

إننا إذن في ضوء وعينا الجمالي بالآيات الكريمات السابقات بإزاء وجودين قرآنيين، وجود شيئي ووجود إنساني، أما الوجود الشيئي، فقائم على أساس تحقيق غايتين متلازمتين مجتمعتين، غاية إلهية (عبادية)، ﴿ وإنْ مِنْ شيءٍ إلا يُسبِّحُ بحمدِهِ ﴾ (الإسراء: ٤٤). وغاية تسخيرية لأجل الإنسان؛ ﴿ أَلَمْ تَروا أن الله سخَّر لكم ما في السَّموات وما في الأرضِ وأسبغ عليكم نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنةً ﴾ (لقمان: ٢٠). فالغاية الإنسانية، إذن ذات وجهين متلازمين، وجه نفعي مادي، ووجه جمالي نفسي.

إن عدم إدراك الجليل من حيث هو إبداع البديع، بديع السموات والأرض، إدراكاً حقيقياً اعتبارياً لسبب ما من الأسباب يعني عدم الوعي بمبادئ ذلك الجليل من حيث هي مبادئ البيان القرآني المطلق الموضوعيةوالصدق والكمال والقائم على أساس الجمع بين الغايتين معاً، الكونية الحسية، والكونية المادية، أو بتعبير سابق، النفعية المادية والنفسية الجمالية أو التأثيرية. ولا يترتب على سوء الوعي السابق، إلا سوء التصرف بمبادئ ذلك الجليل، السوء الذي يبينه القرآن بقوله؛ ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لهُ سوءُ عملِهِ فَرآهُ حَسناً ﴾ (فاطر:٨).وقد يقود ذلك السوء إلى الانشغال بالزينة لأجل الزينة بعد الفصل بينها وبين السياقات القرآنية الكلية. والخشية كل الخشية، مما يترتب على ذلك الانشغال من لي لعنق الكلمة القرآنية، وإحالة العلة الكونية الكائنة وراء الانتظام القرآني للكلمة القرآنية، إلى العلة الأدبية، ومن مثل هذه الإحالات كثير وفير لدى غير قليل من

البلاغيين القدامى والمحدثين، وخاصة فيما يتعلق بالفاصلة القرآنية، أو بالسجعة أو المجانسة.. من فنون البديع.. وكذلك الأمر لدى المفسرين اللغويين والمهتمين بإعراب القرآن، أولئك الذين يُتْبعون الانتظام القرآني تبيناتهم الشخصية، ثم يُتْبعون لسانه، لغاتهم التي هي تبينات مترتبة على بيان اللسان الجامع ــ لسان القرآن، وكل ذلك بتأثير توجيه سلبي مفاده،إن القرآن الكريم جاء مراعياً للغة العرب وفنونها.وما الأمر كذلك، لا بالنسبة إلى العربية ولا بالنسبة إلى فنونها. أما الفنون، ففنون القرآن ذات (حسن)، والحسن كائن في الشيء وبالشيء ومن الشيء –كما سبق وتبينا ذلك في موضع سابق من هذا الكتاب–، وزادنا به يقيناً، قوله تعالى في سورة فاطر، مما ورد ذكره في موضع قريب، وهو؛ ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾. فالقرآن يفصل ويفرق بين الزينة والحسن، وما ذاك إلا لأن الزينة أمر مترتب على الشيء، فهي مفارقة له غير كائنة به، بينما الحسن أبلغ من ذلك، كما تبين لنا في موضع سابق. فزينة القرآن حسن، وحسن اللغة البشرية زينة، ولهذا ارتفع القرآن على الشعر، وفارقه، ثم فارقت فنونه فنون الشعر، ولكن (الفنيين) قصروا عن تبين هذه الحقيقة القرآنية المهمة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى عربيته، (فعربيته إذا ما قصد بها نحو اللغة) غير العربية البشرية، لأنه أصلاً ما خالف العرب في جل مفردات لغتهم، ولكنه خالفهم في تركيب تلك المفردات، وذلك وجه من وجوه إعجازه. فإن جاءت تراكيبهم موافقة لتراكيبه فذاك دليل على قرآنية متمثلة في البشرية، وإن جاءت مخالفة فتلك علامة على أن التركيب البشري تبين من تبينات، ولا يعني اتباع التبين النحوي البشري عدم استحصال علم وإنما يعني قصوراً في بلاغة العلم، والذي يدعونا القرآن إليه هو بلاغة العلم والتعلم، لا الاكتفاء بسطوح العلم، أو بعلم السطوح..

إن الحكمة الإلهية التي هي حكمة القادر المقتدر، ﴿ وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار ﴾ (الرعد: ٨)، ما أنزلت القرآن إلا كما أنزلت الماء من السماء. فالمنزل هنا هو المنزل

هناك، وسنة الله واحدة، في كل شيء، ولا يترل الماء إلا والسياقات المكانية والزمانية مهيأة تماماً؛ ﴿ وكان الله على كلِّ شيءٍ مُقِيتاً ﴾ (النساء: ٨٥). فإذا كانت الحكمة الإلهية الكائنة وراء النازل قاضية بالرحمة لا بالعذاب، نزل الماء مطراً، ثم سلك المطر ينابيع في الأرض، ثم خرج به زرع مختلف ألوانه. وكذلك لم يترل القرآن إلا والسياقات المكانية والزمانية في الكون وفي الإنسان مهيّأة تماماً. ولم يكن الإنزال إلا رحمة من رحمن رحيم. وهاهنا، بوسعنا أن نُعالق اللسان العربي المبين، القرآن غير ذي العوج، بالماء من حيث هو (كل)، وبحبات المطر وتوالي نزوله بحسب الفصول والسنين، من حيث هو فرق أو منجم على آيات وسور، ثم لنا أن نعالق الأرض بالعربية البشرية من حيث هي مفردات وتراكيب وفنون، ثم لنا أن نعالق الزرع المختلف ألوانه، بأشكال الهدى والعبادات والعلوم والتفاسير حتى تقوم الساعة.. وكما أن الماء أصل، كذلك عربية القرآن أصل.. فالعربية البشرية، سواء كانت لغة العرب، اللغة التي اكتب بها الآن هذه السطور، أو اللاتينية أو الفارسية أو الكردية، أو العبرية.. الخ هي جميعاً تبينات بشرية لعربية القرآن الكائنة في كل شيء ثم في كل أمة من الأمم، بشرية كانت أم أمة طير أو ملائكة أو جن أو شجر .. ومنذ الكون الأول لكلمة التكوين "كن"، تمثلتها الأشياء، فبانت بها، مقتربة مقترنة مجتمعة متصلة من حيث هي نظام كوني كلي وشمولي، أي من حيث هي ظاهرة، ومبتعدة مفترقة مختلفة من حيث هي كثرة وتعدد مظهري كيفي، فاختلف الشيء عن الشيء، كما اختلفت الألوان والألسنة،؛ ﴿ ومنْ آياتهِ خَلْقُ السّموات والأرضِ واختلافُ ألسنتكِمُ وألوانِكم إنَّ في ذلكَ لآيات للعالمين ﴾ (الروم: ٢٢). وتبقى الآية متصلة بالآية على الرغم مما يبدو اختلافاً ظاهراً، سواء في الزرع أم في البشر أو في الألسنة وكذلك هو في آيات القرآن ــ الكتاب الذي بين أيدينا.

إن عربية القرآن الكائنة في كل شيء، بيان كوني، لا بد من اعتباره، ولكن دونما أن يزلقنا ذلك الاعتبار في المناداة بتجريد القرآن من حيوية لسانه وبلاغة حيواته التي لا تعد ولا تحصى، مخالفين بذلك السنن الكونية المتمثلة بالحتمية الإلهية القاضية بالاختلاف المظهري والتماثل الداخلي للشي والشيء، كما حصل لأحد الباحثين المنادين مؤخراً بما يسمونه؛ "اللغة الموحدة- الستندر". وما ذاك القصور -على الرغم من الحرص على امتلاك أنموذج قراءة متميز، إلا لأن الإحاطة بالثراء الفكري والمعرفيّ البلاغي العربي، إحاطة متدنية[1].

وبموجب ذلك كله نرى إلى (التشبيه) البشري مثلاً على أنه التشبيه القرآني نفسه ولكن من حيث أن التشبيه أو السجع أو الجناس، أو الحذف والإضمار... الخ هو ذاته التشبيه أو السجع أو الجناس أو الحذف القرآني من حيث هو تبين لا من حيث هو بيان، كما أن الزرع هو الماء ولكن من حيث أن الزرع تبين ببيان الماء. هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن التشبيه البشري سمة وعلامة وعلم المشبه الذي هو الفرد، أو الذات القاصرة العلم والإحاطة والقدرة التي تجعل من الاسم طباق المسمى ومقادده ومحيطاً به إحاطة المركز للمحيط وبالعكس. ومن جانب ثالث نرى إلى التشبيه البشري على أنه تبين الحقيقة وليس الحقيقة عينها، فهو نتاج الذات المنفعلة بالشيء لا الفاعلة المكونة الـمُشيِّئة الخالقة، ولهذا وصف القرآن الفن الشعري ممثلاً ،بالشعراء؛ ﴿وإنّهم يقولونَ ما لا يفعلُون﴾ (الشعراء:٢٢٦)، وجاء في معرض إثبات الرسالة ونفي الكهانة والشعر عن رسول الرحمة؛ ﴿ وما هُو بقول شاعرٍ قليلاً ما تُؤمنون* ولا بِقَول

---

(1) لقد اشتغل الباحث المذكور على وحدة الحرف،لا على وحدة الكلمة، وهذا مدخل محفوف بمخاطر الزلق والشطط وهذا ما حصل للباحث، خاصة وهو يصادر كل نقاط الضوء التي لتبينات الآخرين بلا استثناء انحيازاً منه لأنموذجه القرآني القاصر. انظر: عالم سبيط النيلي، اللغة الموحدة، الجزء الأول، بغداد ١٩٩٩. والنظام القرآني، مقدمة في المنهج اللفظي، دار أسامة، عمان، ١٩٩٩.

كاهِنٍ قليلاً ما تَذكَّرون* تنزيلٌ من ربِّ العالمين* ولو تقوَّل علينـــا بعــض الأقـــاويل* لأخذْنا مِنهُ باليَمينِ ﴾ (الحاقة: ٤١- ٤٦).

فالشعر إذن من حيث هو فن، تقوُّلٌ وليس قولاً، أي أنه تبين وليس بياناً، وقـد ورد عن العرب، "وتَقوَّل قولاً: ابتدعه كذبا"[1]. فهو إذن ليس البديـــع، أي " الشـــيء الذي يكون أولاً"[2]، وإنما هو ما يتكشف للشاعر مما هو موجود أولاً. وليس التكشف عن الشيء، كإيجاد الشيء وإبداعه على غير مثال سابق. فالمتقول يبتـــدع لا يبـــدع، ويدعي الإيجاد لا يوجد، وما ذاك إلا لأن قدرته على الإيجاد بوساطة الكلمـــة قـــدرة محدودة وقاصرة بإزاء قدرة البديع سبحانه، ﴿ بديعُ السموات والأرضِ وإذا قَضَى أمـــراً فإنَّما يَقولُ لهُ كنْ فيكون ﴾ (البقرة: ١١٧).

وبموجب ذلك، يصير واضحاً أن القول الإلهي هو الفعل المطلـــق الكـــائن في الكلمة خارجاً وداخلاً مظهراً أو ظاهرة. ولقد كانت العرب "تجعل القول عبارة عـــن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان فتقول: قال بيده أي أخذ، وقال برجلـــه أي مشى.. وقالت له العينان: أي أومأت وقال بالماء على يده أي قلب"[3]. فالقائل من حيث هو بشر،لا يتعدى فعله الإفادة من الشيء الموجود أو التعبير عنه بعد الانفعال بـــه والتفاعل معه، ثم الفعل المستفيد من أصالة وجوده، وبما لا يتجاوز القول اللســـاني إلى الفعل الجسماني أي أنه (أي الشاعر) يعجز عن جعل الشيء يتكوّن حقيقة بالكلمـــة، كأنْ يحي الشيء أو يميته أو يحيط بعلمه.....الخ، بينما القول الإلهـــي يتعـــدى ذلـــك. فالذات الإلهية فاعلة للشيء غير منفعلة به أو مستفيدة ومنتفعة. وها هنا يصير القـــول الإلهي على لسان الرسول، إيجاداً لما لم يوجد قبل، لا ادعاء وجود كما يدعي الشـــاعر.

---

(1) لسان العرب، مادة (قول)

(2) نفسه، مادة (بدع).

(3) نفسه، مادة (قول).

وما ذاك إلا لأن الرسول لا يقول بذاته ومن ذاته، بل هو إبان تلقي القول غير ما عليه الشاعر الذي يبحث عن الكلمة بذاته وفي ذاته، إنه أي الرسول يتحول إلى محض كلمة قائلة تكوَّنَ بكونها اللساني كل شيء، فقوله بيان لا تبين وفعل لا تفعُّل، فالكلمة القرآنية علم وليس تعلُّماً، وغاية لا طلب الإحاطة أو الوصول إلى غاية لا يمكن الوصول إليها أو تحقيها إلا خيالاً أو تقوُّلاً على اللسان وفي ضمن حدود الذات البشرية المتبينة. وهذا هو السبب الرئيس في نفي الشعر عن الرسول، ونفي كون الشعر علماً يعلم، أو غاية تبتغى؛ ﴿ وما علَّمْناهُ الشعر وما ينبغي له إنْ هو إلا ذكْرٌ وقرآنٌ مبينٌ ﴾ (يس: ٦٩).

ومثل الفارق بين علم القرآن وتعلم الشعر، الفارق بين فنون القرآن وفنون الشعر ولغته، ولهذا نصر على أن (اللغة) القرآنية تختلف غاية الاختلاف عن اللغة الشعرية. ولا بد من الالتفات إلى هذا التبين في قراءة الكلمة القرآنية، فقرآنية اللغة أصل فاعل وكلي، بينما شعرية اللغة مترتب منفعل ومحدود. فتلك بيان إلهي والأخيرة تبين بشري. وبموجب ذلك لا بد من مطالبة اللغة الشعرية وفنونها خاصة واللغة البشرية التداولية عامة بالرقي إلى ما يقرب من غاية القرآنية اللسانية، لا أن نحاسب ونحاكم ونضم ونتبين الأخيرة (اللغة) القرآنية في ضوء الأولى، فنجعل من التبين مركزاً بالنسبة للبيان القرآني، والعكس هو الحق، وحق اليقين.

الفصل الثالث

القُرْآنّيةُ
جَامِعُ اللَّون وتأريخُ الكلمة

أولاً: الظاهرة القرآنية ــ جامع اللون وفَرْقُ الألوان:

الماء ــ الأرض ــ الزرع ــ اختلاف الألوان

آدم ــ حواء ــ الذرية ــ اختلاف الألوان

الكلمة ــ العقل (الجامع) ــ اللسان ــ اختلاف الألسنة.

ظاهرة واحدة، ومظاهر متعددة .. بيان واحد وتبيينات مختلفة.. آية واحدة وآيات مختلفة.. ترى ما البين (الوصل والبعد) الذي بوسعنا قراءته في ما بين كل مكون من المكونات القرآنية السابقة في كل تسلسل ثلاثي من التسلسلات الكونية السابقة أو في البنية الكونية الكلية للتسلسلات جميعاً؟..

جاء في كلام العرب؛ إن البَيْن على وجهين، "يكون البين الفرقة، ويكون البين الوصل"[1]. والذي هاهنا فرق ووصل. فما الفرق وما الوصل بين المظاهر الوجودية السابقة، وما الذي يترتب عليهما من تبينات؟ لنتلمس ذلك على نقاط:

١. لا شك أن التركيبة العنصرية للزرع، هي ذاتها التركيبة العنصرية الكامنة أو المكنونة أو المستودعة في الأرض، فلا فارق بين ما هو باطن ومكنون وما هو ظاهر ومكشوف، إلا الحركة الكونية التي سرت في الجمع العنصري بوساطة الماء، فالماء كينونة عنصرية جديدة لاقحت الكينونة العنصرية الكامنة، فكانت الحياة، وامتلكت العناصر الترابية حيويتها فخرجت زرعاً. وكذلك الأمر مع (الذرية) أو (اللسان). وهاهنا تتجلى لنا مركزية الطرف الأول وأوليته ومن ثم، تراتب تكون الثاني على الأول، فالثاني (الأرض ــ حواء ــ العقل) كان جمعاً مجتمعاً ثم فرق ليعاود طلب التجمع، فالأرض خلقت

([1]) لسان العرب، مادة (بين).

بالماء (المادة السائلة)، وحواء خلقت من ضلع آدم، والعقل بوصفه علماً محضاً نفخ الكلمة الإلهية الخالقة.

٢. الذي يترتب على العود إلى الجمع، هو الطرف الثالث في كل تسلسل على حدة. فالزرع، والذرية، واللسان، تبينات أولى للبيان الثنائي المتقابل (الماء ـــ الأرض)، (آدم ـــ حواء) (الكلمة ـــ العقل الجامع).. فالعلاقة الكائنة بين الزرع والذرية واللسان مع الزوج البياني السابق لها كل على حدة، هي علاقة وصل من حيث وجه العود إلى الأصل، أي إلى جهة ذات اليمين، ولكن الوجه التكويني المتسلسل ذات الشمال، وجه فرق، (اختلاف الألوان ـــ اختلاف الألسنة).

٣. إن الوجه التكويني المتسلسل ذات الشمال، ليس بوجه فرق إلا بالقدر الذي يتمثل فيه المظهر لا الظاهرة والجزئي لا الكلي والشيئي لا المجرد والمادي لا المطلق والسطح لا العمق والحسي لا العقلي... ولكن المظهر واختلافه سنة كونية لا بد من الاعتبار بها والتوقف عندها، على أن تحيلنا بوصفها مركزاً إلى ما يتشكل حولها من محيطات متعددة.

٤. إذا ما عرفنا أن ألوان الطيف الشمي: "الأحمر، البرتقالي، الأصفر، الأخضر، الأزرق، النيلي،والبنفسجي" منشؤها جميعاً لون واحد، هو اللون الأبيض، الذي هو ضوء الشمس. وإذا عرفنا أن الجسم الذي نسمه بلون ما كأن يكون الأصفر، يعني أن ذلك الجسم يمتص ألوان الطيف الشمسي كلها ثم يحولها إلى طاقة إلا ما نراه بادياً بالجسم ومن عليه، فإنه يعكسه ولا يمتصه، وذلك وفقاً لتركيبه الكيماوي، الذي يشكل علاقة ارتباط كبيرة بينه وبين الضوء الأبيض، بحيث أنه

يعكس منه ما يعكس، ويمتص ما يمتص[1]...إذا عرفنا كـــل ذلــك خلصنا إلى أن اختلاف الألوان والألسنة، ظاهرة كونية لا بـــد مـــن الاستجابة لبيانها ثم تبينها.

٥. إن اختلاف الألسنة يعني اختلاف تعلمها أو لنقل اختـــلاف نيلــها امتصاصاً أو عكساً، من ذلك العلم الجامع المكنون مذ الخلــق الأول في المنظومة الإحيائية للإنسان. وبالمحصلة فإن القرب أو البعد من ذلـــك اللون الجامع (الأبيض) يقابل ويماثل القرب أو البعد من العلم الجــامع، ثم من اللسان الجامع (اللسان العربي المبين). وما عربية هـــذه الذريـــة (العرب)، إلا الأقرب إلى ذلك اللون الجامع، وما اللغات الأخــرى إلا ممتصة أو عاكسة كل بقدر، لتلك العربية القرآنية.

٦. يجب الالتفات إلى حقيقة، أن الفكر واللغة مظهران لحقيقة واحـــدة، كما أن الزرع والأرض مظهران لحقيقة واحدة، وعلى مثل التجمـــع العنصري الأرضي ونوعية التربة يكون الزرع. وبالمحصلة فعلى مثـــل اللسان – اللغة، يكون التبين. فالتركيبة اللســـانية الكلاميـــة تســـهم وبشكل كبير في تشكيل معالم التربة وبالعكس، كما يسهم اســـتنبات الأرض بنوع معين من الزرع في تشكيل معالم التربة وبالعكـــــــس. ولهذا نجد اللغات البدائية أو الأقل حيوية من بين لغات البشر، أقـــل قدرة على الإظهار العلمي للعلم المكنون في العمق من الإنســـان أيـــاً كانت هويته، ولهذا تخلفت أمم بعينها ورقت وترقت أخـــرى تبعـــاً للطبيعة التركيبية لألسنتها من حيث عكسها وامتصاصها للعلم الجـامع

---

(١) انظر: الدكتور زين الخوسكي، معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم، مكتبـــة لبنـــان – بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢؛ آ–ج وما بعدهما.

الجعلي التكويني بالخلق الأول: الخلق القرآني. وكل مـــهيّأٌ للأظـــهار والتعلم والتبيين ــ والامتصاص أو العكس . وكلما انحرف الإنســـان عن اللسان إلى اللغة، قل وتضاءل قدر تكشفه، وقد تترقى اللغـــة إلى اللسان، فيتحقق تكشف أكثر تماماً وبلاغة، كما حصل للاتينية ومـــا تكوّن بها من ألسنة أوربية لاحقاً.

وبموجب ذلك كله، فالتكشف العلمي مرتبط ارتباطاً وثيقاً باللسان والفكـــر، وكل مهيأ لنوع من التكشف في ضوء اللسان الذي يشكل مظهراً وظـــاهرة لحيويتـــه العلمية العميقة. وهاهنا ننظر إلى تخلفنا العلمي مقارنة بالتقدم العلمي الغربي الكـــوني، على أنه حصيلة عدم قدرتنا على الإفادة من عربية لساننا التي هي أقرب عربية إلى عربية القرآن الكونيّ. فنحن مجعولون على هذه العربية،ومن ثم فإننا مجعولون على أن تبيننـــا لا يتحقق إلا في ضوء مركزيتها وأوليتها واتباع سننها. ولقد كان (ويكون) ممكناً جـــداً ويسيراً جداً الوصول إلى رقي علمي مختلف لو إننا اتبعنا سنن هذه العربيـــة، بوصفـــها مدخلاً لقراءة الكون. وإلا فإننا لن نقدر على الإحاطة العلمية بشيء أبداً، لأننا نخـــالف السنن الكونية الإلهية الكائنة فينا وعلى ألسنتنا. فنحن نفكر بالعربيـــة ولا يمكـــن لنـــا الإحاطة العلمية بالأشياء من حولنا، إلا بهدي من بيان تلك العربية، وبتوظيف الطاقـــة العلمية الجامعة، المكنونة في اللسان العربي، الذي هو أبلغ الألسنة من حيث قدرته علـــى امتصاص الألوان جميعاً، ثم عكس اللون الأبيض الجامع الذي هو خلاصتـــها وأصـــل منشئها، اللسان العربي المبين، لسان القرآن، غير ذي العوج.. ولنتوقف كثيراً بعد ذلـــك كله، عند البيان القرآني الكائن في، وبقوله تعالى؛ ﴿ قُلْ كلٌّ يعملُ علـــى شـــاكلتِهِ ﴾ (الإسراء: ٨٤)، ثم لنحط هذا البيان بسابقهِ، متذكرين أن الله سبحانه، قد أنعم علينـــا بعربية هي الأقرب إلى القرآنية من غيرها، يقول تعالى في الآية السابقة لآيـــة الإســـراء (٨٤) أعلاه؛ ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسانِ أعرضَ ونَأَى بجانبِهِ وإذا مسَّهُ الشَـــرُّ كـــانَ

يئوساً ﴾ .. فإذا تذكرنا وتدبرنا كل ذلك، سارعنا بالعود ثانية إلى خيرات العلم القرآني- متذكرين مرة أخرى أننا عالقنا الأرض بالعقل، والزرع بالألسنة- يقول البيان القرآني؛ ﴿كُلوا واشْربوا مِنْ زرقِ الله ولا تَعْثَوا في الأرض مفسدين ﴾ (البقرة: ٦٠).

٧. لا بد من النظر إلى علاقتنا بالقرآن، علومه ولسانه، نظرتنا إلى الأرض وزرعها، لننتهي من خلال تلك النظرة، إلى أن الزرع الخارج من الأرض- على اختلاف ألوانهِ، يشكل مظهراً أو مظاهر متحيزة هاهنا وهناك. ولكن ذلك التحيز في مساحة بعينها أو مساحات، لا يعني أن ما عدا المساحات النابتة لا يصلح للاستنبات، وأن الأرض تنحصر في تلك المساحة المزروعة وما عداها فراغ أو عماء ..بل اننا إذا دققنا النظر وجدنا أن المساحة المزروعة هي الأخرى، ليست مستنبة بكاملها ومائة بالمائة.

وبموجب ذلك نرى إلى تلك التسميات التي اصطلح عليها المعنيون بالدرس القرآني، من مثل؛ التفسير العلمي، التفسير الفقهي، التفسير البياني، التفسير الفلسفي..الخ أو من مثل، الفن القصصي في القرآن، الأحكام، النبات، المجتمع، الأسرة، الإيمان، على أنها ليست إلا مظاهر مختلفة الألوان لحقيقة واحدة، هي الحقيقة القرآنية. وعلى هذا الأساس لا يجوز تحييز آيات الأحكام بآيات بعينها، أو تحييز آيات العلم والإشارات العلمية.. فالقرآن كله، أرضية أو منهاج داخلي لا بد من اعتباره ومن ثم عدم تبضيعه، وإلا فإن درسنا حينها سيكون شبيهاً بمحاولات دارس مبتدئ في علم النبات، يعمل على عزل النبتة عن سياقاتها الزمانية والمكانية، مناخياً وجغرافياً واجتماعياً، على الرغم من أن تلك النبتة، لا تعيش بمعزل عن ما يحيط بها وما يؤثر فيها وما يريده منها مستزرعها.. وهاهنا يتوجب علينا أن نعمد إلى تأسيس منهاج كلي يجتمع له كل الدارسين وفي شتى العلوم والمعارف على أن يكون المنطلق منطلقاً لسانياً، فيجتمع لذلك، الباحثون في العلوم الطبيعية، والعلوم الإنسانية والعلوم الدينية والعلوم

اللغوية والعلوم الجمالية، ليكون الدرس المظهري لنبتة بعينها، أي للون بعينه، مرتكزاً على عنصرية الأرض جميعاً، ومتبيناً ببيانها الكلي، ما هو أبلغ وأتم مما لو قصر المتبيّنُ نفسه كما قصر ذلك الطالب المبتدئ على المظهر، غير قادر على تلمس الوشائج الكائنة بين المظهر والظاهرة، بل التي بها تكون المظهر.

٨. مما صار إليه العلم الحديث أخيراً، بعد ما يسمى بثورة الفيزياء الكبرى، هو البحث في دراسة الآثار المتراتبة بعيدة المدى، لتفسير أولي يبدو بسيطاً، للوهلة الأولى، ولكنه يتراكم ويتضخم بفعل العلاقات المتبادلة بين كثرة لا نهائية من العوامل والمكونات في النظم المركبة. والمثال النمطي على هذا، هو إمكان الربط بين فراشة ترفرف بجناحيها في الصين وعاصفة تهب في المحيط الهادي عن طريق تقصي تراكم وتضخم آثار هذه الرفرفة في نظام الطقس بكل مكوناته(١).

وجاء في كلام العرب: أقرنت السماء أياماً تمطر ولا تقلع.. وقرنت السماء واقرنت: دام مطرها؛ والقرآن من لم يهمزه جعله من هذا لإقران آيهِ.

وقارن الشيء الشيء مقارنة وقراناً: اقترن به وصاحبه.. وقرنت الشيء بالشيء: وصلته. وجاء أيضاً؛ ومعنى القرآن معنى الجمع، وسمي قرآناً لأنه يجمع السور، فيضمها.

وقرأت الشيء قرآناً: جمعته وضممت بعضه إلى بعض. ومنه قولهم: ما قرأت الناقة جنيناً قط، أي لم يضطم رحمها على ولد.

---

(١) انظر: د. يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول – الحصاد – الآفاق المستقبلية، سلسلة عالم المعرفة (٢٦٤)، الكويت، ١٤١٢هـ – ٢٠٠٠: ص٢٢٦. و د. نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات ــ رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، سلسلة عالم المعرفة (٢٦٥)، الكويت، ٢٠٠١: ص٢١٤-٢١٥.

وكل شيء جمعته فقد قرأته. وسمي القرآن لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض[1].

والذي بوسعنا تبينه في ضوء ما سبق، (على أن نتذكر دائماً أن تسمية الكتاب الذي بين أيدينا؛ (القرآن)، هي تسمية إلهية)، هو إن القرآن الذي هو تبيان لكل شيء، قرآن لـ:

أ. الحرف إلى الحرف، والكلمة إلى الكلمة، والآية إلى الآية، والسورة إلى السورة.. فالكلمة هي أول القرن أو القرأ البائن لنا، فهي أول ومركز التبين، الذي يتسع ليصير محيطاً ثم يصير المحيط ثانياً وثالثاً.. حتى تمام القرآن مائة وأربع عشرة سورة. وهذا هو القرن أو القرء اللساني.

ب. الصغير إلى الصغير (كأن يكون جسيماً ذرياً، أو فوتوناً، أو كواركاً - فيزيائياً-، أو جيناً - أحيائياً-، أو فيمتوثانية- زمنياً..)[2]، والشيء إلى الشيء، والمجموعة أو الفصيلة أو الجنس أو الزمرة أو النوع إلى مثلها- مثله، والأنواع إلى الأنواع.. فالصغير هو أول القرن أو القرء البائن لنا، فهو أول ومركز التبين، الذي يتسع ليصير محيطاً ثم يصير المحيط ثانياً وثالثاً.. حتى تمام القرآن أرضاً وسماءً وما يتعلق بهما من أراضين وسموات وكائنات. وهذا هو القرن أو القرء الشيئي.

جـ. القرن الشيئي إلى القرن اللساني. فالقول اللساني أول، لأنه الكلي الشمولي الصوتي، الكائن بكلمة الـ "كن"، والممتثل للأمر الذي هو قول الله سبحانه، أي علمه بكل شيء.

---

(١) لسان العرب، مادة (قرن).

(٢) انظر، مفهوم (الصغير) علمياً؛ الثقافة وعصر المعلومات؛ ص٢٢٥.

وهذا ما يدعونا إلى تبين الترابطات الكائنة بين الشيء والشيء، ومن قبل بين الكلمة والكلمة، أي بين المقرون – المقروء بالقرء اللساني والمقروء الشيئي، كل على حدة أولاً ثم فيما بينهما مجتمعين. على أن البدء، مدخله اللسان وبلاغته، أو البلاغة القرنية اللسانية.ومن بعد فإنه يدعونا إلى قرن التبين إلى التبين والعلم إلى العلم والطبيعة إلى الغيب والمنهاج العلمي إلى المنهاج الديني، ثم المذهب الإسلامي إلى المذهب الإسلامي والرؤية التفسيرية إلى الأخرى، والبيان إلى البرهان، والبرهان إلى العرفان، والعرفان إلى البلاغة والبلاغة إلى العرفان .. والفقه إلى البلاغة .. والمدخل في كل ذلك، هو ضم تبين الكون إلى تبين القرآن بحيث يكون القرآن من حيث هو لسان، مدخلا..

ويترتب على ذلك، ويلزمنا ذلك، بالنظر إلى القرآن نظرة بيضاء، أولاً، نظرة تعلو أو ترتفع على التطييف اللوني، نظرة مائية تماماً. والقرآن كذلك أصلاً، إنه المقابل الكوني للماء بموجب واحدية الترول والإنزال . وعلى هذا الأساس المائي الأبيض الاسمي (باعتبار أولية آدم الذي علم الأسماء كلها)، لنا وبوسعنا بعد استكمال بلاغة هذه النظرة اللسانية العربية (باعتبار عربية القرآن)، البلاغية (باعتبار حسن الحديث وبلاغة القول)، أن نلون حاجاتنا الدنيوية أياً كان نوعها وكيفما كانت وجهتها.. وهكذا نتبين في كل آية كل شيء وكل حاجة، وهكذا تتكثر التبينات، وتتعدد الألوان بحسب قدرها على العكس والامتصاص، وبحسب سياقاها الزمانية والمكانية الكونية، فنتخلص بذلك، وبه فقط من تكفير هذا وتشريك ذاك وتهميش ثالث، وقمع رابع، وعلى الطرف الآخر، نتخلص من شطط هذا ومحدودية ذاك، وبالمحصلة نتخلص من تابعية مريرة للأنموذج المعرفي الغربي، في الوقت الذي قدر لنا فيه الحنَّان المنَّان، أن نكون متبوعين لا تابعين، ظاهرين على غيرنا لا مستظهرين، علماً ولساناً؛ ﴿هُو الذي أرْسَلَ رسولهُ بالهدَى ودينِ الحقّ لِيُظهرَهُ على الدِّين كلّه ولو كَرِه المُشركون﴾ (التوبة: ٩).

٩. من نافل القول، قولنا إن الماء ما زال يترل على الأرض حتى هذه اللحظة التي أكتب بها هذه السطور، (حيث تدر السماء خيرها منذ أيام) .. وكذلك ستبقى بإذن الله حتى النشور الذي لا يتحقق إلا بترول الماء وإن بشكل مختلف؛ ﴿ والله الذي أرسلَ الرِّياح فتُثيرُ سَحَاباً فسُقناهُ إلى بلدٍ ميِّتٍ فأحْيينا به الأرضَ بعدَ موتِها كذلك النُّشُورُ﴾ (فاطر: ٩)، وما ذاك إلا لأن الأول (الماء) لا بد أن يكون الأخير، فالمركز محيط وبالعكس. وأيضاً لأن الإحياء لا يكون إلا بالماء، والنشور يعني إحياء الموتى، أجدادنا وآبائنا ونحن ومن يلحق بنا، وجميعاً ما نحن إلا عنصرية كيميائية مستودعة في الأرض، لا بد لإخراجنا من ماء ﴿ والله أنبتكُمْ مِنَ الأرضِ نَباتاً* ثم يُعيدُكمْ فيها ويخرجكُم إخراجاً ﴾ (نوح: ١٧-١٨)، وسبحان المنبت، ﴿ وأنبتنا فيها من كلِّ شيءٍ مَوزونٍ﴾ (الحجر: ١٩).

ومن جديد القول، قولنا إن العلم بالقرآن ما زال يترل على أمة نبي الرحمة حتى هذه اللحظة التي أكتب بها هذه السطور،وأرجو أن لا يعجل القارئ الكريم فيظن بي الظنون،.. . نعم إن القرآن استكمل نزوله على حياة نبي الرحمة بوصفه كتاباً، حفظه الله لنا ويحفظه للاحقين.. ولكن القرآن بوصفه علماً كونياً تاماً لا يحاط بشيء من علمه إلا بما شاء سبحانه، والذي دعا إليه سبحانه المسلمين الأول، هو ذاته الذي يدعونا إليه ويدعو اللاحقين ألا وهو، العلم به.ترى كيف يتحقق العلم دونما نزوله أو الإذن بتروله سواء من السماء الكونية، أو من السماء البشرية (الدماغ)؟

ومن جهة أخرى، لا بد من تذكر تلك الحقيقة القرآنية الكونية التي جعلت من القرآن دائماً بدوام كل شيء، فهو يخاطب النبي الظاهر- الحجة الظاهرة، ويخاطب المُأْتَمَّ بحجية ذلك النبي وصدقه سواء كان معاصراً للنبي أم غير معاصر له .. وعلى هذا الأساس،يكون الخطاب القرآني للنبي وبوساطته للناس جميعاً مرة وللمؤمنين منهم مرة،

باعتبار أن الناس جميعاً مؤمنين بحجية عقولهم (القرآن الشيئي الداخلي)، أما المؤمنون فأتبعوا قرآنهم الداخلي، قرآنهم الخارجي المحمدي، كون القرآن المحمدي أهدى من حيث هو بيان ظاهر، وكشف مبين يغنيهم عن البحث والتقصي الذاتي والشخصي الذي يؤدي بهم إلى ضلالة، وأن صاروا بوجود القرآن الظاهر يقرنون الباطن إلى الظاهر، ليزدادوا تبيناً ويقيناً.

يقول القرآن؛ ﴿ وَلو أنَّ أهلَ القُرى آمنوا واتَّقوا لفَتحنا عليهم بركات من السّماءِ والأرضِ ﴾ (الأعراف: ٩٦). ويقول؛ ﴿ ولَو فَتحْنا عليهِمْ باباً من السَّماءِ فَظَلُّوا فيه يَعْرُجون ﴾ (الحجر: ١٤). ويقول؛ ﴿ وألَّوِ استْقامُوا على الطريقةِ لأسْقَيناهُم ماءً غَدَقا ﴾ (الجن: ١٦).

وأغلب الظن أن المقصود بجديد القول، صار واضحاً، فالمقصود بقولنا إن علم القرآن ما زال يتنزل، هو تنزله من حيث هو علم بشيء منه، ويقيناً إن الطريق إلى نيل بركات هذا العلم هو الإيمان بنبوة نبي الرحمة، من حيث هي باقية ببقاء الكتاب ثم الإيمان بحكمة القرء والقرن التي جمعت اسمين أحسنين من أسماء الله الحسنى، هما (الفتاح) و (العليم) فضمت العليم إلى الفتاح الذي ورد صريحاً لمرة واحدة مقروناً إليه العليم في؛ ﴿ قُلْ يجمعُ بيننا ربُّنا ثُمَّ يفتحُ بيننا بالحقِّ وهُو الفتَّاحُ العليمُ ﴾ (سبأ: ٢٦). فالعلم إذن لا يتحقق إلا بالجمع والقرء، والقرن إلى القرآن، فإذا حصل الجمع، شرط الإيمان والتقوى والاستقامة (وهي الشروط المقابلة للشروط المكانية والزمانية المناخية والجغرافية الجوية لنزول المطر)، إذا تحقق ذلك تحقق الفتح، وبتحققه يتحقق العلم... وهذه حقيقة قرآنية كونية، لا يحدها زمان أو مكان، فلكل زمان ما يناسبه من علم القرآن.

١٠. وفي ضوء ذلك كله، وببيان النقطة الأخيرة خاصة، نرى إلى أنفسنا ونحن نضم بذرتنا المعرفية إلى القرآن، مطالبَين بأن نستنبت ذواتنا المعرفية في أرضية

القرآن، شرط أن تكون تلك الذوات خالصة من الشوب والكدورة والموجهات السابقة والتابعيات الأبوية، خلوص البذرة بالنسبة إلى الشجرة وأغصانها وأوراقها.. أي أننا مطالبون ونحن نتدبر البيان القرآني، أن نتخلص من شيئيتنا إلا جماع عقولنا وقلوبنا من حيث هو استعداد مهيأ للاستنبات، ولا يمنع ذلك من التسلح بكل ما من شأنه الاقتراب بنا خطوة إلى البيان، شرط أن لا يشكل التسلح المعرفي موجهاً للانحياز لفرقة بعينها، أو بعد معرفيّ عن عروبتنا، أو تابعية أبوية لغير القرآن.

إن فتح باب بعينه من أبواب السماء القرآنية، يكفينا تماماً شرط أن نتخذ الباب مركزاً، فيتخذ الباب محيطاته، وليس بعد ذلك إلا العروج.. وحينها سيكون شعورنا هو الشعور عينه الذي يشعر به ملاحو الفضاء أو غواصو البحار والمحيطات، بل – ولا أبالغ– إننا سنُعلّم أولئك الملاحين والغواصين بما يشعرون به، مهتدين بقرآنية العروج القرآني وما ذاك إلا لأن علاقة القرآن بالكون، هي ذاتها علاقة الخلاصة بالعرض أو المتن، ويقيناً إن المتن أو العرض أو الشرح مضمر في الخلاصة،فهو كائن في الخلاصة وبها ومتكون بكونها، والخلاصة بعد ذلك تتضمنه وتتضمن العلم به، فهي منهاجه ونظامه العميق الساري في مظاهرِه وأمثلته وتطبيقاته. فالمتن مظهر الخلاصة وليس هو العلم الكلي المجرد الكائن في الخلاصة، والمتن مصداق الخلاصة، فهما إذن مصداق ومفهوم، أو هما شكل ومعنى، فالكون الشيئي خارج القرآن هو الشكل، والكون اللساني هو المعنى، والشكل يبحث عن معناه دوماً،وإلا فإنه يظل عائماً وغفلاً وعشوائياً دائماً.

إن حالنا مع البيان القرآني، لحظة نريد العروج في بابه، حال غواص في بحر. ويقيناً إن انطلاقة الغواص دائماً من السطح إلى الأعماق، وليس الاكتفاء بالبقاء على السطح غوصاً بل سباحة، أما مخالفة السنة الكونية البحرية، بحيث أن بدء الغوص لا

يكون من على السطح، فمسألة غير واردة.. ويقيناً أيضاً إن الذي ينال بالغوص يختلف من غواص لآخر، ويقيناً ثالثاً، إن ما يفترض بالغواص الاستعداد له والوعي به، قبل الغوص، هو أن ينتزع نفسه تماماً من خبراته الأرضية لحظة ملامسة جسده للسطح، فإن أبقى عليها جميعاً، أودى بنفسه إلى هلاك.. فإذا رغب الغواص بمعرفة حقيقية من وراء غوصه،عليه أن لا يكتفي بمطالعة المويجات من على الشاطئ فاصلاً بين ما هو قريب منها عما هو بعيد، وما من فصل، فإن أصرّ الغواص على ذلك، لا يجوز عليه وصف الغواص، لأنه ما عرف ولن يعرف ما يطالبه البحر بمعرفته، على أن شرط المعرفة المهم لمن يستجيب لمطالبة البحر بالمعرفة، هو أن يتحول ذلك الغواص إلى سمكة فضية من بين أسماك البحر، مع فارق الكيف والشيئية.

١١- إن قوله تعالى؛ ﴿ واتّقُوا اللهَ ويُعلِّمكمُ اللهُ واللهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، تبين مما تبين عنه،عن حقيقة أننا – أقصد المسلمين- مخصوصون بعلم كل شيء دون غيرنا من الأمم، وإننا مطالبون بعلم كل شيء.. وليست المطالبة تحميلاً لنا ما لا طاقة لنا به، لأن الشرط الوحيد لذلك العلم هو التقوى، فإن لم تكن التقوى مدخلاً، كان الجهل بكل شيء مخرجاً؛ ﴿ وقُل ربِّي أَدْخِلْني مُدْخلَ صدقٍ وأخرِجْني مُخرجَ صدقٍ واجعل لي من لَدُنكَ سُلطاناً نصيراً﴾ (الإسراء: ٨٠). وكان الوجه الذي للفتح لا وجه رحمة، بل وجه عذاب، ولم يعد الفتح فتح باب واحد، بوصف ذلك الباب مدخلاً جامعاً، وإنما أبواب متفرقة، أو مداخل، وهذا ما لا يحقق علماً بكل شيء؛ ﴿ فَلمَّا نَسُوا ما ذُكِّروا بهِ فتحنا عليهم أبواب كلِّ شيءٍ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخَذْناهمْ بغتةً فإذا هم مُبلسون ﴾ (الأنعام: ٤٤).

إننا إذن، دون غيرنا العالمون بكل شيء، وإننا دون غيرنا من غير المسلمين مشروط علمنا بكل شيء، بتقوانا، ومدخلنا الذي هو مدخل صدق، بوصف ذلك المدخل شرعتنا ومنهاجنا. وليس ثمة أصدق ولا أجلى بياناً من هذه الخلاصة البيانية

الجامعة المانعة؛ ﴿ وأنزلْنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ مصدِّقاً لما بين يديهِ من الكتبِ ومُهيمناً عليهِ فاحكمْ بينهُم بما أنزلَ اللهُ ولا تتَّبعْ أهواءَهُم عما جاءكَ من الحقِّ لكلٍّ جعلنا منكم شِرعةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً ولكنْ ليبلوكُمْ في ما آتاكُم فاسْتَبقوا الخيراتِ إلى اللهِ مرجعكُم جميعاً فينبِّئكم بما كنتم فيه تختلفُون ﴾ (المائدة: ٤٨).

أما الغربيون وغير المسلمين فلهم شرعتهم ومنهاجهم، وليس مشروطاً علمهم بتقواهم، هكذا قضت السنة الإلهية الكونية، وكان ذلك كذلك ليبلونا ويبلوهم.. لهذا امتلكوا غير قليل من العلم بالأشياء من حولهم وما زالوا، ولن نقدر نحن إلا بتحقيق التقوى وتوحيد الأبواب والمداخل. وما هذا الشرط إلا لنا قبل أن يكون علينا. وإن كان حجة لنا وحجة علينا في الوقت نفسه.

وأخيراً فإن العلم الغربي لم يكن ليوجد ويكون إلا بالشرعة والمنهاج الإلهيين. وما علم الغربيين إلا بموجب الإفادة من النظام القرآني الكائن في الإنسان مؤمناً أم لم يكن. ولقد أعمل الغربيون قرآناهم الداخلية يهوداً أو مسيحاً وغيرهما، وأعملها الوضعيون والمشروكون في الغرب وغيره، فعلموا ما لن نعلم، إلا بإعمال عقلنا الخارجي الواحد - القرآن المحمدي-.

١٢- أخيراً، إن شرائط وعلائق وظهورات الكون الشيئي الحيوي -الكيميائي- الفيزيائي، من حيث هي شروط الظاهرة والمظهر، والتي نبحث عنها في القرآن الكريم، ليس لها وجود شيئي عيني في الكلم القرآني، بل هي ذات وجود لساني يمتلك استعداده لولوج الذات المتبينة إلى عوالمه كي يهبها العلم بذلك الوجود الحرفي القرآني والذي هو تبيان وجود الـ "كل شيء" خارج القرآن. شرط أن نضع في اعتبارنا أن مطالبتنا الخلاصة بالتوفر على التفصيلات والجزئيات والتطبيقات والشروحات مطالبة باطلة، وذلك لأن الكلم القرآني ليس مفصلاً للأشياء كل على حدة بل مفصل للـ "كل شيء" الجامع الذي تشترك به الأشياء

جميعاً من حيث هي حركة كونية، ولو كان الأمر أمر تفصيل للأشياء من حيث هي فرق أو مختلفة متعددة، لاحتجنا إلى قرآنات أخرى بعدد الأشياء وأنواعها، ولخالفنا نواميس الكلمة القرآنية الواحدة التي كان بها كل شيء، كلمة "كن" والتي جاء القرآن لتبيان سريانها في الـ "كل شيء" من حيث هو صفة كما لو قلنا: (الإنسان) فالإنسان صفة يشترك فيها الناس جميعاً، وكما لو قلنا (الزرع) فالزرع صفة تشترك فيها المزروعات جميعاً وعلى اختلاف ألوانها،وكذلك حينما نقول؛ "كل شيء" مهتدين ببيان القرآن، حيث (القرآنية) صفة لكل شيء، كما أن (الإنسانية)صفة لكل الناس.. وإذن فإننا إذا ما احتجنا إلى أمثلة وتفصيلات وتطبيقات وشرح وتشريح للشيء المادي انتقلنا من المدخل إلى المخرج، أي من القرآن إلى الكون، وكذلك إذا قصدنا تبين ظاهرة بعينها، أو موضوعاً بعينه في القرآن، فالحركة هاهنا كذلك حركة من المدخل إلى المخرج. أما إذا قصدنا العلم الكلي المجرد، من حيث هو علم بالظاهرة أو بالـ "كل شيء"، فنتوجه إلى الكلم القرآني وكونه اللساني.. وبداهة إن هذا كله فيما يتعلق بنا نحن الذين لا نحمل صفة النبي أو من هو مبين ببيانه، وإلا فإن الذي يحمل تلك الصفة، يعلم العلم الكلي وعلم الشرح والتفصيل، بل إنه ليس به حاجة إلى الاستعانة بالوسائل والأجهزة طائرات كانت أو صواريخ أو حواسيب أو مختبرات.. لتحقيق الغاية الكامنة وراء صناعة تلك الأجهزة التي هي ليست إلا وسائل كما يحصل مع المتعلمين بعقولهم الداخلية. والأمثلة والشواهد على ذلك كثيرة.

إننا إذن، نستحصل - بشروط- من القرآن على شيء من علمه، ألا وهو العلم بـ "كل شيء"، أما النبي فمستحصل على العلم والعلم بالعلم وما وراء ذلك، ﴿وإنّه لذُو علمٍ لما علّمناهُ﴾ (يوسف:٦٨).

ثانياً: قرآنية الكلمة ـــ التاريخ والتبين:

لا شك إن نزول القرآن الكريم في الجزيرة العربية تشريف لها. ولا شك أيضاً إن أمة تلك الجزيرة أمة بيان وفصاحة، ولو لم تكن كذلك لما اختارها الله سبحانه مهبطاً لوحيه الذي نزله به جبريل على صدر نبي الرحمة.. ولكن هل تنتهي الحقيقة عند هذا الحد، إي عند هذا التفسير؟

لقد كان للرسل السابقين الرسالة المحمدية رسالات، كما كان لهم معجزات أو آيات، ولقد كانت معجزاتهم أبعد ما تكون عن الإعجاز البياني اللساني، فمعجزاتهم وأدلتهم على تلك المعجزات، وبراهينهم ومحاججاتهم، كلها كانت بصرية، أي أنها تتحدى البشر بالإتيان بمثل ما جاء به الرسل من حيث أن آية التحدي تخاطب العقل البشري مروراً بالإدراك البصري،كأن تكون تلك الآية أو المعجزة، الإحاطة بلغة الطير أو صنع اللبوس، أو غدو الريح ورواحها بأمر النبي، أو إبطال السحر وفجر الماء، أو تكليم الناس في المهد وشفاء المرضى وإحياء الموتى بإذن الله.. ولكن المعجزة المحمدية، وإن كانت بصرية في بعض من جوانبها مما تحقق للنبي الكريم من مثل تسبيح الحجر على يديه، أو مجي الشجرة إليه، أو تظليل الغيمة له.. فإنها من حيث هي الخاصة به دون غيره من الرسل، كانت معجزة سمعية، أي أنها تتحدى البشر بالإتيان بمثل ما جاء به الرسول من حيث أن آية التحدي تخاطب العقل البشري مروراً بالإدراك السمعي.

- ﴿ أمْ يقولون تقوَّلهُ بل لا يُؤمنون * فلْيأتوا بحديثٍ مثلهِ إنْ كانوا صادقينَ ﴾ (الطور: ٣٣- ٣٤).

- ﴿ أم يقولون افتراهُ قُلْ فأْتوا بعَشْرِ سُورٍ مثله مفتريات وادْعوا مَن استطعتُم مِنْ دونِ الله إنْ كُنتم صادقين* فإن لَمْ يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أُنزِل بعلمِ الله وأن لا إله إلا هو فهلْ أنتُمْ مسلمونَ ﴾ (هود: ١٣- ١٤).

- ﴿ وإنْ كُنتم في رَيبٍ مما نزَّلنا على عبدِنا فأتوا بسورةٍ من مثلهِ وادْعوا شُهداءكُمْ من دونِ الله إن كُنتمْ صادقين* فإنْ لم تفعلُوا ولن تفعلوا فاتّقوا النَّارَ التي وَقُودُها النّاسُ والحجارةُ أعدَّت للكافرينَ ﴾ (البقرة: ٢٣- ٢٤).

- ﴿ قُل لئِن اجْتمعَتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتُوا بمثلِ هذا القُرآنِ لا يأتُونَ بمثلِهِ ولو كانَ بعضُهُم لبعضٍ ظهيراً ﴾ (الإسراء: ٨٨).

ويقيناً، إن ذلك القرآن الذي لم يأت العرب بمثله ولن يأتوا، لا يتوقف العجز عن مثله، على أخباره وقصصه ووعظه وإرشاده وحلاله وحرامه، بل هو العجز عنه بعد العجز عن قرن وضم وجمع كل ذلك وغيره بعضه على بعض، كما هو بائن لهم من خلال حسن الحديث وبلاغته التي هي بلاغة كلمات الله التامات.

فالمعجزة المحمدية، إذن، معجزة سمعية، تعني مما تعني، أن المدخل المعرفي للعلم مدخل سمعي، وليس مدخلاً بصرياً. فشرعة هذه الأمة شرعة سمعية ومنهاجها المعرفي منهاج سمعي بينما شرعة غيرها، شرعة بصرية، ومنهاج غيرها منهاج يعتمد على ما هو مرئي، والمدخل في ذلك هو المشاهد البصرية، مذ اختلفت الألسنة والألوان والأمم، مروراً بعصر الرسالات وآخرها الرسالة المحمدية وانتهاء بعصرنا الحاضر وما بعده ما شاء الله. ولا بد لكل أمة من التمسك بمدخلها وإلا فلن يبين لها ما ترغب بل ما يجب عليها تبينه.. فإذا عدنا إلى البيان القرآني لنتلمس ظهوراً من ظهورات المدخل المعرفي الحق، وجدنا القرآن الكريم، يقدم السمع على الأبصار دائماً إلا قليلاً، أي إلا ثلاث مرات؛ (السجدة: ١٢ والأعراف؛ ١٧٩، ١٩٥)، ولسياقات قرآنية خاصة، من مظاهرها التعليلية، إن الآيات جميعاً تتحدث عن أولئك الذين كفروا بالله وأشركوا به، سبحانه عما يصفون. فآلية الإدراك هاهنا هي آلية بصرية والمعرفة متأثرة بهذه الآلية التي تغلب عليها الوجهة البصرية. وعدا ذلك فإن آية السجدة، تتحدث عما بعد الحياة الدنيا بالنسبة للمشركين، حيث ليس ثمة إلا الرؤية التي هي رؤية اليقين.. وببيان

ذلك كله، تتضح حقيقة أسبقية الصوت على الضوء، ثم عودة الضوء إلى الصوت، فلا فكاك كونيا فيما بين الصوت والضوء، بل تلازم فهما كلاهما وجه لحقيقة واحدة مع فارق الأسبقية والبطون. وفي ضوء ذلك كله، نزداد يقيناً بأسبقية ورجاحة المدخل السمعي بوصفه مدخلاً معرفياً، لائقاً بنا وحدنا نحن المسلمين.. وكذلك هي التسلسلات الكونية لكل شيء:(صوت ثم ضوء ثم صوت). وكذلك تسلسل الآية الإلهية المعجزة، صوت، ثم ضوء (نور)، ثم صوت، سواء من حيث عرض هذه الحقيقة على الرسالات السماوية أم من حيث عرضها على نشأة الكون الظاهرة و(فنائه) أو نشأته الباطنة، أو من حيث عرضها على معيارية الإدراك الإنساني الحق، أو من حيث عرضها على ما نستشرفه من آفاق المستقبل الكوني وسيادة الأنموذج المعرفي الحق، وبما يجعلنا مطمئنين إلى أن الأنموذج المعرفي الإسلامي سيسود في زمن يعلمه الله ويأذن به.

فإذا رجعنا إلى بيان (السمع والأبصار) وجدنا القرآن الكريم يجمع (الأسماع) في كلمة (السمع)، ويفرق (البصر) في كلمة(الأبصار)، وفي هذه البلاغة مما فيها، بينة أخرى على أن الأنموذج المعرفي الإسلامي قادر على (ومطالب بـ) توحيد قراءة الأشياء أو جمعها وضمها في أنموذج كلي شمولي عميق، هو أنموذج الـ "كل شيء" السمعي، فإذا عرضنا الجمع والتفريق، سمعاً وأبصاراً، على الرسالات السماوية،وجدنا المعجزات النبوية السابقة معجزة بني الرحمة، مفرقة مختلفة متنوعة وهي جميعاً بصرية، ووجدنا المعجزة النبوية واحدة مجموعة مقروءة في أحسن الحديث، وما شأن أحسن الحديث إلا واحد، آية كان أو آيات سورة أو سور.. فلا تفاوت ولا اختلاف.. فإذا عدنا لنعرض الجمع والفرق سمعاً وأبصاراً، على الأنموذج المعرفي وجدنا القرآن الكريم يدعونا إلى تأمل آيات الله في الكتاب وفي الآفاق والأنفس على أن آيات الله في الآفاق والأنفس بصرية، وفي الكتاب سمعية.وحتى نقدر أن نحيط بفرق البصر لا بد أن نعقله بجمع السمع، فالمدخل سمعي والمخرج سمعي، وما بينهما بصري. وليس كذلك

الأنموذج الغربي.

لقد بدأت الرسالة المحمدية، قبيل نزول الوحي، تأملاً عقلياً، سمعياً بصرياً وجدانياً في غار حراء. ولقد كانت الحاسة النبوية تستشعر ما حولها طلباً وبحثاً في الأشياء عن ما يعرج بالحاسة إلى الجامع الكلي الشمولي الذي يجمع ويضم الشيء إلى الشيء، ويعلو على الشيء والشيء، من حيث النظام، أو من حيث الذي هو سبب النظام وبه انتظم النظام بكليته. و لم يكن النبي في كل ذلك،مكتفياً بما يحققه له البصر، بل كان يوجه البصر الوجهة التي تزيد من شمولية التبين البصري، فالبصر متبين لا مِبين (بكسر الباء الثانية)، والذي يقع عليه البصر موضع تبين لما هو جامع البصر، أي للبصيرة العميقة التي كانت تستمع إلى الكلمة الداخلية المبينة. وبموجب ذلك، لم تكن الحاسة البصرية وحدها هي المؤتمرة بأمر الصوت الداخلي العميق، بل كانت الحواس كلها كذلك.

وفي أثناء ذلك كان العرب منشغلين بالاستماع إلى صوت الأشياء من حولهم، وكانت قصائدهم وحكمهم وأمثالهم التي هي مخرج لاستشعار حواسهم، تدون معرفتهم الحسية بالأشياء على أوضح وأجلى ما يكون عليه التدوين الشفاهي بوصف ذلك التدوين لساناً لم يتشكل على وفق ما كان عليه إلا استناداً إلى تجربة مباشرة ومشاهدة مستفيضة، كانوا بهدي منها يستدِرُّون الأشياء من حولهم بالكلمة الفصيحة فيعرفون منها ما لم يعرف غيرهم، وعلى الطرف الآخر كانت الأشياء تشكل لهم ذاكرهم القرائية، وتُقوِّم ألسنتهم بما يتلاءم وحركيتها الكونية المستمرة، فكان لسانهم مقارنة بألسنة غيرهم، لساناً نامياً زاخراً حروفاً ومفردات وتراكيب، حتى أن معجمهم اللفظي بلغ ما لم يبلغه معجم لغوي (أعجمي)، وإلى الآن.. ولقد كانت لغاهم النابتة في الأرضية اللسانية الموحدة (اللسان العربي)، نامية متحركة، وهي تتواضع على هذا الاسم وذلك الفعل وتلك الصيغة، فكان اللسان العربي وهو يتسلسل منسجماً في

الحركة الكونية للأشياء، معبراً دقيقاً ووافياً وأميناً الأمانة البشرية، عن كل ما هو شيئي من حوله، وعن ما يترتب على ذلك الشيئي من تبينات حسية عقلية، لذا جاءت مفرداتهم وتراكيبهم حسية في بداياتها عقلية في آخر مطافها واستدرارها، ودون أن يؤدي ذلك التطور العقلي للمفردة أو التركيب إلى التخلي عن الاستدرار الأول، إستدرار المعرفة الحسية، لأن التخلي عن ذلك الاستدرار أو ذلك التبين يعني التخلي عن الوجه الظاهر لقانون الجمع والضم والفرق والبعد كل على حدة أو جميعاً، باعتبار أن ذلك القانون، سنة كونية مكنونة في الأشياء جميعاً، كما هي مكنونة في الإنسان جميعاً من حيث هو مدرك، فالإنسان عقل واحد وحواس متفرقة، بل إن الحواس هي الأخرى، حاسة واحدة جامعة هي الحاسة السمعية، وحواس مختلفة هي البصر ووجوهه؛ (اللمس والذوق والشم).

وحينما نرجع إلى القرآن الكريم، نجد أنه لم يأت بما لم يأتِ به اللسان العربي قبل نزوله، إلا قليلاً، على أننا نقصد بالعربية هاهنا، العربية المبينة، أي اللسان العربي، لسان قريش، -وسنتبين ذلك بعد قليل-، إلا إن الذي حصل مع القرآن الكريم هو إنه جمع تلك المفردات والتراكيب، أو قرنها وقرءها، "بعلم الله"، لا بعلم البشر. وعلم الله نافذ في كل شيء، وكائن به كل شيء، وجامع لكل شيء، فالقرآن إذن قرنها أو ضمها بعضها إلى بعض، من جهة، وقرن كلاً منها إلى ما هو خارجها مما كان يشكل خبرة العربي من أشياء مدركة له أو غير مدركة من جهة ثانية. وهو إذ قرنها القرن الجديد، القرآني، فرقها وباين بينها وبين القرن البشري السابق، حينما كان القرن البشري يتوهم التبين، لا يتيقنه، فيعوج هنا أو هناك، ولا يطابق التبين البيان، وخاصة حينما تحول القرن اللغوي البشري إلى ممارسة مترفة تتمثلها القصائد المعلقات أو سجع الكهان وغيرهما - وباختلاف- مما جعل من اللسان العربي، خاضعاً لتوجيه تلك الممارسة ومتأثراً بها متوهماً معيارية تبينها، وليس لتلك المعيارية رسوخ أو مشروعية،

إذا نظرنا إليها في ضوء تلك الاعتبارات الشعرية الخاضعة لضرورات الوزن والقافية واضطرار الشعراء إلى وضع كلمة دون أخرى واستبدال ثالثة برابعة، وتركيب بغيره مراعاة للوزن، وإن كان الوزن الشعري ومازال ممارسة داخلية ذوقية قبل أن تكون خارجية تعليمية. وكل ذلك طمعاً بقبول المتلقي واستحسانه، أو ما يترتب على الاستحسان، أو ما يوجه الشاعر من رغبة أو رهبة. وهكذا صار الشاعر هو المركز والمحيط، وكذلك صار الكاهن على الطرف الآخر. وكلاهما متبين، وكلا التبينين تبين ذات محدودة العلم، وخاضعة لاعتبارات الهوى، ثم إنها أي تلك الذات لا تتلقى العلم ولا تلقيه تلقى وإلقاء الحكمة المطلقة المجردة والعلم الشمولي،وإن لم يكن البيان الشعري جميعه ليخلو من الحكمة التي هي مدار القول وجامع التقول. فإن من البيان لحكمة.

أما القرن الإلهي، الكائن في كلمات الله التامات، فهو القرن المنسجم مع ما عليه الخلق الشيئي للموجودات من قرن، فالقرآن مقارن ومطابق وكاشف عن ذلك القرن، ودون أن يؤدي ذلك القرن إلى التضحية بالحسن اللساني، بل بالعكس تماماً، فالحسن اللساني القرآني أظهر تلك الزينة الخارجية التي للأشياء خارجهُ، كما تظهر الأرض زرعها، بدءاً بإظهار الحرف وانتهاءً بإظهار السورة. فالقرن الإلهي ابلغ من أن يعنى بقرن الكلمات إلى بعضها حسب، وإعجازه ليس كائناً هاهنا حسب كما ذهب إلى ذلك شيخ البلاغيين العرب القدامى، وغيره من البلاغيين[1]، إلا إذا ضممنا إلى هذه الحقيقة ما نحن بصدد اتخاذه مدخلاً معرفياً، ألا وهو،إن الإعجاز القرآني كائن في قرن الحروف والكلمات والتراكيب والمظاهر البلاغية الخارجية على وفق الكيفية التي عليها القرن الكوني ومظاهره الشيئية خارج القرن، وبتعبير آخر، إن الإعجاز القرآني كائن

---

(1) انظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، وقف على تصحيحه السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت – لبنان (د. تا)؛ ص ٢٩٤– ٢٩٥، والبرهان في علوم القرآن، ج٢/ص١٠٤.

في إحاطته العلمية بكل شيء إحاطة لسانية بلاغية، معجبة، هي ذاتها الإحاطة البليغة بالموجودات من حيث نظامها الداخلي البليغ ومظهرها التزييني وحركيتها الكونية وديمومة موتها وإحيائها وتجدد خلقها، ومن ثم من حيث وجودها والحكمة من وجودها. فبلاغة القرآن إذن بلاغة كونية وهذا هو سر إعجازها على مر العصور، فهي إذْ أعجزت السابقين معجزة للاحقين، وكل على قدر تبينه. فإذا تبين السابقون هذه البلاغة في لغاتهم، فلأن الحركة الكونية الشيئية الخارجية واللسانية البشرية، كانت في تلك الحقبة الزمنية لا تسمح بما هو أكثر من ذلك بالنسبة لغير النبي ومن هو أقرب إليه وأبعد عن البسطاء، من الناس، ولكن الحقب الزمنية اللاحقة شهدت تبينات أخرى ومختلفة، وما هذه التبينات إلا نابتة أو خارجة من التربة نفسها- بغض النظر هاهنا عن بعض الموجهات والتابعيات-، وكذلك الحقبة الزمانية التي نعيش فيها، وكل ذلك لأن بلاغة القرآن التي هي بلاغة العلم المطلق أبعد عن، وأتم من البلاغات البشرية.

نعم كانت البلاغة العربية إبان نزول القرآن وبُعَيْدَ ذلك متميزة لسانياً ، ولكنها تبقى بلاغة بشرية، أي علماً بشرياً محدوداً من حيث قدرته على الإحاطة والقرن والمقاددة الكلية والشمولية، ثم من حيث قدرته على الإحاطة بغير قليل أو قليل، من ذلك، دونما تضحية بواحد أو اثنين أو الجميع من ثلاثة مقومات للبلاغة، ألا وهي؛ (الإتقان، النفع أو التسخير، والحسن أو الزينة)، سواءً كانت تلك البلاغة لسانية أم لم تكن. عدا ذلك كله فإن مما يتصف به القرن البشري للكلمات، هو إن المقاددة والمطابقة لما هو في الخارج، مطابقة ذاتية، وهذا يعني أن للنفس الإنسانية أثراً فيها، وبالمحصلة، في نسبيتها وعدم الاعتقاد بموضوعيتها.. وهكذا كانت البلاغة إبان نزول القرآن الكريم.

جاء في الكتاب المقدس: "*في البدء خلق الله السماوات والأرض* وكانت

الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلام" وروح الله يرف على وجه المياه* وقال الله ليكن نور فكان نور" (سفر التكوين، الإجماع الأول: ١-٣).

وجاء في القرآن الكريم، عاطفاً الأمر الإلهي على الأسماء الحسنى ممثلة بـ (البديع)؛ ﴿ بديعُ السموات والأرضِ وإذا قضى أمراً فإنما يقولُ لـهُ كـنْ فيكـونُ ﴾ (البقرة: ١١٧).

وتكشف للعارفين أو العرفاء، "إن معاني الكتب في القرآن ومعانيه في الفاتحة ومعانيها في البسملة ومعاني البسملة في الباء"[١]، وجاء عندهم؛ "الدائرة ما لها باب. والنقطة التي في وسط الدائرة هي معنى الحقيقة، ومعنى الحقيقة شيء لا تغيب عنه الظواهر والبواطن ولا تقبل الأشكال"[٢].

وتبين للفيزيائيين المعاصرين، أن تمدد الكون بما فيه من مادة، جاء عن اصل لا تشغل مساحته ما تشغله مساحة بروتون واحد في ذرة، وأن هذا الكون ما زال في تمدد. فالكون بدأ إعلاماً أو فكرة أو كلمة أولاً، ثم خلص إلى طاقة ثم خلص أخيراً إلى مادة، ودونما انفصال للمادة عن الطاقة. أي (وباعتبار الوحدة الأولية لقياس الضوء والمادة)، الكون، ذرة وإشعاع[٣].

---

(١) أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، البغدادي سنة١٢٧٠هـ، روح المعاني، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، (د.تا)؛ ج١/ص٣٧.

(٢) الدكتور رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٩٩، ص٩٩١.

(٣) انظر: فرانسيس كريك، طبيعة الحياة، ترجمة: د. أحمد مستجير، مراجعة: د. عبد الحافظ حلمي، سلسلة عالم المعرفة (١٢٥)، الكويت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص٣٠ وما بعدها. ووليد منير، النص القرآني من الجملة إلى العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ص٦٤، و د.أحمد محمد عوف، سيناريو النشوء والارتقاء والفناء بالكون (بحث مستل)، مجلة العلم، القاهرة، العدد ٣٠٢ نوفمبر ٢٠٠١، ص٦٤ وما بعدها، وفلسفة العلم في القرن العشرين، ص١٩١ - ١٩٢.

أولية الكون، إذن، كلمة إلهية، متماسكة متضامة مقروءة أو مجموعة جمعاً ليس ثمة جمع أبعد منه وأبلغ، ثم تكثرت؛ ﴿ اعلموا أنّما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكُمْ وتكاثرٌ في الأموالِ والأولادِ كمثلِ غيْثٍ أعجبَ الكفّارَ نباتُهُ ثم يهيجُ فتراهُ مُصْفَرّاً ثمّ يكونُ حطاماً ﴾ (الحديد: ٢٠)... فماء واحد ونبات مختلف مرةً، وكلمة واحدة وآيات مختلفة مرةً ثانيةً، وشيء واحد (كل شيء)، وأشياء مختلفة مرة ثالثة، وتبقى الحقيقة الأولى حقيقة الكلمة واحدة لا تختلف إلا من حيث هي صفات وظهورات وأشياء، على أن تلك الظهورات المتفرقة لا تعني تشتت الجمع الأول المتماسك للكلمة الأولى، فالماء هو الماء وإن تعددت صفات الزرع أو النبت، واختلفت ألوانه. أما الماء من حيث هو تاريخ، فأول بأولية المادة السائلة، فالماء الأول، ولنسمه: الماء الكوني، الجامع للتشكيلات والعناصر الكيميائية بصفتها الجزيئية جميعاً، لا الماء المعروف لدينا اليوم، أول مع أي إيذان ببدء حياة مهما كان نوعها [1]، وعلى مر الحقب الزمنية؛ ﴿جعلنا من الماء كلّ شيء حي﴾. وهو كذلك أول بعد انتقال المظاهر الحياتية إلى كونها الجديد بالموت أو قبيل (فنائها) —كما يروق للماديين- وليس ثمة فناء بل تكون جديد. وما حطام الزرع أو النبت إلا سلب لمائيته الكونية من خلال جزئياته جميعاً، وكذلك هو انتزاع الروح من جسد الإنسان، وبالمثل انتزاع المعنى من الكلمة، وخلاصة القول، إنه انتزاع الكلمة التي بها كان أول التكون أو التبين الحياتي من الأشياء.. وكذلك الذي يحصل حينما ينسى الإنسان ذكر الله سبحانه أو حينما يهجر

---

(1) انظر: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام،نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبدة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، (خطبة ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم)؛ ج١/ص ١٦-١٨. وورد فيها؛ ".. أحال الأشياء لأوقاتها. ولأم بين مختلفاتها. وغرّز غرائزها، وألزمها أشباحها(..) ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء وشق الأرجاء وسكائك الهواء. فأجرى فيها ماء متلاطماً تياره، متراكماً زخّاره، حمله على متن الرياح العاصفة.." وقارن بذلك، طبيعة الحياة: ص٨٧.

القرآن فيؤذن الهجران حينما يصير جماعياً بقيام الساعة، ويؤذن حينما يصير هجراناً معرفياً بتخبط معرفي ثم حطام وجهل.. والماء بعد ذلك سابق للزرع من حيث أن الزرع ظهور، فهو كائن فيه، والزرع كائن به، والذي يبقى بعد حطام الزرع هو الملء. (فالماء قبل .. والماء في .. ، والماء بعد ..). هذا هو تأريخ الماء، وكذلك هو تأريخ الكلمة.. فلا فاصل زمنياً بين قول الكلمة ومظهرها الشيئي. فقوله سبحانه، فعله، ولفعله مظاهر، فلا فترة بين القول والفعل وإن تراتبت المظاهر، وما الإنسان إلا مظهر جامع للمظاهر جميعاً، تلك التي للقول والفعل. فهو تبيُّن بليغ من تبينات هذا الكون البليغ. انه وجه الكلمة الجامع والأشياء وجوهها المتفرقة. إنه بدأ بكلمة ويموت بكلمة ويبعث بكلمة؛ ﴿ ومِنْ آياتِهِ أن تقومَ السّماءُ والأرضُ بأمرِهِ ثم إذا دَعاكُمْ دعوةً مِنَ الأرضِ إذا أنتُمْ تَخرجونَ ﴾ (الروم: ٢٥).

لقد سأل إبراهيم ربه، أن يريه كيف يحي الموتى، فأراه سبحانه، أن ذلك بالكلمة، ﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ ربّي أرني كيف تُحيي الموتى قالَ أوَ لَمْ تؤمنْ قالَ بلى ولكنْ ليطمئنَّ قلبي قالَ فخُذْ أربعةً من الطَّيرِ فصرْهنَّ، إليكَ ثم اجعلْ على كلِّ جبلٍ منهُنَّ جزءاً ثم ادعهنَّ يأتينكَ سَعْياً﴾ (البقرة: ٢٦٠). وكذلك الحال مع عيسى (عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام)، فالكلمة هي الكلمة ولكن المظهر عيسوي، لذا تحقق للكلمة فعلها البليغ بإذن الله؛ ﴿ وإذْ تخلقُ من الطّينِ كهيئةِ الطّيرِ بإذني فتنفخُ فِيها فتكونَ طيراً بإذني وتُبرئ الأكمهَ والأبرَصَ بإذني وإذ تُخرجُ الموتى بإذّني ﴾ (المائدة: ١١٠).

إن غلظة المادة وثخونتها الشيئية لا تعني أن الذي بينها وبين الطاقة هو وجه البعد والمفارقة من وجهي (البين)، أقصد وجهي الوصل والبعد أو التباطن والتظاهر. فالطاقة كائنة في المادة، والمادة والطاقة منمركزتان. فالمادة ليست شيئاً صلباً تتبعثر به القدم لأنه ملتقىً وسط الطريق، وما هي جامدة الجمود الذي يشعر بها حاستنا اللمسية

بوصف تلك المادة مقاومة لها[1]. وما ذاك إلا لأن المباطنة والمظاهرة سنة الموجودات جميعاً، ثم هي سنة الحواس، فما نبصره قابل للسماع، وما نسمعه قابل للإبصار، وهكذا تترابط الحواس الأخرى، هذا هو المنطق القرآني الذي علينا التوقف عنده كثيراً. حاسة اللمس مرتبطة بحاسة البصر كما ترتبط حاستا الشم والذوق، وحاسة البصر، هي الوجه الشيئي لحاسة السمع. وللمادة أن تتحول لا إلى ضوء فقط كما بان للغربيين، بل إنها تتحول إلى صوت أيضاً بهدي من بيان القرآن، وعلينا البحث في هذه الحقيقة ثم التدليل عليها في الكون خارج القرآن.

إن عملية التضخيم الضوئي للمادة عن طريق الانبعاث التحريضي للإشعاع، يعني مما يعني تنقية الطاقة من المادة بوساطة الأدوات والوسائل الحديثة، من حيث هي أجهزة فائقة القدرة. ولكن استخلاص الطاقة وتنقيتها، بوصفها أشعة ضوئية، مرحلة، وليست هذه المرحلة غاية المراحل، ذلك أن البلاغة القصوى للتبين هي استخلاص الطاقة الصوتية الكائنة في المادة، وهذه أبعد غوراً من تلك وأبلغ. وهذه هي التي تحققت للأنبياء السابقين، بموجب تحقق الطاعة المطلقة والتقوى المحض؛ "وما تقرب إلىّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به..."[2]. فالقرب هاهنا، قرن المادة الجسدية إلى النفخة الروحانية بشرياً، وعلى سمت القرن الكوني للطاقة إلى المادة، وبموجب ذلك القرن البليغ، قرن الطاعة والتقوى، يسمع البصر ويبصر السمع، وتنطق المادة، بعد تجريدها من غلظتها بوساطة، (الكاشف النبوي) للجسيمات الذرية للمادة الشيئية وما وراءها. ولنسارع بالعود إلى وجه آخر من وجوه التأريخ الكوني للكلمة، بغية زيادة في يقين. يقول القرآن:

---

(١) انظر:: فلسفة العلم في القرن العشرين؛ ص٢٢٦.

(٢) انظر: الأحاديث القدسية :ج١/ص٦٢

١. ﴿ وورثَ سليمانُ داودَ وقالَ يا أيُّها الناسُ علّمنا منطقَ الطّير وأوتينا منْ كلِّ شيءٍ إنّ هذا لهو الفضْلُ المبينُ* وحُشِرَ لسليمانُ جنودُهُ من الجنِّ والأنسِ والطَّيرِ فهمْ يُوزعون﴾ (النحل: ١٦-١٧) "وكذلك الأمر مع قول النملة والهدهد، آية؛ ١٨-٢٦.

٢. ﴿وقالوا لجلودهِم لم شهدتُّمْ علينا قالوا أنْطَقنا الله الّذي أنْطقَ كلَّ شيءٍ وهو خلقكُمْ أوّلَ مرةٍ وإليهِ تُرجعون﴾ (فصلت: ٢١).

ولكن تأريخ الكلمة لم يستكمل وجوهه بعد في آيات سورة النمل. نعم إن القدرة النبوية التي آتاها الله سليمان قرنت الكلمة إلى الكلمة فلا مادة تعيق البلوغ، فتعلم سليمان منطق الطير وجنَّد الطير كما جند الجن .. ولكن القراءة هاهنا قراءة الشيء المادي البصري سعياً إلى السمعي، وهذه حقبة زمنية من حقب، لا الأخيرة، أما الأخيرة، فهي التي يصير فيها علم القراءة، علم الكلمة السمعية التي تكشف عن سنن الكلمة البصرية، وهذه هي قراءة نبي الرحمة محمد على الأنبياء جميعاً وعليه الصلاة والسلام. وهذا هو الوجه الأخير من وجوه الحركة الكونية لتأريخ الكلمة .. وما الكلمة هاهنا إلا؛ ﴿اقرأ باسْم ربِّك الذي خَلَق* خلقَ الإنسانَ مِنْ علقٍ* اقرأْ وربُّكَ الأكرم* الذي علّم بالقلمِ* علَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يعلمْ﴾ (العلق: ١-٥). فالقراءة هاهنا بالكلمة وفي الكلمة ومن الكلمة واليها مروراً بالمخلوقات وانتهاءً بالعلم بها، لا ببعضها، كما ورد على لسان سليمان، ﴿وأوتينا من كل شيء﴾، بل، "تبياناً لكل شيء" كما خوطب خاتم الأنبياء. وما الـ "اقرأ" هاهنا إلا الوجه النبوي للـ "كن" أو إنها المعادل العلمي لها.. وليس بين أمر الـ "اقرأ" وتكونه في النبي، أو تفعّله فترة من زمن. وبهدي من بيان؛ "اقرأ" وأوليتها، يكون المقرئ هو، الله الرب الخالق الأكرم العليم،فهو أول الأولية الإلهية، والقارئ – المقروء (النبيّ)، أول أولية المخلوق،

والقراءة- (القرآن) أول،أولية الإبانة وهذا ما سنتبينه في المدخل الأخير من هذا الكتاب، مدخل القراءة.

وعلى الطرف الآخر لأولية الكلمة، هناك أولية القلم. فالقلم لزيم الكلمة، ومبينها والدليل عليها، فلا ديمومة للكلمة بلا قلم، ولا تبين لبيانها، ولهذا جاء في أسماء القرآن؛ "الكتاب". فالقلم خارجي داخلي،به تبين الكلمة عن علمها كلما قرن الزمان إلى الزمان، والمكان إلى المكان والشيء إلى الشيء والعلم إلى العلم. ولقد ورد عن نبي الرحمة؛ "أن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن"، وورد؛ أن أول ما خلق الله الحرف، وورد، أن أول ما خلق الله؛ العقل[1]. وليس ثمة تعارض بين الورودات السابقة جميعاً. فالقلم أول، والحرف أول، والعقل أول. وليس القلم بشيء دونما أولية الحرف.وكذلك ليس الحرف بشيء دونما أولية القلم. فالقلم والحرف متمركزان (مركز ومحيط)، أو هما متظاهران متباطنان، أو هما وجهان لحقيقة واحدة هي حقيقة العلم- الخلق، الخلق - العلم، أو هما طرفا القرن: المقرون والمقرون إليه.بل إننا حينما نعرض هذه الحقيقة على ممارساتنا الكتابية اليومية، نجد أن الحرف والقلم متلازمان.وما القلم الخارجي الذي تمسك به أصابعي الآن، وأنا أنسخ هذه الكلمات على الورقة التي أمامي، إلا صورة ظاهرة لذلك القلم العميق

(١) انظر: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي، ت ٤١٨هـ، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان، ط٢، ١٤١١هـ، مج١/ص٢١٨، ومحمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف - الرياض، ط١١، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، ج٢/ص٣٩، وأبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي ت٣٢٩هـ، الأصول من الكافي، صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ج١/ص٢١.

الداخلي الذي يكتب الآن، والذي ما بين القلم الداخلي والقلم الخارجي هو الذي ما بين طرفي حبل. فذاك القلم الداخلي حرف، والحرف الخارجي قلم.

والذي يبين بعد ذلك كله، أن القلم والحرف، كليهما أول في ضوء ما نعتبره فيهما من بطون أو ظهور، ثم في ضوء السياقات والمسالك البيانية وما لأجله قال النبي هذا القول أو ذاك... وباعتبار الجهة البشرية للقلم والحرف، نرى أن القلم والحرف من حيث هما ظاهران، ليسا بشيء دون وجود العقل الذي يجمعهما. فهما أي القلم والحرف أولان بأولية العقل. والعقل وهو مآل علم القلم وكينونته الحرفية،ليس بشيء دون وجودهما.

إن التسلسل الأول للكلمة الجامعة، أو أصلها الذي تراتب ظهوره في الأشياء جميعاً بحيث أن تلك الأشياء تشترك جميعاً في استبطانها لتلك الكلمة بوصفها الجامع؛ "كل شيء"، هو ذاته الأصل الذي تراتب ظهوره في آدم عليه السلام أولاً، بوصفه الأصل الجامع الظاهر للإنسانية، ثم تراتب الظهور في الذرية. فالآدمية هي المقابل الجامع للشيئية، أو الـ "كل الأشياء" في الأشياء جميعاً. مع فارق أن الآدمية بلاغة الخلق من حيث حيويته العلمية وامتلاكه إرادته وقدرته على الإحاطة بالأشياء من حوله ثم تسخيرها لأجله. فالآدمية هي الترقي الحيوي للمادة الشيئية وكما أن سلب الماء من الأشياء يعني مواتها كذلك سلب الآدمية من الإنسان، وهاهنا يتبدى لنا أن الأنموذج المعرفي القرآني، أنموذج يدعو إلى (أنسنة) الأشياء، لا إلى تشييئ الإنسان، ومن ثم الحط من شأنه، من حيث هو خليفة الله في الأرض، أي من حيث هو قيمة معنوية لا طبيعة مادية. على أن ذلك لا يعني تجريد الإنسان من شيئيته، فتجريده من شيئيته يعني توهم ألوهيته وما هو كذلك .. فإن كان لا بد من التجريد، ولا بد منه، ولكن بقدر، فإنه التجريد الذي ينتهي بنا إلى تتبع بلاغته النبوية. فللإنسان، درجة أعلى من الشيئية على الرغم من شيئيته، ألا وهي درجة النبوة. وللنبوة درجة أعلى من الإنسانية على الرغم

من إنسانيتها، ألا وهي درجة الوحي وعدم النطق عن الهوى.

ولقد كان الإنسان نبي نفسه، حينما كان جمعاً جامعاً ممثلاً بـــآدم، ثم صـــار بموجب السنة الإلهية، سنة العلم باطناً وظاهراً وأولاً وأخراً، وجمعاً وفرقاً وجمعاً، يطلــب هذه النبوة في شخص واحد من جنسه، بعد أن تسلسل الجمع الآدمي في فرق الذريـــة والأمم.. وما ذاك إلا لأن العلم المكنون في الذرية محجوب بالشيئية المتمثلة بالجســـدية والنفسية الإنسانية، ولا بد لتلك الحجة الباطنة، أو الحيوية الباطنة من فتق بعد رتــق[1]، أو إظهار بعد استبطان، أو نور بعد ظلمة، أو إبانة وإظهار بعد خفاء وبطون، كمـــا لا بد للزرع المكنون في الأرض من ماء سماوي ..

وهكذا استلزم الفرق البشري بعث الأنبياء والرسل مُذ الفـــرق الأممـــي الأول لذرية آدم وانتهاء بالفرق الأخير الذي لزمته نبوة جامعة وبليغة، تمثلت بنبـــوة خـــاتم النبيين، وكتابه الذي هو آخر الكتب، وبهذا التسلسل الأخير خلص الكـــون (شـــيئيته وآدميته) إلى تمامه وكماله قرناً وجمعاً وضماً وإبانة، سواءً كان خلقاً أم رسلاً أو كتبـــاً، مكاناً أو زماناً.

ولقد كانت الحكمة الإلهية بالغة أمرها، وهي تجعل من نبي أمة الجزيرة، وهـــي أمة البيان والفصاحة، نبياً أمياً، لا يعرف القراءة والكتابة الخارجيتين الآليتين. لقد كـــان العرب يتوسمون في شعرائهم الحكمة والعلم، وكانوا يرون فيهم ملهمين معلمين، وعلـــى الطرف الآخر، كانوا يرون في فعل الكلمة نفاذاً وولوجاً فيهم لا يرقى إليه فعل الســـيف نفسه .. في هذه الأرضية نزل ماء الحكمة، وبعث الله نبيه الأمي، الذي صـــار وهـــو الأولى بذلك، أفصح من نطق بالضاد، أو أفصح العرب، بعد قرنه وقربه وجمعه وبيانـــه

---

(1) ورد عن آل البيت: "إن لله على الناس حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة فأمـــا الظـــاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام وأما الباطنة فالعقول". انظر الأصـــول مـــن الكـــافي : ج١/ص١٦.

بالقرآن، ولا عجب وهو الذي يقول؛ "أوتيت مفاتح الكلم وخواتمه"(1)، أي لا عجب وهو المبين للبيان الإلهي، ولا عجب وهو الذي أُلهِمَ عربية إسماعيل كما أُلْهِم إسماعيل من قبل(2). وبلاغة هذه الحقيقة، تقضي بأن القراءة والكتابة اللتين نعرف وإن ترقت أسماؤهما وصفاتهما، ليستا بالعلم المحض والحق، إن لم تستلزم القراءة الخارجية أو الذاتية، قراءة داخلية تعلو على الذاتية الشخصية .

ولقد بعث الرسول الأمي من قبيلة، لها الناس تبع، فهي أشرف القبائل العربية وأعلاها شأناً وعروبة(3). وفي زمن ليس هناك زمن خير منه، كونه جماع الزمن الأرضي- السماوي، فهو أبلغ ما انتهت إليه الحركة الكونية للزمن، تلك التي بدأت جمعاً ببدء الخلق وفرقت بفرقهم وتعددهم أمماً، ثم انتهت إلى غايتها، وما غايتها إلا نَسَم الساعة، أي قرب قيامها وجمع الخلق فيها ثانية(4). ولأن الزمان والمكان وجهان لحقيقة كونية واحدة، فإن خير القرون، يستلزم خير الأمكنة، ولقد كان مهبط الوحي في خير الأمكنة حقاً، مناخاً وتربة وموقعاً جغرافيا وثروات طبيعية. أما أمة الرسالة، فخير أمة أخرجت للناس؛ ﴿ كنتُم خيرَ أمّةٍ أُخرجتْ للنّاسِ تأمرون بالمعروفِ وتَنهونَ عنِ المُنكَر وتُؤمنُون بالله ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وهي الوسط بين الأمم، فهي تجمع، فلا إفراط ولا تفريط،بين الصفات خلقاً وخُلقاً قولاً وعملاً،روحانية مثالية وواقعية مادية، فهي إذن جمع الأمم في أمة ولقاء الأطراف في مركز؛ ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ (البقرة: ١٤٣).

---

(1) سلسلة الأحاديث الصحيحة: مج٣/ص٤٧٢، وانظر: تفسير الفخر الرازي: ج١/ص٧٠.

(2) ورد عن نبي الرحمة: "ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً". وورد: "جاءني جبريل فلقنني لغة أبي إسماعيل". انظر: علاء الدين المتقي بن حسام الدين الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م:ج١١/ص٤٩٠.

(3) ورد عن نبي الرحمة: "الناس تبع لقريش". انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة:مج٣/ص٦.

(4) ورد عن نبي الرحمة "بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه وورد: "بعثت في نَسَم الساعة"انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة:مج٢/ص٣٣٧،ص٣٧٨.

فإذا عدنا إلى لسان الأمة، ثم عرضناه على الألسنة، وجدنا أنه اللسان الوحيد الذي يتوفر على جميع ما فرق في الألسنة من صفات وسمات بيان وإبانة، صرفاً ونحواً ودلالة، فصاحة وبلاغة، وهذا ما لا تنكره مختبرات الصوت، و (برامجيات) الحاسوب و(تكنولوجيا) المعلومات[1] فإذا تذكرنا أن اللسان فكر والفكر لسان، وأن اللسان الذي هو خير الألسنة يستلزم عقلاً هو خير العقول، صار لزاماً علينا أن نعيد قراءة الحديث الشريف؛ "ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمتِهِ"[2]. فالعقل إذن هو العلم الجامع المكنون في الآدمية في مقابل العلم الجامع المكنون في الكون بوصفه الـ "كل شي"، والجامع لهما كليهما هو القرآن الذي جَمَعَ تبيان العلمين، بوصفه الحجة الظاهرة، المقابلة للحجة الباطنة، (العقل) المستعد للعلم بالآدمية والشيئية عن طريقين، الطريق الذاتي وهذا عرضة للزلل والصواب، كونه يفيد من البصري لا السمعي، أما الطريق الثاني فهو القرآني، الموضوعي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والقاضي بالانطلاق من السمعي إلى البصري، ومن العلم الجامع إلى العلم المفرق، ومن الحجة الظاهرة إلى الحجة الباطنة، أي من الوحي إلى العقل[3]. وكذلك هو النظام الكوني للإحياء الشيئي للأرض بإنزال الماء من السماء. فإذا عرضنا هذه الحقيقة على المظهر الصوتي للعلم، (القول–النطق)، وجدنا العقل ناطقاً لا من حيث استتراله في اللسان وعليه حسب، بل هو كذلك مذ خلقه الأول وبذاته، كما ورد عن نبي الرحمة؛ "لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل فأقبل ثم قال له: أدبر فأدبر ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك ولا أكملتك إلا فيمن أحب"[4]. ووجدنا الإنسان ناطقاً لا

---

(1) انظر: الثقافة العربية وعصر المعلومات ص٢٣٨- ٢٣٩.
(2) الأصول من الكافي: ج١/ص١٣.
(3) انظر : نفسه.
(4) نفسه: ج١/ص١٠.

من حيث هو مخلوق ظاهر مكتمل الظهور الإنساني المشهود وبوساطة اللسان، بل هـو كذلك مذ خلقه الذري الأول؛ ﴿وإذْ أخذَ ربُّكَ من بني آدمَ من ظـهورِهم ذريّـاهم وأشهدَهُم على أنفُسِهم ألستُ بربِّكم قالوا بلى شَهِدْنا أن تقولوا يومَ القيامةِ إنّا كنّا عن هذا غافلين﴾ (الأعراف: ١٧٢).فإذا عرضنا قرآنية الصوت- النطق على الأشياء جميعـاً وجدنا الأشياء جميعاً ناطقة؛ ﴿أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾، فإذا عرضنا كل ذلـك على القرآن، وجدنا القرآن ناطقاً، لا من حيث هو منطوق على ألسـنة النـاطقين - القارئين، بل هو كذلك بذاته ودون حاجة إلى ناطق، فهو الناطق والمنطوق، وبموجـب نظامه وقرآنية كلمته الأولى، كلمة الله سبحانه، نطق كل شيء، واستنطق كل شـيء، وهذا ما يؤكده، ويتبين لنا بهدي منه، ما ورد عن نبي الرحمة فيما يتعلق بنطق القـرآن يوم القيامة[1].

نخلص من ذلك كله، إلى أن الكلمة الجامعة المبينة كامنـة في الكـلام كلـه. "والكلمة تقع على الحرف الواحد من حروف الهجاء، وتقع على لفظة مؤلفة من جماعة حروف ذات معنى، وتقع على قصيدة بكمالها وخطبة بأسرها"[2]. فهي من حيث هـي فعل كوني، ليست فعل فاعل بشري، بل فعل فاعل سماوي، أي أنها فعل إلهي، سـابق أمة الجزيرة التي ترقت عقول أبنائها وألسنتهم إلى مرتبة الإحاطـة البشـرية بالعربيـة القرآنية التي ظلت تتسلسل في العقول والألسنة البشرية على اختلافها حتى وصلـت إلى ما وصلت إليه على لسان إسماعيل ثم على لسان نبي الرحمة وخاتم النبيين. وبالمحصلـة، فإن الناطق الأول بالعربية لساناً بشرياً، هو آدم، أما قانون العربية وميزانها الـذي هـو ميزان الـ "كل شيء"، فمرتبط بحركية السموات والأرض وما وجد بفتقهما. ولقـد حافظت المخلوقات على ذلك الميزان وناموسه من حيث هو فاعلية تشيؤ وتكون، جمعاً

(1) انظر: مصنف ابن أبي شيبة: مج٧/ ص١٧٠ ومواضع أخرى.

(2) لسان العرب، مادة (كلم).

وفرقاً ثم جمعاً. وللميزان نفسه خضع آدم، فحافظ على الجمع وتفرق الجمع بالغواية الشيطانية والترول من الجنة، ثم تاب فعاود الجمع. وهكذا هو في ذريته، موزع بين جمع وفرق حتى قيام الساعة. أي هو موزع بين نزول وصعود وسلوك وخروج.. وكما أن لوناً واحداً كامن في الألوان جميعاً،كذلك هنالك لسان واحد كائن وكامن في الألسنة جميعاً، ثم هنالك كلمة كامنة في الكلمات جميعاً، ونبي مكنون في الأنبياء جميعاً، وكتاب مكنون في الكتب جميعاً.. فالكتب السماوية جميعاً فرق لكتاب واحد، هو القرآن الكريم الذي به بدأ الجمع، وعنه فرقت الكتب، وعنده جمعت ثانية. والأنبياء جميعاً فرق لنبي واحد، هو نبي الرحمة محمد، الذي به بدء جمع النبوات، وعنه فرقت، وعنده جمعت أخيراً، وكذلك الألسنة والكلمات والعقول، والأشياء.. لكل متكون أول جامع وآخر جامع، وما الفرق الكائن بين الأول والأخير، إلا ظهور كوني منسجم مع الحركة الكونية ومقادد لها ومبين عن حكمة الموجد الذي وراءها، الله عز وجل.

فالمظاهر الكونية، استعدادات تكوينية في المخلوقات والكتب والعقول والألسنة والكلمات لتقبل هذا الطيف اللوني أو ذاك، مع أن اللون واحد والماء واحد والتربة واحدة. وكذلك الدماغ واحد واللسان واحد، تركيباً كيميائياً أو مظهراً فيزيائياً. ولكن المختلف هو الحيوي الذي يمكن لذلك التركيب الكيميائي ومظهره، أن يتمثله. ورد عن نبي الرحمة؛ "إن الله خلق آدم من قبضة من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب"[1].

إن اكتمال، أو بلوغ الترقي الكوني تمامه في بلاد العرب قُبَيْلَ الترول المقدس للكمال اللساني المطلق الذي هو أول وآخر بعد الأولية والآخرية الإلهية، مزامن لبلوغ الترقي اللساني تمامه البشري الذي يظل (معوجاً) بالنسبة إلى استقامة اللسان العربي

([1]) سلسلة الأحاديث الصحيحة :مج٤/ص١٧٢.

المبين غير ذي العوج، فقضى الاكتمالان الشيئي واللساني بالتزول، وقضى التزول بكمالهما. فليس الأمر أمر تشريف لمن لا يستحق الشرف، وإنما التشريف لأهل الجزيرة بتزول القرآن، تشريف لمن يستأهل الشرف، لا كائناً بشرياً حسب، بل مكاناً وزماناً وأشياء ولساناً.. ولو تهيأت ظروف الترقي، وتسلسلاته الكونية في مكان آخر وزمان آخر ، ولسان آخر، لترل القرآن حيث لا بد له أن يترل فيخرج بالتزول زرع مختلف ألوانه. وبالنتيجة فإن الكلمة القرآنية لم تترل مراعية للكلمة البشرية، بل إن الكلمة البشرية ترقت حتى صارت مناسبة للكلمة الإلهية مناسبة التربة للمطر، وهذا ما يدعونا إلى ضم رأينا إلى آراء الجميع ممن ينادون بأهمية تجاوز قصور الوعي الذي يذهب إلى أن القرآن نزل مراعياً للغة العرب، وما ترتب على ذلك الوعي من قصور في التبين القرآني الحق الذي تصير بموجبه الجمل والعبارات القرآنية آيات كالشمس والقمر وسائر الآيات الإلهية[1].

آخر القول، إن الذي حصل مع التزول القرآني المقدس، هو جمع البلاغات كلها في بلاغة كونية جامعة، قرنت لها بعد فرق وجمعت بموجبها وتلاقحت، كل البلاغات الشيئية واللسانية، المكانية والزمانية، فكان أن قرنت الأتربة في تربة الجزيرة والأزمنة في زمن البعثة، والأنساب في قريش والألسنة في لسانها، واللغات في العربية، والأجساد في جسد النبي، والعقول في عقله والألوان في سمرته. وعلى الطرف الآخر، قرنت الأشجار في النخلة والأنعام في الإبل والغنم والخيل[2].

ألا إننا لندعو أنفسنا قبل غيرنا، إلى أن نستثير القرآن الكريم بوصفه عقلنا الجامع الظاهر المفروغ من صدقه وموضوعيته، استثارة من يستنطق لا من ينطق، دون

([1]) انظر: النص القرآني من الجملة إلى العالم: (مقدمة أ. طه جابر العلواني): ص١٠-١١.

([2]) ورد عن نبي الرحمة: "الإبل عز لأهلها، والغنم بركة، والخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة". سلسلة الأحاديث الصحيحة: مج٤/ ص٣٦٢-٣٦٣.

أن نتوقف عند ذلك العقل الجامع، توقف الجمال دون الجلال والحسن دون الحديث، والسطح دون العمق والدال دون المدلول أو المدلول دون الدال، والدين دون الدنيا، والعبادي دون العلمي،.. ولا بد لنا بعد ذلك كله من الكشف عن جامع البلاغات ومدخل البلوغ انطلاقاً من بيانه وعوداً إليه، ودونما أن نحط من علوم البيان والبلاغة مرة، ونغمز بمدى أصالة علوم البرهان مرة، ونمسخ ونسيء إلى علوم العرفان ثالثة كما يفعل بعض الباحثين[1]، بل لا بد من قرن العلوم بعضها ببعض، فما تلك العلوم إلا استعدادات اللسان - العقل - القلب، لمطابقة ومقاددة قرآنية الأشياء في الآفاق والأنفس، فتلك العلوم بعد تجاوز (الميكانيكي) السطحي، والمقلد المتبع (التابعية الأبوية)، والشاط المتجاوز المنطلق من الذات إلى الموضوع.. تلك العلوم، وبعد قرنها بعضها إلى بعض دليل متكامل على قرآنية اللسان التي هي قرآنية شيئية - آدمية، ظاهرة- باطنة، بيانية- تبيينية.. .

([1]) انظر: بنية العقل العربي: ص٢٣٩ وما بعدها، وص٣٧١ وما بعدها، وص٤٧٧ وما بعدها ومواضع أخرى.

الفصل الرابع

القرآن والإنسان ـ الإنسان والأكوان

أولاً: التنــزُّل والتبيُّن:

إن التتريل التبياني للقرآن الكريم، هو تتريل كشف وإيضاح وإظهار، تبين بموجبه الأشياء عن الحقائق الكامنة تحت السطح منها. وهو كشف وإظهار لذلك الترابط القائم في ما بينها من حيث هي نظام خلق وتخلق، أو من حيث هي نظام تكون مستمر. وهو بعد ذلك، يعرض ذلك النظام، أو تلك الأنظمة الداخلية العميقة، بأسلوب بليغ ومؤثر، على أن ثنائية الكشف والعرض تلك، هي الأخرى تجري على وفق نظام لساني، لا يتعارض بموجبه جمال العرض مع الغاية الكامنة وراء تكون المعروض، أي لا يتعارض بموجبه النظام الخارجي مع النظام الداخلي، سواءً فيما يتعلق بالقرآن نفسه من حيث هو كلمة والمراد منها، أي شكلاً ومعنى،أم فيما يتعلق بالقرآن المبين وما يبينه، باعتبار أن القرآن هو النظام الداخلي للموجودات الشيئية جميعاً.

فالنظام الداخلي للتبيان هو القيمة المجردة التي إن تدبرناها حق تدبرها، تمكننا من استلال النظام الداخلي الكائن في أنفسنا وفي الأشياء من حولنا، حياة أو موتاً، علقة أو عظاماً، جبلاً أو نهراً، أرضاً أو سماءً .. وما استلال المعنى الكائن في الأشياء وفي الأنفس حينها، إلا تحرير النظام من غلظة المادة وثخونتها، على الوفق نفسه، الذي تتحرر بموجبه الطاقة من المادة، والروح من الجسد، والنار من الشجر، والكهربائية من الماء، والمغناطيسية من المعدن، والنووية من الذرة، والمعنى من اللفظ، والمجرد من المحسوس، والأعداد من الأشياء، والمعيار أو القيمة من الحادثة أو الواقعة..

فالقرآن إذن، هو القيمة المجردة المتعالية على المادة، وذلك لأن ظهور المادة بالنسبة إلى نظامها، ومن حيث هي شيء (سماء أو أرض أو شجرة أو إنسان..) هو ظهور العدد ثلاثة مثلاً في رجل وامرأتين مرّةً، وفي الشمس والقمر والأرض مرة ثانية، وفي أب وأم وطفلهما ثالثةً.. إلخ. فالقرآن خلاصة الكون وعلمه وتبيان كل شيء،

التبيان الذي يتكشف للإنسان؛ (حساً وعقلاً وحدساً)، أو لنقـــل؛ (بيانـــاً وبرهانـــاً وعرفاناً)، فهو تركيب شامل ومتكامل، بإزاء تركيبة الإدراك أو التبين الإنساني، الـــذي لا يعدو تلك الركائز (الحس، والعقـــل، والحدس) حينما نريد أن نتبـــين أنفســـنا أو الأشياء من حولنا بوساطة القرآن.

فالمرحلة الأولى من مراحل تدبر التبيان القرآني، هي مرحلـــة تبـــين ظـــهوره المحسوس، أو عرضه الخارجي الجميل، أو نظامه اللساني من حيث أن ذلك الظهور هـــو أصول وقواعد وتفريعات لسانية، هي الأخرى مستلة بوصفها نظاماً أو ظهوراً معـــادلاً للنظام الداخلي، أما المرحلة الثانية،فهي العمل على تجريد ذلك الظهور الجميل للنظـــام، من خلال الاستدلال بما نستخلصه منه، على ما وراءه، وأما المرحلة الثالثة فهي تتبـــع سريان ذلك الظهور المجرد للنظام، والذي صار يشكل منهاجاً وقاعدة، وذلـــك مـــن خلال تبين واستيضاح حركيته أو تسلسل أطواره في الشيء وغيره .

وبتعبير أخر، ليست المرحلة الأولى في التعامل مع القرآن، إلا مرحلة العلـــوق بالصورة البيانية البادية للنظام (الكلمات والآيات والسور)، بغية استخلاص مـــا وراء الصورة، أو لنقل بغية تحولنا نحن المتدبرين المتبينين إلى علقة ناشبة في جـــدار الرحـــم القرآني، وعلى قدر تمكننا من التحول والعلوق، يتحقق لنا أن نصير صـــورة أخـــرى للمعنى، فيسري المعنى فينا بعد سريانه في الكلمة القرآنية، وبسريانه يتحقق لنا الولـــوج إلى ما وراء الصورة، ثم الانطلاق من ذلك الـــ(ما وراء) ثانية إلى الصورة، بغية تلمـــس ذلك التظاهر والتكشف الذي يزخر به وجها الحقيقة القرآنيـــة الواحـــدة، (الكلمـــة والمراد)، أو الكلمة والتبيان والآية والتبيان والسورة والتبيان، وبالجملة القرآن والتبيـــان. وما ذاك إلا لأن العلاقة الكائنة بين الكلمة وما وراءها في القرآن الكريم، هـــي علاقـــة مرآوية (نسبة إلى المرآة) تماماً. وكذلك نحن المتبينين، فإننا أيضاً حقيقة ذات وجـــهين، وجه الصورة ووجه ما وراء الصورة. وكذلك الأشياء جميعاً، وعلى الوفـــق المـــرآوي

نفسه، على أن لا فصل بين الصورة وما وراءها، فالمعنى القرآني، لا يتحيز في حـــوف أو في كلمة من آية، ولا في آية من سورة ولا في سورة من جزء .. المعنى القرآني ســـار في الكلمة كلها وفي الكلمات جميعاً وفي السور كافة، سريان الماء في الجســـد، وســـريان الضوء في الهواء وسريان الهواء في الفضاء، أو سريان الكلمة في المداد وسريان المـــداد في الكلمة، فلا فاصل للكلمة عن المداد ولا فاصل للمداد عن الكلمة، الكلمـــة تشـــكيل المداد أو الحبر والحبر تشكيل الكلمة، وهكذا هي العلاقة بين الروح والجسد، فالروح لا تتحيز في جهة أو موضع ما من الجسد. الروح في الجسد كله، والروح هي الكلمـــة في المداد، وهكذا هي كلمات ربي، ﴿ قُل لو كانَ البحرُ مداداً لكلماتِ ربي لنفدَ البحـــرُ قبلَ أنْ تنفدَ كلماتُ ربي ولو جِئنا بمثلهِ مدداً ﴾ الكهف : ١٠٩، وهكذا هي العلاقـــة الكائنة بيننا وبين القرآن، من حيث هو نظام داخلي عميق، إنه جريان الكلمـــة فينـــا، وإننا النافدون وإن تعددت صورنا.

وكذلك هي العلاقة بيننا بوصفنا متبينين وبين الأشياء من حولنا، إننا من حيث تبيننا نظامها، نعادل قيمتها المجردة وما وراء صورها وخلاصة بينونتها، وهي حيويتنـــا وصورتنا وشيئيتنا وعنصريتنا المفرقة في الشيء والشيء والشيء، أما نحـــن فخلاصـــة عنصريتها المجموعة جمع النظام في الشيء الواحد، أي الإنسان. فالعلاقة بيننا وبينـــها، علاقة مواجهة، نحن وجه لها وهي وجه لنا، مع فارق الصورة وما وراءها وعلى الوفـــق المرآوي نفسه. فالأشياء إذن عرض مختلف لشيئيتنا، فهي العرض ونحن الخلاصة، ونحـــن والموجودات جميعاً عرض صوري بإزاء خلاصة القرآن،، فالقرآن هو تبياننا جميعـــاً، وهو العلم المطلق والإحاطة التامة، ونحن (البشر) تبيان الموجودات والعلم المحدود بهـــا. فنحن نظام الموجودات ونظامنا، والقران نظامنا ونظام الموجودات، ونظام ما لم نحـــط به خبراً.

لقد تنزّل القرآن بديّاً على صدر نبيّ الرحمة، ثمّ وبوساطته وصل إلينا، فهو أي النبيّ واسطة إدراكنا للقرآن بوصفه كلمة مسموعة، جرت في صدر النبيّ، ثمّ جرت على لسانه، ولولا شخص النبيّ الكريم، لما بان لنا القرآن البتّة. فالقرآن تنزّل على النبيّ، ثم تيسر على لسانه، ثم تيسر لنا سمعه وتبيّنه بعد بيانه الأوّل على لسان النبيّ.

ولكن الّذي لا بدّ من وضعه في الاعتبار، هو إنّ المسافة الفاصلة بين تنزّل القرآن وتبيّنه ليست بمسافة فصل، إلاّ بالقدر الّذي نستطيع فيه نحن(المرسَل إلينا)، أن نتبيّن الأشياء بالقرآن، وإلاّ فإنّ التبيان صفة الكتاب، والكتاب صفة القرآن. ويقيناً إنّ التّبيّن من حيث هو صفة القرآن، لم يكن ليكون لولا وجود الواسطة أو الحامل، الّذي به تصير الكلمة واضحة لنا نحن البشر، فالتبيان صفة القرآن بعد تنزّله على مبيّنه (النبيّ) ومتبيِّنه (نحن المسلمين)، وإلاّ فإنّ عدم وجود النبيّ، يعني عدم قدرتنا على تحمّل ما تكتنز به الكلمة القرآنيّة من علم مطلق، فيما نحن البشر محدودو القدرة العلميّة بحكم طبيعتنا البشريّة وتركيبتنا الأحيائيّة، وعدم قدرتنا على تحمّل الطاقة العلميّة المجرّدة للكلمة يعني عدم قدرتنا على تبيّنها. والأمر شبيه برغبة موسى عليه السّلام تبيّن ربّه، فما تجلّى ربّه له، بل تجلّى للجبل وجعله دكّاً وخرّ موسى صعِقاً، وهو (والتشبيه هاهنا مقلوب، تشبيه الزّائد بالنّاقص) شبيه بتحويل الطّاقة الكهربائيّة المولّدة في المحطّة الرّئيسة بوساطة الأسلاك الكهربائيّة، من طاقة (٣٣,٠٠٠ فولت) إلى (١١,٠٠٠ فولت) بوساطة محطّات وسيطة، ثمّ تحويلها بوساطة محوّلات ثانويّة إلى (٢٢٠فولت) أو أقل قليلاً أو أكثر بحسب النّظام المتبّع في الدول، بغية الإفادة منها ، والانتفاع بقدرتها من قبل المستهلك، باعتباره الغاية الأخيرة لتحويلها. ويقيناً، إن عدم وجود المحطّات يعني عدم القدرة على الإفادة، إن لم يعنِ التضرّر بتلك الطّاقة، ولكن الطاقة الكهربائيّة هي نفسها هاهنا وهناك..

فالنبي، هو الفاصل والواصل في وقتٍ واحد. أمّا كونه فاصلاً فذاك في ما بين الجنبة الإلهية وبين الوجه البشري للكتاب، وأما كونه واصلاً فذاك في ما بين الكلمة المبيِّنة والـ"كلّ شيء" المبيّن بها. ولهذا جاءت آية؛ ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النحل:٨٩) على وفق التّرتيب البليغ الّذي سبق تبيّنه فيها وبها، أي، لم تجئ (وَنَزَّلْنَا الْكِتَابَ عَلَيْكَ).

ومن جانب آخر، فإنّ الّذي بان للرّسول بالكتاب، غير الّذي بان للمسلمين آنذاك، وغير الّذي يبيّن لنا اليوم. فالّذي بان له، هو الّذي بان ويبين لنا ممّا هو حقّ وزيادة. أي أنّه، الكشف التّامّ والعلم أبلغه والنّظام أوضحه والحقيقة ظاهرة بكلّيّتها، فهو ليس مسلماً حسب، أو ليس أوّل المسلمين حسب، بل هو أوّل الخلق، ثمّ هو ليس مرسلاً إليه بل هو رسولٌ، ثمّ هو ليس نبيّاً لقومه وعشيرتِهِ حسب، بل للبشريّة جمعاء في كلّ زمان وكلّ مكان، ولهذا فإنّ الّذي بان له، هو ما بان ويبين في كلّ مكان وزمان للمسلمين وغير المسلمين، وللأنبياء والمرسلين، ما بان ويبين للجميع وزيادة تليق بالمعلّم ولا يصل إليها التّلميذ.

فالكتاب إذن تبيان لمتبيّن، أمّا النبيّ فليس متبيّناً، النبيّ يكشف ويوضح فهو مُبيّن مُبين؛ ﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ*ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ (الدخان:١٣-١٤). فالمتبيّن هو نحن، والكتاب الّذي نزّله سبحانه تبياناً، نزَّلَهُ لغاية أخيرة هي نحن طالبي البيان، ولهذا جاء المصدر "تبياناً" ولم يجئ "بياناً"، في الآية المباركة، فإذا تحقّق التّبيّن كان البيان. على أن كينونة البيان، بعد تلمّس التَّبيّن، أو بعد السّعي إليه، هي عودٌ للبدء الأوّل، بدء العلم الفطريّ، المكنون في خلق الإنسان الأوّل. فالإنسان خُلِقَ عالماً ثمّ جَهِل بمضيّ الوقت ونسيان العهد وغواية الشيطان، ثمّ صارَ يتطلّع إلى المبيِّن بعد حين أي إلى النبي المنقذ، وإلى الكتاب، وما أن يتحقّق إرسال النّبيّ والكتاب، ثمّ صدق النيّة لدى المتبيِّن حتّى يتحقّق العود إلى البيان، أي

إلى العلم الأوّل، ﴿ الرَّحْمَنُ*عَلَّمَ الْقُرْآنَ*خَلَقَ الْإِنْسَانَ*عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (الرحمن:١-٤) وهاهنا يصير البيان، منّة الله سبحانه على النّاس جميعاً، مسلمين وغير مسلمين؛﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٨) ويصير التّبيّن طموح الجميع إلى استبدال العلم بالجهل والوضوح بالغموض والنّور بالظّلمة والظّهور بالغياب... مع فارق الموئل والمصدر والمنهل الّذي يستقي منه المتبيّنون تحقيق طموحهم، وقد يتحقّق الطّموح بإمكانات الإنسان المكنونة فيه، والّتي هي بيانه مذ خُلق، أي بإمكاناته الحسيّة والعقليّة والرّوحيّة، وقد يتحقّق الطّموح بوساطة نبي وكتاب، وقد يخيب الطموح الأول وقد يزلّ وقد يتأخّر، ولا يخيب الطّموح الثّاني ولا يزلّ ولا يتأخّر، شرط أن لا يظلّ المتبيّن مقدّماً ومعتدّاً بإمكاناته الكامنة على حساب إمكاناته الظّاهرة، إمكانات النّبوّة والكتاب.

أمّا الّذي هو خاصّة المسلمين الّذين يبدأ طموحهم في التّبيّن بالنبوة والكتاب، فهو تحقّق التّبيّن، ثمّ تحقّق الهدى والرّحمة والبشرى، ولهذا جاءت آية التّبيان هكذا؛ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل:٨٩)، فالذي يتحقّق بالكتاب هو؛ التّبيّن والهدى والرّحمة والبشرى، أمّا الّذي يتحقّق بالتّبيّن العلميّ لكونيّة الأشياء، حينما يكون منطلقه القرآن، فهو؛ الهدى والرّحمة والبشرى، فالكتاب إذن؛

أ. تبيان لكلّ شيء، وهذه عامّة للمسلمين وغيرهم، بدليل آيات سورة الرّحمن وآية آل عمران، ومفهوم الرّسالة.

ب. تبيان لكلّ شيء، ولكن للمسلمين، وهاهنا يصير التّبيّن العلميّ، بعيداً عن الزّلل والخطل، قادراً على كشف ما لم يكن في الحسبان، أو ما هو بعيد عن النّيل فهو إذن، أي التّبيّن العلميّ، محفوف بالهدى والرّحمة، ومترتّب على تكوّنه سعادة البُشرى...

جـ. هدى ورحمة وبشرى للمسلمين، وهذه صفة عباديّة، حاصلة بتحقّق النّزول.

د. هدى ورحمة وبشرى للمسلمين، وهذه صفة عباديّة، لا تتحقّق للبعض إلاّ بتحقّق التّبيّن ومعنى ذلك، أن بعض المسلمين يؤمنون بقلوبهم، ومشاعرهم، وهؤلاء، هم الّذين تشملهم الفقرة السابقة (ج)، أي أنّهم، يهتدون، بلا حاجة لإعمال العقل، الإعمال الّذي تركن إليه الفئة الثّانية فئة (د)،حتّى تؤمن، وبموجب ذلك الهدي القلبيّ، يرحمون، ويبشّرون... أمّا الفئة الثّانية، فتركن إلى التّبيّن العقلي المتأني، والمقايسة في ضوء عالم الشّهادة، فإذا انتهى بها ركوها ذاك إلى الإيمان، كانت من المسلمين وشملها ما شمل الأولى ولكن، عن طريق التّبيّن العقليّ، لا القلبيّ.

ثانياً: وحدة البيان – تنوّع التّبيّن:

من باب العود على بدء، نقول، إنّ الّذي بان للرّسول بالنّزول الأوّل، ومع كلّ نزول، غير، والّذي بان للمسلمين مع كلّ نزول، وبعد تمام النّزول، غير. أمّا من هم غير النبي فبان لهم بقدر، ألا وهو قدر ما اختلفوا فيه؛ ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل:٦٤). وهكذا هو القرآن، دوماً يبيّن للنّاس ما يختلفون فيه، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وما ذاك إلاّ لأنّه جمع المختلفات وتقريب المتباعدات في بنية واحدة كليّة وشموليّة. فالمختلفات تبيّنات متعدّدة للكتاب الواحد، القرآن الّذي علّمتْهُ الموجودات الكونيّة بوصفه نظاماً داخليّاً مكتوباً مُذْ كونها الأوّل، كما تؤكّد على ذلك آيات الرّحمن، فهو فرق النّظام وتفريقه في الموجودات، ثمّ جمعه في الإنسان، الّذي خلق من العناصر الأولى لتلك الموجودات في التربة، تربة الأرض التي هي خلاصة عنصريّة الكون، وموئلها ومنبثقها، شمساً وماءً وهواءً، وما تكوّن بهذه العناصر مما على الأرض وفيها، بل مما في الأراضين

والسّماوات وما بينهما... وبخلق الإنسان بانت الأشياء والموجودات وتكشّفت عن سريان نظام القرء والجمع، ذلك النّظام الّذي كُتِبَ في الإنسان مُذْ كان في طّور الذّرّ، ثمّ تبيّن له ما كتب فيه بالكتاب المترّل على خلاصة البشريّة وأشرفها وأجمعها لعلم البيان نبي الرّحمة، الّذي هو الآخر، كُتِبَ في أصلاب الأنبياء جميعاً بوصفه نظام نبوّة، فالأنبياء جميعاً تسلسلات وتبيّنات للنّظام النبويّ المكتوب فيهم بوصفه جمعاً أوّل وتبياناً أخيراً ممثّلاً بشخص النبي الّذي هو أوّل المسلمين في كل زمان وكلّ مكان، ومُذْ أوّل الزمان وأوّل المكان... أي أنّه أوّل الجمع والضّم العلميّ، الّذي سيجيء ما بعده تكراراً له، وتلويناً لجوهريّته، وذرّاً لجمعه، فالنّبوّة؛ ذريّة بعضها من بعض، وكذلك القُرآن المكتوب مرّتين مرّة بوصفه جمعاً مطلقاً داخليّاً في أصلاب الموجودات الكونيّة، وأشرفها الإنسان، ومرّة بوصفه جمعاً مطلقاً خارجيّاً في دفتيّ كتاب. أمّا الجمع الأوّل فتتمثّله الكائنات وراثياً بعضاً من بعض وجيلاً بعد جيل وكائناً بعد آخر وزمناً بعد آخر ومكاناً وآخر، كلّ حسب استعداده وقدرته على التّبيّن والإفادة من النظام الداخلي الكوني الواحد. ويتمثله الإنسان أصدق تمثيل بحسب خلطته العنصرية الحيوية التي هي معدنه، أو التي هي قبضة الأرض، أحمرها وأبيضها وأخضرها... سهلها وحزنها، طيبها وخبيثها، أي بحسب ميله إلى ما ألهمه الله ابتلاء له ، فجوراً أو تقوى، أو بحسب قربه وتقربه المطلق أو البسيط من الربّ، بوصفه مربوباً، أي بوصفه جمعاً يتشوق إلى جمع مع فارق كائن بين البشرية الشيئية والذي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى: من الآية١١) أو المحدودية والمطلقية قدرة وحياة وعلماً وإرادة...

فالكتاب إذن بوصفه نظاماً كلياً مكتوب في الإنسان، بوصفه شفرة وراثية عميقة، صار الغربيون اليوم منشغلين بفك غرابتها، ودقة نظامها، ثم محاولة تغييرها وتبديلها... ولا غرابة لدينا فهي نظام القُرآن المترّل ولكن بوصفه عمقاً داخلياً وبدءاً أول. ولن يقدروا على التبديل، نعم يقدرون على جمع بيانين أو ثلاثة في واحد، كما

يجمعون (جينات) تفاحة وكمثرى وخوخ في واحد، ولكن النّظام هو النظـــام، فـــإن جرهم شهوة الجمع والنقل والإخراج والاستبيان في غير الموضع الأصل للإنبات، إلى ما هو أبعد من ذلك وبما يتعارض مع بلاغة الخلق وغاية النظام التي هي البنـــاء لا الهـــدم والإعمار لا التخريب، فإنهم ليهدمون نظام الكون بمعاول صنعتها أيدي الشيطان، وإنهم ليجنون على أنفسهم بأنفسهم، وينقضون غزلهم من بعد قوة أنكاثاً...

التَّبيّنات إذن وإن تعددت، ما هي إلا استعدادات شـــخصية للاقـــتراب مـــن الحقيقة المطلقة الواحدة، الحقيقة القُرآنية، حقيقة النظام الحق، الذي ليس به حاجة لنـــا ليبدو حقاً أو دقيقاً أو مهماً أو مبيناً، إنه مبين بنفسه، ومحيط ببيانه فهو كتاب مبـــين، سواء بوصفه هذا المترل على النبي تبياناً لكل شيء، أو بوصفه: (ذلك الكتـــلب)؛ ﴿ الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:١-٢).

أما نحن فنختلف في تبيّنه، ولكننا دوماً ننهل منه وإن لم نتقرأه بوصفه وحيـــاً، إننا إذ نتبيّن شيئاً، أي شيء، فإننا نتبيّنه بموجب ما كتب فينا من علم أول، وما ذلـــك العلم الأول إلا العلم الأخير عينه، مع فارق أننا إذ نتبيّن العلم وهو بيّنٌ بوساطة الكتاب الّذي بين أيدينا، فإنّنا نكون في منأى عن البون والبعد عن الحقيقة، ثمّ إنّنـــا ســـنكون محفوفين بالهدى والرّحمة والبشرى، أمّا حينما نتبيّنها -أي الحقيقة- بوساطة الكتـــاب الدّاخليّ، الكتاب الباطن، الّذي هو أيضاً حجّة علينا، أي بوساطة ما أُلهمنـــاه أو مـــا تَكوّنا، وبنّا به، الكتاب العقلي القلبي الحسيّ، فإنّنا سنكون عرضة للزلـــل والخطـــل، والاختلاف والتشتّت والتّمزّق كلّ ممزّق، ثمّ سنكون عرضة لغواية الجـــري وراء مـــا يتكشف، وما الجري حينها إلاّ جري الّذي يريد الهدم والنّقض والتخريـــب والفســـاد وسفك الدّماء والجور بعد العدل، وما ذاك إلاّ لأنّنا نستعين بالبعيد الّذي نعجـــز عـــن الإمساك بجمعه وقرنه وضمّه وقربه، ثمّ ببيانـــه. وبعد ذلك فإنّنا سنكون عرضة لتوهّـــم أنّنا نحن الّذين نبيّن، لا الّذين يتبيّن لهم، فننحاز لما نتبيّنه، ونتوهّم علوّ قـــدره وغنـــاه،

فننخدع به، كما انخدع السّحرة زمناً ليس بالقليل بما تبيّن لهم من علم داخليّ، فظنّوا إنّهم هم الأعلون، وتحدّوا موسى عليه السّلام، ظانّين إنّ الّذي عند موسى مما عندهم، وإنّ بيانه من حيث الذي بان لهم داخلاً، فلمّا أبان لهم موسى بموجب الكتاب الظّاهر المترّل المتمثّل بآية العصا، تبيّنوا العلم الحقّ، بعد قرنهم وجمعهم وضمّهم وتقريبهم للبيلن السّحري من البيان النّبويّ، وللدّاخل من الخارج، فأعلنوا إيمانهم بالكتاب الظّاهر لأنّه جاء تبياناً حقيقيّاً لعلم عصرهم، فتلمّسوا فيه السّعة والكمال والخَرْق لما هو مألوف، فصغروا، بعد أن استصغر البيان الخارجيّ شأن الإمكانات الشّخصيّة. وما كان موسى إلاّ واحداً، وما كانت العصا إلاّ واحدة، وكانوا –أي السحرة- عدّة، وكانت عصيٌّ وحبال مختلفة، توحّدت بعد التّبيّن المحفوف بصدق النّية، في واحديّة الإيمان، وكمال العلم، وتمام التكشّف عمّا هو أعمق ممّا تكشفّت عنه الكثرة الكثيرة ممثّلة بسحرة المدائن وعصيّ وحبال السّحرة.

والتّبيّنات عدّة، والمبيّن واحد، واحدٌ عميقٌ صغيرٌ كبيرٌ،واحد يجمع المختلفات في بنية تكامل وبلاغة بيان، بما في ذلك تبيّنات النّاس أو محاولاتهم معرفة خالق الكون، ربّهم الواحد الأحد، فالزّبر والتوراة والإنجيل تبيّنات عدّة لمبيّن محفوظ هو كتاب نبي الرّحمة، والحنفيّة واليهوديّة والمسيحيّة... تبيّنات والمبيّن واحد، بل الزرادشتيّة والبوذيّة والهندوسيّة... تبيّنات لمبيّن واحد، مبين رُصّ نظامُهُ القُرآني في الأصلاب؛ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (لأعراف:١٧٢-١٧٣) فتبيان الرّبوبيّة إذن، كائن قبل الخلق، وتبيّنها، بدء من عند تلك النّقطة الأولى التي بدأ منها الخلق، ثمّ جرى نظامها في الخلق بوصفها نظام بيان داخليّ واضح للإنسان بوصفه

متبيّناً دون المخلوقات الأخرى. والكل يشهد لله بالواحدية شعر أو لم يشعر، رضي أو لم يرض، متديناً سماوياً أو وضعياً .

وهي أي تبينات المخلوقين لواحدية الخالق تتسلسل دونما تبدّل أو تغيّر أو عناء، ودون تأثّر بما يطرأ على السابق بالنّسبة للأحق. أمّا ما يطرأ على الآباء من انحراف عن صراط الربوبية الحق، فلا يعني انحراف النّظام، بل انحراف الإفادة من النّظام، وقصور التبيّن المعتمد على الإمكانات الشخصيّة دون الإمكانات المشتركة، أو المعتمد على الإمكانات الداخليّة دون تلقيح بالإمكانات الخارجيّة (الكتب المنزّلة، والنبوّات والرسالات)؛ ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الإسراء:١٥).

فهي إذن شهادة النّظام الحق، النّظام الداخلي، لله سبحانه إنّه الواحد الأحد، بوصفه علّة وسبب النّظام الواحد ... وهكذا يتّضح أن لا معبود إلاّ الله، شعر بذلك من شعر أم لم يشعر، مع فارق أن الشعور بذلك يعني تحقّق الشعور المحض وما يترتّب عليه من مثوبة، بينما يعني عدم الرغبة في الشعور بذلك، تحقّق الإشراك، وما يترتّب عليه من عقوبة وعذاب ونقمة غضب، أو ما يترتّب عليه من قبل ذلك من ضلال وزيغ وتشتّت وجهل باعتبار أن الجهل ليس عدم العلم بالشيء حسب، بل وهذا هو الجهل المركّب، هو العلم بالشيء ثمّ الانحراف عنه، أو عدم الإفادة منه، بل التضرّربه، ثمّ توظيفه لما يضرّ. وقبل ذلك كلّه، ومباطن له، عدم الاعتبار بالواحد الكائن خلفه، الواحد من حيث هو نظام علم مشترك، بكل ما لذلك الواحد من تسلسلات أو تبيّنات شيئيّة وصولاً إلى الواحد المطلق، الواحد الذي (ليس كمثله شيء).

وعدا ذلك كلّه من تبيّنات النّظام الداخلي، فإنّ اختلاف المناهج والطرائق والمعارف والعلوم هي تبيّنات مختلفة، أو لنقل تكشّفات مختلفة للواحد النظامي الداخلي الموجود في الإنسان والذي يظل يكرّر نفسه، باعتبار أن الإنسان هو الإنسان في كل زمان وكل مكان، ولكن من حيث هو ظهور ترابيّ عظماً ولحماً وعصباً وعروقاً...

ومن حيث هو نظام داخلي مشترك، لا من حيث هو إعمال المادة العظميّة واللحميّة والعصبيّة والعرقيّة، المادة السائلة أو الصلبة، لتبيّن النّظام داخلياً كان أو خارجيّاً ثمّ الإفادة منه، والتوجه بكشفه ووضوحه، بعد غلقه وغموضه. وما الفارق بين تبيّن وآخر، إلاّ بقدر الاقتراب من النّظام ومطابقته أو البعد عنه، فكل منهاج سبيل، ولِكُلٍّ وِجْهَةٌ هو موليّها.... فإن لم تتوحّد السبل في سبيل واحد والطرائق في طريقة واحدة تحكمها جميعاً وإن اختلفت زوايا تمثّلها، اختلفت واختلف المتبيّنون وتفرّقت وتفرّق المتبينون؛ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام:١٥٣)

وكذلك الموجودات من حولنا، تبيّنات مختلفة وتكشفات مختلفة وتكشّفات متنوّعة لوحدة النّظام، فهي تجسيد لشموليته، وتكوين شيئي لكينونته القارّة في حركيّة الخارج والداخل منها، بدءاً بخلاياها الصغيرة، بل بجزيئات الخلايا وما هو أبعد غوراً وعمقاً، ومروراً بذرّاتها بل بمراكز ذراتها وما هو أبعد غوراً وعمقاً، وانتهاءً بتفاعلاتها الحيويّة واندماج عناصرها وتركيب أبعاضها، كل على حدة أو مجتمعة، ثمّ انتهاءً بما يدركه الحس منها من حيث حجومها وألوانها وكيفيّات تشكّلها.. فهي جميعاً، تتمثّل النّظام الداخلي العميق، حجراً كانت أم نهراً أو طيراً أو شجراً أو نجماً أو قمراً أو شمساً، حياةً أو موتاً، ولادةً أو بلوغاً،صلابةً أو سيولةً، صوتاً أو ضوءاً، ريحاً أو رياحاً، أو ريحاناً... إنّها جميعاً تبيّنات تمثلت النّظام بحسب استعدادها لتمثّله، فتحرّكت به، أي تكوّنت بكينونته العميقة، وما سعينا إلى تبيّن أنظمتها إلاّ محاولة غير شاعرة نحو الوصول إلى ذلك النظام المشترك والسر العميق؛ ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (الإسراء:٤٤)

وكذلك حواسنا، وعقولنا، وقلوبنا، ما هي إلاّ تبيّنات لذلك النّظام الكائن في دواخلنا، والجاري فينا، مجرى الدم، أو مجرى المادة السائلة بالنّسبة إلى الصلبة، فالنّظام الداخلي العميق ليس كائناً في المادة الصلبة من حيث هي صلابة تامّة، بل كائن في ذلك التمازج والتداخل، أي في ذلك التواصل العميق بين المادة السائلة والمادة الصلبة، في الخلايا ثم في جزيئات الخلايا وهكذا... وما المادة الصلبة إلاّ ظهور له، كما تظهر الشجرة بنوعها، والطير بنوعه، والإنسان بنوعه، أي كما تَبين الأوراق عن الأغصان والأغصان عن الجذع والجذع عن الساق والساق عن البذرة والبذرة عن الثمرة، وبالعكس. ثمّ لنا أن نحوّل الشجرة جذراً وجذعاً وغصناً وورقةً وثمرةً وبذرةً إلى مادة سائلة، نَربُّها جيداً، فنحصل على عنصريتها السائلة، أي نحصل على نظامها، وبتبخر الماء نحصل على عمق التَّبيّن، فالحياة هناك والنّظام هناك، في تلك المرحلة التي جعل الله فيها الماء (المادة السائلة) أصل كل شيء حيّ؛ ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٠) .

والذي يبقى بعد ذلك، أي حينما يَفنى الجسد وتبيّناته، أي حينما تَفنى المادة، أو حينما يفنى الشيء الذي هو، شخص النبي (جسده)، أو الشجرة أو الطير، أو جسد الإنسان، عينه وأذنه وقلبه.. حينما يفنى كل شيء، لا يفنى النّظام من حيث هو مختلف عن المادة المتشيئة، وحينها يعود الوصل بين النّظامين الخارجي والداخلي، فيشهد النّظام على الشيء، مرة بوصفه نبيّاً خارجياً أو ظاهراً، فينبئ بعد الفناء كما أنبأ قبل الفناء؛ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل:٨٩). ومرّة بوصفه نبيّاً داخلياً أو باطناً؛ ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾

(النور:٢٤-٢٥) أمّا المنحرفون عن النّظام العميق انحراف الكفر، فالشهادة لهـا تبيّن آخر؛ ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلا يَرْجِعُونَ ﴾ (يـس:٦٥- ٦٧).

والشهادة هاهنا،عودة إلى شهادة الذرّ، وتبيّن لمدى القرب أو البعد عنها، وهي التي بيّنت حتى لا حجّة، بالشهيد الخارجي، الكتاب المنزّل المبين ثمّ التبيان لكل شيء.

وأخيراً، يتضح أن آيات الكتاب المنزّل، وسوره، تبيانات متنوّعة ومتعددة تقابل تمثل الأشياء للنّظام، فهي إذن الأشياء وقد بانت، أو الأشياء وقد كشفت عن نظامها، مرة واحدة بطرق متنوّعة متعددة. فإن اختلفت الآيات مظهراً، فلا اختلاف حيث العمق، فالعمق واحد، وإن على تسلسلات عدّة. وحينما نختلف في التّبيّن (التفسير) شرط صدق النيّة وطلب الهدى والرحمة والبشرى من وراء التّبيّن،ثمّ خلوص التوحيد، فما ذاك إلاّ اختلاف في تمثّل الآية بوصفها الكتاب المبين، وما ذاك إلاّ لاختلاف القرب أو البعد من هذه الآية أو تلك، والسورة كذا والسورة كيت.... بوصف كل آية أو سورة نظاماً عميقاً وشمولياً بليغاً لما وراءه....

فالسورة أو الآية هي البعيد صار قريباً وهي الدّاخل صار خارجاً وهي الإمكان الشّخصيّ صار روحيّاً... وعلينا أن لا نختلف في الصّراط المستقيم، وإن اختلفنا في مواصلة السّير وقدرة الّذي يسير، والّذي نسعى إلى الوصول إليه من وراء السير. علينا أن نقرّب التّبيّنات في تبيّن كليّ شموليّ. علينا أن نحيل التّبيّن على غيره، كما نحيل الورقة على الغصن وكما نعيد الغصن للجذر وكما نحكم الجذر في الثّمرة... علينا أن نسيّل الآيات في آية واحدة عملاقة اسمها القُرآن الكريم. فإذا وعينا هذه الحقيقة لاقحنا البيانات بعضها ببعض، وخلصنا من التبيان إلى البيان، ومن الكشف إلى تمامه ومن القُرآن إلى الكون، ثمّ من الكون إلى القُرآن...

خلاصة القول، إن تَنوّع التَّبيّن الكائن في الموجودات من حولنا، متحقّق بالقدر الّذي يحقّق فيه التَنوّع بلاغة القدرة الإلهية، وبلاغة المنفعة المترتّبة على التّعــدّد باعتبــار أنّ كل ما في هذا الكون من موجودات شيئيّة مسخّر لمصلحة الإنسان ونفعه، هذا مــن جهة، ومن جهة أخرى فإن تحقّق التَنوّع في التَّبيّن مرتبط بتحقّق درجة من الاســتعداد والتمثّل للتنوع الكائن في الأشياء كلّ على حدة.

أما تَنوّع التَّبيّن الكائن في نوع المتبيّنين (البشر)،من حيث هو اختلاف طرائــق ومناهج ووجهات نظر، فمتحقّق بتحقق درجة علم أو سواها، ومرتبة ترقّ أو غيرها... فالتَنوّع في التَّبيّن هاهنا، هو اختلاف، والاختلاف درجة من العلم تصلها البشريّة أممــاً وشعوباً أو أفراداً، ولا بدّ لتلك الدّرجة أن تكشف عمّا وراءها، فالاختلاف يتجــــدّد دائماً، وتجدده مرتبط بالتَكوّن العلميّ المستمرّ، وكلّما تسلســـل الـــترقّي العلمـــي أو الانحدار في تَكوّن جديد، بان اختلاف جديد، وهكذا حتّى قيام الساعة...

ولكن الاختلاف بوصفه درجة علم، يعني ممّا يعني، أن هنالك درجـــات مـــن التَّبيّن لم يصلها الإنسان بعد، وإنّه ما زال لم يختلف مع نفسه أو مـــع غـــيره فيـــها أو بسببها، بدليل ان اختلافاتنا العلميّة، فيزياءً وكيمياءً وأحياءً وفلكاً ورياضـــةً... أكـــثر واكبر بكثير من اختلافات أجدادنا قبل مئات من السّنين، وستكون اختلافاتنا يوماً مـــا أصغر شأناً وأقلّ من اختلافات أحفادنا بعد كذا من السّنين... وهكذا..

ودائماً يظلّ القُرآن يبيّن الاختلاف، ويوحّد بين المختلفـــــات (الموجـــودات) ويكشف عن حلوله للمختلفين. ولقد بان للنبي ما اختلف فيـــه النّـــاس قبـــل ألـــف وأربعمائة من السّنين، وما نختلف فيه اليوم، وما سيختلف فيه اللاحقون حتّـــى فنـــاء الكون وما بعد الفناء... أما إنّه لم يجب عن اختلافاتنا الكائنة اليوم، الإجابـــة العلميّـــة المعاصرة لدى الغربيّين، فذاك لأنّنا لم نكن نحن الموجودين معه لنســـأله، وإنْ وُجِدْنـــا فَرَضاً، فإنّه سيجيب الإجابة الكليّة الشموليّة تاركاً الجزئيّات لنا، نُعمِل فيـــها بياننـــا

الدّاخليّ... ومع هذا فالقُرآن موجود بين أيدينا، ولنا، بل علينا أن نسأله، وسـيجيب، فمائدته عامرة، والّذي أنزله، يداه مبسوطتان، يزيد من يستزيد، لا يردّ سائلاً، بل يـأمر بالسّؤال ويقدر على العطاء...ولكن على أن لا نسأل القُرآن كما سأل ذلك الأعـرابي ربّ العزّة الرّحمن الرّحيم، أن يرحمه ويرحم محمّداً، دون النّاس، فَضَيَّقَ السّؤال وقيَّـد المسألة واستنقص رحمة من لديه المزيد. وكذلك علينا أن لا نسأله كمـا سـأل بنـو إسرائيل موسى، عن صفات البقرة، ما شكلها وما لونها وما عمرهـا، دون الاعتبـار بالبقرة بوصفها دعوة للتبيّن، ثمّ بعد تمام العلم بالصّفات، ذبحوها وما كادوا يفعلـون... علينا أن لا تشغلنا صفات جزئيّة عن محض العلم وشموله وكليّته، نعـم يجـب تبيّـن واكتشاف لون البقرة، ولكن لا بوصفه غاية، بل بوصفه وسيلة نجمعها ونضمـها إلى أخرى وثانية وثالثة، لنصل إلى تبيّن البقرة المقصودة، ثمّ، الاعتبار بقصديّتها، أي بحكمـة وجودها لا ذبحها...

ثالثاً: تبيّن التَكوّن – تشيّؤ الدالّ– بلاغة التشيّؤ :

﴿ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُما ﴾... فالسّماء والأرض من حيث هما كون أوّل،كانتـا جمعاً وضمّاً وغلقاً. كانتا واحداً، السّماء هي الأرض والأرض هي السّماء، متداخلتـين مجتمعتين غير منفلقتين، ثمّ كان الفلق، وعلى وفق فلق الحبّ والنّوى، فـلا اختـلاف للسّماء عن الأرض إلاّ بالفلق والفتق والفرق والتباعد والتّبيّن والظّهور. أمّا الكون مـن حيث هو حدث أوّل، فهو واحد، وأمّا ما بعد الحدث الأوّل فتوالي الحدوث وتكـرار الظّهور وتبيان البيان، فهما لم يكونا رتقاً ثمّ كانتا فتقاً،وكأن الكون الأول مختلف عـن الكون الثاني، وإنما كانتا مرّة واحدة، ثمّ تَكوّنتا، أي تحرّك فعل الكينونة وتوالى الظّـهور وتكشّف الكون، واتسعت المسافات وبعدت الطّرائق وتشعّبت الجـهات وتعـدّدت الأشياء...

وكلمات ربّي الّتي لا تنفد كلمة واحـــــدة، كلمـــة الكـــون الأوّل "كُـــنْ" والـــ"كُنْ" أصلٌ، والتَكوّن شعب الـــ"كن" كما أنّ الرتق أصل، والفتق مترتّب علـــى الأصل. وكما أن الفتق هو تَكوّن أو تحرّك الرتق، كذلك الكلمات، فالكلمات تحـــرّك الكلمة الأولى. والتّبيان القرآني بعد ذلك، تبيان كلّ شيء، فهو معادل الـــ"كلّ شـــيء" ومقادده ومطابقه، إنّه كون لسانيّ: شكليّ معنوي، وذاك كون شيئيّ: أرضي سماويّ.

وكما بدأ سبحانه أول خلق، فإنّه سيعيده، فتعود الأشياء شيئاً واحداً، وتعـــود السّماوات والأرض واحداً، ويعود الفتق رتقاً، وتعود الكلمات كلمةً، ويعود الكبـــير صغيراً والمتَنوّع وحدةً والتّباعد قرباً والسّعة ضيقاً والشّعب شعبة واحدةً... والحركـــة سكوناً، إنّه إذن عود العكس، وعكس البدء.. وكذلك يجب أن تجري ســـنن التَّبيّـــن والتدبر القرآني من قبل المتبيّنين، من البدء إلى ما بعده، من الرّتق إلى الفتق، ثمّ عود مـــن الفتق إلى الرّتق، من الكلمة إلى الكلمات ومن الكلمات إلى الكلمة، مـــن المعـــنى إلى الشّكل ومن الشكل إلى المعنى، ومن البيان إلى التبيان ومن التبيان إلى البيان،من القُـــرآن إلى الفرقان ومن الفرقان إلى القُرآن، ومن الكتاب (الواحد) إلى الأشياء (المتَنوّعة) ومـــن الأشياء إلى الواحد، من النّظام إلى الأنظمة ومن الأنظمة إلى النّظام... من الـــ"كن" إلى التَكوّن ومن التَكوّن إلى الـــ"كن"...

فلكلّ شيء شعبتان، شعبة الرّتق وشعبة الفتق، ولكلّ كائن أيّاً ما كان، سمـــاؤه وأرضه، والّذي كان بالفتق كان قبل ذلك بالرتق مع فارق السّكون والحركة والقـــرب والبعد والتّضييق والسّعة والصّغر والكبر... وكما فتقت السّماء مـــن الأرض والأرض من السّماء فتق الشّيء من الشّيء، والتّبيّن من البيان والكلمة من المعنى والمعـــنى مـــن الكلمة، وأيضاً... الكلمة من الكلمة، والمعنى من المعنى، والآية من الآية، والسّورة مـــن السّورة، والقُرآن العظيم من السّبع المثاني، والنبوّات (الأنبياء) من النبوّة (النبي المحمـــدي) والكتـــب من الكتاب.. ومن بعد الحواسّ من الدماغ، والجميع من تلك المادّة السائلة

العميقة في صلب المادّة الصلبة...

فالكلمات تَكوّن الكلمة والنبوّات تكوّن النبوّة الأولى والكتب تكوّن الكتاب الأول، وأبناء آدم تكوّن آدم، والتّبيّنات تكوّن البيان، والأعداد تكوّن العدد الصّغير والسّماوات تكوّن السّماء الأولى، والأراضين تكوّن الأرض الأولى...

إنّها إذن حكمة التّنوّع الكائن في الوحدة، والوحدة القابلة للتّنوّع...

وهكذا هو كون القُرآن وتَكوّن التبيان...

على أن الّذي يجب أن لا يُنسى، هو ان للأشياء صفات، فالصّفات علامات على الأشياء، ومن ثمّ فالعلامات مشاريع تبيّن وتكشف بالنّسبة لنا، والعلامات ليست كلّ البيان لمن يريد أن يتلمّس النّظام الكائن وراء العلامات. وإلاّ فإنّ الأشياء من حيث هي ماديّة، واضحة للحسّ، كمّاً وكيفاً، ولكن الّذي يدركه الحسّ هاهنا هو سطوح وعلامات الأشياء أو لنقل أنّه يدرك فتقها لا رتقها. فإذا ركنّا إلى التّبيّن الحسّي حكمنا على العلامات وبوساطتها أنّها هي النّظام، وما ذاك إلا لأنّ الحسّ هو الآخر علامة على الفتق، وليس الرّتق، فهو فتق العقل بالنّسبة لنا، باعتبارنا كائناً ذا شعبتين، رتق وفتق، من حيث نحن شيء من الـ(كل شيء)، فإذا تجاوزنا التبيّن الحسّي إلى العقلي (الدماغي) حكمنا بما هو أبعد ولكن الحكم لم يزل درجة وسطى ما بين الرتق والفتق، فالعقل (الدماغ) والحسّ، شعبتا الفتق بالنّسبة إلى القلب. فالتّبيّن ها هنا، يشبه من حيث هو طور أو درجة، تَكوّن النّطفة علقة، فليست العلقة نطفة ولا هي خلق آخر من مضغة وعظم ولحم ونفخ روح.. فإذا تجاوزنا التّبيّن العقلي الذي يوصلنا إلى أنظمة شيء بعينه لا النّظام الشامل للـ (كل شيء)، إذا تجاوزنا ذلك خلصنا إلى التّبيّن القلبي، وحكمنا من هاهنا على الصفات والعلامات على أنّها ليست صفات الشيء بمفرده،بل إنّها هي الأخرى أنظمة في ضمن نظام يحيل على الـ (كل شيء) ثمّ

خلصنا إلى نظام الـ(كل شيء) ذلك الذي هو طبيعة سائلة تنحلّ فيها كلّ المركبات، علامات أو أشياء ذات علامات...

وهاهنا تبيّنان، أو طبيعتا تبيّن بشعب مختلفة، تبيّن خارجي وآخر داخلي، أمّا الداخلي فهو تبيّن الوحدة الكائنة في الاختلاف، وأمّا الخارجي فتبيّن اختلاف الوحدة وتعدد ظهوراتها.ولتبيّن المواجهة الكائنة بين طرفين لا بد من مواجهة السطح بالعمق، على أن لا فصل للسطح عن العمق،بل تداخل وامتداد وسريان،فالعمق درجات والسّطح درجات،ولكلّ درجة سطح وعمق،ويظلّ التّبيّن حينما يكون موضوعه درجة بعينها من تلك الدّرجات أو التسلسلات، يظل أول الكشف الّذي يشكّل من حيث هو طور تكشّف، رتقاً وجمعاً وضمّاً، لا بدّ له من فتق وفرق وتبيّن عن عمق جديد.

فالتبيان إذن ليس تبين الصفات الخارجيّة أو العلامات،ثمّ الاكتفاء بالعلامات، لأن الاكتفاء بالعلامات يشغلنا عن الانتهاء إلى الذي وُسم بالعلامة، ولو كان الأمر كذلك، أي لو كان التّبيّن اكتفاءً بما هو بادٍ للحواسّ، لما كان بنا حاجة إلى تجريد العقول، ثم إلى جمع القلوب، ثم إلى ما وراء القلوب... ولو كان الأمر كذلك، لانتفت أهميّة التبيان، طالما أنّ الأشياء متكشفة لحواسنا. فالشجرة مثلاً هي الشجرة من حيث هي علامة، مُذْ ما قبل ألف وأربعمائة من السنين حتى اليوم، ومُذ ما قبل ذلك وما بعد اليوم... والتبيان الذي يميّز الكتاب هو تبيّن ما يوحد الشيء والشيء لا ما يفارق بينهما، فهو تبيّن الـ(كل شيء) لا الشيء بعينه ولا (الأشياء)، فالآية ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النحل:٨٩). لم تقل (تبياناً للأشياء)، مع أنّ كلمة (الأشياء) تدل على الجمع مباشرة بلا حاجة إلى تركيب إضافيّ (كلّ) و(شيء)، وكذلك لم تقل الآية (تبياناً لكلّ الأشياء)، فالأشياء من حيث هي اختلاف خارجيّ، ليست عنْيَ الكتاب، باعتبار أنّ ذلك العني، ليس هو العني البليغ، الّذي يتجاوز التكشّف الجزئي والبسيط إلى الكلّيّ الشموليّ العميق، الّذي بتحقّق الإحاطة به تتم

الإحاطة بالبسيط. ولقد وحّد التركيب الإضافيّ الكائن بين (كلّ) و(شيء) في الآية بين الـ"كلّيّ" و(الواحد –الشيء)، فالشّيئيّة واحدة، وإن تعدّدت الأشياء، والتّبيان تبيان نظام الشّيئيّة، نظامها الكلي والشمولي العميق الذي يضمّها بعضها إلى بعض، ويمزجها بعضها ببعض، ويصهرها في بنية كلّيّة شمولية عالقة به علوق العلقة بجدار الرحم منه تستمدّ كينونتها وبها يحيط. ولهذا التّبيّن يدعونا الكتاب، التّبيّن الذي يعلّق علماً بعلم وبياناً ببيان وشيئاً بشيء وآية بآية وسورة بسورة... إنّه يدعونا إلى تأسيس نظريّة معرفيّة تقوم على ما بعد النّظر، دون تجاوز أو تنحيّة للنّظر، نظريّة تجعل النظرة عالقة بالنّظرية لا العكس، نظرية معرفة بلاغية تبدأ بالكتاب من حيث هو رتق وجمع، ثمّ تفرّقه على الأشياء وتبثّ آياته فيها بوصفه نظاماً داخلياً، ثمّ تعيد الآيات إلى دفتي الكتاب،.. نظريّة تجمع بين بلاغة اللسان وبلاغة الأكوان، فيزياءً وكيمياءً وأحياءً ورياضةً، نظرية تجمع البلاغات في بلاغة واحدة، تلاقي بين الأطراف، وتقارب بين المتباعدات، انطلاقاً من جمع البيان وتباين الجمع، أي انطلاقاً من بلاغة القُرآن...

إنّ تدبّر التّبيّن ينتهي بنا إلى استحصال نوع معرفة بالقدرة الكامنة وراء إيجاد الخلق، ومن ثمّ تتبيّن لنا حكمة خالقيّة الخلق من قبل الخالق القادر المقتدر العليم، فتعرفنا على حكمة ما وراء الخلق يعني تأكد ورسوخ معرفتنا بوجود الخالق... فالتّبيّن إذن نوع علم نستحصل عليه بأوضح الطرق وأكثرها كشفاً وأتمّها إيضاحاً...

وللتبيان مبيِّن ووسيلة تبيان، كلٌّ منهما يشكّل وسيطاً بين الذي تبيّن عنه الواسطة وبين الذي تبيّن له، فللواسطة طريقان أما الأول فيبدأ من المتسلسل عنه، الأول إلى الأخير، أي من الله إلى الإنسان، وأما الثاني فيبدأ من المتسلسل إليه إلى حيث المتسلسل عنه الأول، أي من الإنسان إلى الله.

أمّا وسيلة التبيان فهي الأخرى نوعان، آيات الله، البصريّة (الشيئيّة) مخلوقاته جميعاً، وأخصّها آياته التي هي معجزات أنبيائه السابقين لخاتم الأنبياء، وأمّا النوع الثاني،

فآياته السمعيّة (اللسانية)، أي كتبه السابقة لآخر الكتب القُرآن، وآخر الكتب القُرآن.

وهاهنا يتضح لنا الطريق الأول للتسلسل، على الوفق الآتي؛ وبالترتيب:

١. الله سبحانه.

٢. الرُسُل، وأوّلهم محمد وخاتمهم محمد، وهم من حيث أشرفهم، خمسة، أولو العزم.

أو، إذا نظرنا إلى العروبة والعربيّة، على أنّها بلاغة النوع البشري شيئياً وعلمياً (العلم بالله سبحانه)، فالأنبياء من العرب خمسة، كما يذكر ابن منظور، هم؛ محمّد وإسماعيل وشُعيب وصالح وهود، صلوات الله عليهم جميعاً[1].

٣.وسيلة التبيين، شيئيّة بصرية أو بيانيّة سمعية؛ من حيث هي آية أو معجزة كناقة صالح، أو من حيث هي كلام يتجه به الأنبياء نُصحاً وإرشاداً وعظةً ودعوةً... أمّا من جهة خاتم الأنبياء، فالتبيان كان سمعيّاً، لا بوصفه عظةً أو نصحاً حسب، وإنما بوصفه كذلك، ثم بوصفه تبياناً معجزاً، وبهذا تحقق لخاتم الأنبياء الأمران في واحد، العظة والنصح والإرشاد والتوجيه والدعوة من جهة، والإعجاز من جهة أخرى، وهما كلاهما في الكتاب، التبيان. وعدا ذلك فإنّ لخاتم الأنبياء معجزات بصريّة لاحقة، وأشرفها معجزة الإسراء والمعراج... وهنا يتضح لنا، أنّ السمع بلاغة من حيث هو شيء (إذن) أو موجة صوتيّة، أعلى وأتم أحيائياً وكيميائياً وفيزيائياً، من البصر بوصفه (عيناً) أو بوصفه موجة ضوئية... ولهذا جُعلت معجزة تمام النبوّات وبلاغة النبوّة، سمعية أولاً، ثم بصريّة، وهكذا يتضح لنا، أنّ الاهتداء بالتبيان اللساني يعني الاهتداء بأوضح الطرق وأكثرها كشفاً، وأتمّها إيضاحاً، وأسرعها في الوصول، مقارنةً بالتبيان الشيئي الذي يجريه علماء الفيزياء والكيمياء والأحياء من الغربيّين، ولكنّنا وللأسف بخسنا هذا الطريق حقه ، فيما يسعى الغربيّون اليوم إلى إعادة الاعتبار له، من خلال

---

[1] انظر: لسان العرب، مادة (عرب).

تحكيم الدرس اللساني في العلوم الصرفة.

أما الطريق الثّاني الذي يقابل الطريق الأول، والذي هو طريق المتبيّنين، البشر، فهو وعلى وفق التسلسل التكويني الذي يميّزه، وبما يقابل التسلسل الأول:

١. الإنسان.

٢. وسائل التّبيّن، وهي من حيث أولها وآخرها، يمثلها العقل فالعقل أول الخلق، به سبحانه يثيب وبه يعاقب، ولكن علينا أن نتذكّر أن العقل شيء والدّماغ مُخّاً ومُخيخاً، أو فصيصي تفكير جبهويين، شيء آخر. فالدّماغ، واسطة بين العلم الخارجيّ والعلم الدّاخلي، أما العلم الدّاخلي فهو العلم الّذي يسميه علم الوراثيات الحديثة، علم الشفرات الوراثيّة، أو (الجينات)، وهذا بوصفه إشارات علميّة منضّدة في المادّة السّائلة في الخلايا في الجسم بمجمله، أبعد غوراً ممّا يتعلّق بالعلم الخارجيّ، إنّه علم التّكوّن الشيئيّ للإنسان، بدليل أن الإنسان وإن وُلِدَ فاقد السّمع والبصر، فإنه كائنٌ، ومتَكوّن ولا يمنعه من التّكوّن بوصفه شيئاً ذا سمات حيويّة وعضويّة(يداً ورجلاً، وعظماً، وأحشاءً..)،لا يمنعه ذلك الفقدان من الوجود.. وأمّا العلم الخارجيّ،فهو علم الحواسّ، وأهمّه علم السّمع والبصر الّذي يتجاوز به الإنسان ما هو حيويّ إلى ما هو معنويّ،وما هو غريزيّ إلى ما هو إراديّ،بل إنّه به، يترقّى العلم الدّاخليّ (علم الجينات) من خلال الملاقحة الحاصلة بين الخارج والدّاخل،وبين الرّتق الدّاخليّ والفتق الخارجيّ...

فإذا عرفنا أنّ الّذي يغذّي مادّة العلم ووسائله الخارجيّة والدّاخليّة، هو الدمّ، وأنّ مجمّع الدمّ، أي دفقه وضخّه، رتقه وفتقه، جمعه وفرقه، هو القلب الّذي يقبض ويبسط، عرفنا أنّ للقلب شأناً كبيراً في العلم، بوصفه حيّزاً لا بوصفه عضلة، كما أن الدماغ حيّز والرجل حيّز واليد حيّز، والجلد حيّز. فشأن القلب إذن هو شأن مجمع البحرين بالنّسبة إلى ذي القرنين، بل هو كذلك، وأرجو أن التأكيد الأخير لا يغضب

المتبيّنين، فالعلم الماديّ التجريبي وخاصة علم الوراثيات كفيل بإثباته ولو بعد حين، وهي دعوة لتبيّنه بغية حل الإشكال المعرفي والعلمي (البيولوجي) المتعلق بعلم القلوب.

وهاهنا، تصير وسائل التّبيّن خمسة، المادّة الأولى، التي بدأ من عندها الخلق الأوّل، بوصفها النّظام المسجّل في المادّة الحيويّة، والتي يبدأ من عندها الإنسان بوصفها نطفة، والتي سينتهي الإنسان إلى موته ورميم عظامه، ثمّ إلى ترابيّته الأولى بينما تبقى هي غير قابلة للفناء لتحيا بالبعث بعد إنزال المطر الكونيّ الأخير ثم الخروج من القبور. ومن بعد ستشهد هذه المادة (النظام) الوراثية على صاحبها وحاملها، لدى الشّهيد يوم الشّهود...

هذه المادّة، فرقت قلباً، وفُرِقَ القلب دماغاً، وفُرِقَ الدماغ سمعاً، وفُرِقَ السّمع بصراً، وعلى وفق التّرتيب بلا تقديم أو تأخير...وليتأكد من ذلك تجريبياً من يريد التأكد.

فهي إذن خمس وسائل، تقابل خمسة أنبياء، لها أوّل، والأوّل هو الآخر، وللأنبياء أول وآخر...

٣. وسيلة التّبيين:

وهذه واضحة بيّنة لكلّ ذي سمع وبصر وعقل، ممّثلة بالمسموعات والمبصرات جميعاً، وأخصّها وأبلغها (ناقة صالح) أو نصيحة شعيب،أو عصا موسى، أو يد عيسى، أو قُرآن نبيّ الرّحمة، أو تسبيح الحجر بين يديه، أو مجيء الشّجر إليه، أو شكوى البهائم وسجودها له، أو فوران الماء من بين أصابعه... إلخ[1].

فوسيلة التبيين (الآيات والمعجزات والكتب) جهة إلهيّة معروضة لوسائل التّبيّن الإنساني (الحواس، والقلب، والعقل)، فلوسيلة التبيين طريقان، طريق بصري وآخر

---

(1) انظر: أبو نعيم الأصبهاني ت: ٤٣٠هـ، دلائل النبوة، حققه الدكتور محمد رواس قلعه جي وعبد البر عباس، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م: ج٢/ ص٣٧٣-٣٨٧، و٣٨٩-٣٩٧، و٣٩٩-٤٤١، ومواضع أخرى.

سمعيّ على أنّ الثّانيّ غاية الأوّل، وبلاغة بيانه، فالسّمع جمع البصر ورتقه بعد فرقه وفتقه، فهو أوّل وآخر... وفي مقابل ذلك، فلوسيلة التبيين في الطّريق الأوّل (من الله إلى الإنسان)، وجهان أيضاً، وجه شيئيّ، ووجه كلاميّ قوليّ، على أنّ الثّاني غاية الأول، وبلاغة بيانه، فالوجه الكلاميّ (كلام الله) و(قوله)، جمع الشيء بعد فرقه في الأدلّة والحجج البصريّة، فهو بوصفه كلمة، أوّل وآخر، (كُنْ) فوُجِدَ، و(كُنْ) فيفنى، و(كُنْ) فيحيى، و(كُنْ) فيموت، (كُنْ) فبدأ، و(كُنْ) فيعود... وما بين الأوّل والآخر، برزخ الوجود، الّذي يداخل فيه الشيء الشيء... ممّا اقترنت به كلمة (شيء) في التتريل العزيز، إضافة إلى اقترانها بـ(التّبيان) في آية التّبيان السابقة الذكر، (الإرادة الإلهيّة) و(التّكوين): ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (يس: ٨٢). وما أمره إلا قوله أو كلامه السابق الخلق، والظّاهر به الخلق...

فالشيء، أيّ شيء متكوّن بعد إرادته الإلهيّة، بالأمر الإلهي، أمر الـ"كن فيكون"، والأمر في كلّ مرّة، هو نفسه؛ (كن فيكون)، بينما الشيء من حيث هو ظهور ونوع وغاية مختلف. وبتكرار الاختلاف يتحقّق التّنوّع، الّذي يجيء التّبيان ليعيدنا إلى أوليّته الأمريّة الواحدة، امريّة الـ"كن فيكون"... فللكون إذن جانبان، أولاً كون الشّيء بالأمر، وثانياً ظهوره بالتّبيان. فالكون الكتابيّ القُرآنيّ، التبيانيّ أو اللسانيّ إذا اختصرنا ذلك التنوّع في وحدة واحدة، هو المعادل الكونيّ القوليّ للكون الشيئيّ. وكما أنّ الّذي يحكم الأشياء جميعاً هو نظام واحدٌ متحقّق بتحقّق أمر واحد هو أمر الـ"كن فيكون" كذلك الّذي يحكم الكلمات القُرآنيّة،هو نظام واحد متحقّق بتحقّق أمر واحد هو سريان ذلك الأمر السّاري في الأشياء، من خلال المواجهة الكائنة فيما بين الكون الشّيئي والكون اللّسانيّ. على أن الكون اللّسانيّ ليس سابقاً أو لاحقاً للكون الشّيئيّ السّبق او اللّحوق الذي نستنتج منه، أنّ فترة زمنيّة فصلت بين القُرآن والخلق، كأن يكون القُرآن مخلوقاً قبل الخلق، أو بعد الخلق كما ذهب إلى ذلك من ذهب من السّابقين، وهذا ما سنتبيّنه في موضع لاحق من هذا الكتاب.

إنّ الّذي يترتّب على ما سبق، هو إنّ الفصل بين الاسم والمسمّى، او الكلمة والمراد، او الدالّ والمدلول، فصل غير وارد إطلاقاً، إلا بالقدر الّذي يحقّق فيه الفصل درجة أعلى من التبيّن.فالدالّ والمدلول وجهان لحقيقة واحدة، وحُجيتهما واحدة، مع فارق البطون أو الظّهور، والبيان والتّبيّن والعمق والسّطح.. فليسَ ثمّة في القُرآن دالّ ومدلول ودلالة، ثمّة فقط الدّلالة التي تختزل الكون والتكوّن إلى رتق وفتق، وجمع وفرق، ووصل وفصل..إنّ الذي يحصل حينما يطلق أحدنا اسماً ما،أو حينما يقول كلمة ما، ولنفرض أنها؛ (جبل)، هو إنّه يستعين بالكينونة الّلسانيّة، أي بالكلمة التي تستحضر صورة (الجبل) المخزّنة في الذّاكرة، بوصف تلك الصّورة بديلاً وعوضاً يقوم مقام الجبل الحقيقيّ. فالمتحدّث عن (عرش بلقيس) لمجموعة من المستمعين، لا يستطيع أن يأتي بعرش بلقيس عياناً وحقيقةً، إنّه يتحدّث عن صورته التي شكّلتها إدراكاته الخياليّة في دماغه، ويدعو المستمعين إلى تشكيل صورة مماثلة مستعينين بقدراتهم الخياليّة. ولكنّ العبد الّذي آتاه الله من لدنه علماً، أتى به لسليمان عليه السّلام قبل أن يرتدّ لسليمان طرفه،وقد كان عليه مكيناً،فأحضره كما هو دونما تصدّع أو تهشّم وتفتّت كما يحصل للصّواريخ أو المركبات الفضائيّة حينما لا يراعى قبل إطلاقها أمر الاحتكاك بالتّيارات الهوائيّة وهي تسير بسرعة لا تساوي شيئاً مقارنةً بسرعة إحضار عرش بلقيس لسليمان.

إنّنا إذن عاجزون عن إحضار (الجبل) إلى قاعة درس، وأيضاً عاجزون عن إحضار الشّمس أو النّهر أو الطّير... ومن جهة أخرى،فنحن عاجزون عن جعل كلمة (جبل) تتجسّد جبلاً على وجه الحقيقة، لمجرّد أن ننتهي من قولنا المسبوق بإرادتنا تكوين الكلمة أو الدالّ أو الاسم شيئاً مرئيّاً، كأن يكون الدالّ، جبلاً كما هو حينما أقف قبالته، أو كما هو حينما أمسك به حقيقة، كأن أقول (قمراً) أو (نجمة) أو (فراشة).وبموجب هذا العجز وذاك يحق لنا الذهاب إلى القول بالدّال والمدلول والدلالة فيما يتعلّق بلغتنا أو كلمتنا البشرية. وليس الأمر كذلك مع الكلمة القُرآنية من حيث هي جنبة إلهية، فالله سبحانه الذي لا يعجزه شيء، والمحيط بكل شيء، والقادر على

كل شيء، والقائل للشيء كنْ فيكون... لا يجوز عليه القول بـ(صورة الشـيء) أو (المعنى)، فالكلمة عنده هي الشّيء، والشّيء هو الكلمة، عياناً وحقيقةً، فعجزنا يُقابل قدرته، ومحدوديتنا تقابل مطلقيته، وتصوّرنا يُقابل حقانيّته، وضعفنا يُقابل قوّته. فنحن شيء، وهو خالق الشيء، ونحن محاط بنا وهو محيط، ونحن نستعين وهو معين، ونحن نفتقر إلى.... وهو الغني المستغني...

وبموجب ذلك علينا أن ننظر إلى الكلمة القرآنية. وبموجبه يجب أن ننظر إلى قرآنية التكوّن سواء كان تكوّناً شيئياً أم تكوّناً لسانياً... فإن استعنّا بالمعنى أو الصورة التي للشيء وليس لنا إلاّ أن نستعين، فعلينا أن نتذكّر أن الاستعانة تبيّن القدرة والإحاطة والمقاددة والمطابقة الكائنة بين الكلمة والشيء، والشيء والكلمة.وما قوانين الشيء وأنظمته الخارجية، إلاّ قوانين وأنظمة الكلمة القرآنية وهي تتسلسل بين دفّتي كتاب من حيث هي شكل مسموع مقروء. ومن بعد، فعلينا أن نتذكّر أن تبيّن النظام الداخلي الذي يحكم تكوّنها الخارجي من حيث هو عمق دلاليّ، هو ذاته الذي يحكم تكوّن الأشياء من حيث هي كون شيئي ذو نظام شمولي واحد، هو نظام الـ"كن فيكون". وهكذا يجب علينا أن نبحث عن سريان الـ"كن فيكون" سواءً في الكون اللساني أم في الكون الشيئي، مبتدئين بالرتق ومنتهين عند الذي نقدر على تبيّنه من الفتق، ثمّ نُعيد الفتق رتقاً بعد تكشف التبين. وبموجب تشيّؤ الكلمة، بدءاً وعوداً،رتقاً وفتقاً، وفي ضوء بلوغ الخلق الإلهي تمام صنعه وإتقانه وحسنه، وبالمقابل بلوغ الكون اللساني (القرآن) تمام نظمه وسبك كلماته وحسن صورته، فكان معجزاً ببلاغته، لابدّ أن نقابل بين البلاغتين، بلاغة الكون الشيئي وبلاغة الكون اللساني، لنصل من خلال حسن الأخيرة وتمامها إلى زينة الأولى وتمامها، ثمّ لابدّ أن نقرّ ونؤمن بتشيؤ البلاغة، كما قرّ واتضح لنا تشيؤ الكلمة، فللبلاغة وجهان، وجه الخلق، ووجه البيان، وجه الشيء ووجه الكلمة. فللبلاغة تشيؤ، وللتشيؤ بلاغة...

الباب الثاني

الـ "كن" والتكوّن

تبيُّن الكينونة – تسلسل المُتَكِّونات

الفصل الأول

الكينونة من النظام إلى الانتظام

أولاً: بيان الـ "كن" – تبـيُّن الكينونة:

مما خلصنا إليه في المدخل السابق، إن الكتاب المحمدي، تبيان لكل شيء، سواءً كان ذلك الشيء مما يتعلق بأمور الدين أم مما يتعلق بأمور الدنيا. وكذلك خلصنا إلى أن الـ "كل شيء" الذي أنزل الكتاب للكشف عنه وإظهاره، هو ذلك المشترك الكلي الشمولي الذي يجمع الأشياء جميعاً تحت صفة واحدة، أسميناها، (الشيئية)، في مقابل ما يخرج بنزول الماء من الزرع، فالزرع واحد من حيث الصفة الشيئية المكنونة في أنواع الزرع جميعاً، وإنْ اختلف هذا الزرع عن ذاك لوناً أو ثمراً..

ومما خلصنا إليه أيضاً، هو إننا بوصفنا متبينين لا بد أن نكون تابعين للقرآن، قارنين ذواتنا ببيانه، محكمينه ومحتكمين إليه، الاحتكام الذي يجعل منه مركزاً ومحيطاً لكل، وبكل تبين. أما المتبين نفسه، فعليه أن يكون مركزاً ومحيطاً للتبينات السابقة، باعتبار ان لكل تبين لونه وثمره الخاص به، أي أنه له حقبته الزمنية وسياقاته الكونية وحركيته المنسجمة مع حركة الأشياء من حوله، تلك الحركة التي لا يعدم لها بياناً وتبييناً في البيان القرآني الذي لا بد للأرضية البشرية من دوام نزوله، على أن النزول هو النزول لا تبديل له، ولكن الذي يختلف هو ما يخرج بفعل من ذلك النزول مكاناً وزماناً، باعتبار ان لكل مكان وزمان تبينه الذي لنا ضبط رجاحته ومعياريته، من خلال التزامه باتباع القرآن، من حيث هو نظام قرن وجمع وضم لكل شيء، فالأشياء مقرونة به، من حيث هو العلم الإلهي ذو الوجهتين، الوجهة السماوية التي لا يحيط بها بشر، والوجهة البشرية التي لنا الإحاطة بشيء منها بإذنه سبحانه. أما المدخل الحق إلى حيث تبين ذلك كله وغيره، فهو المدخل اللسانيّ البليغ، لا من حيث هو العربي البشري بل العربي القرآني الذي يُلْزِمُ العربي البشري باتباعه، حينما يكون الاختلاف في التبين مدعاة لتفرق السبل، واعوجاج التوجهات.

والذي لنا وعلينا، الآن، هو تبين كيفية حدوث ذلك الـ "كل شي"، ومظاهر ذلك الحدوث، من خلال وجيز آخر، أو مركز –محيط جديد، له بالوجيز الأول صلة عميقة على الرغم مما يبدو للوهلة الأولى غير ذلك. أما الوجيز الذي نقصد فهو؛ (كن فيكون)، وأما مظاهره القرآنية، فهي؛

١. ﴿ بَديعُ السّموات والأرضِ وإذا قَضَى أَمْراً فإنّما يَقُول لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾ (البقرة: ١١٧).
٢. ﴿ قالتْ ربِّيْ أنّى يَكُونُ لِي ولدٌ و لمْ يَمْسَسْني بَشَرٌ قالَ كذلِكَ اللهُ يَخلُقُ ما يشاءُ وإذا قَضَى أمْراً فإنّما يقولُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْن﴾ (آل عمران: ٤٧).
٣. ﴿ إنَّ مَثَلَ عِيسى عندَ اللهِ كمثلِ آدم خلقهُ مِنْ تُرابٍ ثُمّ قالَ لَهُ كُنْ فيكون﴾ (آل عمران: ٥٩).
٤. ﴿ وهو الّذي خلقَ السّموات والأرْضَ بالحَقّ ويَومَ يقولُ كنْ فيكونُ قولهُ الحقُّ ولهُ الملكُ يومَ ينفخُ في الصُّورِ عالمُ الغيبِ والشّهادةِ وهو الحكيمُ الخَبيرُ﴾ (الأنعام: ٧٣).
٥. ﴿ إنّما قوْلنا لشيءٍ إذا أرَدْناه أن نقول لَهُ كنْ فيكون﴾ (النحل: ٤٠).
٦. ﴿ ما كانَ للهِ أنْ يتَّخِذَ مِنْ ولدٍ سُبحانَهُ إذا قَضَى أَمراً فإنّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾ (مريم: ٣٥).
٧. ﴿ إنّما أمرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أنْ يقول لهُ كُنْ فيكون﴾ (يس: ٨٣).
٨. ﴿ هو الذي يُحيي ويُمْيتُ فإذا قَضى أمْراً فإنّما يَقولُ لهُ كن فيكون﴾ (غافر: ٦٨).

والذي نتبينه من خلال قراءة المظاهر وضمها بعضها إلى بعض، هو:

١. إن حركية الحدوث أو التكون بدأت بأول الخلق، ومنذ إبداع السموات والأرض، وما زالت كائنة أو حادثة، ولن تستقر وتسكن إلا بعد النفخ في

الصُّوْر وما يترتب على ذلك من ثواب وعقاب، وجنة ونار.. ولهذا جاءت الـ "كن فيكون" بسبعة مظاهر لعالم الشهود، ومظهر واحد لعالم الغيب ممثلاً بآية الأنعام.

٢. إن للكينونة وجهتين:

أ. وجهة المُكوِّن (الله سبحانه).

ب. وجهة المُتَكوِّن؛ (السموات والأرض، والأنبياء، والبشر، والأشياء..).

٣. إن وجهة المتكوّن (ب)، مشروطة بتحقيق جمع من الصفات الإلهية؛ (القضاء، الأمر، الإرادة، المشيئة، القول)، وأيضاً؛ (الإبداع، الخلق، الإحياء، الإماتة).

٤. إن وجهة المتكون ذات شعبتين، شعبة عالم الشهود وشعبة عالم الغيب.

٥. لوجهة المتكون ثلاثة مراكز، المكان (السموات والأرض)، الزمان (ما يستلزمه عالم الشهود من حركة زمنية، مقابلة ليوم النفخ في الصور، أي ما بعد الحياة الدنيا..)، والكائن (النبي، الإنسان، والشيء).

٦. للمركز الزماني من مراكز وجهة المتكون ثلاثة تفصيلات زمنية ممكن الانتهاء إليها من خلال تتبع مادة (قول) في الآيات جميعاً، فقد جاءت المادة (قول)، على ثلاثة مظاهر زمنية؛ المظهر الأول هو مظهر الماضي ممثلاً (بآية: ٥٩ من آل عمران) حيث جاء الفعل على صيغة: (قال). أما المظهر الثاني فهو مظهر الحاضر من الزمن، ممثلاً بآيات، البقرة،وأول آل عمران، ومريم، وغافر. بينما جاء المظهر الأخير بصيغة المستقبل غير المباشر،ممثلاً بالحرف المصدري السابق للفعل (يقول، نقول) في آيتي النحل ويس، وممثلاً أيضاً بكلمة (يوم) ظرف الزمان الدال على اليوم الآخر، ممثلاً بآية الأنعام.

٧. إن مدخل القرن والقرء، أو الجمع والضم، من حيث هو علامة وسمة لا بد من التعلم بها والتوسم بوسمها، يقضي بجمع الآخر إلى الأول. ومن هذا المنطلق،

نرى أن قرن آخر الآيات في؛ (١- ٢ – ٣ –٤) ينتهي بنا إلى أنّ أواخر الآيات وجوه لأوائلها. وما أواخرها إلا الـ "كن فيكون" وما أوائلها إلا؛ (بديع السموات والأرض)، (يخلق ما يشاء)، (خلقه من تراب)، (خلق السموات والأرض)، وبموجب ذلك كله، وبضم التبين إلى البيان،نتبين ثانية، أن الأزمان جميعاً: (الماضي والحاضر والمستقبل) والأماكن (السموات والأرض) والكائنات (الأنبياء والبشر، والأشياء..) جميعاً خاضعة لحركية الخلق ودوام تكونه، على أن تلك الحركية لا تفاوت فيها؛((لا تجد في خلق الرحمن من تفاوت))، وأنها جميعاً خاضعة لما يترتب على الخلق من بدء حركة وانتهائها، أي ما يترتب على الخلق من إحياء وإماتة، ولهذا جاءت آية غافر، وهي تبتدئ بـ ((وهو الذي يحيي ويميت))، وتنتهي بـ ((كن فيكون)).

٨. إذا عرفنا أن (الواو) و (ثمّ) و (الفاء)، هي حروف عطف بغض النظر هاهنا عن تراخي (ثم) وتعقيب (الفاء)، وذلك في؛ (وإذا قضى)، (ثم قال)، (يوم يقول)، (فإذا قضى) في الآيات السابقة، خلصنا بموجب الجمع والقرن الكائن بين المعطوف والمعطوف عليه، إلى أن ((بديع السموات والأرض.. كن فيكون)) و (يخلق ما يشاء.. كن فيكون)) و ((خلق السموات والأرض.. كن فيكون)) و ((يحيى ويميت.. كن فيكون)). فالإبداع والخلق والإحياء والإماتة، من حيث ان الجميع فعل إلهي، لا يترتب عليه تعب ومشقة وعناء وإعياء، ومن ثم لا يترتب على ذلك جريان زمن، بحيث يصير الزمن ماضياً ومضارعاً ومستقبلاً.. ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أنّ الله الذي خَلَقَ السّموات والأرضَ و لَمْ يَعْيَ بخَلْقهِنَّ بِقادرٍ على أنْ يُحْيِي الموتى بلى إنّه على كُلِّ شيءٍ قَدير﴾ (الأحقاف: ٣٣). وبموجب ذلك يصير خلق وإبداع السموات والأرض

موازين لإحياء وإماتة كل ذي روح. والمتوازيان وجهان لحقيقة واحدة، ألا وهي حقيقة القدرة الإلهية، أمراً أو إرادة، أو قضاءً، أو مشيئة، أو قولاً..

٩. العود إلى الآية الخامسة والثلاثين في سورة مريم، (النقطة السادسة)، يظهر لنا مجيء (إذا قضى) غير مسبوقة بأحد أحرف العطف، كما حصل مع الآيات الأخرى. فإذا ضممنا آخر الآية على أولها تبين لنا أن الأول، بيان قرآني لنفي البعضية والجزئية حركة وسكوناً عن الذات الإلهية؛ ﴿ وَجَعلوا لَهُ منْ عِبادِه جزءاً إنّ الإنسانَ لَكَفُوْرٌ مُبِيْنٌ﴾ (الزخرف: ١٥). ولقد جاء الفصل بياناً لذاتين، ذات أعلى وأكمل وبلا أدنى توهم للمقارنة والتضام، ذات صمدية. وذات أخرى شيئية، شيئية أجزاء. فالكائنات والأشياء، والمكان والزمان، حركة الجزء في الكل، فالكل مجموع أجزاء، والجزء الواحد مجموع أجزاء وهكذا.. والحركة مجموع حركات، وكل حركة من الحركات مجموع حركات وهكذا .. أما الحدوث فكائن في الجزء والكلّ، فلا استقرار للجزء إلا بقرنه إلى غيره، وما الثبوت الخارجي للمتكون ثبوتاً إلا بالقدر الذي تكون فيه النظرة سطحية فوقية. فالأكوان جميعاً ثابتة ظاهراً متحركة داخلاً، والكون الواحد ثابت خارجاً متحرك داخلاً، والجزء من الكون الواحد ثابت خارجاً متحرك داخلاً.. ﴿ وَتَرى الجبالَ تَحْسَبُها جامدةً وهي تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللهِ الذي أتقنَ كلَّ شيءٍ إنّهُ خبيرٌ بما تَفعلون﴾ (النمل: ٨٨).

فما بعد "إذا قضى" في الآية لا يشترك مع ما قبلها، لأن ما قبلها بيان الصمدية التي هي خاصة الذات المقدسة التي أوجدت الأجزاء وليست بجزء. فأول الآية منقطع عن آخرها، وأخرها مترتب على أولها، ومتكون بها، ومتطيف ببياضها، أو متبين ببيانها.. فشطرا الآية متباينان متباعدان التباعد الذي يفارق بين جهة صمدية المكون وجهة جزئية المتكون، بكل ما يترتب على الجهتين من تبينات، وأخص ما

يترتب، استبعاد الولادة وامتناعها عن الجهة الأولى (جهة الصمدية)، وجوازهـا بـل خضوع الأجسام جميعاً لها، داخلاً وخارجاً، كلاً وجزءاً، مكاناً وزماناً، فيما يتعلـق بالجهة الثانية (جهة المتكون).

١٠. لقد جاءت مادة (قول) فاصلة واصلة بين جهتين في الآيات جميعاً:

١. جهة قضاء الأمر، إرادة الشيء.

٢. جهة الـ "كن فيكون".

فإذا تذكرنا أن العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال، كما سبق وتبيناه في المدخل السابق من هذا الكتاب، عرفنا أن قوله سبحانه، هو فعله. (يقول لمـن أراد كونه كن فيكون. لا بصوت يُقْرَع، ولا بنداء يُسْمَع. وإنما كلامه سبحانه فعل منـه أنشأه)[1]. فإذا رجعنا إلى آية الأنعام، وجدنا البيان القرآني المحكم، يكشف بما يدفـع كل لبس، عن حقانية القول وتحققه، (قوله الحق وله الملك).

وهاهنا يتبين لنا، أن للفعل الإلهي وجهتي إنشاء؛ هما، وجهة الإبداع والخلـق والإحياء والإماتة، ووجهة القول. فالقول الإلهي؛ "كن فيكون" مقابل وجهـة الخلـق والإبداع والإحياء والإماتة، فلا فاصل ولا فكاك، عـدا أن القـول وجهـة عميقـة باطنة،بينما وجهة الخلق والإبداع والإحياء والإماتة، وجهة ظاهرة بادية. والوجـهتان متلازمتان. على أن نتذكر، أن القول، فعل الصوت، لا صوت الفعل. (فـلا صـوت يقرع ولا نداء يسمع) كما هو الحال مع أصواتنا، ومـا ذاك إلا لأن تكـون القـرع والسماع مرتبة أدنى من مرتبة تكون الأشياء وتخلقها، أو إحيائها وإماتتـها. فـالقرع الذي يحدثه الصوت ويحدث بالصوت يصلح لنا، نحن العاجزين عن الخلـق والإبـداع والإحياء والإماتة، ثم إنه يعني مما يعني، أن الذي يحصل مع المُصَوِّتِين، هـو الاسـتعانة

---

(1) نهج البلاغة؛ ج٣/ص١٢٢-١٢٣. وورد في الحديث القدسي، "أفعل ما أريـد، عطـائي كـلام، وعذابي كلام، إنما أمري إذا أردته أن أقول له: كُنْ فيكون". انظر: الأحـاديث القدسـية: مـج١-٢/ ص٢٦٦.

بالصوت لأجل الإبانة والتبين. فالصوت ليس مبيناً إبانة مطلقة، بحيث تظهر به الأشياء وتتكون. والخلاصة، أن القول الإلهي بيان بينما القول البشري تبيُّن.

١١. وبناء على ما سبق جميعاً، وخاصة النقطة الأخيرة، نرى إلى الـ "كن فيكون" على أنها قرآن، وقرآنيتها التي هي قرآنية الفعل الإلهي،كائنة في المكان والزمان والكائنات جميعاً، فالكائنات والأزمان والأماكن، وجهتها الشيئية الظاهرة، والـ "كن فيكون" وجهة قولية لتلك الظهورات، هذا من جهة. ومن جهة ثانية، نرى إلى الـ "كن" على أنها تبيان جهة الأمر الإلهي المحدث (بكسر الدال)، والسابق فعلاً وإنشاء وعلماً.. ونرى إلى جهة الـ "فيكون"،على أنها تبيان جهة الحدث الحركي، اللاحق بلا فترة من زمن، بينه وبين السابق المكون له، وبفترة من زمن من حيث إن السابق جهة العلم الإلهي الذي ليس به حاجة إلى صوت يقرع ونداء يسمع،ثم من حيث اتصال هذه الجهة بالذات المقدسة التي لا فصل بينها وبين أسمائها الحسنى، ومنها؛ العليم.

فالـ "كن فيكون" مركز ومحيط، وهي كامنة في أصغر ما يمكن تبينه من الشيء، وفي أكبر ما يمكن تبينه منه أو من الأشياء. فالأشياء خاضعة لها مؤتمرة بأمريتها، متشكلة على وفق نظامها البياني، وهي نظام التخلق والإحياء والإماتة، ذلك النظام الساري في الأشياء جميعاً من حيث هي ذات روح أو غير ذات روح، أو لنقل من حيث هي مائية أو دموية. فهي –أي؛ الـ "كن فيكون" اللون الأبيض الساري في الموجودات جميعاً، والذي تتمثله الموجودات جميعاً، بحسب استعدادها للتمثل، ثم بحسب قدرتها على الإفادة منه والحياة به. وأخيراً فإنها واسطة بين الذات الخالقة والذات المخلوقة،وما وساطتها إلا لأن الذات المخلوقة مفارقة للخالقة، مفارقة الأدنى للأعلى، والأقل قدرة للأعلى، والأكثر تركيباً وتجزيئاً للصمدي، فلا قدرة للمخلوقة على

مباشرة الخالقه، ومواجهتها، بـــل مواجهة فعلها الذي يناسبها﴿وَكُلّ شـــيءٍ عنـــدَهُ بمقدارٍ﴾ (الرعد: ٨).

أسلفنا في موضع سابق من المدخل الأول، مدخل (التبيان)، إن لكل تبين فردياً كان أم جماعياً، سياقاته الكونية المقترنة بالحركة الكونية للكونـــين الخـــارجي (كـــون الآفاق)، والداخلي (كون الأنفس)، بحيث إن ما يحسب على التبين من قبل اللاحـــق، يجب أن لا يكون من باب التخطيء والتكفير، بل من باب الملابسة الجديـــدة للتبـــين السابق، وبما يعمل على استكمال الدائرة ومحيطاها المتعددة، أو بما يعمل علـــى إعـــادة استنبات الأرض بعد حطام زرعها. وبالمقابل فإن معيارية عدم التخطـــيء، لا تقضـــي بالخضوع أو الانزلاق في وهم التقديس، فلا مقدس إلا البيان القرآني،وما يتعلق به بعـــد عرضه على بيان القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

لقد ركز، أو تمركز المتبينون وهم يستثيرون الـــ "كن فيكون"، بكل مظاهرهـــا التي أوردنا سابقاً، حول:

١. ما كان شغلهم الشاغل، وهم يعتقدون بتبيان القرآن للـــ "كل شيء"، دينـــاً لا دنيا، ثم يقصرونه على المعنوي المجرد دون الشيئي المادي، فقالـــوا، إن الخطـــاب بالـــ "كن فيكون" من باب المجاز لا من باب الحقيقة، فالخطاب تصويـــر لســـرعة حدوث المقدورات وتمثيل لسهولة تأتيها. والقول هاهنا، مما خوطب العباد فيه بمـــا يعقلون. فالخطاب، "كن" يقضي عندهم أحد أمرين، كليهما غـــير جـــائز، الأول منهما هو إن الخطاب بالـــ "كن" أو بالتكون يرد على الموجود. فإذا ورد علـــى الموجود قبل الخطاب بـــ "كن" صار غير ذي معنى، لأن الموجود متكون أصـــلاً، وهذا غير جائز. أما الأمر الثاني، فالخطاب بـــ "كن" وارد على المعدوم، وهذا غـــير جائز أيضاً، باعتبار ان المعدوم ليس بشيء وغير موجود أصلاً فلا يتوجه بالخطـــاب إلى ما هو غير موجود .. فإذا لم يجز هذا ولا ذاك، فالخطاب ليس من باب الحقيقة

بل من باب التمثيل والتصوير.

٢. ولقد قادهم ذلك الاختلاف في تبين أحسن الحديث، إلى الاختلاف في القراءة، فذهب من ذهب إلى رفع "يكونُ"، وذهب الآخر إلى نصبها "يكونَ"، على اختلاف في الترجيح والتضعيف، (ترجيح الرفع وتضعيف النصب) ، أو في التقييد والإطلاق (تقييد النصب في أول آل عمران والأنعام مرة، وفي النحل ويس مرة ثانية، وإطلاق الرفع في المظاهر الأخرى).

٣. قضية كون كلام الله مخلوقاً أو غير مخلوق. فالـ "كن" لو كانت مخلوقة لكانت تستلزم (كن) سابقة لها، فلا بد أن يقول الله للكلام كن، ولكان قائلاً لـ"كُن": كن حتى ينتهي ذلك إلى مالا يتناهى وذلك مستحيل(١).

هذا هو أهم ما توقف أو استوقف المتبينين في الـ"كن فيكون"، أما كونية هذه الآية، وما يترتب على قرآنيتها من حقيقة، أنها تبيان لكل شيء، من حيث جهة التكون والحدوث.. فهذا ما لم يلتفت إليه المتبينون، قديماً وحديثاً. وما ذاك إلا لأن كونية القرآن، ثم كونية تبيانه،بوصفه تبياناً لكل شيء مما هو قابل وخاضع لفعل الخلق والإبداع، والإحياء والإماتة، أمر لم يستوقف المتبينين، كما استوقفهم أمر الحقيقة

---

(١) انظر: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ت٢٠٧هـ، معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار السرور، بيروت- لبنان (د.تا.ط)؛ ج١/ص٧٤- ٧٥، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن؛ ج١/ص٥١٠-٥١١، والكشاف: ج١/ص١٣٥، ومجمع البيان في تفسير القرآن:ج١/ص٣٦٦-٣٦٩، وتفسير الفخر الرازي: ج١/ص٢٩-٣٠، وابو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري ت٦١٦هـ، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧: ج١/ص١٠٩، ومحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ت ٧٥٤هـ، تفسير البحر المحيط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م؛ مج١/ص٣٦٥- ٣٦٦، وأبو السعود محمد بن محمد العمادي ت ٩٥١هـ، تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان (د.تا.ط)؛ ج١/ص١٥١.

والمجاز أو أمر خلق القرآن وعدمه.وما ذاك كله إلا ظهور من ظهورات التابعية الأبوية بكل أشكالها، ثم اتّباعُ البيان التبين لا العكس، ثم قراءة القرآن بمعزل عن قراءة الكون، ثم تقييد عربية القرآن بعربية اللسان البشري.

لقد نفى المتبينون توقف إحداث الحوادث على قوله تعالى؛ (كن فيكون) مستدلين على ذلك بأدلة ذاتية، منشؤها النص الفلسفي اليوناني غالباً، وليس القرآن نفسه بوصفه كافياً جامعاً مانعاً، فهمشوا تماماً، تبينات من مثل؛ "إن الله عالم بكل ما هو كائن قبل كونه، فلما كان ذلك كذلك كانت الأشياء التي لم تكن وهي كائنة لعلمه بها قبل كونها، نظائر التي هي موجودة، فجاز أن يقول لها: كوني، ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود، لتصور جميعها له، ولعلمه بها في حال العدم.."[1]، أو؛"إنما يقول كن عند وجود الأشياء لا قبلها ولا بعدها"[2] فلا فرق بين القول والفعل كما ورد في نهج البلاغة، ولا حال للقول يختلف عن حال الكون كما يؤكد الطبري[3]. والكون بعد ذلك؛ "اسم مجمل لكل ما كونه المكون بين الكاف والنون"[4].

إن قوله تعالى؛ ﴿أوَ لمْ يرَ الذين كفروا أن السّموات والأرضَ كانتَا رتْقاً فَفتقناهُما وجعلنا من الماءِ كلَّ شيءٍ حيّ أفَلا يُؤمنون﴾ (الأنبياء: ٣٠)، يدعونا إلى قرن آخر الآية بأولها ووصل أولها بآخرها، لنتبين بموجب بلاغة القرن، أن الكون الشيئي الأول هو كون الرتق (الجمع)، وأن الكون الشيئي الثاني المترتب على الرتق هو الفتق (الفرق).. وأن ما هو كائن الآن من أشياء، ما هو إلا مترتب على كونية الرتق والفتق. فالرتق والفتق سمتان مكنونتان في كل متكوِّن، صلباً كان أم سائلاً أو غازياً، حياً أو

---

(١) جامع البيان عن تأويل أي القرآن؛ ج١/ص٥١٠.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن: ج١/ص٣٦٩.

(٣) انظر: جامع البيان: ج١/ص٥١١.

(٤) موسوعة مصطلحات التصوف: ص٨٠٢.

ميتاً، مكاناً أو زماناً.. فلكل شيء، وجهان، رتقي وفتقي، وكما أن السماء والأرض كانتا رتقاً ففتقتا سموات وأراضين وما ترتب على فتقهما من كائنات، كذلك الـ "كل شيء" هو الرتق الذي فُتِقَ أشياء حية وغير حية (سماء وأرضاً) وكما فُتِقَتْ السماء وفُرِقَتْ من الأرض، كذلك فرق الحي عن غير الحي، وتكون الحي بعد تكون غير الحي. خلاصة القول، أن الرتق أصل ترتب عليه الفرق، وأن الـ"كل شيء" أصل ترتب عليه فرق الأشياء، وأن الماء أصل ترتبت عليه الحيوات جميعاً.. وان الذي ما بين الرتق الأول والرتق الأخير أي ما بين أول الخلق وفنائه هو الكون.. تُرَى ألا يقابل زوج الرتق والفتق الكوني، الذي هو أول الكون، آية "كن فيكون"، فحال الكون والقول واحد. والكون ما بين الكاف والنون، وكلامه سبحانه فعل منه أنشأه؟

هذا هوا لخلق الأول إذن، فما هو الخلق الثاني والثالث والرابع.. حتى قيام الساعة، أليس هو إعادة ورجعاً وتكراراً ولبساً للخلق الأول؟ يقول القرآن؛ ﴿ أَفَعَيِيْنَا بِالخَلْقِ الأَوّلِ بلْ هُمْ في لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَديدٍ﴾ (ق: ١٥)، ويقول؛ ﴿ أو لَمْ يَروا أنَّ اللهَ الذي خلقَ السّمواتِ والأرضَ ولَمْ يَعْيَ بخلْقِهنّ بِقَادرٍ على أن يحيِ الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾ (الأحقاف: ٣٣)... ترى أو ليس خلق السموات والأرض هو فتقهما بعد رتقهما، ومن قبل إبداعهما "بديع السموات والأرض" ولم يكونا بعد...؟

يقول تعالى على لسان موسى؛ ﴿ قَال رَبُّنا الّذي أَعْطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: ٥٠) ترى، أوليس الذي خلق، أو باشر الخلق الجمعي بالـ "كن" الأولى، سلك فيه هذه الـ "كن"، وهداه إلى الخضوع لها وتمثلها أو التكون بها، دونما حاجة إلى مباشرة الـ "كن" وتكرارها، على شكل أفعال وأقوال مع وجود أي متكون أو أي شيء.. إن نزول المطر لمرة واحدة يكفي لإحياء الزرع وإنباته وهياجه ثم حطامه، فالماء كائن في البذرة، كل جزء من الزمن، ولكن النزول مرة واحدة..!

تُرَى، أَوَلا يذهب الماديون الآن إلى أن الطبيعة خلقت نفسها بنفسها، لأنهم توهموا أولية (الكتالوج) أو (السيستم)، الكائن في الأشياء، بحيث أن لا أولية للذي أعطاه، وهدى الطبيعة إلى الامتثال له؟

ترى، بعد ذلك كله، أليس من حقنا أن نعيد النظر في حجة المتبينين،تلك التي تذهب إلى أنه لا يجوز توقف إحداث الحوادث على قوله (كن)، وأن المراد من هذه الكلمة هو تمثيل سرعة نفاذ قدرة الله في تكوين الأشياء؟

نعم، التمثيل وارد، ولكن الاكتفاء به، وكأنه زينة خارجية منفصلة عما بدا من عليه أمر غير وارد. فالزينة القرآنية، ليست زينة خارجية كما بيّنا، بل حسن منبثق من الكلمة وبالكلمة وكائن بها وفيها وعليها.. وما أمره إلا أمر الزرع الذي اختلفت ألوانه بعد تبينه بترول البيان المائي.. وأن حسن الحديث طباق زينة الأرض واختلاف ألوان الزرع، فإذا كان لون الوردة، صبغة بشرية خارجية، لا صبغة إلهية، كان الحسن القرآني (التمثيل) كذلك، وترتب على ذلك انفصال الحسن عن الكون الكلي والشمولي للكل شيء، ثم صار الحُسن معيقاً ومعرقلاً ومضللاً ومانعاً من الوصول إلى ما وراءه. وما هو كذلك وحاشا له، وهو حسن الحديث، الذي هو أحسن الحديث.. وفيما يأتي تفصيل كونيّ لما أجملناه هاهنا في هذا المبحث، وبهدي من الحُسن نفسه، ومن مدخله، الحق، مدخل البلاغة القرآنية..

مما لحظنا ونحن نستقرئ التبينات السابقة في بيان الـ "كن فيكون"، أن أحدهم قد ذهب به مذهب التضييق على الكلمة القرآنية وهي الواسعة الكفوءة، حد أن طعن بقراءة من يقرأ "يكون" بالنصب، فهي عنده لحن، مع أن هذه القراءة واردة في السبعة القراءات، فهي قراءة متواترة، ثم هي بَعْدُ، قراءة ابن عامر وهو رجل لم يكن يُعرف عنه اللحن، وقراءة الكسائي في بعض المواضع وهو مَن هو في علم العربية.. ثم

ترتب على ذلك المذهب، أن أَثَّمَ الآخرون ذلك الطاعن، بل، لقد جعلوه قاب قوسين أو أدنى من الكفر[1].

ولكن، ومع ذلك كله، فإن غير ذلك الطاعن من المتبينين، يصر على تضعيف قراءة النصب، في الوقت الذي يدافع فيه عن تواتر القراءة. وما ذلك التضعيف إلا شكل من أشكال التابعية الأبوية للعربية البشرية دون العربية القرآنية. أما حججهم في التضعيف فهي؛ "ولا يصح نصبه على جواب الأمر الحقيقي لأن ذلك إنما يكون على فعلين ينتظم منهما شرط وجزاء نحو ائتني فأكرمك إذ المعنى إن تأتني أكرمك وهنا لا ينتظم ذلك إذ يصير المعنى أن يكن يكن فلا بد من اختلاف بين الشرط والجزاء إما بالنسبة إلى الفاعل وإما بالنسبة إلى الفعل في نفسه أو في شيء من متعلقاته"[2]. ويفصل العكبري القول في ذلك التضعيف الذي يردّه إلى وجهين، أما الوجه الأول فهو أن "كن" ليس بأمر على الحقيقة، إذ ليس هناك مخاطب به. وأما الوجه الثاني فهو؛ "أن جواب الأمر لا بد أن يخالف الأمر، إما في الفعل أو في الفاعل أو فيهما، فمثال ذلك قولك: اذهب ينفعك زيد، فالفعل والفاعل في الجواب غيرهما في الأمر، وتقول: اذهب يذهب زيد، فالفعلان متفقان والفاعلان مختلفان، وتقول: اذهب تنتفع، فالفاعلان متفقان والفعلان مختلفان، فأما أن يتفق الفعلان والفاعلان فغير جائز، كقولك: إذهب تذهب، والعلة فيه أن الشيء لا يكون شرطاً لنفسه"[3].

لقد فات المتبينين، أن العربية البشرية، لا يجب فيها، ولا تقدر،أن تكون طباق الحركة الكونية للأشياء طباقاً مطلقاً من حيث هي نظام قرن. فالعربية البشرية تقارب الحقيقة وليست هي الحقيقة، وما الحقيقة كما هي عليه فعلاً إلا تلك التي يبين عنها

---

(1) انظر:تفسير البحر المحيط: مج١/ص٣٦٦.

(2) نفسه.

(3) التبيان في إعراب القرآن: ج١/ص١٠٩.

(القول الحق). فالعربية البشرية تبـيُّنُ المقاربة لا بيان الحقيقة.فلا يصح الاعتبار بـالتبين بوصفه مدخلاً للبيان، وإن صح، فبوصفه مما يستعان بـه للوصـول إلى المدخـل، ثم الإسهام في تكشف ما بعد المدخل.

ولقد كان لهذا الفَوت أثر بالغ في إعاقة الوصول إلى ما يجب الوصول إليه ممـا جاء في آية الـ "كن فيكون" أو غيرها.

حينما ننحي قليلاً حقيقة أن هذا النظام الدقيق الذي انتظمت بموجبه أشـياء الطبيعة، كل شيء على حدة، أو مجموعاً على بعضه،لا يمكن إطلاقاً أن يكون إلا فعـل فاعل محيط بهذا النظام وقادر عليه وعليم به، ننتهي إلى أن النظر إلى الأشياء بموجب مـا فيها من نظام تركيبي حركي وحيوي، يكفينا للوصول إلى غنى وثراء وسعة وانسـجام الطبيعة وأشيائها، بحيث إننا لنا أن نكتفي بدرسها وتبينها، الدرس والتبين الذي يخلـص بنا إلى غير قليل من نواميسها وتمفصلات نظامها، وإن لم يكن ذلك بكاف للوصـول إلى ما هو أبلغ وأتم وأسرع في الوصول وأقل زللاً وخطلاً بالنسبـة للغربيـين. أمـا بالنسبة لنا فالأمر كما أسلفنا لن يتهيأ لنا دون الاعتماد على المدخل الحق الـذي هـو حري بنا، ونحن على شاكلته أقصد المدخل الصدق، مدخل القرآن وبلاغته.

لقد كان الخطاب الإلهي ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾، واضحـاً وصريحاً في إبانته عما في القرآن من علم، وما في لسانه من مطابقـة ومقـاددة لمـا في الخارج، وما لحسنه من تواشج كوني معجز في ما بين الكلمة من حيث هـي حـامل للعلم، والكلمة من حيث هي دليل على الحسن وبلاغته..وبالمحصلة فالقرآن في خطابـه ذاك مكتف بنفسه، وهو يعرض آياته على الكافرين به. فالقرآن لم يطالبهم بـالتدليل على عدم وجود الله، أو على وجود شريك له، لأن ذاك مما لا ينسجم مـع مـا هـو ناموسهم وشأنهم ودليلهم في التبين، ألا وهو اللسان وزينته، أو الإبانة وبلاغتها في تلك الحقبة الكونية من حقب الترول. لقد طالبهم القرآن بالإتيان بمثله، بغض النظـر عـن

كون الذي جاء به جاء به وحياً من عند الله سبحانه، أم جاء به من عنده (حاشا لــه). ولقد عرض القرآن ذاته عليهم عرضاً حسياً، مما هو أبسط أنواع العرض، فعجـــزوا.. وإذ عجزوا وهم الجمع الكبير والأكثر ترقياً في هذا النوع من الإبانة اللسانية مقارنـــة بغيرهم من الأمم، أو وهم المعنيون بالشعر وحسنه وحكوماته وذوقه والتنافس فيه، فيما الذي جاء به أميّ غير معني بالشعر وإنشاده والتنافس فيه، فرد واحد، فقد بان لهـــم أن وراء ذلك النظام منظم، ووراء تلك الإبانة المطلقة ما هو أكبر وأقدر تماماً مـــن قـــدرة ذلك الفرد الأميّ غير العارف بأصول اللعبة الشعرية وقوانينها بوصفها أعلى درجـــات الإبانة اللسانية البشرية عندهم وعند غيرهم..

وإذن، فقد كان القرآن، وما زال صالحاً لأن يكون علة لنفسه، فإذا اســـتقام ذلك، ترقى المتبين إلى علة العلة، فوجود القرآن وقدرته على الكشف والإظهار، إبانـــة عن وجود العلة التي وراءه، والشك في هذا، أو مغالطته، أو عدم الوعي به، يقود ممـــا يقود إليه إلى القول بالصرفه ثانية، ولقد قال بها العكبري من حيث لا يدري، وهو ينظر إلى عربية القرآن، بتوجيه من النص الفلسفي اليوناني، أو بتوجيه مـــن أبـــوة العربيـــة البشرية..

الكلمة القرآنية إذن، من حيث هي فعل منه سبحانه أنشأه، ومن حيث هـــي، صفة المتكلم الذي ليس له نهاية[1]. ليس لها نهاية بالنسبة إلى البشر ولها نهاية بالنسـبة إلى الله سبحانه، فهي وراء كل علة من علل التبيّن، والله وراء ذلك كلـــه. وإن لم يكـــن الأمر كذلك فلا فائدة من قول نبي الرحمة؛ "إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن فإن فيه علـــم الأولين والآخرين". فالذي يتسلسل به القرآن هو العلم الإلهي المكنون فيه والذي ليـــس له نهاية، وكذلك تتسلسل الطبيعة وفقاً واستجابة وخضوعاً للنظام القرآني المكنون فيـــها مذ أول خلقها، وكذلك نتسلسل نحن، المتبينون وغيرنا، بموجب ذلك النظام الآدمـــي

---

(1) انظر: البرهان في علوم القرآن؛ ج١/ص٢٩ –٣٠.

المكنون فينا مذ أول خلقنا الآدمي. فنحن علة لأنفسنا (مادياً)، ومعلولون للنظام الكائن فينا، النظام الجعلي التكويني الأول، فالنظام علة لنفسه، ومعلول لعلة العلـــل، الله جـــل شأنه.. والذي ما بين العلة والمعلول، هو الذي ما بين الجمع والفرق.. وكل ذلـــك في ضوء إرادة المتبين التوقف عند هذا التسلسل أو ذاك، أي عند هذه العلة أو الأخرى..

وهاهنا، تصلح (كن) لأن تكون علة لنفسها، ونحن نقرن بين القول والفعـــل الإلهيين. فالتخلق اللاحق للخلق الأول، لبس من خلق جديد، فالخلق هو الخلق، وعلـــى ما هو عليه الخلق الأول مع فارق الملابسة الجديدة. والـــ "فيكون" هي الـــ "كن" مـــع فارق الملابسة الجديدة، وقد تظهر الـــ "كن" على غير ما هي عليه من حيث المظـــهر، فيصح أن نقول:

- كن ينجح زيد.
- كن يكن زيد.
- كن تنجح.

أما، قولنا؛ (كن تكن)، فوارد نحوياً، ووروده النحوي لساناً، واستقامته علـــى اللسان، تعني صحته. أما مدى تحققه، واستحالة ما وراءه، فأمر لا يليق بالـــــ "كـــن" حينما يكون قائلها الله سبحانه، وهو القادر على كل شيء، والذي ليس ثمة في دائـــرة إحاطته محال.. ولكن المشكل صلبه، هو أن المتبينين لم يخضعوا ويســـتكينوا كمـــا خضعت أجسادهم، أو كما خضعت الأشياء جميعاً للأمر الإلهي الكـــائن في؛ "كـــن فيكون"، فتفرقت بهم السبل، تفرق من ترك المدخل الحق إلى ما ترتـــب عليـــه مـــن مداخل.. لقد انزلق المتبينون بحثاً عما يجوز وما لا يجوز، إلى حيث المعنى أو المـــا وراء، فنسبوا أو تبينوا الشكل القرآني في ضوء الشكل البشري، وضيقوا على قدرته وســـعته وما هو بضيّق.

ولقد كان (ويكون) مهماً جداً الاستكانة المطلقة لنظام الـــ "كن فيكون" على

ما هو عليه، ثم مواجهته بالوجه الآخر له. أي كان (ويكون) مهماً جداً الإقرار بشرطية "كن فيكون" فالظاهر هاهنا والذي تستدعيه الذاكرة لحظة التبين، هو جملة الشرط، وعلينا الإقرار بهذه الشرطية، دونما أن يعني ذلك تجاوز ما عداها، أي علينا التكون بها لا بغيرها، علينا أن نتخلّق بأخلاق الأرض حينما تحدثها السماء بمائها، وليس للأرض إلا الاستجابة للماء على ما هو عليه دون تدخل في شيئيته، ثم تثمله بالكيفية التي تختلف فيها هذه النبتة عن تلك، ومن قبل هذه التربة أو تلك. ومن ثم، فالذي علينا، هو أن تكون الآية موضع استقرارنا وسكوننا، ثم تحركنا لا العكس.. فالشكل القرآني هاهنا، ومدخليته اللسانية، تقضي بشرطيته، وعلينا الاستجابة لها، خاصة وأن قراءة النصب المترتبة عليها، متواترة..

ومن عند الفقرة الأخيرة، وفي ضوء مقدماها، نخلص إلى أن القراءتين، قراءة الرفع وقراءة النصب، كلتيهما واردة. باعتبار أن كلاً منهما وجه للأخرى وملابس لها. فالقراءتان وجهان لحقيقة واحدة، ألا وهي حقيقة السعة الإلهية التي بانت بها قرآنية الكلمة، التي هي طباق قرآنية الـ "كل شيء" مما هو كائن ويكون...

ترى حينما ننظر إلى الشيء، أي شيء، صغيراً كان أم كبيراً، جزءاً أم كلاً، شيئاً بعينه أو الكون بمجمله، ألا نرى فيه كافياً نفسه بنفسه من حيث هو نظام، ثم ألا نرى فيه وجهاً من وجهيّ (العلة والمعلول)، فهو علة نفسه من حيث هو متكون بموجب عناصر ومركبات أو ذرات وأوامر، أو أنسجة وخلايا... مترابطة متعاضدة متقاربة جميعاً للمحافظة على كينونته...؟

ولكن النظرة الكلية الشمولية العميقة، تحيلنا إلى أن هذه الكينونة بمجملها ليست إلا مظهراً لظاهرة أعمق وأبعد، فالكينونة التي رأينا فيها عليتها لنفسها، كينونة زائلة، ولو كانت قادرة على أن تكون علة لنفسها بنفسها من حيث هي مظهر، لحافظت على انتظام ذلك المظهر، فعدم محافظتها على تمثل المظهر للنظام الداخلي

الكائن فيها، يعني أن النظام علتها، وأن النظام مفارق لها وإنْ تمثلته، أما هي فمعلـــول نظام تعجز عن الاحتفاظ به لذلك تعجز عن الاحتفاظ بشـــيئيتها أو جســديتها، أو حيويتها، أو كينونتها.. فهي إذن منفعلة بالنظام، وواقعة تحت تأثيره، ثم فاعلة بـــه مـــا شاء ذلك الذي وراء النظام المفارق، انتفاعها بما استودعه فيها من نظام.. والأمر عينـــه من حيث كونيته، أمر المـــاء السماوي والزرع الأرضي، فالماء مفارق للـــزرع، مـــن حيث هو نظام حيوي، والزرع منفعل به، سواء من حيث سلكه في بذرته أو من حيث سلبه من تلك البذرة، وما ظهور الانفعال إلا إحياء أو إماتة.. وعلى الطرف الآخـــر، نرى إلى الزرع فاعلاً، فالزرع هو الظاهر وهو الكائن وهو المخضـــر وهـــو المثمـــر.. وكمثل أمر الزرع، أمر أحسن الحديث مع الصدور التي شرحها الله سبحانه للإسلام.

ترى، أو ليس من حقنا بعد ذلك كله، أن ننظر إلى جهة الـــ "فيكون" مـــن الـــ "كن فيكون" على أنها تبيـــان جهة المنفعل، فإذا حق لنا ذلك، فجهـــة الشـــرط وجوابه وقراءة النصب، جهة حق، ولا بد من اعتبارها، والاهتداء بهديها.

ثم أو ليس من حقنا أن ننظر إلى جهة الـــ "فيكون" على أنهـــا تبيـــان جهـــة الفاعل، العلة لنفسه، فإذا حق لنا ذلك، فجهة العطف وقراءة الرفع، جهة حق أيضاً.

فيما يأتي من مباحث، تفصيل كوني، لما أجملنـــاه في الأوراق الســـابقة حـــتى السطر الأخير من هذا المبحث على أن المدخل هو مدخـــل البلاغـــة القرآنيـــة، وأن الخضوع والاستكانة لها وحدها دون غيرها، وإنْ استضيء بغيرها.. وبهدي من ذلـــك كله، وما جرى من مناقشات للمتبينين، سنحاول تبين رجاحة الشرط في آيـــة الـــــ "كن فيكون"، دونما تجاوز لرجاحة العطف، فالشرط والعطف كلاهما راجح، ولا بـــد من قرنهما وجمعهما لا فرقهما وتعطيل الإفادة منهما في قراءة الـــ"كل شيء "وذلـــك انطلاقاً من الكون اللساني وانتهاء بالكون الشيئي، أي انطلاقاً من بلاغـــة القـــرآن وانتهاء ببلاغة الكون.

ثانياً: كلمة السرّ ـــ الإيحاء والاستيحاء :

تقول العرب (الشرَط)، للمسيل الصغير يجيء من قدر عشـــــرة أذرع... أمـــا الشرْط (بسكون الراء)، فهو عندهم، إلزام الشيء والتزامه في البيع ونحوه.

وتقول لمن تشنؤه، لا كان ولا تكوّن، أي: لا خُلِقَ ولا تحرك، أي: مات... أما الكون فهو الحدث، وقد كان كوْناً وكينونة... والتكوّن: التحرّك. والكائنـــة: الأمـــر الحادث. وكوّنه فتكوّن: أحدثه فحدث[1].

وبناء على ذلك، فإن البحث، سيرى في آية الـــ"كن فيكون" ذلـــك المســـيل الصغير الذي سنلتزمه بغية تتبع حركيته أو مسيله، وما يترتب على ذلك المســـيل مـــن مظاهر كونية، وعلى طرفين، طرف مصدره ومنبعه، وطرف غايته ومنتـــهاه في هـــذا المظهر أو ذاك، وفي ذاك الخلق وغيره، حركة وسكوناً، إحياءً وإماتة...

والذي يشفع لنا في هذا الانطلاق من آية الـــ"كن فيكون" إلى حيث الآيـــات الأخر، في التتريل العزيز، ومنه إلى ما يُقابلها وتكوّن على وفـــق قرآنيّتـــها في الكـــون الشيئي، هو ارتباط هذه الآية بتبيّن الـــ"كل شيء" ثم كشفها عن أولية الأشياء جميعـــاً، باعتبار أن تلك الأولية كائنة بالـــ"كن" الإلهي. هذا من جانب،ومن جانب آخر، فـــإنّ ممّا يتّسم به البحث العلمي الجادّ، هو اعتماده على عيّنة أو عيّنات صغـــيرة أو قليلـــة، للقياس، ثمّ عرض المشاهدات المتعدّدة والمركّبة عليها، أي تحليلها إلى أخرى أبسط منها، على أن لا يخلّ ذلك التحليل بالحقيقة المعرفية للمركب أو البسيط. وهذا ما لا ينكـــره البحث العلمي المادي وأيضاً، لا ينكر بلاغته البحث اللساني، طالما أنه يُتيـــح لنـــا في النهاية تبيّن الوحدة الكائنة في صلب التعدّد، من خلال العود بالمظـــاهر إلى الظواهـــر، وبالألوان إلى بياضها وبأشكال التعبير إلى المعبّر عنه (المعنى)، وبالمـــادة إلى مكوّناهـــا الأساسية... وهاهنا بلاغتان لهذا العَوْد؛

---

[1] انظر: لسان العرب، مادة (شرط)، (كون).

أ- بلاغة الإيجاز:

والإيجاز عند البلاغين هو تضمين أقل ما يُمكن من الألفاظ أكثر ما يُمكن من المعاني، على أن لا يكون ذلك على حساب الوفاء بالغرض المقصود من الكلام، أي على أن لا يكون ذلك على حساب الإبانة والإيضاح[1]. فالإيجاز، هو الوحدة الأولية للكون اللسانيّ.

ب- بلاغة الصغير:

هناك، في صلب وحدة البناء الأولية للكون المادي-الشيئي، أي في نواة الذّرة، ما يُسمّى فيزيائياً، الجسيمات شبه الذريّة. هذا على المستوى الميكروالمادي الفيزيائي. أما الرياضيات فقد تحقّق لها بلوغ صغيرها الكوني، باكتشافها الأرقام غير الحقيقية أو التخيلية، ذلك الاكتشاف الذي أسهم وبشكل كبير في تطوير تقنيات الحاسوب ونُظم المعلومات. وللصغيرين الفيزيائي والرياضي،مظهر أحيائي متمثل بالخلايا ثمّ الفيروسات ثمّ الجينات، وأيضاً للزمن صغيره الذي ببلوغه تمّ حساب الزمن على مستوى الثانية من الدقيقة، بل على مستوى الميكروثانية والنانوثانية والفمتوثانية، أي على مستوى الجزء بالألف ثمّ بالمليون ثمّ بالمليار من الثانية.

فالصغير الفيزيائي أو الكيمائي أو الإحيائي أو الرياضي أو الزمني.. وما يترتب عليه من انشطارات نووية وتفاعلات كيميائية ومعادلات رياضية غير منتهية[2].. كل ذلك يثبت بلاغة الصغير وأوليته واكتنازه بالكثير من (المعاني)، على الرغم من صغره ووجازته.

---

[1] انظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ج٣/ص١٦٩ وما بعدها، والدكتور بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية، منشورات جامعة طرابلس، كلية التربية، ط١ ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م: مج٢/ص٩٢٣، وجواهر البلاغة: ص٢٣١ وما بعدها.

[2] انظر: الثقافة العربية وعصر المعلومات: ص٢٢٥ - ٢٢٦.

وكما وجد الصغير اللساني طريقه إلى المعاني الثـواني باعتبـار أن التـركيب اللساني له معنى أول يفهم من خلال التركيب الظاهر، ومعاني أخرى متعـددة تفـهم بحسب التركيب العميق، وسياقاته وأغراضه ومقاصده،وهذا ما يبحث فيه علم المعـاني، من علوم البلاغة العربية، كذلك ما عاد الصغير المادي، يشكو من ضآلة الاعتداد به بعد أن وجد له طريقه إلى المتعدد واللانهائي، وذلك بفعل آليات التكاثر والتفاعل والتوليـد الرمزي.

وبناءً على ذلك كله، يصير الوجيز الصغير المعرفي الغائب عن ظاهر الكلمـات والأشياء المركبة غائباً فقط، لا ضائعاً سدى. وليس الغيـاب إلا كمونـاً في الكـائن الظاهر، أو استتاراً في طبقاته الباطنة، وهذا ما يدعونا إلى تتبعه، تتبعنا للمسيل الصغـير، بغية تلمس مسالكه وينابيعه، ثم ما يخرج به مختلفاً ألوانه.. فالوجيز الصغير، شرط كـائن في الكبير المركب، كشرط خروج الزرع بنزول ماء السماء،أو كشرط قشعريرة جلـود الذين آمنوا، ثم لينها ولين القلوب بنزول أحسن الحديث الذي يتكرر نزوله مـع كـل قراءة لقارئ مؤمن.. وهكذا هو القرآن من حيث هو نظام قـرء وقـرن، كـامن في المتكونات جميعاً، إنْ بكليته، أو بآية الـ "كن فيكون" من حيث هي بيان الحـدوث أولاً وآخراً..

والذي علينا هاهنا، هو أن نجمع بين بلاغة الوجـيزين، اللسـاني والشـيئي، استجابة لتبيانية القرآن للـ "كل شيء"، وتدليلاً على وجهية القرآن اللسانية والشيئية، انطلاقاً من الوجيز اللساني، وتحديداً من الـ "كن فيكون".

لقد أوجد الله سبحانه الأشياء، بقوله "كن"، فالـ "كن"، هي الأمر الإلهـي المتمثل بالصوت – الكلمة، وما يترتب على الـ"كن"، هو الوجود الشيئي المادي ومـا يتعلق به، إحياءً أو إماتة، إنزالاً أو إخراجاً، رحمة أو نقمة، منعاً أو عطـاءً، إيمانـاً أو ضلالة، تسخيراً أو تدميراً..

على أن القول هو الفعل، (فلا صوت يُقرع ولا نداء يُسمع)، وكيف يكون ذلك، وليست للأشياء قدرة على تحمل ذلك، بل هو وحي يوحى، فتنفعل الأشياء أو تتكون، وما الوحي إلا إعلام في خفاء"[1]،﴿ وَمَا كانَ لِبشرٍ أنْ يُكلِّمهُ اللهُ إلا وَحْيَاً أو منْ وراءِ حجابٍ أوْ يُرْسلَ رَسولاً فَيُوحي بِإذنهِ ما يشاءُ إنَّه عليٌّ حَكِيْمٌ﴾ (الشورى: ٥١)، فإذا كان البشر، وابلغهم في البشرية ورقيها الإنساني والمعرفي، الأنبياء، لا يباشرهم الله بالكلام، بل يوحى إليهم أو من وراء حجاب، فالأشياء أولى بذلك، إذ يقول لها؛ "كن"، والجميع من حيث هذه النقطة متماثلون.. فالكون إذن، وبكل وجوهه، من حيث استجابته لفعل الـ"كن" الذي هو فعل الإشارة والكتابة والإلهام والكلام الخفي، والإلقاء، كون واحد، وما (الوحي)، كما ورد عن العرب إلا السر والتسارع، وما الاستيحاء إلى التحريك[2]. وما واحدية التكوّن بعد ذلك إلا واحدية التخلق والنشوء، ولا تفاوت في الخلق، ولا تبديل لسنته؛ ﴿ فلنْ تجدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْديلاً ولَنْ تَجدَ لِسُنّةِ اللهِ تَحْويلا﴾ (فاطر: ٤٣).فلا تبديل ولا تحويل لقوله؛"كن"، ولا أسَرَّ من سرِّيّته، ولا أعمق. إن كلمة؛ "كن" هي كلمة السر تماما..

وقد يظن القارئ،ان الخضوع إلى سرية الـ "كن" وشموليتها فلا فكاك، يعني حتمية أو جبراً. ونقول، نعم هو كذلك، ولكن من حيث إن تلك الحتمية نظام عمل، لا من حيث هي الإفادة من هذا النظام، والامتثال لبلاغته، فالإفادة والامتثال أمران نسبيان، في الأشياء، وخاصة في الإنسان، من حيث هو قادر على الإحاطة بشيئيته وشيئية ما حوله، ثم تسخير ما حوله من أشياء ينتظمهما نظام الـ "كن فيكون" لفائدته.

فالـ "كن" دائمة الإحداث من حيث إن الإحداث تكون الـ "فيكون"،

---

(1) انظر: لسان العرب، مادة (وحي).

(2) انظر: نفسه.

والكون دائم الحدوث بها، ولا يمكن لنا إحصاء ظـــهوراتها في الكـــائن الواحـــد دون الكائنات جميعاً، فهي تجري في الأشياء والأمور المترتبة عليها والمتعلقة بهـــا، متدفقـــة متسارعة تسارعاً عظيماً، وبما يتناسب مع مساحة الكبير والصغير، والمركب والوجـــيز البسيط، جسيماً ذرياً كان أم جزءاً بالمليار من الثانية أو جيناً وراثياً.. الخ، والذي قـــال للشيء "كن"، قال "كن" مرة واحدة، أما ما يترتب على ذلك الشيء من تنوع وتعدد، فذاك بتوالي تسلسل الـــ "كن" في الشيء الأصل.. لقد قال الله سبحانه لآدم: "كـــن" فكان، ثم تسلسل آدم بتسلسل الـــ "كن" وجريانها حتى هذه اللحظـــة في ذريـــة آدم، وحتى اللحظات القادمة ما شاء الله.. وكذلك الـــ "كن" في الأرض، وفي السـماء، وفي الكوكب الأصل من كواكبها، وفي القوت الأول من أقوات الأرض..الخ. فالـــ "كـــن" قيلت وأُعْلِمَتْ، ثم تسلسلت.. فهي كلمة واحـــدة، كَوَّنَـــتْ وتكوَّنـــت، أُعْلِمَـــتْ وأُسِرَّتْ، خَفِيَت وظَهرَت، في جزء من المكان والزمان والكائن مما لا يمكن الإحاطة به، ومما يمكن تلمس مظاهره حينما نضم الجزء إلى الجزء، مكاناً وزماناً وكائناً.

والذي أوجب الوجود بالـــ "كن" يسلبه بالـــ "كـــن"، وبـــالقدر نفســـه، والإيجاب والسلب هو هو بدءاً بالصغير السري، وانتهاء بالكبير الظاهر، مكاناً وزمانـــاً وكائناً. والجميع؛ المظهر المكاني والمظهر الزماني والمظهر (الكائني) إذا جاز الاشـــتقاق، مرتبط بقضاء الأمر الإلهي وإرادته. فلا حكم للـــ "كن" على الأمـــر والإرادة، ولهـــا الحكم كله على المأمور والمراد، فهي حجاب أو واسطة، أو فعل بين فاعل ومنفعـــل. فهي إذن توجب وتسلب، وتسلب وتوجب، من الموت إلى الحيـــاة ومـــن الحيـــاة إلى الموت، من الزيادة إلى النقص، ومن النقص إلى الزيادة، من الذي يترتب علـــى الرضـــا الإلهي إلى ما يترتب على الغضب، من الذي يترتب على الغضب إلى ما يترتب علـــى الرضا، من الهدى إلى الضلالة ومن الضلالة إلى الهدى.. نعم إن المظاهر تتبدل وتتحـــول وتختلف اختلاف ألوان الزرع، ولكن السُّنَّة لا تتبدل ولا تتحول من حيث هي سُـــنَّة

إحداث. إنها واحدة في الإيجاب والسلب، في العطاء والمنع، في الحياة والموت، في الرضا والغضب، في النهار والليل، في الصوت والصمت.. وهي في كل ذلك خاضعة لقضاء الأمر، وللإرادة، وللمشيئة، ومن بعد للإذن الإلهي، وقد يأذن الله بإيجابها وقد يأذن بسلبها، في البسيط والمركب، في الشيء وما يتعلق به، في الوقت الذي يكون فيه الشيء، أميل لسلبها أو أميل لإيجابها، أميل لهداها أو أميل لضلالتها، أميل لتقواها أو أميل لفجورها، أميل لحياتها أو أميل لموتها، أميل لخفائها أو أميل لظهورها، أميل لجمعها أو أميل لفرقها.. ﴿ إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقومٍ حتَّى يُغَيِّروا ما بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١).

فالإنسان، وهو الذي خلقه سبحانه على صورته، واستخلفه في أرضه، هو الآخر قادر على أن يقضي أمراً ويحقق إرادة ويشاء "بقدر" في نفسه ولنفسه، خيراً أو شراً، حقاً أو باطلاً، وبالجملة إيجاباً وسلباً. فهو مطالب بأن يأمر نفسه، ومطالب بأن يحقق إرادته، وهو بموجب تلك المطالبة وما يترتب عليها، آمر مريد – بقدر–، وهذا يعني أنه الوجه البشري، أو طرف الحبل الممدود من السماء إلى الأرض، حبل الـ "كن"، فهو الخليفة المأمور الآمر. فإذا شاء وما يشاء إلا أن يشاء الله، فإنه يشاء ما يشاء في الوقت الذي هو فيه خاضع لحركية الـ "كن فيكون" فيه وفي الآفاق من حوله. فإذا شاء خيراً، ثم قضي أمر ما يشاء، فإنه امتثل لوجه الإيجاب الرحماني الكامن في الـ "كن"، وبامتثاله يتحقق له ما يريد ولا يستعصي عليه ما يريد، وكذلك الأمر إذا شاء شراً، عدا أنه سيكون ممتثلاً لوجه السلب والتدمير الكامن في الـ "كن" وكذلك يتحقق له ما يريد.. فلا جبرية إذن إلا من حيث الامتثال لنظام الـ "كن"، وما نظام الـ "كن" إلا نظام القرن، وجه الرحمة ووجه الغضب، وجه الإيجاب ووجه السلب، وجه الإنشاء ووجه التدمير.. ولا ثالث يمكن اختياره عدا الخيارين، فمنزلة إذن بين المنزلتين، منزلة النور ومنزلة الظلمة. والمنزلتان إلهام وإيحاء من حيث هما الـ "كن"، وهما استلهام واستيحاء من حيث هما: (تكوُّن).

وهذا ما يدعونا إلى القول بعدم صواب الأنموذج المعرفي الغربي الذي ينظـر إلى الإنسان في ضوء حتمية الطبيعة من حوله. فلا مفارقة بين الإنسانية والطبيعية بموجـب ذلك الأنموذج. والمفارقة بينهما عندنا، كائنة في معنوية الإنسان، ثم في قدرتـه علـى الإحاطة بالشيئية الطبيعية. نعم إن الإنسان من حيث شيئيته، لا يختلف عن الطبيعة مـن حوله بشيء، ولكن الإنسان ليس شيئياً حسب، بل روحي معنـوي، فإذا كان لا بـد من تعميم أو سحب لأحد طرفي الكينونة؛ الإنسانية أو الشـيئية إلى حيـث مسـاحة الآخر، فإننا نسحب الإنسانية إلى حيث مساحة الشيئية، ثم ننظـر إلى حيوية الأشـياء في ضوء حيوية الإنسان، إلا ما يخص به الإنسان من بين الأشياء من حوله - نسـتثني الجن- ألا وهو قدرته على الاختيار المعنوي.

وبموجب ذلك كله، سنقرأ طرفي الكينونة، في الـ "كل شيء"، قارنين بـين الحتمية واللاحتمية، ولكن لا انطلاقاً من المظاهر الشيئية الخارجية، بل انطلاقـاً مـن الوجيز الداخلي الكائن "في" الأنفس لا خارجها، ثم الكائن "في" الآفاق لا البادي مـن عليها، ألا وهو الوجيز القرآني المستقر من حيث هو شكل، المتحرك من حيث هو المعنى الكائن في الشكل وبه، لا الكائن بنا نحن المتبينين..ومن بعد، وبموجب ذلك كله، فـإن الذي نتبينه اهتداء بمركزية القرآن وإحاطته، وكونه تبياناً للناس، هو مركزية الإنسـان وإحاطته بشيئيته وشيئية ما حوله، ولا بد من الاعتداد بهذه المركزية في قراءة الـ"كـل شيء"، من حيث هي مركزية اللامادة (الروح) في المادة (الجسد) ثم مركزية الإنسـانية في الشيئية، ومن بعد مركزية الكون الإنساني في الكون الطبيعي أو الخارجي، الأرضـي - السماوي، وما يتعلق بهما.

الفصل الثاني

الكينونة
من السَّطْر إلى الإسْتِطَار

أولاً: المكان والزمان والكائن:

إن نظام الـ "كن فيكون" بوصفه الأصغر والأبسط، هـو ذاته الأحفل بالاختلاف والتعدد، والمعتبر فيه من حيث هو صغير قدرته على تجلية القدرة الإلهية، قدرة المقتدر سبحانه في خلقه. وما الـ "كن" التي هي تبيان لتكون كـل شـيء، إلا أصغر ما يمكن أن تكون عليه الكلمة الدالة على معنى. فهي مكونة من حرفين؛ "الكاف والنون"، لهما صورهما ومظاهرهما المتعددة في الأشياء خارج القرآن، مكاناً وزماناً وكائناً، كما لهما مظاهرهما المتعددة في الإنسان من حيث إحياؤه وإماتته ثم من حيث بعثه بعد موته؛ وما المظهر حينئذ، إلا؛"دعوة"، أو "صيحة واحدة"، أو "زجرة واحدة" أو "نفخة واحدة"، أو "دكة واحدة"، ولكل مظهر سياقاته الكونية، وفرديـة قرنـه، وخصيصته في المطابقة للحدث وما يترتب عليه من كيفيـات تكـون، وتسلسـلات كينونة، فالصيحة تفارق الزجرة من حيث إن الصيحة والزجرة، مظـهران، مختلفـان لحدث واحد، والزجرة تقارن الصيحة من حيث هما ظهور للكلمة الواحدة، أو الأمـر الواحد.

فالأمر الإلهي، هو الأمر الإلهي، واحد في كل مرة وكل إئتمار؛﴿ومَا أَمْرُنـا إلا واحدةٌ كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ﴾ (القمر: ٥٠). وليس لواحدية الأمر مظهر بعينه، بل مظـاهر، وبلا فترة من زمن يتمفصل ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، فلا فرصة لجريان الزمان بـإزاء جريان الأمر في الزمن، فالزمن مظهر من مظاهر الأمر، صغر أم كبر..ولا يختلف الأمـر بدءاً أو إعادة، فالإعادة تماثل البدء سواء من حيث أول نشوء الخلق وآخـره – قيـام الساعة–، أو ما بين هذه وتلك، من مرات بدء وإعادة دائمة الحدوث في عالم الشـهود ودار الدنيا: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوا كيفَ يُبْدِيءِ اللهُ الخَلْقَ ثمَّ يُعيدُهُ إنَّ ذلك على اللهِ يَسيرٌ* قُـلْ سِيرُوا في الأرضِ فَانْظُروا كَيْفَ بدأ اللهُ الخَلْقَ ثمَّ اللهُ يُنْشئُ النّشْأَةَ الأُخْرى إنّ اللهَ علـى

كُلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ (العنكبوت: ١٩-٢٠). ﴿ يَوْمَ نَطْوي السَّماءَ كَطَيِّ السّجلِّ للكُتُبِ كما بَدأنا أوّلَ خَلقٍ نُعيدُه وعْداً عَلينا إنّا كُنّا فَاعِلين﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

مما جاء في تبيان قرآنية الأمر الإلهي، قوله تعالى:﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ (القمر: ٣)، فلكل أمر غاية ومنتهى بلوغ لا بد أن يستقر عنده وعليه، وعلى وفق نظام كلي واحد لا تحويل له ولا تبديل ﴿ إنّا كلَّ شَيءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدرٍ﴾ (القمر: ٤٩). أما بلوغ الأمر غايته في الخلق، فمحكوم بأجلين أو زمنين زمن الموت وزمن البعث:﴿ هُوَ الّذي خَلقكُمْ مِنْ طِينٍ ثمَّ قَضَى أَجَلاً مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ (الأنعام: ٢)، وبقرن البيان إلى البيان، ننتهي إلى أن ظهور الأمر بوصفه شيئاً يعني ظهور المخلوق ثم موته ثم بعثه. فإن عرضنا هذه الحقيقة على الكائنات جميعاً، وجدنا القرآنية واضحة جلية، فما من شيء إلا وخاضع لنفاذ أمر الموت والبعث، البدء والإعادة، وإن كان ذلك في لبس من خلق جديد.. لا على مستوى الكبير حصراً، بل على مستوى الصغير والكبير، على مستوى الجزئ والفيروس والجسيم الذري والفمتو ثانية...الخ، ﴿ وكُلُّ صَغِيْرٍ وكَبِيْرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ (القمر: ٥٣). فالخلق والإماتة والبعث سلسلة ثلاثية منتظمة مسطورة في صلب المشترك الكلي، كلمة السر، وبموجب ذينك الانتظام والسطر، تتعاقب حيوات الأجزاء في الواحد الكبير، ثم تتعاقب حيوات الأشياء في الحياة الدنيا، ثم تتعاقب حياة الإنسان من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، على أن الإنسان من حيث هو قرن أجزاء متناهية في الصغر، خاضع لانتظام الحركة والسكون والحركة، كل برهة من زمن، كما أن الأشياء جميعاً من حيث هي كل، أو من حيث هي جزء خاضعة لذلك الانتظام.. فالذي يخضع لذلك الانتظام ليس الكائن حسب ولا المكان حسب، بل المكان والكائن معاً باعتبلوان الكائن فتق المكان بعد رتقه، فهو خارج من بين ثناياه ومندفق من صلبه، مُذْ فتق الأرض من السماء، وخروج الزرع من الأرض، وخلق حواء من ضلع آدم.. وكل ذلك تحت سقف زمني كلي مذ بدء الخلق حتى قيام الساعة، أو جزئي قروناً أو سنين

أو أيام أو ساعات أو لحظات أو أجزاء اللحظة الواحدة.. وللزمن أيضاً رتقه وفتقه، صغيرهُ وكبيرهُ، ثبوته وحركته، سماويته وأرضيته.. وِجْهته المكونة الإلهية، ووِجْهته المتكونة البشرية:

- ﴿ وَيَسْتَعجلونَكَ بالعذابِ ولنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدهُ وإنّ يَوْماً عنْدَ ربِّكَ كَألْفِ سَنَةٍ مما تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧).
- ﴿ يُدَبِّرُ الأمْرَ مِنَ السَّماءِ إلى الأَرْضِ ثَمَّ يَعْرُجُ إليهِ في يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سنةٍ مِمَّا تَعُدُّون﴾ (السجدة: ٥٠).
- ﴿ تعْرُجُ المَلائكةُ والرُّوحُ إِليهِ في يوم كان مِقدارهُ خَمسينَ ألفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤).

وها هنا طرفان لحبل الزمن القرآني، الممدود من السماء إلى الأرض، أولاهما:

١. طرف اليوم، (وإن يوماً)، (في يوم).

٢. طرف القرن السنوي؛ (كألف سنة) (ألف سنة) (خمسين ألف سنة).

أما الطرف الأول فطرف الجمع الربوبي الذي لا يختلف، لأنه طرف العندية (عند ربك). فهو المحرك الفاعل المستقر، وهو المركز- المحيط، وهو البيان، أو السطر الذي تنتظم فيه وعليه التبينات وتتعلق به المتعلقات، فهو البدء وما عدا البدء عروج وإعادة. وأما الطرف الثاني فطرف الفرق الشيئي الذي يختلف باختلاف الطبيعة المتكونة أو المتحركة. فهو التبيّن والتكوّن والتسطّر والتعلّق، وهو العَوْد والعروج.

وما بين الطرفين، طرف الآمر وطرف المأمور، تستكمل دورة الزمن كينونتها الدائرية حول المركز مشكلة ثلاثة محيطات رئيسة،تتحرك بانتظام سطري دائري حول (العندية)، وإلا فإن الزمن مما يمكن تصوره، هو اللازمن حيث تكون الوجهة هي "الله سبحانه"، ولهذا قال القرآن: (عند ربك)، وليس (عند الله). فالربوبية واسطة بين الذات

المقدسة ذات الذي "ليس كمثله شيء" والذات المخلوقة المربوبة الشيئية، ولهذا قرنـت كلمة ؛(رب) بضمير المخاطب (الكاف)؛ وهي تبين عن نسبية الزمن ودائريته، سـواء من حيث تعلقه بالمكان (الأرض والسماء)، أو من حيث تعلقه بالكـائن، (الإنسـان، الملائكة، والروح).

وهذا بعض مما يترتب على ذلك كله من تبيان:

١. إن الانتظام السطري – الدائري، للزمن، بدءاً بجهة المطلق السماوي وانتـهاءً بجهة المحدود الأرضي، ثم حركية جهة المحدود واختلافها بالنسبة إلى المتعلق بجهـة المطلق أو المركز، مثله من حيث ترابطه وتأثر أحد طرفيه بالآخر، مثل من يحـرك حبلاً بعد الإمساك به من أحد طرفيه، حركة دائرية. فالحبل ثابت من حيث طرفه المُمْسَك به، متحرك من حيث طرفه السائب في الهواء. ويقينا إن الزمن الذي يلزم نقطة ما من النقاط الموزعة على الحبل لاستكمال دورته بفعل من تأثرها بـالقوة المحركة، يختلف باختلاف قربها أو بعدها عن جهة القوة المحركة.

ويترتب على ذلك أن اختلاف الزمان، لا يختلف باختلاف المكان حسـب. وإنما باختلاف الطبيعة النوعية للكائن. فالطبيعة النوعية (الشيئية) وما يترتب عليها مـن تمثّل لقرآنية الـ "كن"، هي الأصل في الاختلاف النسبي للزمان، مكاناً وكائناً. بدليـل أن الإحساس النفسي الداخلي بالزمان يختلف باختلاف الموقف المعيشـي سـعادة أو حزناً، ارتياحاً أو ضجراً، طمأنينة أو رعباً، مع أن التوقيت الخارجي للزمان واحـد لم يختلف في المواقف جميعاً .. وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للإنسان الواحد من حيـث هو داخل وخارج، فإنه كذلك بالنسبة للكائن والآخر، والمكان والآخر، ولهذا كـان مقدار العروج الأمري بالنسبة إلى الثابت القرآني (يوماً عند ربِّك)، هو ألـف سـنة، وكان مقداره خمسين ألف سنة حينما اختلفت الطبيعة النوعية الشيئية ممثلة بالملائكـة والروح. وهكذا سيختلف الزمن السماوي بالنسبة إلى الأرضي، لأن الطبيعة الشـيئية

للجهة السماوية أكثر شفوفاً بالنسبة إلى غلظة الجهة الأرضية. فإذا تذكرنا أن الأرضي والسماوي، كانا رتقاً ففتقا، ذهبنا إلى انّ الزمن من حيث هو جمع أو سُنَّة، ثابت لا يتحول أو يتبدل. أما من حيث هو فرق وتسنن فيختلف باختلاف الطبيعة النوعية للشيء، أي باختلاف القدرة على الاقتراب من مطابقة ومقاددة السُّنَّة الإلهية من حيث هي جهة الـ "كن". وبموجب ذلك يختلف الزمن الأمري عن الزمن العروجي، بالنسبة إلى زمن العندية الربوبية، ثم يختلف بالنسبة للسماء عنه بالنسبة للأرض، ثم يختلف بالنسبة للملائكة عنه بالنسبة للإنسان،ثم يختلف بالنسبة للروح عنه بالنسبة للجسد، ثم يختلف بالنسبة للإنسان نفسه من حيث قربه من الطبيعة التكوينية للملائكة أو بعده عنها، ثم يختلف بالنسبة إلى كونه روحانياً أو جسمانياً، ثم يختلف من حيث كونه رجلاً أم امرأة، وإذا كانت الفقرة الأخيرة أقرب للمشاهدة والاختيار والقياس، نقصد فقرة اختلاف الزمن الذكوري عن الزمن الأنثوي، فإننا ندعو المتبينين من المهتمين بالعلوم الطبيعية والنفسية إلى تبينه وفقاً لشروطه.

وبموجب ذلك كله، علينا أن نعيد النظر تماماً، في نسبية أنشتاين وما ترتب عليها من نتائج. في ضوء نسبية القرآن، وبيان قوله تعالى:﴿ وكانَ اللهُ على كلِّ شيءٍ مُقِيْتاً﴾ (النساء: ٨٥).

٢. إن ارتباط الزمن من حيث جهته الإلهية، بالرب والمربوب (عند ربك)، يعني مما يعني، جمع الزمن وضمه ودوامه وفاعليته وإجراءه للجهة البشرية، فالجهة البشرية للزمن من حيث هي جهة شيئية، يبين فيها الزمن بوصفه تكوناً متآنياً متمفصلاً متكثراً. وأن التكون والتآني والمتفصل بدأ منذ بدء الخلق، فهو مرتبط بالخلق. أما ما لا يخضع للخلق والتخلق فالزمان المطلق السرمدي. فالزمن ينتظم سطرياً على ثلاثة تسلسلات متوالية؛ مطلق، محدود، مطلق، أو جمع، فرق، جمع.. وكذلك كل ما يتعلق بالمكان والكائن.

٣. إن عوداً آخر إلى آية الحج السابق ذكرها، وتحديداً إلى بدئها؛ ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ ثم خلوص الآية إلى، ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾، يكشف لنا عن حقيقة مفادها، أن الكينونة الزمانية للمكان والكائن، متعلقة بعمل الإنسان إضافة إلى تعلقها بطبيعته النوعية باعتبار أن عمله مظهر جلي من مظاهر قربه أو بعده عن السنة الكونية الكامنة فيه، أو المستودعة في ثناياه بعد أن رضي بحملها.

- (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب...)، هذا هو مطلع الحديث الشريف الذي سبق واهتدينا بهديه في موضع سابق من المدخل الأول. والذي ورد فيه بعد الفقرة السابقة؛ ﴿ وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به..﴾.
- وجاء في التنزيل العزيز وهو يقرن الكينونة الزمانية بالعذاب؛ ﴿ ولقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قومِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إلا خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوْفَانَ وهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ١٤).
- وجاء؛ ﴿ ولِكُلِّ أُمَّةٍ رسولٌ فإذا جاءَ رَسولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقِسْطِ وهُمْ لا يُظلمُون*ويَقُولونَ متى هذا الوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صادقِين* قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسي ضَرّاً ولا نَفعاً إلا ما شاءَ الله لكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخرونَ سَاعةً ولا يَسْتَقدمونَ* قُلْ أرأيتُمْ إنْ أَتَاكُمْ عذابُهُ بياتاً أو نَهَاراً مَاذا يَسْتَعجلُ منهُ المجرمُونَ* أَثُمَّ إذا ما وقعَ آمنتمْ بهِ الآنَ وقدْ كُنْتُمْ بهِ تَستعجلون﴾ (يونس: ٤٧-٥١).

- وجاء؛ ﴿ مَا تَسْبقُ مِنْ أمَّةٍ أَجَلَها وما يَسْتأخرُوْنَ* ثُمَّ أَرْسلنَا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ مَا جاءَ أُمَّةً رَسُوْلها كَذَّبُوهُ فَأَتْبعنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وجعَلْناهُمْ أحادِيْثَ فَبُعداً لِقَومٍ لا يُؤْمِنُون﴾ (المؤمنون: ٤٣- ٤٤).
- وجاء في إيذاء المشركين لنبي الرحمة؛ ﴿ وإنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونكَ مِنَ الأرضِ لِيُخرِجوكَ مِنْها وإذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلا قليلاً* سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلكَ مِنْ رُسُلنا ولا تَجدُ لِسُنَّتِنَا تَحويلاً* أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ الليلِ وقرآنَ الفجرِ إنَّ قُرآنَ الفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً ﴾ (الإسراء: ٧٦- ٧٨).

الذي نتبينه من البيانات الإلهية، قرآناً أو حديثاً، والكاشفة عن انسجام كوني ليس بعد بلاغته بلاغة، على الرغم من اختلاف الآيات من حيث مواضعها في السور القرآنية، ثم في الحديث الشريف، هو إن الكينونة الزمانية للمكان والكائن، مرتبطة ارتباطاً كونياً بما يصدر عن ذلك الكائن من قول أو فعل، من حيث مطابقة ذينك القول والفعل للنظام العميق للسُّنَّة الإلهية، سُنَّة الـ "كن" أو عدم المطابقة. فالكينونة الزمانية قابلة للانقلاب سلباً بعد إيجاب، ونقمة وعذاباً بعد رحمة ورضا، حينما تبين الأمم عن مخالفتها لما سنه الله فيها ولها، على مستوى الصغير (الفرد الواحد)، أو على مستوى الكبير (مجموع الأفراد)، فإذا بانت المخالفة، اقتربت الأمة من مطابقة وجه السلب من وجهي الكينونة الزمانية، فيقترب بذلك الاقتراب أمران؛ أولهما حدوث العذاب الأرضي، بوصفه علامة أو مظهراً أو جزءاً، وثانيهما قيام الساعة بوصفها العلم والظاهرة والكل ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانشق القمرُ* وإنْ يَروا آيةً يُعْرِضُوا ويَقُولوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ* وكذَّبوا واتَّبَعوا أَهْواءهُمْ وكُلُّ أمْرٍ مُسْتَقرٌ*﴾ (القمر: ١-٣).

فالساعة إذن ساعتان، الساعة الكونية المطلقة الثابتة، ساعة القيامة، والساعة التي هي علامة لتلك ومظهر من مظاهرها وتبيُّن من بيانها،ممثلة بالعذاب الإلهي الأرضيّ

أو الدنيوي.. أما الدليل على المخالفة الأمميّة للسُّنّة الداخلية، ثم استدناء العذاب الدنيوي ومن بعد، استدناء قيام الساعة، فهو؛ تكذيب الرسل والأولياء ومعاداتهم وإيذاؤهـم، ثم قتلهم.. فإذا كان ذلك، كان العذاب بوجهيه الجزئي والكلي، الدنيوي والأخروي.

وما ذاك كله، إلا لأن الرسول أو الولي، هو النظام الداخلي، أو الصغـير، أو العميق أوالسنة، أو وجه الـ "كن" أو البيان، أو العلامة.. من حيث علاقته بالأمة، التي هي بالنسبة له، الخارج، الكبير، المتعدد، المختلف، المظـهري ، المتسـنن، المتكـون، المتبين.. وليس ثمة وضوح حق إلا بالتمسك بالبيان، ولا تسنن إلا بالسنة، ولا تكـون إلا بالـ "كن"، ولا أرضي إلا بالسماوي، ولا تحرك إلا بالثابت.

فالنبي – الولي، هو المركز – المحيط البشريّ، الذي تتحلق حوله الأمة بكـل مداراتها كما تتحلق الكواكب حول الشمس، وهو القـرآن المرئـي بـإزاء القـرآن المسموع، الذي لا بد من قرن الذات المتبينة ببيانه.

ولهذا، وبهدي من العود إلى آيات الإسراء السابقة، نجد القرآن يقـرن إقامـة الصلاة، ببقاء النبي في الأرض، فخروجه أو خروج الأولياء،مثله كمثل خروج الماء مـن الأرض، أو من الزرع، فلا أرض ولا زرع حينها، بل حطام تام. وهكذا هو خـروج النبي أو الولي، مُسْتَفَزِّين أو مَقْتُولين أو مكذَّبِين، لا يرتب عليه إلا (لا يلبثون خلافـك إلا قليلاً).. وبعد، فالذي يترتب على استفزاز النبي، هو ذاته الذي يترتب على اسـتفزاز القرآن– الكتاب الذي بين أيدينا سواء كان ذلك الاستفزاز هجره وتنحية التصديق بـه وببيانه وعلمه، أو عدم الائتمار بأمره والخضوع إلى أمريته والتكون بقراءته ..

فإذا تذكرنا حُجِّيَّة الله على الإنسان، التي هي حجية القرآن الظاهر، والقـرآن الباطن، أو العقل الظاهر والعقل الباطن، صرنا إلى النظر إلى الإنسان بوصفه متكونـاً أو متسنناً بتلك الحجة الباطنة، تسننه بالحجة الظاهرة. فإذا خالف الإنسان سـنة تلـك الحجة، ألزم التكون الجسدي بالعذاب، دون الكون العقلي، كـون النفـخ الأمـري

للروح، فكيف يقترب الإنسان من مطابقة تلك السنة الداخلية، كيما لا يتسجعل فناء المتكون (الجسد)؟

- يقول القرآن؛ ﴿ قُلْ إنما حرَّمَ ربِّي الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وما بطَنَ والإِثْمَ والبَغْيَ بغَيْرِ الحَقِّ وأَنْ تُشْرِكُوا باللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِه سُلْطاناً وأَنْ تَقُولوا على اللهِ ما لا تَعْلمونَ* ولِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فإذا جاءَ أجلهُمْ لا يَسْتأخرونَ ساعة ولا يَسْتَقدمونَ﴾ (الأعراف: ٣٣-٣٤).

إن قرن الأجل بالمحرمات: (الفواحش ما ظهر منها وما بطن، الإثم، البغي بغير الحق، الإشراك بالله، القول على الله جهلاً) يبين مما يبين، عن أن مجيء الأجل مرتبط بالمخالفات الكونية الخمس السابقة، إتيانها أو الانتهاء عنها. أما الإتيان بالمخالفات الكونية السابقة على مستوى الفرد، فيرتب عليه مما يرتب، أن يعيش الفرد صراعاً داخلياً بين ما هو عميق مما نسميه (الضمير) وبين ما هو خارجي وسطحي (الغريزة)، في المرحلة الأولى من مراحل المخالفة. فإن استمر الفرد مخالفاً لذلك الصوت الداخلي، تخلى ذلك الصوت، صوت الـ "كن" عن نداءاته، وحينها سيترلق الفرد في مراكمة تلك المخالفات مما يفضي أحياناً إلى اشد أنواع البغي بغير الحق، ممثلاً بقتل النفس، والإشراك بالله، ثم التقول على الله، معاذ الله.. وهذا ما نجد تراتباته النفسية بينة واضحة في التتريل العزيز، وهو يراتب النفس بحسب مقاربتها لمطابقة الوجه الرحماني من وجهي الـ "كن"، أو مخالفتها له ومقاربتها وجه الغضب أو وجه السلب،وعلى وفق ما يلي: (النفس المطمئنة)، (النفس اللوامة)، و (النفس الأمارة)[1]. وليس بلوغ درجة (النفس المطمئنة)، إلا دليلاً بيننا على بلوغ العقل منتهى غايته في الإبلاغ والتبشير والإنذار،

---

(1) - (يا أيتها النفس المطمئنة* ارجعي إلى ربك راضية مرضية) (الفجر: ٢٧-٢٨).

- (لا أقسم بيوم القيامة* ولا أقسم بالنفس اللوامة* أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه* بلى قادرين على أن نسوي بنانه) (القيامة: ١-٤).

-(وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم) (يوسف: ٥٣)

كما هو الحال مع العقل الظاهر (الرسول). فالنفس المطمئنة، هي التي طابق تسنّنها سنتها بينما تعيش (النفس اللوامة) صراع عدم التطابق التام بين النظام والانتظام أو السنّة والتسنّ، أما (الأمارة) فمظهر من مظاهر المخالفة التامة للسنّة والنظام. ومن جهة أخرى يدلّ بلوغ النفس درجة "الأمارة"، على أن الاعتبار بالعقل الداخلي، أو الحجة الباطنة وحدها، ليس الاعتبار الحق، وما ذاك إلا لأن مرتبة (النفس الأمارة)، لا تقضي بعذاب الأمة حينما تكون خاصة فرد أو أفراد قلة من الأمة لا كثرة. فإذا صارت (النفس الأمارة) هي نفس الأمة لا الفرد، أي نفس الجماعة،ترتب على ذلك العذاب، ولا عذاب حتى يبعث الله رسولا؛ ﴿مَنْ اهتَدَى فإنَّما يَهْتَدي لنفسهِ وَمَنْ ضَلَّ فإنَّمَا يَضِلُّ عليها ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخْرَى ومَا كُنَّا مُعَذّبينَ حتى نَبْعثَ رَسُوْلاً﴾(الإسراء: ١٥).

فمخالفة الانتظام الخارجي للنظام الداخلي المسطور والمسنون للكينونة، يعني استفزاز العقل الداخل (النظام المسنون)، ثم إخراجه فلا يتبقى إلا النفس، التي إن لم يضبطها العقل ضَلَّت سبيلها المستقيم ،وما سبيلها المستقيم إلا انتظامها على وفق نظام الكينونة، من حيث هو حجة ظاهرة ثم باطنة ، أي من حيث هو قرآن خارجيّ وداخليّ .

ولكن هل يتوقف التأثير السلبي لمخالفة النظام على الذات ، ذات الفرد أو ذات الأمة أي هل يتوقف التأثير على الكائن؟

المتبيَّن بهدي من البيان القرآني ، أن مخالفة الإنسان فردا ثم أمة للنظام الداخليّ يرتّب عليه لا عذاب الكائن حسب ، وإنما تدمير المكان أيضا ... وما ذاك إلا لأن المكان منتظم بالكائن ، فإذا اختل انتظام الكائن ، اختل انتظام المكان ..فمركز المكان هو الكائن وكلما كان الكائن اكثر قرباً من الانتظام على وفق النظام كان المكان محافظاً على انتظامه . فالعقل كائن والجسم مكان . والنبي كائن والأمة مكان ،

والإنسان كائن والأرض مكان والسماء كائن والأرض مكان ... والذي يؤدي إليه انهيار الانتظام الكوني للكائن الإنساني (مخالفة الحجة الظاهرة و الباطنة) ،هو انهيار الانتظام الكوني للكائن السماويّ (الكواكب والمجرات) ، فإذا انهار الأخير انهارت الأرض ، انهيارها الكوني الأخير ، بقيام الساعة ، وما قبل هذا الانهيار ، علامات لانهيارات شتّى جزئية مع كل مرة تستفزّ فيها أمة رسولها ... وليتحقق من يريد التحقق من هذا التبيّن ، من خلال تتبع تأريخ الأديان قارناً ذلك التأريخ بما حصل من تغيّرات كونية في السماء والأرض.

وها هنا ، نرى إلى فناء الكون، على انه مرتبط بفناء الإنسان ، بعد مخالفته لنواميس السنّة الكونية الإلهية ، لا العكس كما يذهب إلى ذلك الماديّون والطبيعيون ، ثم نذهب إلى أن أيّ حدث كوني مجتمعيّ أمميّ سيراكم آثاره سلباً أو إيجاباً على مجريات الحدوث الكوني الفلكيّ لا العكس ، كما يذهب إلى ذلك بعض الفلكيين ، باعتبار الأفلاك عندنا مكاناً ، لا كائناً من حيث علاقتها بالإنسان... والمكان متأثر بالكائن، قبل تأثر الكائن بالمكان بموجب علاقة البدء و الإعادة، والإحياء والإماتة ..

خلاصة القول إن إرسال الرسل ، هو إحياء لصوت العقل الباطن ، وإعادة لنظام التكوّن إلى حيث ينسجم مع نظام الـ"كن" الإلهي ، لا من باب شرعيّ فقط ،بل من حيث الإيجاب الكونيّ الشموليّ . فإرسال النبيّ علامة دالّة على أن الأمة السابقة قد بلغت في مخالفتها للنظام الكونيّ درجة "النفس الأمارة" لا نفس الفرد وحسب ، وإنما نفس الأمة، أي (نفس) أكثر أبنائها لا (نفس) الكلّ فيها ، ولو كانت (نفس) الكلّ ، لما بقي للدنيا باقية منذ استفزاز أول نبي ظاهر في هذه الدنيا[1] .

---

(1) أول نبي أرسل، نوح عليه السلام. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: مج٣/ص٢٨٠.

٤- للكينونة الزمانية ، نظام و انتظام ، أو "كن" و تكونّ ، أو كتاب وتسطير .

أما وجهة النظام أو الــ"كن" أو الكتاب ، فهي (اليوم) الربّاني ، وأما وجهة الانتظــام الكوني أو التكوّن أو التسطير ، فثلاثة أسطر ، أو تسلسلات ؛ "كألف سنة " ،"ألــف سنة"،"خمسين ألف سنة" ،على أن الانتظام يختلف باختلاف الوسيط كما تبيّنا سابقاً.

يترتب على ذلك أن التكوّن يختلف باختلاف درجة القرب أو البعد من النظــام بحيث إن اقترابه يعني ائتماره واستطاره وانتظامه ، بالأمر والكتاب والنظام .

فللزمن وجهتان ،وجهة ثابتة ووجهة متحركة ،وللأجل وجهتان، وجهة ثابتــة ووجهة متحركة ، فإذا انتظمت الأمة على وفق نظامها وتعشّقت النظــام ، خضعــت للوجهة الثابتة . وإذا لم تنتظم خضعت للوجهة المتحركة، ويبقى الأجل هو الأجل مــن حيث هو سنّة قاضية بموجب العلم الإلهيّ الأزلي المتعالي على تمفصلات الزمان (الماضي والحاضر والمستقبل) ،بأن هذه الأمة أو تلك ، بل كلّ أمة ، ستبدأ جمعاً ثم تتفرق ،فـإذا بلغ تفرقها تمامه،وجب إرسال رسول ليعيد جمعها على وفق سنة البدء و الإعــادة ، أو (الجمع - الفرق - الجمع). ولكن الفارق هاهنا هو الإرادة القاضية بإرسال الرســول، أهي إرادة رحمة أم إرادة العذاب ؟ فإذا كانت إرادة العذاب كان ذلك دليلاً علــى أن الأمة بلغت تمام فرقها، من حيث إن جهة ذلك البلوغ جهة سلب وعدم انتظام وإتيــان المحرمات واستفزاز الرسل .. وهاهنا تكون الأمة قد خضعت بتعجيلها الأجل ، لجهــة الحركة فيه ، لا لجهة الثبات . فعدم انتظام الأمة على وفق نظامها وكتابها ، أي علــى وفق بيانها ، يعني تعجيل العذاب ، أي تسريع حركة الكينونة الزمنية من حيث (طرف الحبل السائب لا من حيث قوته المحركة – استذكاراً لمثل الحبل ، ولله المثل الأعلى -) ، فالتسريع هنا هو إساءة التسنّن ، الذي يرتّب عليه حق العذاب، بموجب الإرادة الإلهيــة عينها ، إرادة "كن فيكون" الفعل الإلهيّ ؛﴿ وإذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنــا مُتْرَفيــها فَفَسَقُوا فِيها فحقَّ عَلَيْها القَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً ﴾ (الإسراء : ١٧) . على أن ذلــك

التراتب الكونيّ للإرادة الإلهية عينها، ثم الأمر ثم القول، هو نفسه دائماً فلا تبديل، وهذا ما تبين عنه الآية التالية لهذه الآية في السورة نفسها، سورة الإسراء؛ ﴿وَكَمْ أَهْلَكنا مِنَ القُرُوْن مِنْ قَبْلِ نُوْحٍ وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوب عِبادِهِ بَصيراً﴾.

٥- تبين لنا فيما سبق ، أن صلة الرسول بالأمة ، هي صلة الكائن الحالّ المزمن في المكان وبه. وأنه من حيث تخارجه أو تداخله في الأمة ومعها، يشكل الداخل أو العمق بالنسبة إلى الأمة التي هي بالنسبة له الخارج أو السطح. ومن حيث قرآنية الجمع والفرق أو الوصل والبعد، يشكل الرسول جهة الجمع والوصل بالنسبة إلى الأمة. ومن حيث جهة السماوية والأرضية، يشكل الرسول جهة السماء بالنسبة إلى الأرض التي هي الأمة. ومن حيث جهة الذكورة والأنوثة، يشكل الرسول جهة الذكورة بالنسبة إلى الأمة. ومن حيث جهة البيان والتبيين، يشكل الرسول جهة البيان بالنسبة إلى جهة التبيين التي هي، جهة الأمة.... والخلاصة أن الرسول هو مركز الدائرة وعمقها الذي تنتظم محيطاها على وفق ثبوته وظهوره .

ولقد جاء في التنزيل سابقاً لآية استفزاز الرسول من قبل المشركين؛ ﴿وَلَولا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيْلاً * وَإِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ ثُمَّ لا تَجدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيْراً * وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً * ﴾ .(الإسراء ٧٤-٦٧) .

الذي نتبينه من القرن السابق للآيتين الكريمتين ، فيما نحن بصدده معرفياً ، هو إن الذي ما بين الخارج و الداخل (الأمة و النبي) ، هو تعالق وعلوق . فالنبي ـ الرسول ، هو الرسالة الإعلامية و الخفية الداخلية الكائنة في صلب الأمة . فهو العميق الصغير بالنسبة إلى الظاهر المتعدد من أبناء الأمة ، وإن تراص وتماسك أبناء الأمة لا يمكن أن يكون في حالة انعدام التعالق الكوني بين الخارج والداخل. فالرسول كائن في

مركز الأمة ، على أن كل فرد من الأمة ، هو أمة بكاملها من جهة وعلى أن مجموع الأمة يشكل فرداً كبيراً ..

والذي بين الأمة (الخارج) والنبي (الداخل) ، هو تابعية ومتبوعيّة . فالخارج يتبع الداخل ويتحرك بثبوته. فإذا حصل واستجاب الداخل للخارج، الاستجابة التي يفارق فيها الداخل سُنّته ولو قليلاً، تضاعفت حركية الخارج، وانعدم ثبوته النسبي. وهاهنا لا يجد الخارج ولا أدنى فرصة للتكون المنتظم، فيحصل أن يدمر نفسه لأنه أقل قدرة من مجاراة حركة الداخل مقارنة بثبوته النسبي مما يعني سكون حركة الخارج ، وعلى مدى من الزمن لا يمكن الإحاطة بدوامه. وبالمثل ، فإن محاولة الكبير أو الخارج التجاوز على النظام الكوني للصغير تعني فناء الكبير أو الخارج، ومن ثم انهياره المطلق.

خلاصة القول ، أن الزمن الأرضي والحركة الأرضية (المكانية) ،محكومان من حيث هما حركة تناوب وتعدد وتكون ، بحركة الإنسان (الكائن) ،وحركة الأخير متعلقة بثبوت الرسول ، وثبوت الأخير متعلق بصمدية الواحد الأحد الحي المحيي. فإذا اختلفت الأمة بوصفها محيطاً ثانياً ثم ابتعدت بعملها عن الرسول بوصفه المحيط الأول ، ابتعد المحيط الثالث الأرضي، وانهارت المحيطات جميعاً ولم يبق إلا المركز. فالرسول هو المقابل الأول لليوم الرباني، من حيث الجهة الزمانية للكينونة، ولا يمكن انتظام المقابلين الثاني والثالث دون اعتبار الانتظام الأول، مما يعني ابتعاد الزمان الخارجي عن مساراته الكونية، ومن ثم تعجيل دورة الزمن الخارجي بإزاء دورة الزمن الداخلي، وبالنتيجة انهيار الكائن والكائنات، أي انهيار الجمع المتماسك الخارجي.

ولهذه الحقيقة المعرفية مظاهر ، منها أحاديث الرسول في آخر أيام أمته ، مما هو من علامات قيام الساعة. ومنها فيزيائياً ؛ "موت الكواكب" أو ما يسمى "إثارة الذرة". ومن المظاهر الفيزيائية الكيميائية ، الانفجارات النووية ، والنظام الذري للعناصر الكيميائية. ومن المظاهر الفلكية ، دوران الكواكب حول الشمس . ومن

المظاهر الأحيائية ، علاقة الجين المورّث بالخلية ثم بالكائن . ومن المظاهر الرياضية ، علاقة العدد الأصل بالأعداد . ومن المظاهر المعرفية ، ما يتعلق بمراتب الإدراك . ومن المظاهر اللسانية ، علاقة الألسنة باللسان العربي ، ثم علاقة العربية البشرية بعربية القرآن، ثم البلاغات الكونية بالبلاغة القرآنية، ثم علاقة الدال بالمدلول والشكل بالمعنى نقدياً. ودينياً ، علاقة الأديان بالدين الإسلامي والأنبياء بنبي الرحمة والكتب بالقرآن. أما المظاهر الاجتماعية فإنه يفسر علاقة الأسرة بالأب والمجتمع بالأسرة. وأخيراً ، فيزيائياً ، يفسر علاقة الكتلة بالطاقة ، ثم الضوء بالصوت .

ثانياً : النسبية والثابت القرآني وسطر الكينونة :

لقد تبيّنا في موضع قريب ، أن للزمان دائرية أو نسبيّة أو وجهيّة لا يمكن تحديدها أو قياسها استناداً إلى جهة دون أخرى أو مكان دون آخر. فالزمان هو الوجه الثالث لكينونة الــ" كل شيء" من حيث هي مكان وزمان وكائن. أما الكائن (وأبلغ الكائنات الشيئية هو الإنسان)، فهو الغاية والمستقرّ، أو هو جهة بلاغة البلاغات بالنسبة إلى غيره من الكائنات أو بالنسبة إلى المكان والزمان. وهذا يعني أن قياس الزمان لا يتحدّد بموجب اختلاف المكان فقط كما بان للغربيين، وإنما يتحدّد بالنسبة إلى المكان من حيث صلته بالثابت القرآني " يوماً عند ربّك "، ثم صلته بالكائن نفسه، من حيث هو واسطة أو حامل للزمان، فالكائن هو المظهر الشمولي للمكان والزمان. فهو، هو مع زيادة هي زيادة تمام البلوغ الذي هو بلوغ القدرة على الإرادة والأمر والقول ــ بقدر ــ فهو إذن غاية خلق المكان، ثم انه هو المتحكم بإدراك الزمان، ولهذا لا يمكن تجاوزه أو تخطيه...

فالزمان إذن لا يتحدّد استناداً إلى اختلاف المكان دون الأخذ بنظر الاعتبار اختلاف (الراصد) نفسه، وإنما يتحدّد بموجب ذلك ثم بموجب الأخذ بنظر الاعتبار

الطبيعة النوعية للكائن بعد الالتفات إلى جهة الثابت القرآني الذي يدفق الزمان على وسائط ثلاث، الوسط الجامع المطلق، "عِنْدَ ربِّك" والوسط الأمري؛﴿ يدبّر الأمرَ مِنَ السَّماءِ إلى الأَرْض ثم يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾، والوسط الملائكي ـــ الروحي؛ ﴿ تعْرُجُ الملائكةُ والرُوحُ إليْهِ ﴾.

فالزمن قرن جهتين، جهة الدفق الجامع الذي يتكوّر فيه الماضي على الحاضر على المستقبل، فلا فكاك، بحيث يصير الماضي هو الحاضر والحاضر هو المستقبل فالحركة هنا تبدأ بالماضي وتنتهي بالمستقبل، كما تبدأ بالمستقبل وتنتهي بالماضي. فلا ماضٍ ولا مستقبل، بل حاضر فقط. أما الجهة الثانية فهي جهة "مّما تعُدُّون" وهاهنا يصير الزمان قابلاً للعدّ بدءاً بالحاضر إلى المستقبل، بحيث إن كل حاضر في برهة من الزمن هو ماضٍ في البرهة التالية وهو مستقبل بالنسبة للتي ستلي.

وما ينطبق على الزمان من إمكان عدّه وتمفصله، ينطبق على المكان، فلا مكان بل أمكنة، وصولاً إلى ذلك المكان الجامع الذي تُزوَى فيه الأمكنة وتطوى كطي السِّجلِّ للكتب. والذي ينطبق على المكان والزمان ينطبق على الكائن، فالكائن من حيث هو شيئي هو الآخر خاضع لتمفصلات المكان، باعتباره مركباً من أجزاء متماسكة. وكلما كان الكائن أكثر خضوعاً لجزئيته الشيئية، أو كلما كان أحفل بالجزئية، كان أكثر استشعاراً بتمفصلات الزمان والمكان. وكلما كان أقل خضوعاً لتلك الجزئية، كان أكثر استشعاراً بتكوير الأزمنة في زمان واحد، أي كان أكثر قرباً من جهة الدفق الجامع للزمان فيصير الماضي هو الحاضر وهو المستقبل ـــ بقدر ـــ . ولا يتحقق ذلك للجميع،بل لأُولئك الذين يجرِّدون الكائن من ثقل المكان وجذبه سواءً كان ذلك المكان هو الأرض،أم الجسد نفسه(الأنبياء، الأولياء، وملاحو الفضاء-بقدر).

إن رتق السماء والأرض، ثم فتقهما، يعني مما يعني، جمع الزمان ثم فرقه، أو وصل الأزمنة في زمان واحد ثم تباعد الزمان الواحد وتسلسله ثلاثياً، ماضياً وحاضراً

ومستقبلاً، هذا من جانب، ومن جانب آخر ليس الزمان مما تحدده الأرض، بل مما تحدده السماء وحركية الكواكب، وبموجب ذلك فالزمان الأرضيّ مظهر من مظاهر الزمان السماوي، كما أن الأرض مظهر كوكبي من مظاهر الظاهرة الكوكبية السماوية. وهاهنا يصير للأرض زمنها، كما أن لكل كوكب زمنه الخاصّ به، ولكن الاقتراب من مظهر كوكبي مختلف، يعني اختلاف الزمان وتحديد قياسات جديدة لتمفصله وهكذا وصولاً إلى جهة المصدر والمنبع الذي انتهى مسيله الصغير أو شرطه إلينا على شعب ثلاث، ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل، وما هو من حيث منبعه وجهة دفقه كذلك.. .

ولأن الكائن هو الآخر حاصل جمع السماويّ والأرضي باعتبار خلقه من تلك المادة التي كانت رتقاً ففتقت، فإنه يتوزعه طرفان من طرفي ذلك الشرط أو المسيل، طرف المنبع وطرف المصب، وما المصب إلاّ مصبّات ثلاث، ماضٍ وحاضر ومستقبل. وكلّما كان الكائن حريصاً على تتبع المسيل إلى حيث جهة المنبع،كان قادراً على جمع الأزمنة في زمان واحد، وهذا ما يتوفر على أتمّ ما يكون عليه التوفر،للأنبياء والأولياء. وقد " اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون شجرة النبوة صنفاً منفرداً، ونوعاً واقعاً بين الإنسان والملك ومشاركاً لكل منهما على وجه، فإنه (النبيّ)، كالملائكة في الإطلاع على ملكوت السموات والأرض، وكالبشر في أحوال المطعم والمشرب وغيرهما"[1]...

إن استبطان الزمان بالنسبة إلى الكائن ــ الإنسان، وهذا ما نجد له مظهره الواضح في الأحلام وأوضح منه في الرؤيا ــ رؤيا المنام ــ ، يعني تذويب الأزمنة في زمان واحد، فلا ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل، وماضٍ وحاضر ومستقبل،في برهة من الزمن لا تساوي ثانية من دقيقة من ساعة ... وهذا يعني أن تجرد الكائن من غواشي وحجب الحسّ والحسيّة، يخلص به إلى الوصول إلى طرف المسيل ، الذي هو طرف

---

(1) الأحاديث القدسية : ج1/ ص98.

المنبع . وحينها، فالذي يتخلل الرؤيا، أمكنه لا مكان واحد وأزمنة لا زمـــان واحـــد، وكائنات لا كائن واحد، وأحداث لا حدث بعينه...

أمّا إذا كانت الطبيعة النوعية للكائن أحفل بما هو سماوي وملائكي مقارنة بما هو أرضيّ وحيواني ، غريزيّ، فإنها بلا شك قادرة على التخلص من ثقل المادة ، ثم مـــن تمفصل الأجزاء، وبالنتيجة، فإنها قادرة على القرب من منبع الزمن الجامع ... حيـــث الزمان هناك زمان مطلق ومجرّد، ومتعالٍ على كلّ قياس، من حيث جهته الإلهية الـــتي هي أصل جهة الربوبية. فالزمان حيث جهة الألوهية لا زمان، لأن الزمان وجـــه مـــن وجوه الكينونة، كينونة الخلق والتخلق. فالزمان علامة على التخلّق المستمر،أو التكـــوّن المستمر أو الحدوث المستمر ، وليس علامة على من لا يخضع للحدوث حاشا له، وهـــو الخالق بديع السماوات والأرض، الذي؛ " كان بلا كينونة "[1]، ولهـــذا قـــرن اليـــوم بالعنديّة فقال سبحانه؛ " إنَّ يَوْمَاً عِنْدَ رَبِّكَ ".

فالماضي والحاضر والمستقبل، تكوّن الزمان الجامع.والتكوّن المـــاضي والحـــاضر والمستقبلي للزمان صفة الشعور الإنساني بالزمان. فالإنسان متكون بال" كن " الجامعة. والإنسان عقل جامع ، أو روح ، وجسد. فالعقل الجامع، أو الروح، هما جامع الجسد، كما أن الطاقة جامع المادة صلبةً كانت أو سائلة أو غازية. وكما أن المادة لا يمكـــن ان تكون قادرة على حمل الطاقة المطلقة،كذلك الإنسان لا يمكن له أن يحيط بجامع الزمـــان إلاّ من خلال تفصيله، وما تفصيلة إلاّ سنة كونيّة إلهيّة . أي أنه لا يحيط بـــه إلا مـــن خلال حجاب أو حجب. نعم بإمكان الإنسان أن يتجرد من حجابين ، ولكنه لا يقدر أن يتجرّد من الحجاب الثالث الجامع. ﴿ وَلَمّا جَاءَ مُوسَى لِمِيْقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبَّهُ قَالَ أَرِني أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أُنْظُرْ إلى الجَبَلِ فَإنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّـــا تَجَلَى رَبُّهُ لِلجبَلِ جَعَلَهُ دَكَاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقَاً ﴾ (الأعراف : ١٤٣).

---

(1) الأصول من الكافي: ج١/ ص٨٩.

إن حكمة الخلق التي قضت بإنزال الماء من السماء فخرج به الزرع أو تكوّن على ثلاث مراحل (الخروج ــ الهياج ــ الحطام)، أنزلت الماء جامعاً، ثم تمفصلَ الماءُ خروجاً أولاً وهياجاً ثانياً وحطاماً ثالثاً وليس بعد تمام التمفصل إلا العود،عود الماء إلى السماء بعد تجرده من المادّة. وهكذا هو الزمان السماويّ من حيث علاقته بالزمان الأرضيّ. وهكذا هو الاختلاف الزمانّي بالنسبة إلى المكان والكائن . فهذه الأرض غير تلك من حيث قدرتها على التكوّن بالماء، وهذا الزرع غير ذاك من حيث الحقبة الزمنية التي تستلزمه لاستكمال أو لبلوغ مرحلة الحطام ...

وكذلك هي الطاقة الكونية للزمان إذ تتنزّل على مراحل أو درجات، إلى حيث حاملها الأخير؛ الإنسان . وتبقى الإفادة من تلك الطاقة أو قدرة تحملها مرتبطة بالكائن نفسه، فالطاقة أبلغ ما يمكن أن يكون عليه الجمع الزماني للمادة ، وما الإفادة منها واردة إلا بالقدر الذي يتجرّد فيه الكائن مما يمكن التجرد منه من تمظهر شيئي وصولاً إلى ال " كل شيء "، الذي هو خلوص الأشياء وجمعها في جامع واحد. وكما للزمن خلوصه السماوي كذلك للأشياء خلوصها السماوي﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ التي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِزْقِ قُلِ هِيَ للذِينَ آمَنُوا في الحَياةِ الدُّنيَا خَالِصَةً يَومَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَومٍ يَعْلَمُونَ *﴾ (الأعراف : ٣٢) . وببيان هذه الآية المباركة، نتبين ذلك القرن الكوني للخلوص، ما بين "الزينة السماوية" و"الإيمان" و"اليوم". فالزينة والطيّبات المشوبة بتمفصلات التكوّن الشيئي والزماني في الدنيا ، مجردة من ذلك الشوب يوم القيامة، والإيمان من حيث هو تمام العبادة وبلاغتها، خلوص الكائن من شيئيته ودنيويته وأرضيته.ويوم القيامة. هو اليوم الجامع المجرّد الذي ليس ثمة قبله ولا بعده يوم ، فهو جمع تمفصلات الزمن ماضياً وحاضراً ومستقبلاً في زمن سرمدي ... أمّا المكان الخالص فهو جامع الأمكنة جميعاً، الأرضية والسماويّة ... وخلوص الجميع، هو تحرر الأمكنة والأزمنة والكائنات من قيود الشيئية، مما يعني

مضاعفة تكونها الجمعيّ بحيث ينسجم كونياً مع تلك النسبة العددية الكائنة في ما بين اليوم الرباني واليوم الأمري ، ألا وهي نسبة؛ (١ إلى ٩٨,٣٣٣٣٣٣)(*)، أي تجردها من مضاعفات الحجب الثلاثة، ما يقارب تسعاً وتسعين مرةً،والتسعة والتسعون هي أسماء الله الحسنى ــ وهذا ما سنتبيّنه في موضوع قريب ــ

فإذا ما تذكرنا أن أقل قرن لليوم الرباني بما نَعُدّ وهو "إنَّ يَوْمَاً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ " ، تنزل أول ما تنزل على نبي الرحمة، وأن الخطاب موجه إليه "رَبِّكَ"، بموجب ضمير المخاطب (الكاف)، خلصنا إلى أن أول دفعة وهي الأصغر مقارنة ب " ألف سنة " ثم " خمسين ألف سنة "، هي دفقة النبوة . وإن أول تسلسل للزمن بدأ من عند الحضرة النبوية، مكاناً وكائناً ، طاقة ثم مادة، نوراً ثم استنارة ، باطناً ثم ظاهراً ، مركزاً ثم محيطاً ... وبموجب ذلك كلّه، يتبيّن غير قليل من إعجاز الإسراء والمعراج، حيث زُوِيَ لنبي الرحمة الزمان والمكان، فرأى ــ وهو الرائي ــ كلَّ شيء ، وعلم كل شيء، مما يشاء الله العليم سبحانه .

ولنتذكر أننا سبق وأن تبين لنا أوليّة القرآن وأوليّة لسانه ، وبموجب ذلك يصير واضحاً قرن الزمان بموجب قرن القرآن ، مذ أول الدفق الزمني للكينونة ... فالنبي إذن هو الدفقة الأولى للكينونة من حيث هي ظهور أصيل، فهو إذن الحامل الأول للزمن أو الوسيط الأول لتكونه ، أي لإقامة شأنه، من خلال ربط كونه بتكونه ووصل سمائه بأرضه، ذلك الوصل الذي تبين عنه الصلاة بوصفها أوضح مظاهره، من حيث تجرد الكائن من الشيئية ثم من تمفصلات الزمن، ومن حيث ثابت السنين والأيام والساعات وأجزاء الساعات ، ذلك الثابت الخماسي فرقاً، الثلاثي جمعاً، ممثلاً

(*) أجريت المناسبة البلاغية اعتماداً على العد العربي للزمن (السنة =٣٥٤يوماً) . وذلك لأننا جعلنا من العقل العربي ولسانه دليلاً ومعياراً على بلاغة القرن البشري للأشياء. والعدّ العربي الذي نقصد، هو ما يترتب على الاهتداء بالكلمة القرآنية في آية؛ "ممّا تعدون". حيث المخاطب هنا، هم العرب الذين يعدون السنة بـ: (٣٥٤يوماً).

بالصلوات الخمس الراسخة في حركية الزمن رسوخ قائم الماء أو بنائه المرتفع الذي يتوزع منه الماء مسيلاً هاهنا ومسيلاً هناك ... وهاهنا وجه آخر للاختلاف في قياس الزمن. فالزمن لا يقاس بالنسبة إلى المكان حسب وإنما بالنسبة إلى الزمان نفسه ، من حيث صلة ذلك الزمن قرباً أو بعداً ، بأوقات الصلاة وخاصة الصلاة الوسطى ... وهذا يعني أن الزمن الذي يلزمنا لقطع مسافة ما فجراً، يختلف عن زمن قطع المسافة ذاتها ظهراً أو عصراً.. وما الصلاة بعد بذلك إلا وجه آخر لثبوت النبي في المكان والزمان سواءً ثبوته فيه من حيث هو قبل ألف وأربعمائة من السنين، أو من حيث هو ما تركه في أمّته من بعده...

الدفقة الأولى للأمر الإلهي إذن هي دفقة النبوة ، والنبي حامل هذه الدفقة ووسيطها ، أما الدفقة الثانية فهي دفقة عروج الأمر وعوده إلى السماء. وهذه هي الدفقة الأولى للزمن بعد تكونها بخلق النبوة ودفقها.وهاهنا أول تكرار أو زيادة خماسية على الدفقة الأولى ("أَلْفَاً إِلاّ خَمْسِينَ عَاماً ← " كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ").

إن دفقات هذا الزمن تتكرر بما يزيد على المظهر الأول لليوم الرباني، بنسبة (٤,٩١٦٦٦٦) وكأن التلون الجديد للزمن مماثل لتلون الأمر لسانياً من (الكاف) إلى (النون) في أصل الكون، أي كلمة: "كن". وهاهنا تعلق الدفقة الجديدة علوقها الأول بما هو أرضي؛ ﴿ يُدَبِّرُ الأمْرَ منَ السَّمَاءِ إلى الأرْضَ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ، وليس ثمة تبدل لحقيقة اليوم من حيث جهته الربانية، بل تلون ، فـ" حقائق الأشياء لا تنقلب. ولكن حكم الصفة هو الذي ينقلب[1]". وما الفطور الجديد بمؤثر في الجمع ، بل متأثر به، ومن ثم فإنه لا يوجب تفرقه من حيث جهته الجمعية الربانية[2].

أما الدفقة الثالثة، فدفقة " تَعْرُجُ المَلائكَةُ والرُّوْحُ إِلَيْهِ"، وهذا هو آخر حامل أو

---

(١) موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي: ص٢٩٧.

(٢) انظر : نفسه: ص٨٠٣.

وسيط للزمن بالنسبة إلى وجهة الثابت الرباني . وهو أول تعلق بشري بجمـــع الزمـــن الوسائطي، حيث الجهة البشرية ، جهة الفرق التام والتباعد الذي ما بعده تباعد بالنسبة إلى جهة الجمع المطلق الرباني، وتترلا ته الثلاثة، وحينها أي حينما تكون الجهة بشـــرية، تتعدّ الأجزاء بما لا يحصى. وليس ثمة قدرة على الإحاطة بجريان الزمن، إلا بالتجرد مـــن الكثير من شيئية البشرية؛ فإذا حصل ذلك حصلت الإحاطة ولكن بشيء من الجريان لا بالجريان كله ...

والذي يبين عند قراءة هذه الدفقة، أن الزيادة الخماسية تكرر نفسها ولكن علـــى هذه الطريقة؛ (١٠٠٠ سنة ⟵ ٥٠,٠٠٠ سنة).

ترى هل لنا أن نزيد هذه الدفقة بغية تبين العمر الكوني للإنسان ؟ هـــــذا مـــا سنتبينه لاحقاً ـــ ولكن الذي لنا أن نسارعَ إلى تبينه الآن ، هو إن الدفقات الثـــــلاث جميعاً تنتظم على وفق نظام اليوم الرباني، فاليوم الرباني سطرها وهي ما سُـــطِرَ عليـــه، وكذلك هو الحال مع أي تكون مكاني أو (كائني) إذا جاز الاشتقاق، صغـــــر ذلـــك التكون أم كبر ... على مستوى الجسيم الذرّي أم على مستوى الجسم المكَوَّن مجمـــوع ذرات، ﴿ وَمَا أَمْرُنا إلاّ واحِدةٌ كَلَمْحٍ بالبَصَرِ* ... وكُلُّ صَغِـــيْرٍ وكَبِـــيْرٍ مُسْـــتَطَرٌ*﴾ (القمر: ٥٠ و ٥٣). وما الاستطار إلاّ في كتـــاب وما الكتاب الذي بين أيدينـــا إلاّ تبيان لكونية الكتابة التي يخضع لبيانها كل شيء...

ثالثاً : النظام الصوتي ـــ الانتظام الضوئي، والمستطرات:

إن عوداً قرآنياً متأنياً إلى مبحث (بيان الـــ"كن" ـــ تبين الكينونة)، بدءاً بالمظاهر القرآنية (الآيات)، للوجيز القرآني (كنْ)، وانتهاء بما ترتب عليه من تبيّنات ، يكشـــف لنا عن تقارن البصري بالسمعي. فأول الآيات بصري: (إبـــداع الســـموات والأرض وخلقهما، الإحياء والإماتة، من حيث هما متجسدان، الشيء) وآخرها سمعي: (يقـــول،

قال، أن نقول). فالقول سمعي والفعل بصري... والقول والفعل، أو السمعي والبصوي وجهان لحقيقة واحدة هي حقيقة الأمر الإلهي ... أما الأمر الإلهي، الـذي هـو أمـر ال"كن فيكون"، فواحدة " كلمح بالبصر؛ "وَمَا أَمْرُنَا إِلاّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بالبَصَرِ"، ومـا بين الواحدة ولمح البصر، (الكاف) ، التي يسميها البلاغيون أداة التشبيه... وما قبـل (الكاف)،(الأمر)،مما لا يرى من حيث هو كلمة قرآنية أو شكل أو دالّ.(فالأمر) مـن حيث هو باحث على التفكّر لا يستلزم حضور مسمى مادي شيئي مما تدركه الحـواس أثناء التفكير،هذا فيما إذا كانت كلمة (الأمر) متعلقة بنا نحن البشر. أمـا إذا كـانت متعلقة بالله سبحانه، فالأمر الإلهي يستلزم للإحاطة بشيء من تبينه قرنه أو قرن غيره به. وما القرين هاهنا إلاّ (لمح البصر). ولمح البصر مما يمكن الإحاطة به، وسواءً كـانت الإحاطة بلمح البصر بسيطة أم مهمة ووافية، فإنها كافية لاستحصال تبين وافٍ بالنسبة إلى عصره، أو سياقاته الكونية...

إن قرن الأول بالآخر، والآخر بالأول، ينتهي بنا إلى أن مـا بـين أول الآيـة وآخرها مظهر أو مظاهر قرآنية يتعالق فيها الأول والآخر،فلا فكاك. فالآية واحـدة ، والواحد هو الواحد بدءاً وإعادة ، كلاً مجتمعاً، أو أجزاءً متفرقة. وبموجب ذلك نقـرأ القرن الكوني الكائن بين الظاهرة الصوتية والمظهر البصري.

تقول العرب:لمح إليه يلمح لمحاً وألمح... ويقصدون؛ اختلس النظر. واللمحـة ـــ عندهم ـــ النظرة بالعجلة... وقيل لا يكون اللمح إلا من بعيد[1].

فالبصر الذي يلمح، يلمح بعجالة أو تسارع، أي أن إحاطته البصرية المظهريـة بالشيء لا تستلزم أو توجب تأنيا ً وتباطؤاً وتمهلاً ، هذا من جانب ومن جانب آخـر ليس الذي يلمحه البصر حينما يمتد بعيداً، شيئاً واحداً، بل أشياء عدة على الرغم مـن أن برهة الزمن التي حصل فيها اللمح واحدة وقصيرة. ومع هذا فإنه يلمح أكـثر مـن

(1) انظر: لسان العرب، مادة (لمح).

شيء على اختلاف أو تماثل فيما بين الأشياء، صغيرة كـــانت أم كبـــيرة، دائريـــة أم مستطيلة، حمراء أم صفراء، سارّة أم مؤلمة، صلبة أم سائلة... إلخ، ولكن اللمحة واحـدة على الرغم من كل هذا التعدد والاختلاف الذي أحاط به البصر لحظة امتداد النظـر إلى الأشياء.

وفي سياق مختلف ، قد تتكرر اللمحة مرات، دون أن يرى البصر غـــير شـــيء واحد، وذلك حينما تكون العين مأمورة من قبل العقل بالتركيز على شيء بعينه مـــن بين الأشياء المحيطة لغاية أحاط بها العقل وأرادها، ومع هذا يظل التنوع قائماً من حيـث صفات أو كيفيات ذلك الشيء الذي صار موضوعاً لتركيز اللمح... وما ذاك كلـه إلاّ لقدرة البصر على الإحاطة بأكثر من شيء في مرة واحدة خاصة حينما يكون المبصـــر بعيداً عن الشيء موضوع الإبصار. وإلاّ فإن قربه المبالغ فيه من الشيء لا يحقـــق لـــه إحاطة به وبغيره. فالإحاطة البصرية البليغة هي الإحاطة التي يحققها بُعْدُ اللامـــح عـــن موضوع اللمح.. وهاهنا تصير الأشياء التي تبدو كبيرة حينما تكون قريبة، نقطة واحدة صغيرة متضامة إلى بعضها البعض حينما نلمحها من بعيد ...

وهذا هو أمر الله سبحانه،﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ بَصِيْرٌ ﴾ (الملـــك: ١٩)، ﴿ وَكَـــانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيْطاً﴾(النساء:١٢٦). وما إحاطة أمره إلا بإحاطتـــه، ومـــا إحاطـــة الـــ"كن" إلا الوجه السمعي للإحاطة، بالنسبة لنا نحن المتبينين إحاطته بوساطة كتابـــه العزيز.

وكما هو الحال مع الأمر المحيط، كذلك الحال مع الزمن المحيـــط، باعتبـــار أن اللمح حاصل في زمن، فالأمر حاصل في زمن ، هو الزمن الرباني كما سبق وتبين لنـــا. وكالذي ترتب على اللمح فيما يتعلق بالاحاطة بأكثر من شيء في مرة واحدة،يـــترتب على الأمر حدوث أكثر من شيء (مأمور) في مرة واحدة . نعم ان المراد واحد ولكـــن غنى المريد وقدرته وبلاغة مشيئته ونفاذ أمره، يلزم الشيء وغيره بالحدوث والتكـــون،

ولا تعارض لذلك مع الإرادة.

إن مجموع حروف الـ"كن فيكون" هو سبعة أحرف، ومجموع ما نَعُدّ مقارنة باليوم الإلهي هو سبعة بعد تجريدها من الأصفار؛ (٥،١،١). ومجموع ما يتكون منه البصر من أجزاء وهو يحيط بالأشياء لحظة اللمح، هو سبعة؛ (القرنية، القزحية، البؤبؤ، العدسة، الشبكية، الحزمة العصبية ــ المرسلة والمستقبلة ــ ، والدماغ)... وإذا كانت الـ(الكَيْوَنونة) ــ وهذا هو أصلها في اللغة، كما ورد على لسان الخليل الفراهيدي[1] ــ سباعية الحروف، من حيث هي وجه لساني وهي سباعية من حيث هي وجه بصري، وهي سباعية من حيث هي وجه زمني، (وسنرى لاحقاً أنها سباعية من حيث هي وجه خلقيّ)، فهي سباعية من حيث هي وجه سمعي متمثل بعضو السمع الأذن؛ (الصيوان، القناة، غشاء الطبلة، العظام الثلاثة، القوقعة، الحزم العصبية ــ خلايا الإرسال والاستقبال ، والدماغ).

وهكذا نتبين البلاغة القرآنية التي قرنت كلمة" واحدة" بالبصري في آية "كلمح البصر"، كما قرنتها بالسمعي في:

ــ ﴿ إنْ كَانَتْ إلاّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإذا هُمْ خامِدُوْنَ*﴾ (يس:٢٩) .

ــ ﴿ ما يَنْظُرُوْنَ إلا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُوْنَ*﴾ (يس:٤٩).

ــ ﴿ إنْ كَانَتْ إلاّ صَيْحَةً واحِدَةً فإذا هُمْ جميعٌ لَدَيْنا مُحْضَرونَ*﴾ (يس:٥٣).

ــ ﴿ فَإنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فإذا هُمْ يَنْظُرُوْنَ*﴾ (الصافات:١٩).

وتبقى (الواحدة) الكونية واحدة ، في :

ــ ﴿ فَإذا نُفِخَ في الصُّوْرِ نَفْخَةً وَاحدَةً* وحُمِلَتِ الأَرْضُ والجِبَال فدكّتا دَكّةً وَاحِدَةً* فَيَوْمئذٍ وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ* وانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فهي يَومَئذٍ وَاهِيَةٌ* والملك على أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ ربِّكَ يَوْمَئذٍ ثَمَانيةٌ*﴾ (الحاقة:١٣ــ١٧).

---

(١) انظر: لسان العرب، مادة (كون).

ويبقى القرن بين السمعي والبصري، بل يبين سبق السمعي للبصري، لمن يعيد قراءة أو قرن الآيات المباركات قرناً بليغاً،ثم يبين أو يزداد بيان تعلق السمعي بالاحاطة المجردة الأولى والأخيرة،وتعلق البصري بالاحاطة المجسدة في ما بين الأولى والأخيرة.. فالبصري تشييء السمعي، فهما وجهان لحقيقة واحدة، بدليل انتهائهما في الخلق والمخلوقات إلى السميع البصير، الله الواحد الأحد، وانتهائهما في الإنسان إلى الدماغ الواحد ثم العقل الواحد.بموجب ذلك كله، نرى إلى الأشياء الدنيوية جميعاً، وهي محصورة بين قوسين، وكلا القوسين كلمة واحدة، هي كلمة ال"كن"، فالبصري هو الثاني بعد الأول وقبل الثالث السمعيين. وعلى وفق الخطاطة الآتية؛

السمعي ←— البصري ←— السمعي

كن فيكون كن

(الإحياء) الحياة (الإماتة)

فإذا تلمسنا لذلك تبيّنا في آية الـ"كن فيكون" من حيث هي وجه سمعي أو بصري دعونا أنفسنا إلى تلمس التركيبة الحيوية لبؤبؤ العين، وغشاء الطبلة ثانية، بإعتبارهما قريني (الفاء) في؛ "كن فيكون" من حيث التسلسل الكوني للكل شيء. ثم ندعو أنفسنا ثانية وثالثة، إلى تجاوز الاعتبار بتلك المقارنة الباطلة في ما بين سرعة الصوت وسرعة الضوء، اتباعاً للفيزياء الغربية وثابتها الضوئي. نعم ان سرعة الضوء هي(٣٠٠,٠٠٠كم/ثانية) وان سرعة الصوت هي(٣٤٠كم/ثانية). ولكن هذه الأرقام لا تعني ان الصوت أقل كفاءة من الضوء، بل تعني ان الصوت أكثر انجماعاً موجياً من الضوء.

الصوت كما نتبين قرآنياً، هو المرآة المقعرة التي تجمع حزم الأشعة المتوازية في نقطة مصغرة، بينما تعمل المرآة المحدبة على تفريقها في نقطة مكبرة. فالصوت جمع الطاقة والضوء هو فرقها، ولنتذكر أن صيوان الأذن مقعر، وأن شحمة العين محدبة.

عدا ذلك فإن التبيّن القرآني،يخلص بنا إلى أن أول الموجة الضوئية موجة صوتية وآخرها موجة صوتية، بحيث إننا إذا استطعنا تسريع الضوء، حصلنا على الصوت، فآخر الضوء الصوت، بل ان الحزمة الضوئية، منضّدة ومسطرة على سطر صوتي. ومن بعد، فإن أول الخلق صوت، وآخر ما يتخلف عن هذا الكون بعد فنائه هو صوت، وهذا ما ندعو المختصين إلى تبيّنه..

وبموجب التبين الأخير، نرى إلى الموجة الضوئية على أنها في أعمق أعماقها، متكونة من مجموع مستطرات ، أو كما يسميها الفيزيائيون الغربيون، (كمّات) أو (فوتونات)، منتظمة انتظاماً تكويرياً على حزمة، أو حبل صوتي غير مرئي بداهةً، بسبب من حجب البصر. ثم نرى إلى تلك المستطرات، على أنها متنافرة أصلاً ومتباعدة، فحركتها الدائبة التي يسميها الغربيون (فوضوية)،هي حركة الفرق والتباعد مرة والجذب والتآلف مرة أخرى بسبب من انتظامها أو استجابتها للقوة الجاذبة الجامعة لذلك الحبل، وإلاّ فإن تجريدها من ذلك الحبل الصوتي يعني تلاشيها تماماً،وهذا ما يبين عنه الوجه الكوني للآية الثالثة بعد المائة من آل عمران، والتي نصها؛ ﴿ واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقوا واذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمتِهِ إخْواناً وَكُنْتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ منها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ*﴾ (آل عمران: ١٠٣).

ولمن يعترض على هذا التبين من إخواننا المعنيين بتفسير القرآن، نقول لنتذكر أننا حكمنا المدخل اللساني للقرآن في قراءة الكون كله، والقرآن خطاب إلهي من جهة إرساله بشري من جهة استقباله. وهذا ما برر لنا بناء على المبرر الأول ، تعميم الأنموذج اللساني، ومن ثم الإنساني في قراءة الكون، مخالفين بذلك الأنموذج الغربي الذي يحكم الأنموذج المادي في قراءة الإنسان. هذا من جانب ومن جانب آخر، فإننا نرى إلى القرآن كله، على أنه تبيان لكل شيء، لا على أن بيانه غير متحيز في آية

بعينها، ولشيء دون آخر وفي هذا الموقع دون غيره. ومن جانب ثالث فـــإن في الآيـــة السابقة بيان "يُبَيِّنُ" وفي الآية ذكر لـــ"آياته" "كذلك يُبيِّن الله لكـــم آياتِـــهِ"، ولقـــد اعتمدنا على التبيان بوصفه مدخلاً للمطابقة بين آيات الله سواءً في القرآن ـــ الكتـــاب الذي بين أيدينا، أم في الآفاق والأنفس. ومن جانب رابع، فإننا معنيون بقرن الآيـــات إلى بعضها في القرآن وفي الآفاق والأنفس كل على حدة أو مجتمعة، ومنهاجنا في ذلـــك قراءة العميق، بوصفه ظاهرة لها أكثر من مظهر... ومن جانب خامس، نقول نتمـــنى على المعترض، أن ير جيء الحكم فما زال ثمة مظاهر للتبين، علينا أن نقرنهـــا بعضـــها إلى بعض، ما سبق وما هو سبب تبين هذه الجوانب الاستدراكية، وما سيلي، ثم ومـــن جانب سادس، على المعترض أن يدلي باعتراضه لدى المهتمين بالعلوم الطبيعـــة، في مـــا هو نتيجة الاستشهاد بالآية من حيث هو حقيقة علمية ، ثم لنعمل جميعاً على عـــرض هذه الحقيقة على ما يسمى (الحبال الصوتية) في جهاز النطق الإنساني لبلوغ مزيد مـــن الوضوح والكشف والظهور.

واستكمالاً لما سبق من تبين نرى إلى تلك المستطرات السبعة (أو الثمانية حينمـــا نأخذ بنظر الاعتبار حذف (الواو) من (كن)، التي أصلها (كوْنْ) ثم حُذِفَ الواو لالتقاء الساكنين كما يقول أهل اللغة)،أو حينما نأخذ بنظر الاعتبار الشيء موضوع اللمـــح بعد اعتبار أجزاء جهاز الإبصار، (العين)، نرى إلى تلك المستطرات على أنها حوامل لا محمولات فالعين حامل للموجة الضوئية ، والأذن حامل للموجة الصوتية ... وبموجـــب ذلك يصير الحبل الإلهي محمولاً وحاملاً . فهو محمول بالمعتصمين، وحـــامل لإرادة الله وأمره، وهكذا هو عرش الرب (الحاقة :١٧)، محمول بالثمانية الملائكة وحـــامل (بـــلا تجسيم). وكذلك هي الحبال الصوتية في جهاز النطق، وهكذا هي الموجـــة الضوئيـــة، فالموجة الضوئية حامل للموجة الصوتية. والكامن خلف (الفوتونات) أو (الكمـــات)، هو الصوت، اهتداءً بالمدخل القرآني وبلاغته الكونية... وأخيراً فإنّ ذلـــك التسلســـل

السباعي قابل للتمظهر بوصفه ثلاثياً باعتبار أن ال"كن فيكون"، هي حاصل جمع؛ (كن) +ف + يكون... فـ(كن) مظهر أول و(الفاء) مظهر ثان و(يكون) مظهر ثالث.. فال"كن فيكون" ثلاثية ، سباعية... وكذلك هو النظام والانتظام الصوتي ـ الضوئيّ.

حينما يعمد المتكلم إلى طريق التشبيه من طرق البيان، قاصداً من وراء ذلك العمد، الكشف والإظهار فإنه يجمع بين شيئين أو أمرين بينهما اختلاف . على أن الأمر أو الشيء الأول غير واضح أو مجهول للمخاطب لا للمتكلم ، بينما الأمر أو الشيء الثاني معروف له... ولنفترض مثلاً أن المتكلم يتحدث عن مدينته في بلده النائي لمجموعة من الحاضرين أثناء دعوته إلى (س) من البلدان.. فالذي يعمد إليه ذلك المتحدث كي يعرّف الحاضرين بمدينته ومعالمها ونظامها العمراني، أنه يعمد إلى اختيار مدينة ما، يعرفها الحاضرون، فيقرن مدينته بها، فيقول لهم مثلاً إنها تشبه المدينة الفلانية من مدنهم، مدن الحاضرين، ويكون هو لحظة المشابهة قد استذكر صورة المدينة التي رآها في البلد المضيّف، فذكّرته بمدينته لما بينهما من تشابه كبير... فأعاد تلك المشابهة على الحاضرين من خلال جمع المدينتين، المدينة المجهولة للحاضرين والمدينة المعروفة لهم تحت سقف واحد، اسمه التشبيه.

والذي يعنينا من التشبيه ها هنا ليس (آليته)المحدودة التي اكتفى بها البلاغيون بل فلسفته وعرفانه، أي بلاغته الكونية ، باعتباره مظهراً من مظاهر المدخل القرآني وبلاغته اللسانية القاضية بقراءة ال"كل شيء"، ولقد تبين بعض من بلاغته الكونية في الصفحات السابقة ونحن نتبين كونيته في قوله تعالى؛ ﴿وَمَا أَمْرُنا إلاّ وَاحِدةٌ كَلَمْحٍ بالبَصَرِ﴾.

ويقيناً، إن الذي يحضر في بال المتكلم لحظة عقد المشابهة بين المشبه المجهول والمشبه به المعروف، هو المشبه أولاً ثم المشبه به. على أن الذي ما بين حضور المشبه

والمشبه به في بال المتكلم يختلف من متكلم لآخر، باختلاف القدرة علـــى الجمـــع، ثم باختلاف غنى ذاكرته بالأشياء من حيث هي صور مخزونـــة أو مســـطورة في ســـجل الذاكرة. فالمشبه به من حيث زمن استظهاره لم يكن موجوداً قبل وجود المشبه. وإنمـــا هو وجد بوجود المشبه ، فوجود المشبه هو الذي استدعى وجوده ، فوجوده مـــترتب على وجود المشبه... والذي بينه وبين المشبه هو قرب وبعد، أما القرب فمـــن حيـــث المشترك الشيئي بين الشيء المشبه والشيء المشبه به، وأما البعد فمن حيـــث المظـــاهر الجزئية والثانوية، و إلا فإن المشبه به ليس هو المشبه مائة بالمائة.

والمقصود أو المطلوب بالتشبيه هو المشبه المجهول، لأنه غير الواضح الـــذي بـــه حاجة إلى توضيح. والمقصود بالكلام هو المراد، والمراد أصل ومحمول، ولابد للمحمـول من حامل، وما الحامل إلا المشبه به. فالمشبه إذن كينونة عميقة خافية داخليـــة، تظـــل حكراً على المتكلم وإن عمل على مقاربتها بوساطة جمعها بالمشبه بـــه. ومـــا ذاك إلا لأن الحاضرين غير قادرين لحظة محادثتهم عن المدينة إياها، على الإحاطة بالمدينة عينـــها بل بما يقاربها.. أما الغاية من ذلك الجمع فهي كشف الخفاء الذي يتسم به المشبـــــه، وبما يناسب القدرة الادراكية للمخاطب. ولكن ذلك كله، لا يعـــني أن المشـــبه بـــه (الطرف الثاني المعلوم)، عنصر محايد تماماً، أو أنه خارج دائرة الكينونة.. أبداً، بـــل إن كينونة الكشف والإعلام لا تستكمل صفتها التي هي صفة الإبانة دون وجود الطـــرف الثاني، فالطرف الثاني (المشبه به) جهة التكون التي لولا وجودها لانعدمـــت الإبانـــة. فالمشبه به تمام حركية الكينونة وبلاغة تسلســـلها الثلاثـــي (المشـــبه)، (أداة التشـــبيه ـــالكاف)، و(المشبه به).. فالمشبه في ضوء البلاغة القرآنية هو العميـــق أو الصغـــير أو النظام الداخلي الذي يتكون ويتمظهر بوجود الكبير أو الواضح أو المحسوس المقـــدور على العلم به، على أن المشبه به من حيث هو حضور في بال المخاطب أحفل بالتفاصيل والمظاهر والصفات التي لابد من الاهتداء بها للوصول إلى شيء من الاحاطة بصفـــات

المشبه (المجهول)، وهذا يعني أن كينونة المشابهة تعني سحب المشبه المجهول من حيث هو عمق وجمع ونقطة إلى دائرة المشبه به من قبل المخاطب. أما من قبل المتكلم فالأمر معكوس تماماً، لأنه يعني إحاطة المشبه به بمحيط المشبه ثم (مركزة) المشبه به في قلب المشبه، فالمشبه به لدى المتكلم متكون بالمشبه فهو مظهر من مظاهره وليس ظاهرته. فهويّة المشبه العميق أو معالمه هي الأصل لدى المتكلم، وإن كانت هي الترتب لدى المخاطب. فالمشبه به لدى المتكلم هو الخارج أو الظاهر المنتظم بانتظام المشبه... وهكذا تصير مكونات المشبه به هي ذاتها مكونات المشبه من حيث المشترك الكلي، أما من حيث المختلف الجزئي، فالمشبه به لا يفارق المشبه، وهاهنا تقضي بلاغة التشبيه بتنحية إعاقة الجزئي والمظهري عن الوصول إلى الكلي والمشترك بين الطرفين...وتبقى العلاقة بين الطرفين علاقة جذب وحيود، أو مطابقة وعدول، أو تقارب وتباعد... أو أنها علاقة ظرف ومظروف، أو وعاء وسائل... فالمشبه مادة سائلة بالنسبة إلى صلابة المشبه به... فإذا شف الوعاء بان السائل، على أن المهم هو عدم الانزلاق وراء مظهرية الوعاء، ثم الاكتفاء بالوعاء على أنه الوعاء والسائل في وقت واحد... وبموجب ذلك كله، حاولنا تبين علاقة الصوت بالضوء، والسمعي بالمرئي. ونستدرك هاهنا فنقول، إن القدرة على جعل المشبه به مطابقاً للمشبه، ومقادداً له، بلاغة ذات درجات، أعلاها وأتمها درجة البلاغة القرآنية. ويترتب على ذلك أن مقاربة ومقارءة المطابقة التشبيهية بين المشبه به والمشبه، أي بين الخارج والداخل تنتهي بنا إلى تبين الحكمة الكونية التي جعلت من الجنة نعيماً مطلقاً ومن النار جحيماً مطلقاً ومن الدنيا خليطاً منهما، ثم أدنى من كل منهما... الحكمة الكونية في ضوء القرن البلاغي للخارج والداخل، والنظام والانتظام، هي، أن الجنة علامة على مخالفة الانتظام للنظام من قبل الكافرين والمشركين ، وان الدنيا، خليط من المطابقة والمخالفة وعلامة على التلون بالشيئية، فلا خلوص للمادة، بل المادة واللامادة، وأما الذي في النار، فالمادة حسب...

وأخيراً فإننا ننظر إلى جملة المشابهة القرآنية، كما ننظر إلى"حبل الله" الذي تبين كونية نظامه عن (عدوّ) و(عدو) قبل الانتظام، و(أخ) و (أخ) بعد الانتظام كما جاء في الآية، أي بعد الفتل بالحبل، والمؤالفة ببلاغته... وكذلك المشبه والمشبه به من حيث ما نتبينه معرفياً من التشبيه، فالتشبيه هو الحبل، والمشبه و المشبه به هما المتآخيان المتآلفان به وقد كانا متباعدين قبل مؤاخاتهما بحبل الله...

الفصل الثالث

حركيَّةُ التكوُّن
من التوَسُّم إلى التخَلُّق

أولاً : بيان الصمديّة ــ توسّم الأشكال :

في الفصل الأول من هذا الباب، المبحث الأول: "بيان ال"كن" ــ تبيّن الكينونة"، النقطة التاسعة توقفنا عند آية مريم ؛ ﴿ مَا كَانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إذا قَضَى أَمْرًا فإنّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ﴾. ولقد خلصنا هناك مما خلصنا إليه بموجب بلاغة القرن، إلى انّ قرن أول الآية بآخرها وبالعكس، تبيان للمفارقة الكائنة بين ذاتين، الذات المقدسة المكوِّنة، وهي الذات الأعلى والأكمل وبلا أدنى توهم للجزئية، فهي ذات صمدية، ذات الذي "ليس كمثله شيء". أما الذات الثانية فهي كل ما عدا الذات الالهية وكل ما عداها خاضع للشيئية من حيث هي اقتران جزء بجزء وتكون كائن بكائن وحركة كائن وسكون آخر، وسكون المتحرك وحركة الساكن...إلخ. فالذات الأولى أبلغ بل هي تمام الكمال الذي لا يجوز عليه التوالد، بينما يجوز على الذات الثانية التوالد أي التكاثر ثم الفناء، فالتوالد يعني كل ما أشرنا إليه من جزئية وحركية وسكون... إلخ.

وهاهنا وِجْهَة أخرى للتبيّن في ضوء ذلك ، ومدخل قراءة آخر ، نقرن بموجبه آخر الآية بأولها، من حيث بلاغة الآية في تبيان الوجه الذي يهمنا من أسماء الله الحسنى...

على أن هذا القرن وما يترتب عليه من تبين،وهو يتمركز حول الاسمين"الأحد" "الصمد" سيتخذ من الصمدية مدخلاً لتبين ما يتصف به الكون والتكون من صفات لم تكن لتوجد لولا الإفادة والانتفاع بحسن الأسماء، وهو الحسن الذي يحيلنا على حسن الحديث، فالحُسْن هاهنا وهناك، هو حسن المحسن، "الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ"، بعد حسن الأسماء وحسن الحديث. فحسن الـ"كل شيء" متكوّن أو متخلّق بذينك الحسنيين من حيث هما وجهتان لاسم واحد هو المحسن.

الملحظ البلاغي الكوني المهم هو أن كلمة (الصمد)، لم تظهر في القرآن إلا مرة واحدة في سورة الإخلاص، أي أنها مما لا يتهيأ لنا الإحاطة بشيء من تبيانها، فهي المركز من حيث الوجهة الإلهية لمركزية الأسماء الحسنى. ولكن الوجهة الإلهية لمركزية (الصمد) لها وجهة أخرى كونية، طالما أنها ظهرت في القرآن. وكل ما له مظهر في القرآن، أي كل ما شكل حكمة قرآنية مقروءة، لا بد أن يترتب عليه تبيان قلَّ أو كثُرَ، وإلا فلا فائدة من ظهورها بالنسبة لنا، وحاشا للقرآن كلمة وكلمات أن يكون مما لا يحقق تبيناً، وهو تبيان كل شيء، بدءاً بكونه كلمة وانتهاءً بكونه سور متضامة إلى بعض... وهذا يدعونا إلى تبين الوجهة الكونية للصمدية، ولن نضل ـــ معاذ الله ـــ والهادي سبحانه، يقول؛ ﴿ قُل ادْعُوا اللهَ أو ادْعُوا الرَّحمنَ أيّاً ما تَدْعُوا فلهُ الأسْمَاءُ الحسنى ولا تَجْهرْ بصلاتِكَ ولا تخافِتْ بِها وابتَغِ بَينَ ذلكَ سَبيلاً* وقُل الحَمدُ للهِ الذي لَمْ يتخذْ وَلداً ولَمْ يكنْ لهُ شَريكٌ في الملكِ ولَمْ يكُنْ لهُ وليّ منَ الذُّلِّ وكَبِّرهُ تَكْبيراً ﴾ (الإسراء: ١١٠ ـــ ١١١).. إن نفي اتخاذ الولد وعدم جواز نسبة الولادة إليه، والذي ورد في آية مريم بوصفه مظهراً حسياً دالاً على تبيان الصمدية، هو ذاته الذي ورد هاهنا في أول الآية الثانية "الذي لم يتخذْ ولداً". ولقد جاءت الآية الثانية بعد آية الدعاء، والدعاء وجهة بشرية وخطاب المتكون إلى المكوِّن، والمكوِّن هو (الرحمن) فالرحمن وجهة الصمدية بموجب بلاغة القرن ومن حيث سعة الوجهة الرحمانية — الصمدية للكل شيء..

جاء في التنزيل العزيز؛ ﴿ سُبْحانَ الذي خَلَقَ الأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الأرضُ ومنْ أَنْفُسِهمْ ومِمَّا لا يَعْلَمُونَ*﴾ (يس:٣٦).

وورد عن نبي الرحمة، في فضل سور القرآن، أن قراءة "الإخلاص"تعدل قراءة ثلث القرآن[1]. فالإخلاص، ثلث، والمتبقي من سور القرآن ثلثان.

([1]) انظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج١٠/ ص٨٥٤.

وجاء في دلالة (أحد) و(الصمد) من أسماء الله الحسنى؛ (الأحد: الفرد الذي لم يزل وحده و لم يكن معه آخر، وهو اسم بُني لنفي ما يذكر معه من العدد... والصمد: من صفات الله تعالى وتقدس لأنه أصمدت إليه الأمور فلم يقضِ فيها غيره؛ وقيل: هو المُصْمَت الذي لا جوف له، وهذا لا يجوز على الله عز وجل. والمصْمد: لغة في المُصمَت وهو الذي لا جوف له... وقيل: الصمد الدائم الباقي بعد فناء خلقه — وهو الذي يصمد إليه الأمر فلا يقضى دونه... والصمد الرفيع من كل شيء... والمصمد: الصلب الذي ليس فيه خور... والصمد: الشديد من الأرض[1].

وورد في التنزيل العزيز؛ ﴿ هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ في الأرْحَامِ كيفَ يشاءُ لا إلـهَ إلاّ هوَ العَزيزُ الحَكيْمُ* هو الذي أنْزلَ على عَبدِه الكِتابَ منهُ آياتٌ محكماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وأُخرَ متشابهاتٌ فأمَّا الذينَ في قُلوبِهِم زَيْغٌ فَيَتَّبعونَ ما تشابَهَ منهُ ابتغاءَ الفِتنةِ وابتغاءَ تأويلِهِ وما يعلمُ تأويلَهُ إلا اللهُ والراسخونَ في العِلْمِ يَقولونَ آمنّا بِهِ كلٌّ مِنْ عِندِ ربِّنا ومَا يَذَّكَّرُ إلا أُولْوا الألبابِ﴾ (آل عمران:٦ ــ ٧).

أما الكتاب فمحكم، ومتشابه يرده الراسخون على المحكم،ويكتفي به الذين في قلوبهم زيغ، فلا يصلون من خلاله إلا إلى ما يزيدهم زيغاً أو بعداً عن الحق والصواب. وما يكتفي به من يكتفي إلا جاهلاً أو قاصداً فتنة أو تفرقةً،وإن لم يكن جاهلاً. فتمام بلاغة العلم هو الرسوخ فيه، وتمام تبين المتشابه هو رسوخ المحكم في قلب المتشابه، بحيث إن تقلب المتشابه، أو تحويله من وجه دلالي لآخر، لابد أن يؤول إلى المحكم، الذي لا يقبل التصرف أو التحول، لأنه محض البدء الأول.الذي يجيء ما بعده فتقاً له وتفريقاً بغية الكشف والإيضاح والإظهار، ثم بغية معادلة الفتق الذي هو صفة الكائنات جميعاً ، وما المعادلة إلا تقليب الحقيقة الواحدة التي كانت رتقاً على بلاغاتها

[1] انظر :لسان العرب،مادة (أحد)،(صمد)،وجامع البيان عن تأويل أي القرآن: ج٣/ص٣٤٢ وما بعدها.

كلها، بلاغاتها التي تستوفيها فرقاً بعد أن تم لها بلاغة جمعها وضمها...

فالكتاب محكم راسخ في المتشابه، أي في قلب المتشابه ولبه ومحضه مرة، ومحيط به مرة أخرى ...في ضوء بلاغة: (الجمع ←الفرق← الجمع). وعلاقة المحكم بالمتشابه، هي علاقة رحمية (من الرحم)، وقلبية (من القلب). والأمر مثله كائن في علاقة الجنين بأمه، فرحمها يحيط به، وخلاصتها ومحضها الذي هو دمها، يمتد فيه من خلال الأوردة والشرايين التي يحيط بها الحبل السري، لينتهي بها إلى قلب الجنين، أو خلاياه جميعاً... فأمه من حيث هي خلاصة حياة وصفات تكوّن، تشكل معه علاقة عمق وداخل مرة، وعلاقة إحاطة وخارج مرة أخرى. فلا المحكم وحده، ولا المتشابه وحده، وإنما هما متكثران بالمزاوجة والملاقحة الكائنة بين الرحم والقلب والرحم ، أي بين الجمع والفرق والجمع، وبموجب تلك الملاقحة يتحقق التعدد الخارجي للحقيقة الواحدة غير القابلة أبداً،للتجزئة، تلك الكامنة في العمق السحيق للخارج وصوره.

وكذلك الأمر مع سورة الإخلاص،فهي محض الرحم المحيط بالقرآن كلّه، وهي الراسخة في قلب القرآن، وهي من حيث هي تبيان خلوص الايمان، ومحضه، الذي هو التوحيد، تجيء قبل العبادات جميعاً، وتنتهي إليها العبادات جميعاً، ممثلة بشهادة؛ (لا إله إلا الله)، فالعبادات كلها فرق وفتق لجمع ورتق(لا إله إلا الله) ، ولا فضل لعبادة ولا حياة ولا رسوخ، إن لم يكن منبثقاً عن التوحيد ويؤول إليه. فالتوحيد الخالص هو البدء وهو العود، وما بين البدء والعود تلوين وتصوير وفرق وفتق وكشف وايضاح وإظهار...

وكذلك الأمر مع صفة (الصمدية) وبقية الصفات ، فالصمدية كائنة في محض الرحمانية، ومحيطة بها، والرحمانية، ومايجري بها وفيها من تصوير وكشف وفتقن ماهي إلا، كشف وإيضاح وإظهار لصفة الصمدية. التي لا تتكرر أو تنجزء أو تنفرق...

فالصفات من حيث تبيانها تسبح في فلك الصمدية، من جهة، ومن جهة ثانية، فإن الصمدية تسبح فيها، فهي محيطة بالصمدية والصمدية محيطة بها. فهي- أي الصمدية - محض قلبها، وما بعد رحمها... فلكل صفة من الصفات، صفة صمدية تدور حولها وتجري في فلكها، منجذبة إليها ببلاغة الجمع مبتعدة عنها ببلاغة الفرق، فهي بين فصل ووصل، وجذب ورد، وقرب وبعد، وهذا ما يكسبها حركيتها الدائبة حول مركزها وعلى وفق دائري دائماً، باعتبار الحركة التكويرية؛﴿ خَلَقَ السَّموات والأرضَ بالحقِّ يُكَوِّرُ الليل على النَّهارِ ويُكورُ النَّهارَ على اللَيْلِ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمرَ كلٌّ يجري لأجلٍ مُسَمّى ألا هوَ العَزيزُ الغَفّارُ﴾ (الزمر:٥).

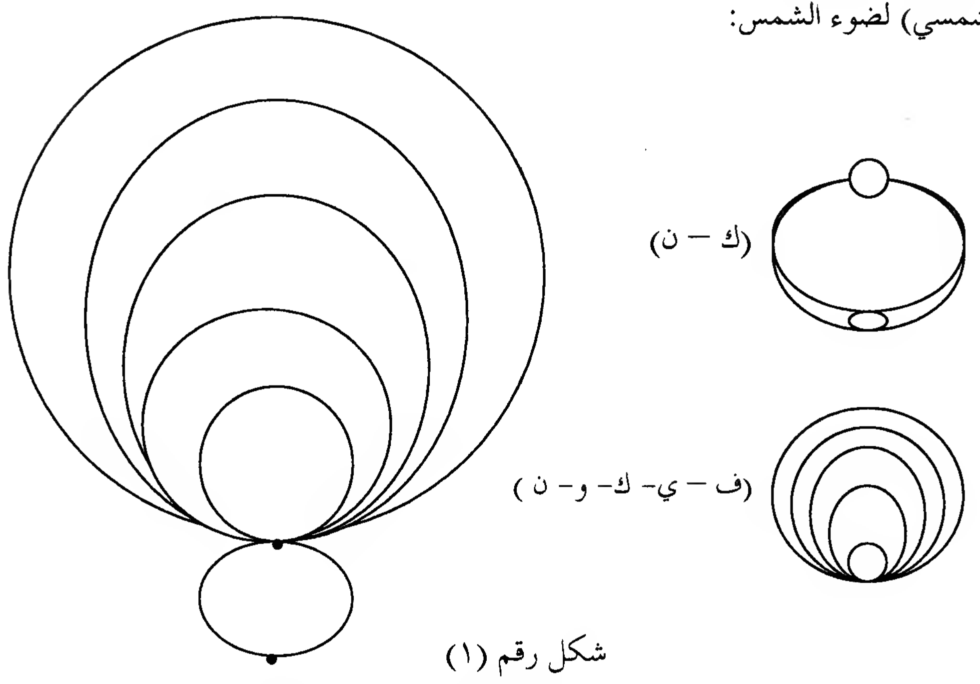
وهكذا، وكما يكور الأول على الثاني، يكور الثاني على الأول، فيما يتعلق بالكائنات، أما العلاقة بين الأول والثاني، فهي علاقة الليل بالنهار والنهار بالليل، وكذلك هي علاقة الشمس بالقمر والقمر بالشمس، ثم هي علاقة الليل والنهار بالشمس والقمر وبالعكس...

العلاقة الأخيرة بين تبيان الصفات وبعضها، هي ذاتها علاقة الصفة الواحدة بالصفات، ومن ثم علاقة الصفات جميعاً بصفة الصمدية... وبموجب ذلك نقرأ التعالق الكوني فيما بين ال"كل شيء" والأشياء، ومن بعد نقرأ علاقة "كن" بال"فيكون" وبالعكس، ومن ثم علاقة ال"كن فيكون" بمجملها بالمتكونات، وعلى وفق دائري تكويري لا يتقاطع تكويره وتدويره مع الوفق المستقيم للشكل الإستطاري للكينونة.

وهذا هو الشكل الذي لنا بوساطة مقاربته، أن نتبين علاقة السطر بالدائرة، والمدارات بالمركز والمستطرات بالسطر، من حيث صلتها بالحركة الكونية لل"كن فيكون" وتسلسلها السباعي الساري في مظاهر الانتظام الكوني وهو يتسلسل من الواحد إلى السبعة ، (١ ←١← ٥)، أي من الكاف إلى النون في (كن)، ومن الفاء إلى النون في (فيكون).

وهذا ترسيم لذلك الشكل التبياني، وعلى وجهين، الوجه التكويري والوجه

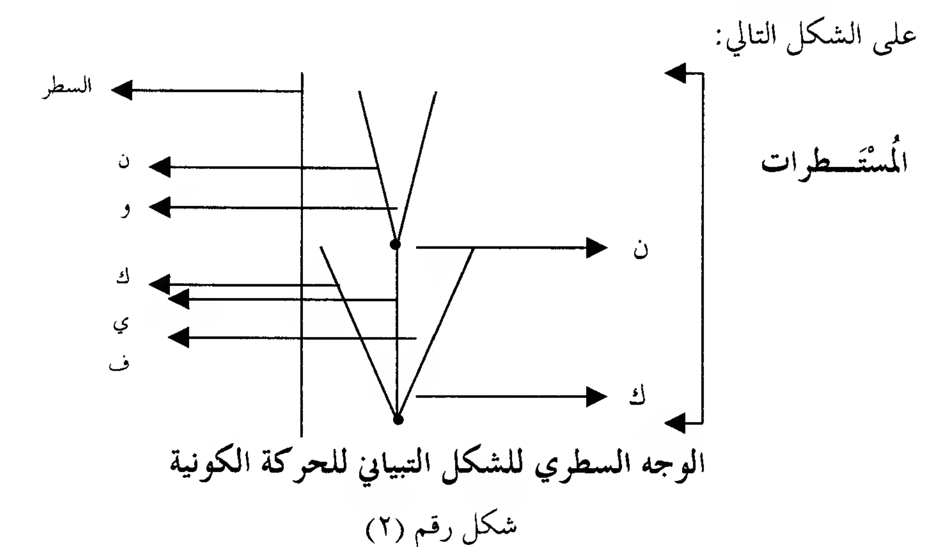
السطري، ملتزمين فيه التسلسل السباعي، والتطايف اللوني الكـــوني (ألـــوان الطيـــف الشمسي) لضوء الشمس:



شكل رقم (١)

الوجه التكويري للشكل التبياني للحركة الكونية

فإذا نظرنا إلى الشكل القرآني السابق، من جهة استطاره أو استقامته، حصلنـــا على الشكل التالي:

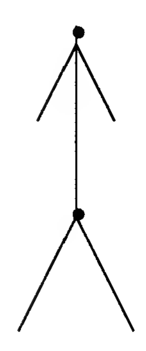


الوجه السطري للشكل التبياني للحركة الكونية

شكل رقم (٢)

الزوج السابق للشكل القرآني بوجهتيه التكويرية والإستطارية، هـــو الأنمـــوذج الكوني لحركة الكائنات وتمظهرها الشكلي ، مما يمكن إحصاؤه وما لا يمكن إحصـــاؤه من جهة المستطرات المتناهية في الصغر أو من جهة الكائنات الكبيرة ممثلة بـــالكواكب والمجرات، وسواءً كان الخاضع للحركة أجزاء في كائن واحد أم كائنـــات في كـــون واحد، أو أكوان في الكينونة السماوية. وكذلك يبين لنا الشكـــلان السابقان علاقـــة الجزء بالكل، والسطح بالعميق والخارج بالداخل والكواكب بالشمس، والكواكـــب بالأرض، والسموات بالسماء السابعة، والليل بالنهار والنهار بالليل، ومـــن ثم علاقـــة العلقة وأطوارها بالنطفة، وعلاقة الضوء بالصوت والبصري بالسمعـــــي، والحـــواس بالعقل والنتائج البحثية بالمقدمة، والمادة بالطاقة، والكون بالقرآن، والقـــرآن بالفاتحـــة، والعلق بالفاتحة، والفاتحة بالبسملة، والبسملة بالباء...

فإذا عرضنا النموذج الاستطاري على كينونة الإنبات، اهتداءً بقوله ســـبحانه: ﴿وأنبتنا فِيْها مِنْ كُلِّ شيءٍ مَوْزُونٍ﴾ (الحجر:١٩)، وجدنا الشكل الاستطاري علامـــة على كل ما يخرج من الأرض من زرع، وإن لم يكن من ذوات الساق،فإذا تذكرنا أنـــه سبحانه تعالى قرن بين آيتي إنزال الماء وإخراج الزرع مـــن جهـــة وإنـــزال الحديـــث وقشعريرة الجلود ولينها بعد شرح الصدر من جهة ثانية، خلصنا إلى قرآنيـــة البلاغـــة، وبلاغة الإنبات. فإذا عدنا إلى القرآن وجدناه، مبيناً الإبانة كلها، وهو يقول:﴿ أَلَمْ تَرَوا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سموات طِباقاً* وجَعَلَ القمَرَ فِيْهُنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّـــمْسَ سِـــرَاجاً* واللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأرضِ نَبَاتاً* ثم يُعِيدكمْ فيها وَيُخْرِجكُمْ إِخْرَاجـــاً*﴾ (نـــوح:١٦ - ١٨). وبموجب هذا البيان، لنا أن ننظر إلى الشكل الإســـتطاري الســـابق، في ضـــوء الإنبات الإنساني، مع فارق أننا سنقلب الشكل إلى الأسفل، ويبقى الانموذج القـــرآني واحداً؛



شكل (٣) – **الشكل الإستطاريّ الإنسانيّ**

ولنا أن نقرأ النبتة الإنسانية في ضوء الشكل الاستطاري الإنساني، مكتفين بالمظهر الثلاثي فنحصل على (الرأس ــ اليدين ــ الرجلين)، ولنا أن نقرأه خماسياً بتفريق الأزواج فنحصل على؛ (الرأس ــ اليد ــ اليد ــ الرجل ــ الرجل)، ولنا أن نقرأها بجمع المظهر المفرق على الظاهرة أو على المركز، باعتبار ال"كن فيكون" المكوّنة وباعتبارها متكونة، أي باعتبار العلم المنضد أو المستطر في النطفة، وما يترتب عليها من أطوار، فنحصل على؛ (الرأس، الدماغ، اليد، اليد، العمود الفقري، الصلب (آخر العمود الفقري- العصعوص-)، الرجل، الرجل)، وهذا هو الشكل الاستطاري السباعي التكويني، والذي على وفقه تكونت الكائنات جميعاً، وستبقى تتكون مستطرة على سطرها: (عمودها الفقري).

الـ"كن" كما يقول أهل اللغة، فعل أمر مبني على السكون الظاهرة على حرف النون من (كن)، أصلها ؛ (كُوْنْ)، بواو ساكن. ولأن العربية لا تجيز التقاء الساكنين (وهذا ملمح كوني آخر على كونية اللسان العربي)، حذف الساكن الأول الواو فصارت (كُنْ).

أما الحذف عندنا فليس حذفاً إلا بالقدر الذي يبين فيه (باعتباره مدخلاً لقراءة الكون)، عن استحالة السكونين كونياً، باعتبار السكون والحركة زوجين متناوبين

متتاليين متضامين متواجهين، التواجه الذي كشف عنه ما سبق من تبين وآخره النماذج الشكلية الكونية السابقة. فالحذف دليل على أن ما وراءه غير موجود أصلاً، أي غير متكون أصلاً، ولو كان ثمة شيء متكون خلفه لما حذف أصلاً، وكيف يحذف وما الذي يبين عنه لو حذف، والحرف القرآني تبيان لما وراءه؟

وهذا ما يدعونا إلى إعادة النظر في ذلك الشقاق العنيد الذي صار إليه المتبينون وهم يذهبون فرقتين، فرقة تقول بالحذف في القرآن، دون تبين للعلة الكونية الكائنة وراء الحذف بوصفه تبياناً... وفرقة تذهب إلى عدم وجود الحذف فحملت القرآن تبينها الذاتي وأسقطت عليه مقترحاها الذاتية، فابتعدت كثيراً عن الصواب كما ابتعدت تلك.. فالأمر ليس كما تذهب الأولى حصراً، ولاكما تذهب الثانية حصراً، وانما هو هذا وذاك في ضوء المواجهة للقرآنية، المواجهة الكائنة فيما بين الوجهة الإلهية المحيطة والوجهة البشرية المحاط بها، ثم المواجهة الكائنة بين الوجهة اللسانية للقرآن والوجهة الشيئية خارجه، ثم المواجهة الكائنة بين بيان القرآن أو تبيانه، وبين تبين المتبينين...

وبالعود إلى بدء، نقول إن المحذوف في ضوء تبيان القرآن والتزاماً بمدخله البلاغي وبلاغته الكونية، دليل على عدم إمكان تشيّوء ما يُرَى (لُغَةً) محذوفاً، فالواو المحذوف تبيان لأبلغ ما يكون عليه الجمع الأول الأمري الالهي من نظام ومقارءة وجمع في الأشياء خارج القرآن، ممثلاً بال"كل شيء".

﴿قُلْ لَوْ كانَ البَحْرُ مِداداً لِكَلماتِ رَبِّيْ لَنَفِدَ البحرُ قَبْلَ أن تَنْفَدَ كلماتُ رَبي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَدَاً*﴾ (الكهف:١٠٩)ـ فالكلمة القرآنية هي الكائن في المداد والمكون له من حيث هو مادة متشكلة فاعلة ــ والذي بين المداد والكلمة من علائق، هو إن المداد تشيّؤ الكلمة وظهورها وصورها، فالكلمة فيه ومحيطة به، وللكلمة التي تكتب بهذا المداد أن تكتب بغيره، فهي ثابتة وهو مختلف ومتلون ومتغير، وهي باقية وهو نافد وزائل. وهكذا كل حكمة كونية جُمِعَتْ في مداد وأحاطت بمداد، مقروءة

في ورقة من أوراق المصحف، أو في شجرة، أو في جبل، أو في طائر، أو في كوكـــب، أو في إنسان... في صغير أو كبير... وعلى مدى ظهور الكـــون والتكـــون الدنيـــوي الآخروي، البحر ومثله... وما أصل الكلمات إلا كلمة واحدة هي كلمة الـــ"كـــن"، فالكلمات المتشيّئة مظاهر الـــ"كن" ومدادها الذي ينفدْ ولا تنفد.

وكما تمظهرت الكلمات، وتشكلت كائنات واخرى، تشكلت الـــــ"كـــن"، وتكونت الـــ"فيكون"، فالـــ"يكون" تبيان التشكل من حيث هو حركـــة وســـكون، وجمع وفرق، وقرب وبعد، وحياة وموت، وظهور وغياب...

فالـــ"يكون" هي الـــ"كن" مع فارق أن الأولى تبيان الأصل الجـــامع، والثانيـــة تبيان المتشكل بذلك الأصل، ويبقى الأصل كائناً في صلب المتكون، كون الكلمـــة في المداد. فالـــ"فيكون" تبيان لوجود وتشيّوء ما لم يوجد قبل الكلمة "كن". ولقد كـــان (الواو) المحذوف في "كن" دليلاً على عدم تكون أي شيءٍ قبل الكلمة الكونية "كـــن"، وهاهو إذ يظهر في "يكون" دليل على تشكل الكون. فالواو الظاهر أول دلائل التكـــون الذي بدأ بالفاء وخلص إلى الياء... وبتمام ذلك، تحركت النون بعد سكون فصـــارت (نُ) بعد أن كانت (نْ) الساكنة. فالسكون سابق الحركة، والحذف،سابق اللاحـــذف، والمستقبل الكائن في زمن (كن) سابق الحاضر أو المضارع الذي علامتـــه (اليـــاء) في (يكون) والشرط سابق المشروط الذي علامته (الفاء) في (فيكون).

وكل ذلك يعني سعة وامتداداً خارجياً في المتكون، ممثلاً بال"فَيَـــ" وحركة ممثلـــة بالزيادة السابقة ل(كون) ممثلة بـــ (فَيَـــ)، ثم امتداداً داخلياً ممثلاً (بالواو) الفارقة بـــين ((الكاف) و (النون) في (كون)... أما السعة الخارجية والزيادة الكونية في الكائنـــات فظاهرة في جهة اليمين من (فيكون) أكثر مما هي ظاهرة في جهة الشمال ممثلةً بحركـــة النون... وأما ما يستتلي تمام حركة الـــ (فيكون) فهو عود ثان إلى الـــ "كـــن" بعـــد تجريد الـــ(فيكون) من الواو، أو حذفه بموت الكائن وسكون الحركة، ثم سكون النون،

ثم مضي الزمن وانقضاؤه ممثلاً بحذف الياء، ثم حذف الياء تبياناً لنفاد المـداد، وإيذانـا ببدء تكون مشروط جديد، ودورة جديدة وظهور جديد للـ (فيكون)...

أما الذي ما بين ال"كن" و الـ " يكون"، أخذاً ببلاغة القراءات القرآنية ونزول القرآن على سبعة أو ثلاثة أحرف[1] تقابل كونياً ، التسلسلات السباعية للـ "كـن فيكون"، بوجهيها السباعي والثلاثي، وتمارس دورها في تبيان الـ"كل شيء". فـهو شرط ومشروطية في أول الكون وبدء النشأة وقول القول ونفاذ الأمر الإلهـي ، وهـو عطف وتعاطف في ما ترتب على الكلمة الأولى، التي صارت فاعلة بنفسها، من حيث هي نظام وسنة أودعها الله سبحانه في خلقه، أو ألهمها وأوحى بها إلى الجهة السـماوية في الكائنات. ولقد تبين لنا سابقاً، أن الكائنات جميعاً وقد تكونت برتـق السـموات والأرض ثم فتقها، هي تبيان لتينك الجهتين السماوية والأرضية، فالسماوية والأرضيـة من حيث هما الـ"كل شيء" الجامع كائنتان في المتكونات جميعاً... وبموجـب ذلـك فالإيحاء الذي تلقته السموات أول البدء، متسلسل أو مستطر ومسـنون في الكائنـات جميعاً؛ ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَموات فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى في كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَها وَزَيَّنـا السَّمَاءَ الدُّنْيا بِمَصابِيْحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقدِيرُ العَزِيزِ العَلِيْم*﴾ (فصلت:١٢). ويقابل هذا الإيحـاء التكويني للأشياء، الإيحاء الكوني للرسل والأنبياء، مع فارق.

فالنصب في "يكونَ" قراءة ووحي أول وعميق،بموجب تبيانه نرى إلى الكائنـات بادئ بدء نشوئها الجمعي متكونة بالسنة الأولى والتعليم الإيحائي،فهي منفعلة (باعتبـار الفتحة علامة النصب)، والفتحة دليل على انفعالها وتلقيها الشرط واستجابتها لـه. ثم وبعد تمام الإيحاء للـ"كل شيء" الكائن في الأشياء، تعلمت الكائنات مـا علمـت، وبانت بالبيان، وتسلسلت أو تسنّنت، أو اسـتطرت، أو اسـتوحت أو اسـتلهمت،

---

(1) ورد عن نبي الرحمة: "نزل القرآن على سبعة أحرف، كلٌ شافٍ كافٍ"، وورد: "نزل القرآن علـى ثلاثة أحرف". انظر: مصنف ابن أبي شيبة، مج٧/ ص١٨١-١٨٢.

فانتظمت على وفق النظام، فصارت فاعلة لفعل التكـــون بنفســها ــ بــإذن الله ــ وبموجب سنته الكائنة فيها. وهاهنا ظهرت القراءة الثانية،قراءة رفع (يكون)، باعتبـــار الضمة دليلاً على الرفع، والرفع دليل على الفعل والفاعلية. وها هنا انعطـــف التكـــون على الــ "كن" التي قيلت مرة واحدة للكل شيء الأصل والجامع...

وبهدي من ذلك كله، هاهنا تبينات وقراءة:

١- إن المدارات أو المستطرات المترتبة من حيث تشكلها عل تكـــون المركـــز السطري أو الدائري الجامع، لا يمكن لها أن تنفصل عن ذلك المركـــز إلا بعد مرور خمس دورات مكانية أو زمانية ، وبانفصالها تعلن الكينونة عــن بدء جديد للتكون، ثان ثم ثالث... وليس الانفصال بحاصل دونما وجــود قوة مكوِّنة مركزية طاردة أو مباعدة، أعلى في قدرها ومقدارها من القــوة التي لجهة التكون.

ومن مظاهر هذا التبين، انفصال أو انسلاخ النهار من الليل، بعد المرور بطـــور (الفجر)، فالفجر خارجي تم فصله داخلياً، وقبل طلوع الفجر أصلاً ، ولهـــذا لا يعــد الفجر لا من الليل ولا من النهار... كما لا تعد حالة الطلق بالنسبة للحامل، من الجنين سواءً كان في الرحم أم خارجه. فالطلق مظهر بتحققه داخلاً وعمقاً وفي الجسد كلـــه وبالجسد كله، يتحقق للجنين فصله الخارجي عن الرحم بعد تمام فصله الداخلي عنـــه. وما حالة الطلق ومرّاتها إلا تكرار كوني مقابل لأطوار تكون العلقة في الرحم... ولهـــذه الحقيقة مظهر فيزيائي في الأشياء، وذلك حينما يقوم أحدنا بدلك مادة بـــأخرى ومـــا يترتب على ذلك الدلك من شحن المادة المدلوكة بالطاقة الكهربائية الساكنة في الجســم الدالك بسبب من أن الدلك يؤدي إلى انتقال الالكترون الخارجي الكائن في مـــدارات الذرة إلى مدار ذرة أخرى، نتيجة لضعف العلاقة الارتباطية الجامعة فيما بـــين النـــواة والالكترون الخارجي، فالالكترون الخارجي مشروع انتقال مستمر أو تكوّن مســـتمر

لمجرد وصول علاقة الارتباط مع المركز إلى أضعف حالاتها من جهـــة، ووجـــود قـــوة خارجية مكونة وجاذبة من جهة أخرى.

وبموجب ذلك نرى إلى ولادة النهار من الليل بوصفها نتيجة طبيعية لقوتين قـــوة داخلية طاردة وقوة خارجية جاذبة، وكذلك ولادة الجنين. فالجنين الذي يخـــرج مـــن الرحم بعد تسعة أشهر(تذكرنا بالـ"تسعمائة وخمسين عاماً" —وجهة اليوم الالهـــي–)، لم يخرج إلاّ بعد استكمال التسلسل الزمني الكوني للكينونة أولاً، ثم حدوثـــه نتيجـــة لقوتين، قوة طاردة مركزية (التقلص العضلي لجسم الأم)، وقوة جاذبة خارجية، ليـــس للأم أي دخل فيها، قوة سماوية تماماً...

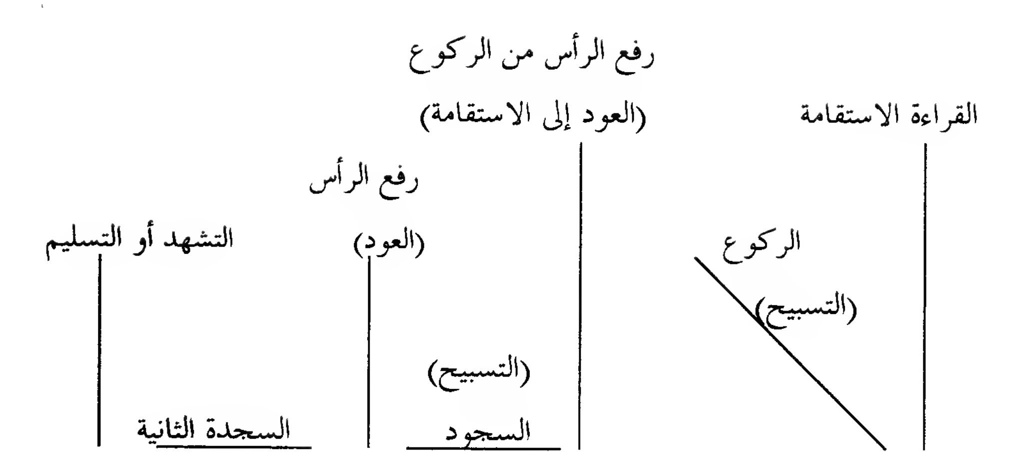
وعلى الوفق نفسه يتحقق للفكرة تكونها اللساني بعد ولادتها الداخلية، وعلـــى مثله تتكون الدفقة الصوتية والدفقة الضوئية، وعلى الوفق نفسه تتكـــون الكواكـــب، وتتوزع الألوان ودرجاتها وطبقاتها الموجية في الأشياء... ويستنبت كل شيء...

٢- إن لكل كائن كبيراً كان أم صغيراً، مركزاً، ولكل مركز مداراً يواجهـــه بزاوية انحراف أميل إلى يمينه منه إلى شماله (انظر شـــكل ــ ١ ــ)، وان لذلك المدار خمسة مدارات، لكل مدار منها حركتان في وقت واحد:

أ- حركة المدار حول نفسه.

ب- حركته المرتبطة بحركة المستطر المداري حول المركز.

ولهذه الحقيقة مظاهرها الفيزيائية الكونية المختلفة، كوكبياً أو ذرياً أو خلويـــاً... إلخ. وبموجب ذلك لنا ان نتبين الكثير مما يتعلق بكونية الصلاة وما وراء فقهـــها، مـــن حيث هي حركات المصلي الفرد، أو من حيث هي سنة بائنـــة، خاصـــة في صـــلاة الجماعة. أما حركية الصلاة فلا تختلف مع السنة الكونية للكائنات، ان لم نقل إنها هـــي أصل كل تلك الحركات. فالصلاة قيام وركوع وسجود، لنا أن نتبينها شـــكلياً علـــى الوفق الآتي؛



أما القوة الخارجية، أو المركز الخارجي(قوة الجذب)، فالقبلة. هذا ما يتعلق بحركات الصلاة، فإذا نظرنا إلى صلاة الجماعة في ضوء حركتي المدار،وجدنا أن بلاغة صلاة الجماعة تقضي بتتمة الصفوف وتسويتها من اليمين إلى الشمال، ومن حيث المساحة الأقرب إلى الإمام إلى الأبعد صفاً بعد صف، وكل ذلك بالنسبة إلى وسطية موقع الإمام وتقديمه. فالمصلون في صفوفهم يتحركون حركتين متراصتين متزامنتين؛

أ. حركة المصلي حول الإمام. الحركة الداخلية لكل مصلٍّ على حدة.

ب. حركة المصلي المرتبطة بحركة صفه (مداره) حول المركز (الإمام)، والتي هي حركة الصفوف جميعاً في وقت واحد.

وبموجب ذلك وغيره، لنا تبيُّن الكثير مما يتعلق بفقه اليمين والتيامن في القرآن والسنة. ثم بلاغته بالنسبة إلى أصحاب اليمين مقارنة بأصحاب الشمال.

ولنا بعد ذلك أن نقرن ما سبق بموجب البلاغة الكونية، بحركة الكواكب حول الشمس وحركة الشمس حول نفسها، وحركة المجرات الأخرى، حول المجرة المركز، المجرة الشمسية على وفق ما يقضي به التبين القرآني، ثم لنا أن نعيد النظر في حركة الأرض حول الشمس، ومركزية الأرض التي لا تتقاطع مع مركزية الشمس، فالشمس

مركز والأرض مركز... ثم لنا بعد ذلك أن نعيد النظر في مكونات الذرة وجسيمات النواة بما يتواءم والتسلسل السباعي للكينونة... وكذلك كل ما يمكن تلمسه من مظاهر كونية...

٣- إن أي انفصال عن شيء أو دخول في شيء، كونياً، لا بد أن يخلّف فجوة دائرية أو يخلق لنفسه فجوة دائرية ليملأها. ولذلك مصاديق، أصغرها وأدقها ما يخلفه الالكترون خلفه من ثقب حينما يتحرك باتجاه وسيط آخر غير وسيطه الأول، وان ذلك الثقب لا بد أن يملأ ثانية. وهكذا دائماً ثمة إحداث ثقب وملأ المساحة الكائنة خلفه وبه، أو تركه لغيره ليملأه اعتماداً على مفهوم التكوير والمواجهة فيما بين الحلقات الكائنة في جهة الـ "فيكون". ومثل ذلك يحدث مع بدء تكون أي شيْ سيؤول في النهاية إلى ولادة، أو مع تحقق الولادة وما بعد الولادة، انساناً أو نباتاً أو حيواناً أو ليلاً أو نهاراً أو كواكب، أو جزيئات ذرية، أو صوتية أو ضوئية... جامدة أو سائلة أو غازية.. سمعاً أو بصراً أو جهاز نطق، قلباً أو عقلاً. وبالجملة، ما من نظام فرق إلا ويخضع لهذه البلاغة الكونية، سواء اكتشف منها ما اكتشف أم لم يكتشف بعد..

٤- إعادة الاعتبار لما يسميه المتصوفة المسلمون بـ " النقطة"[1]. ولا يمكن تحقيق هذا الاعتبار دونما رغبة صادقة في التخلي عن كل ما من شأنه أن

([1]) الحقائق، لدى المتصوفة،مفردة لا يطرأ عليها التغيير أو النقص والفساد. ومركبة يجوز عليها كل ذلك. والنقطة هي تلك الحقيقة المفردة بالنسبة إلى الحقائق المركبة. ويقول المتصوفة: "الدائرة مالها باب. والنقطة التي في وسط الدائرة هي معنى الحقيقة، ومعنى الحقيقة شيء لا تغيب عنه الظواهر والبواطن ولا تقلب الأشكال". انظر: موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي: ص٩٩١، والفتوحات المكية، سفر ٢٤٨/١، وسفر٢ /١٣٤ ومواضع أخرى. والنقطة مادياً، هي أصغر شيء ذي وضع يمكن أن يشار إليه بالإشارة الحسية. أما رياضياً،فهي – أي النقطة_ معنى هندسي أولي لا يمكن تعريفه إلا بنسبته إلى غيره. وميتافيزيقياً، النقطة، هي الجوهر البسيط، الذي تتألف منه الأشياء. انظر: الدكتور جميل صليبا،المعجم الفلسفي،دار الكتاب اللبناني – دار الكتاب المصري،١٩٧٩، ج٢/ص٤٥١، ٥٠٣.

يقف حائلاً دون تبين نقاط القوة في الفكر الصوفي أو غيره، مـــن موجـــهات مسبقة. على أننا لا يعنينا التصوف من حيث هو مظاهر أقوال وطرائق ســـلوك ممكن أن توحي بالزلق والشطط، بل يعنينا التصوّف بوصفه معرفةً وتبينـــاً. أي بوصفه وجهاً بلاغياً.

٥- قصور أو خطأ ما تذهب إليه النظرية الفيزيائية القائلـــة بالانفجـــار العظيم، فيما يتعلق بنشوء الكون، وخاصة منها ، تلك الفكرة الـــتي تقـــول ان التوهج الذي حصل لعناصر الكون حصل بعد تمام الانفجار لاحقـــاً. فـــالذي يكشف عنه التبيان القرآني الكوني، ان التوهج حصل مـــع أول الفجـــر، وأول النشوء، وانه بعد تمام النشوء بدء بـــالخفوت والتلاشـــي، ليعيـــد تشـــكيله الانفجاري الصغير أو دورته الكونية الصغرى، مع طلوع الفجر بعـــد تكويـــر النهار على الليل يومياً.. لأن هذه الدورة، بيان تلك، بل هي بيـــان نهايـــة الكون أيضاً باعتبارها فرق الأولى، الذي سيؤول إلى تمـــام إعـــادة بالانفجـــار الأخير، حينما تقوم الساعة. وكما سبق الأولى وزامنها دخـــان مبين ناشـــيء عن ذلك الانفجار، سيسبق الأخير دخان مبين.

٦- ان التمدد الكائن في الكون، أي كون؛ لغويـــاً كـــان أم بشـــرياً أو كوكبياً سماوياً،يستلزم زيادة وسعة في جانب ونقصاً في جانب آخر. أما الســـعة والتمدد فداخليان ،وأما النقص فجانبي خارجي ، كثافة وحجماً وطاقة، والذي ينتج عن التمدد هو زيادة في الفرق مقارنة بالجمع، مما يعني فقدان أكبر لقـــوة الجذب وزيادة أكبر لقوة الطرد بين المكونات وبعضها، أو بين جهـــة الجمـــع وجهة الفرق للشيء ورحمه. ويترتب على ذلك تشقق وتقشر ناتج عن حركـــة داخلية متدافعة، تؤدي إلى تقشر أو تكسر خارجي، شبيه بذلك الذي يحصـــل مع ثورة البراكين أو حدوث الزلازل، وكل ذلك استجابة لبلاغة الجمع والفرق

القاضية بتمام بلوغ التمدد، يرافقه ولحظة بلحظة إرهاصات بـــدء النقـــص، ثم اكتمال بدئه بعد تمام بلاغة الجمع وبالعكس وعلى نحو مســـتمر ودائـــب... ويترتب على ذلك ان الكون السماوي بدء بالاتساع مـــذ أول نشـــوئه، وان الأرض أرهصت بالنقص مذ أول نشوئها، وان تمام الاتساع السماوي ســيرتب عليه البدء الحقيقي الملحوظ لنقص الأرض.

قال سبحانه؛ ﴿والسماء بَنَيْناها بِأَيْيْدٍ وإنَّا لموسِّعُونَ*﴾ (الذاريات:٤٧)

وقال تعالى؛ ﴿أَوَ لَمْ يَروا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِهَا واللهُ يَحْكُـــمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وهو سَرِيعُ الحِسابِ *﴾ (الوعد:٤١).

فالتوسع خاصة السماء والنقص خاصة الأرض، على ان السماء والأرض وجهان لحقيقة الـــ"فيكون"، حتى يعود الرتق بعد الفتـــق ثانيـــة،أي حـــتى تســـتكمل دورة الـــ"فيكون" الكلية، نشوءها، ثم تعود إلى أمريّة الـــ"كن"وحينها ستعود الأرض لتكون في رحم السماء، حتى يحين حين جديد للنشوء باذن الله.

وطباق ذلك في كينونة كلمة (فيكون)، هو تجريد الكلمة من (الفاء)، ثم تجريدها من (الياء)، وهذان هما الطرفان الأولان، ثم وبالنتيجة يرتفع الواو الساكن من (كـــونُ) وبارتفاعه وتعليقه، يتحقق النقص الثالث الذي هو قطع امتداد حركة الضم على النون، هكذا؛ (كن فيكون ← يكونُ ← كـــونُ ←كـــنُ ← كـــنْ)←"كـــن فيكون" وحينها، تعود، "كن" الثانية في صلب الأولى، وليس ثمة لحظتئـــذ إلا الجمـــع والضم المطلق في "كن".

من جانب آخر، وكما أن الحركة داخلية خارجية (جانبية) سماوياً، فإن النقـــص داخلي خارجي، جانبي فيما يتعلق بالأرض،ولهذا وكما ينقص الله سبحانه الأرض مـــن أطرافها، فإن نقصاً داخلياً يجري في عمقها لمكوناتها، يقول التزيل العزيز؛ ﴿قَدْ عَلِمْنـــا ما تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيْظٌ*﴾ (ق:٤).

٧- إن مرحلة إلقاء الرواسي في الأرض والمباركة فيها وتقدير اقواهّا. هـي نفسها المرحلة التي تمّ فيها جعل الكواكب أو المصابيح في السماء ذات الحبك، أو السماء ذات الرجع، وهي نفسها المرحلة العظمية فيما يتعلق بخلق الإنسان في الرحم، وما يتلو تلك المرحلة من اكساء العظام لحماً، والإنشاء خلقاً آخر، قبل الخروج من الرحم. وكما رست المضغة حول العظام، وصارت في صلب العظام، بل إنها من حيث أصلها النطفي،أصل تكون العظام فهي فيها وخارجها. كذلك علاقة الجبال بالأرض ثم علاقة الكواكب بالسماء. ومن بعد فإن علاقة الأرض بالسماء، هي علاقة المضغة بالعظام، فالأرض في السماء وخارجها، من حيث الإحاطة والتمركز، فهما متمركزان محيطان ببعضهما جمعاً بالـ"كن"، ثم متباعدتان بالتكون الحركي، "ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا" وهنا تقدم الأمر للسماء "فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ"، وهذا يعني ان حركة السماء أصل حركة الأرض، ولكن الأرض غاية إيجاد السماء الدنيا،وما ذاك إلا لأن تبيُّن الأرض لا يتم إلا ببيان السماء، فالسماء أتم بلوغاً في التكون من الأرض . وبموجب ذلك لنا أن نتبين الحكمة الكائنة في؛

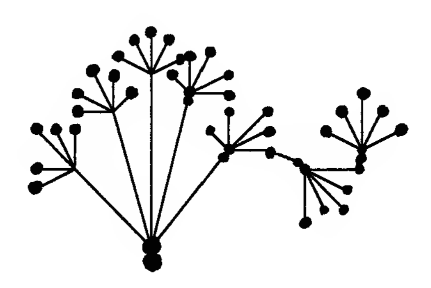
أ. قيمومية الرجل على المرأة، باعتبار الجهة السماوية الغالبة على الرجل، في مقابل الجهة الأرضية الغالبة على المرأة.

ب. تماثل صفات التكون الذكورية والأنثوية، من حيث وجها الكينونة الواحدة "مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ" مما يعني ان صفات الأنوثة والذكورة موجودة في كل كائن بشري بغض النظر عن جنسه، بل في كل كائن حيوي، بل في كل متكون. وكذلك وجها التكون الأرضي والسماوي، عدا أن التكون قد تجاوز مرحلة البلوغ الأنثوية إلى تمامها في الذكورية. فالسماء والأرض واحد، مع فارق في البلاغة وتمامها، والرجل والمرأة

واحد مع فارق في البلاغة وتمامها. ومن ثم فإن الجبال والعظام واحـد، وان الجبال والكواكب واحد من حيث جهة الأصالة والترتيب، البيان والتبين.

ج- إن التمفصل الكائن في الجهاز العظمي من جانب، والتواصل الكائن فيه من جانب آخر ، هو نفسه الكائن في الجبال بالنسبة إلى الأرض، وهـو نفسه الكائن في الكواكب والمجرات بالنسبة إلى السماء. وان سريان الحيـلة والصفات النوعية للكائن الحي عصبياً في الجهاز العظمي هو نفسه السريان الكائن في الرواسي والمجرات، فالثبوت وجه الحركة والحركة وجه الثبوت؛ ﴿ وتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُها جَامِدَةً وهي تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْـعَ اللهِ الـذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيءٍ إنَّه خَبِيرٌ بما تَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٨٨).

٨- إن تصوراً آخر للرسم البياني بوجهيه , يظهر لنا أن حركـة التكـون ، حركة عنقودية متراصة بوصفها نظاماً علمياً منضداً، في ضوء تلـك الحركـة العنقودية نفسر تشكل الكواكب ثم النجوم والنجيمات أول النشـوء الكـوني السماوي ، و بموجبها ننظر إلى تناسل الإنسان أبناءً وحفدة وأبناء حفـدة ... وبموجبها ننظر إلى تقسيم النباتات على شكل فصائل ، وكذلك الحيوانـات ، وبموجبها نقرأ الشبكة العصبية في جسم الانسان ، ثم بلاغـة كـون أطـراف الإنسان تنتهي بخمسة تمفصلات لكل منها، ممثلة بالأصابع، وكذلـك نقـرأ علّة، أو بلاغة شهادة الأيدي والأرجل يوم القيامة ... وهـذا هـو التصـور الجديد للشكل القرآني السابق:



ثانياً: بيان الرحمانية، توسّم التوالد :

الأسماء الحسنى، واسطة بين الله سبحانه وتعالى وبين الإنسان من حيث هو داعٍ في ضوء قوله تعالى؛ ﴿ ولله الأسْماءُ الحُسْنى فادْعُوْهُ بِها وَذَرُوْا الذينَ يُلْحِدُونَ في أَسْمَائهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانوا يَعْمَلُونَ*﴾ (الأعراف: ١٨٠).

فدعاؤه سبحانه ركن رئيس من أركان تمثل النظام والانتظام به ممثلاً بتحقق العبودية. أما "الذينَ يُلْحِدونَ في أَسْمَائِهِ" فيمثلون جهة الاختلاف مع النظام وعدم الامتثال لكونية العبودية. ولقد قضت البلاغة الكونية للقرآن أن تجيء كلمة "الأسماء" متبوعة بالصيغة "الحسنى" متوسطة بين اسم الذات المقدسة ؛"اللّه" وبين "ادعوه بها"، وهاهنا ثلاث تسلسلات بيانية؛ الله ⟵ الأسماء الحسنى ⟵ الداعون . فللأسماء الحسنى طرفان أو وجهتان الوجهة الالهية عن يمين الآية والوجهة البشرية عن شمالها، متبوعة بـ (اللاحدين)، فاللاحدون أقصى الشمال من الآية المباركة.. فإذا نظرنا إلى الأسماء بوصفها جهة اليمين ، وجدنا حكمة (الحسنى) متوسطة بين الأسماء والإنسان فحسن الأسماء جهة البشرية وظهورها الذي بتبينه في القرآن اللساني والشيئي، يتحقق الوصل بين الإنسان والخالق ثم بين العلامة والمعلّم ثم بين المتعدد(ادعوه) ـــ باعتبار واو الجماعة في ادعوه ـــ وبين الواحد الأحد، الله سبحانه. والأسماء بعد ذلك كله ذات وجهتين تبيانيتين ؛

أ- الوجهة الالهية، وجهة الصمد الذي "ليس كمثله شيء"، أي وجهة الجامع، الباطن ، المكوِّن.

ب- الوجهة البشرية، وجهة المركب الشيئي، أي وجهة المتعدد المظهري،المتكون.

فللأسماء حسنها، وللحسن بلاغته وتبيانه من حيث هو مدخل للتبين القرآني، في القرآن ـــ الكتاب السماوي الذي بين أيدينا ـــ وفي الكون من حولنا. وبموجب

ذلك يصير لبيان الأسماء في الكتاب قرآنيته التي لا بد ان تخلص بنا الى تبين. ان علمنا بالأسماء، هو علم الظاهر الشهودي الذي يظل محدوداً بحكم محدوديتنا في العلم والإدراك والإحاطة، دون ان يعني ذلك محدودية في المعلوم نفسه، فالمعلوم هو البيان، وعلمنا هو التبين. وعلى قدر صلتنا بالبيان يتحقق للعلم بلوغه.فالأسماء هي النظام والدعاء بها هو الانتظام، لأن الأشياء جميعاً تكونت وظهرت بظهور الأسماء، فالأسماء أصل الـ"كل شيء" باطناً وظاهراً. ومن جهة أخرى لا بد من النظر إلى جهة الأسماء الإلهية، على أنها جهة الجمع، فالأسماء واحدة، فيما هي حينما ننظر إليها من جهة التكون أو البشرية أو الشيئية،متعددة ـــ ولكنها وإن تعددت ثم تعددت بتعددها المتكونات من حيث الجهة الثانية، واحدة، حينما ننظر إليها من جهة المسمى، ويعني هذا مما يعني، ثبوتها من جهة، وحركيتها التي تبين عنها حركية الاشياء من جهة ثانية. فإذا تلمسنا لهذه الحقيقة بياناً وجدنا الآيتين التاليتين للآية المباركة (آية الاسماء)،تبيّنان، ذلك التسلسل الشيئي وهو يتراتب بموجب الانتظام مع نظام الاسماء أو مخالفتهن على مثل التبيان الذي للآية، أي نظاماً وانتظاماً أو مخالفة نظام. بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية المباركة؛ ﴿ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدونَ بِالحقِّ وبِهِ يَعْدِلونَ* والذين كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمونَ*﴾ (١٨١-١٨٢).

يترتب على ذلك كله، تبيّنات، منها؛

١- ان الأسماء مستبطنة مستظهرة.أما الظاهر فمحاط به من قبلنا وأما البطن فنختلف في الإحاطة به، تبعاً لاختلافنا في تحقيق بلاغة الانتظام العقليّ الجامع بموجب النظام ، وكذلك إحاطتنا بالأشياء ظاهراً، واختلافنا في الإحاطة بالـ"كل شيء".

٢- إن اسماً ما من الأسماء وليكن (المحيي) ، يستبطن الأسماء جميعاً بما في ذلك (المميت) ، الذي هو نهاية حد المحيي اسمياً. فالمحيي إذن ظهور ذاته وبطون غيره من الأسماء (الخالق) و(المصور) ، و(القهار) و(الوهاب) ... إلخ.

وكذلك هو الحال بالنسبة إلى الأشياء فيما بينها وبعضها تباطناً وتظاهراً ، وتداخلاً وتخارجاً .

٣- إن الدعاء الحق الذي نتوجه به إلى الله سبحانه و تعالى ، هو الدعاء الذي علمناه في سورة الأعراف عينها ، ألا وهو:﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً إنَّه لا يُحِبُّ المُعْتَدينَ* وَلا تُفْسِدُوا الأَرضَ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وادْعُوْهُ خَوْفَاً وَطَمَعاً إنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيْبٌ مِنَ المُحْسِنينَ * ﴾ (٥٤ - ٥٦) .

فإخفاء الدعاء مقرون بإظهاره ، من حيث انّ الإظهار منبثق من الإضمار. والطمع مقرون بالخوف فالخوف بلاغة الطمع ،فلا فكاك ، وكما هو الحال مع الأرض التي تظهر ما خفي ويعود إليها ما ظهر ، كذلك الحال مع الإنسان بوصفه أرضاً لحسن الحديث المترل من السماء إنزال الماء على الأرض .

ويترتب على ذلك شيئياً ، أن ما نظنه غير مصوت مصوتٌ أصلاً ، صغر أم كبر، فالحركة الصوتية كائنة في صلب الأشياء ، في جامع الـ " كل شيء " من الشيء والشيء والشيء. هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، نرى إلى الخوف والطمع على الهما علامتان على ما يكمن في عمق الأشياء من جذب وطرد ، وجمع وفرق ، وتعالق وعلوق داخلي وخارجي يتحرك الحركتين الدائرية و المستقيمة، بدءاً وعوداً، وحركة وسكوناً حول المركز .

فالأسماء الحسنى ، نيل وعطاء كلها ، دفعاً لضر أو استجابة لمنفعة ، وليس اسماً بعينه يحقق ذلك ، إلا من حيث هو ظهور . فـ (الرزاق) ظهور ، وهو وسيلة الطامع ولكن عقد النية على (الرزاق) وحده ، دونما إضمار نية استبطان وسائل الطمع الأخرى ، (المغني ، الفتاح ، الوهاب ، الواسع ...) ساعة الدعاء ، ليس هو الدعاء الذي ينسجم مع الحركة القرآنية للأشياء التي يطمع الطامع بنيلها ، وهي المتكونة بالأسماء جميعاً . فالأشياء انتظام النظام ، وما نيلها إلا بمقاربة الانتظام الكائن

فيها ، من حيث هي متفرقة ومجتمعة.

٤- إن الرحمة الإلهية التي بانت عن حسنها آية ﴿ إنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المحسنِيْنَ ﴾ وهي تقرن الرحمة بالقرب والقرب بالرحمة، والرحمة والقرب بالحسن والإحسان هو حسن الأسماء وإحسان المتوسمين – هي ذاتها التي وسعت كل شيء ، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلّ شَيْءٍ ﴾ وفي الأعراف نفسها ؛ (آية : ١٥٦) ، وهي ذاتها التي توسطت بين اسم الذات و الأسماء الحسنى في آية الإسراء ؛ ﴿ أُدْعُوا اللهَ أوِ ادْعُوا الرَّحمنَ، أَيّاً ما تَدْعُوا فَلَهُ الأسماءُ الحُسْنَى ولا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ولا تُخافِتْ بِها وابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيْلاً ﴾ .

وها هنا عود آخر إلى الظهور والبطون ولكن بصورة الجهر والتخافت. والذي لنا أن نعتد بمدخليته البلاغية ، ونحن نتبين الحكمة الإلهية الكامنة خلف التبيان القاضي بأن تكون الصلاة بين جهر و تخافت ، أي بين إعلان وإخفاء ، هو انّ القدرة السمعية للإنسان من حيث هي طباق هذه البلاغة ومتبينة بها و متكونة بكونها ، جاءت وسطاً فيما بين الترددات العالية للصوت والترددات الواطئة. وبموجب ذلك نرى ثانية إلى أن الصوت كائن في الصلب من كل شيء ، ولكل شيء ، وللأشياء جميعاً ، ولكل منها بلاغته في مطابقة ذلك الحد الوسطي ، بغض النظر عن شدة تردد الصوت الصادر من كائن بعينه بالنسبة إلى آخر ... عدا الصوت الذي هو أنكر الأصوات ، (صوت الحمير)، باعتبار أن هذا الصوت لا يلتزم الحكمة الوسطية فيما بين الشدة والضعف والظهور والخفاء بالنسبة إلى تكوينه الجسماني أولاً ، ثم بالنسبة إلى تكوين غيره من الكائنات .

ومن جهة أخرى ، نرى إلى توسط (الرحمن) بين اسم الذات والأسماء ، على أنه موئل الأسماء جميعاً ، من حيث هو وجهها و وجهتها ، كائن فيها وبها ، ولهذا كان (الرحمن) أول الظهور البياني لبلاغة القرء والقرن في أول آية من آيات القرء والقرن،

آية البسملة التي جمعت علم القرآن كله ، مستخلصاً فيـــها[1] ومـــن ثم في أول ســـور المصحف ، سورة الفاتحة ، وبموجب ذلك علينا أن نتبين علاقة الأشياء بالـــــ " كـــل شيء " والمتكونات بالـــ " كن " ، باعتبار الـــ " كل شيء " و الـــ " كن فيكـــون " طباق الظهور الرحماني الأول ، من حيث انتفاعهما بأوليّته في الظهور ، الأوليـــة الـــتي يترتب عليها الظهور الأول للأشياء والمتكونات .

٥- إذا تذكرنا إن لبيان الأسماء ظهورين ، ظهور لساني في الكتاب العزيـــز ، وظهور شيئي في الآفاق و الأنفس ، خلصنا إلى تبين الحكمة التي جعلت مـــن كلمـــة (رحمن) في القرآن ساكنة الحاء ، أي على وزن (فَعْلان) . فيما هي لـــدى المتبينـــين معدول بها عن (فَعَلان) ــ بفتح العين ــ [2]. وليس ثمة عدول، ولكن المتبينـــين مـــا زالوا يجعلون من قرآنية اللسان ، وعربيته ، وبلاغته الكونية ، تابعـــاً للغـــة وعربيتـــها البشرية وبلاغتها الشعرية ، بتأثير من التابعية الأبوية وموجهات التلقي حينما يكـــون الموضع موضع اختلاف الألسنة ... وفي ضوء ذلك ، نصير إلى أن السكون والحركة في (الرحْمن) (الرحَمن) ،وجهتان لبلاغة البيان والتبين ، ثم وجهتان لبلاغـــة الســـاكن والمتحرك ، ثم وجهتان لبلاغة الأصل والمترتب ، ثم وجهتان لبلاغة الجمع والفـــرق ، ثم وجهتان لبلاغة الإحاطة التي هي سمة وعلامة الكلمة القرآنية و هي تتسلسل في اللســـان غير ذي العوج كما تتسلسل في الـــ " كل شيء " والأشياء...

فصيغة (فَعَلان) ــ بفتح العين ــ عندنا هي تبين أو تكون الحركـــة الكونيـــة المتوالدة للأشياء بعد سكونها وجمعها الجامع . أما صيغة (فَعْلان) ــ بسكون العـــين ــ فهي الأصل الرحميّ ، (فالرحْمن) ، هي الأصل بالنسبة للأسمـــاء ، وتبيانهـــا وهـــي ساكنة الحاء (رحْمن) يعني أصالتها وأوليتها في الآية الأولى والسورة الأم ، ثم ويـــترتب

---

(1) انظر: روح المعاني: ج١/ ص٣٧.

(2) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ج١/ص٥٥.

على ذلك أنها تبيان أصل الأشياء ، الذي هو الـ " كل شيء " أو أصل المتكونات الذي هو الـ " كن " ، أو أصل الائتمار والانفصال ، الذي هو الأمر ، أو أصل الأزمان الذي هو اليوم الرباني ... (فالرحمن) تبيان جهة الـ " كن " ، والأسماء تبيان جهة التكون ، " فيكون " ، ومن حيث الـ "كن فيكون" السُّنَّة الأولى ، والـ"كن فيكون" ، التسنن والتسلسل الذاتي ، نرى إلى (الرحْمن) الساكنة على أنها تبيان جهة الـ " كن " ، بينما المتحركة الحاء (الرحَمن) على أنها تبيان جهة التكون (فيكون). أو أن الأولى تبيان الـ " كن فيكون " السُّنَّة ، أما الثانية فتبيان الـ " كن فيكون " المتسلسلة الذاتية .

٦- قد تقدم الحديث في استنباط الأسماء واستظهارها في ما بين كل منها وغيره من الأسماء ، ثم في ما بينها جميعاً والاسم الأحسن (الرحمن). والذي يعنينا هاهنا علاقة الأسماء بالرحمن . (فالرحمن) ، يستبطن الأسماء جميعاً، و الأسماء جميعاً ظهوراته، على أن تلك الظهورات ظهوران ، ظهور بياني حددته السنة النبوية، بتسعة وتسعين اسماً [١] ، وظهور جهادي تبيّني منتفع برحمانية وحسن قوله تعالى ؛﴿والذين جَاهَدُوا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩). ولأن مدخل الحسن لا ينتهي إلى حد ، حينما يُقرن الحسن التبيني بالحسن البياني ، حسن الأسماء (الأسماء الحسنى) وحسن الحديث (أحسن الحديث) ، فإنه كفيل بتبيّن التكون الحركي الذي يكشف عنه التسعة و التسعون الأصل ، وبما يصل إلى ألف وواحد كما تبين الرازي [٢] ، وخمسة آلاف أو أكثر كمل يروي ابن كثير عن الرازي [٣]، وهاهنا بيان عددي وتبيّنان ؛

([١]) انظر: المصدر السابق: ج٩/ص١٣٣.

([٢]) انظر: تفسير الفخر الرازي: ج١/ص١٣.

([٣]) انظر: أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي سنة٧٧٤هـ، تفسير القرآن العظيم، المكتبة العلمية، بيروت- لبنان، ط١ ١٤١٤هـ-١٩٩٤:ج١/ص١٨.

أ. تسعة وتسعون .

ب. ألف وواحد .

ج. خمسة آلاف أو أكثر .

فإذا تذكرنا أن التكون الزمني لليوم الرباني ثلاثي أيضاً ألا وهو :

أ. تسعمائة وخمسون سنة .

ب. ألف سنة .

ج. خمسون ألف سنة .

تبيّن لنا ذلك التناسب الكائن بين البيان والتبين سواء من جهته الاسمية أم من جهته الزمنية ، ثم تبين مقدار النسبة والتناسب الكائن بين التسعة والتسعين والواحد مرّة وبين التسعمائة والخمسين والألف مرةً ثانية، ثم بين الخمسة آلاف والتسعة والتسعين والخمسون الألف والخمسة آلاف ثالثة ....

فإذا فرغنا من ذلك كله ذهبنا إلى أن ما تبين للعلماء فيزياءً وكيمياءً وأحياءً مازال ضمن مساحة الواحد بالنسبة إلى العشرة ، بل إنهم لن يتجاوزوا هذه النسبة إطلاقاً ، أما ما انتهوا إليه من هذه النسبة فهو نصف من واحد بالعشرة ، بدءاً بالشيء وانتهاء بالصغير العميق الخيالي من الشيء ، ممثلاً بالجين أو الكوارك ، أو الوتر الفائق، أو الفيمتوتانية ... إلخ ، و ما زال أمامهم ما يترتب على ذلك استكمالاً للنصف إن لم يسارعوا في فناء البشرية و تعجيل أمر الله باستغلالهم ما يتبينون لإشاعة الظلم والعدوان والفساد ... وما ذلك الواحد من عشرة إلا السلطان أو الحجة التي للبشرية وعليها، الحجة الباطنة حجة العقل .. وما يتحقق من تبين كوني إلا بموجب هذا السلطان الكوني سلطان السموات و الأرض ؛ ﴿ يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّموات والأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذونَ إِلاّ بِسُلْطَانٍ *﴾ (الرحمن : ٣٣) .

والذي لا بد من الالتفات إليه هاهنا ، هو إن هذه الآيـــة ، وردت في ســورة الرحمن ، مما هو موضع تبيننا الآن من حيث تعالقه بالأسماء الحسنى وما يــترتب علــى ذلك من تبينات ، أو مما هو موضع تبين لاحق في المدخل الثالث من هذا الكتاب ...

أما السلطان ، سلطان الواحد من عشرة، أو معشار العلم ، وهو القليل الــــذي تبينا نسبته و تناسبه في التسعة و التسعين اسماً بالنســـبة إلى المائـــة ، ثم في التســـعمائة والخمسين بالنسبة إلى الألف ، ثم ما بينهما ، فهو ذاته (القليل) الذي تبينــاه في آيــة استفزاز الرسول (مبحث المكان و الزمان و الكائن ــ فصل كلمة السر) باعتبار ســنّة القليل أو كونيته؛ ﴿ وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وإذاً لا يَلْبَثُــونَ خِلافَكَ إلاّ قَلِيلاً * سُنَّةَ مَنْ قد أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَلا تَجِــدُ لِسُــنَّتِنا تَحْوِيْــلاً﴾ وكذلك هي سنته ولونيته العلمية ؛ ﴿ ويسألونكَ عَنِ الرُّوْحِ قُلِ الرُّوْحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوْتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيْلاً ﴾ (الإسراء : ٨٥) ... وكذلك هي سنة القليــل و بلاغتــه وكونيته أينما وردت في القرآن الكريم ...... و ما القليل علمياً ، إلا وجه للســلطان، وما القليل أو السلطان ، إلا مظهران للسنة الإلهية الماثلة في الأشياء من حيث هي تكون محدود بحد و خاضع لمنطق بليغ في الــ " كل شيء " .

٧- ورد عن نبي الرحمة، قول الله سبحانه ــ عن طريق الحديث القدسي ــ "أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرَّحِمَ وشققْتُ لها اسماً من اسمي، فمَنْ وَصَلَها وَصَلْتُــهُ، ومَنْ قَطَعَها قَطَعْتُهُ"[1].

فــ(الرَّحِمُ) إذن منشق من (الرحمن)، من جهة (الاسم)، أي من جهة الكلمــة القرآنية. فــ(الرحمن)أصل و(الرحم) مشتق من الأصل، اسماً ، ومخلوق بالاشتقاق مــن جهة تشيؤ الدال أو الكلمة. ووصل الرحم ، عود بالمترتب إلى الأصل وترتيب للتســنن

---

(١) الأحاديث القدسية : ج١-٢/ ص١١٧-١١٨. وورد : "إنّ الرَّحم شَجَنَةٌ آخذةٌ بحجزة الرحمن، يصل من وصلها، ويقطع من قطعها". انظر: الأحاديث الصحيحة: مج٤/ ص١٣٢.

على وفق نظام السنة،أما قطعها ، فقطع للاشتقاق وتقييد للإحاطة وترتيب للتسنن على غير السنة أو النظام. وهذا ما يحقق لنا مطلبين،الأول منهما هو إن دلالة الرحمن ودلالـة الرحم، كلتيهما من حيث الأصل تلتقيان وتنبثقان مـن الرقـة والشـفقة والعطـف والإحسان، وثانيهما ان شق الرحم من الرحمن، يعني اتصاف الرحم بصفات الرحمـن. فإذا علمنا ان الرحم هو مستودع الجنين في أحشاء الحبلى، وان الرحميَّة جامع الأجنـة وأصل القرب والقرابات، انتهينا إلى أن (الرحمن) مستودع الأسماء ـ بـلا شـيئية ـ والتي للخلق انتفاع وجود وديمومة بها، وان الذي بين الأسماء من علائق هو الذي بـين الأخوة والأقارب. والذي بين (الرحمن) والأسماء هو ما بين الأم وأبنائها. وهاهنا يتبـين لنا ما بين الكلمات القرآنية والكلمة الأصل الجامعة،قولاً وخلقاً، من علائق، ثم ما بـين الـ"كن" والتكون...

فـ(الرحمن) إذن في ضوء أولية النزول، أي أولية الفاتحة(أم الكتـاب)، وأوليـة البسملة، هو – أي الرحمن- (أم الصفات). فإذا كان علم القرآن ـ أحسن الحديـث ـ في الفاتحة وعلمها في البسملة وعلم البسملة في الباء، وعلم الباء في النقطـة، وان في البسملة ألف معنى ومعنى[1]... خلصنا إلى ان الرحمن، جامع علـم الأسمـاء، وأصـل حقيقتها ومعانيها، وهذا ما يتعالق تبيّنه مع تبيان قوله تعالى؛ ﴿ رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَـيءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ﴾ (غافر: ٧). وهاهنا يتبين لنا شيء من الحكمة الإلهية التي قرنت بـين بيان الرحمة وبلاغة العلم من حيث سعتهما للكل شيء ... ومن بعد يتبين لنا بلاغـة سبق وجه الرحمة وجه الغضب من حيث وجهية السنة إيجاباً وسلباً. وهذا ما ورد عـن طريق الحديث القدسي؛ "إنَّ رحمتي سبقتْ غضبي" [2]... وكما بان لنا ما بان ونحـن

---

(1) انظر: الفتوحات المكية: سفر٢/ ص١٣٤ وما بعدهـا، وص١٧٥. وروح المعـاني: ج١/ص٣٧. وورد، أن البسملة أقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها. انظر: مجمـع البيـان فـي تفسير القرآن: ج١/ص٨٩.

(2) الأحاديث القدسية : ج١-٢ /ص٢٣٠.

نقرن التبينات إلى صنوها، تبيَّن لنا بلاغة قرن التبينات والقولات السابقة، ثم بلاغة القولات وأهمية التخلي عن مصادرة الآراء قبل الإحاطة والسعة وبعد التجرد من الموجهات الذاتية والأبوية.

٨- لقد أنزل القرآن؛ "تبياناً لكلِّ شيءٍ"، ولقد ظهر الاسم الأحسن (الرحمن) في أول الترول، الذي هو نزول تبياني، فـ(الرحمن) إذن تبيان لأولية كل شيء... ترى هل جاء التشكل القرآني من حيث هو شكل بليغ،طباقاً لأولية الـ"كل شيء" أي لأولية الخلق؟ أي هل جاءت البلاغة اللسانية تبياناً للبلاغة الشيئية، وهل ثمة شك في البلاغة الكونية للسان ومن قبل في قرآنية التكوّن؟

لقد جاءت (الرحمن) على وزن(فعلان) بسكون العين، المضمرة حركيتها كما تبيَّن لنا في موضع قريب. وصيغة (فعلان) بتحريك العين وسكونها، صيغة صرفية دالة في العربية على كل ما من شأنه اشتداد الحركة واضطرابها، كأن نقول (غَلَيَان) (هَيَجَان) (فَيَضَان)...إلخ. وهذا يعني أن ثمة حدثاً ومحدثاً (بكسر الدال)، مضمران في صيغة (فعلان)، على ان المحدِث غير المحدَث (بكسر دال الأولى وفتح الثانية)، وان المحدِث (بكسر الدال) قوي القوة التي تجعل الشيء المحدَث يضطرب ويشتد، وينضم وينجمع، ثم ينفرق ويبتعد بشكل مستمر وبتوالي حدوث حركيّ... فالحدث إذن في أقصى درجات اشتداده...

ولقد جاءت (الرحمن) على تلك الصيغة. فالصيغة إذن تبيان لاولية الحركة والاضطراب والاشتداد في الحركة بعد سكونها جذباً ثم طرداً،أو جمعاً ثم فرقاً، قرءاً ثم طلقاً (وكما يحصل في حالة استيداع الجنين في الرحم ثم الطلق به ثم خروجه من الرحم)... ولقد كان الحدث في كل تلك الحالات شبيه (بإحداث الأرض بالمطر وخروج الزرع مما تبيناه سابقاً، أو بإحداث الحديث في صدور الذين آمنوا وخشوع الجلود ولينها ولين القلوب)... فالحدث إذن وفي الحالات جميعاً في أقصى حالات

اشتداده جمعاً وقرءاً ثم فرقاً وبعداً ، ثم سكوناً ظاهراً، وليس ثمة سـكون في الداخـل، فالحدث الحركي كائن في الداخل والأشياء جميعاً مستعدة لإظهاره...

ترى ماذا يقول البحث العلمي المعاصر في أولية الكون، ألا يقول مـا يقولـه التبيان من حيث هو حسن الحديث، ودونما حاجة إلى تحييز أو تقييد الإعجاز العلمـي بآية دون غيرها مما له مظهر علمي ، أو اشارة علمية، يتبعها من يتبع، وهو أصلاً يتبـع ما يبين عنه الشيء خارج القرآن ثم يأتي لتطبيقه على القرآن، وقد يخطأ من يخطأ، وقـد يضل من يضل لأن المدخل ليس مدخل القرآن ، ولأن الكونية ليست كونيتـه، ثم لأن الشرعَة والمنهاج الذي يسحب إلى حيث دائرة الكتاب، غير الشرعة والمنهاج الكتـابي اللساني السمعي... وهكذا يضطر المتبينون وهم يتبعون الأنموذج الغـربي إلى تعديـل تبيناهم دائماً، فيدفعون بالتابعين لهم إلى التشكك في موضوعية القرآن وعلميته، طالمـا أن الكشوفات العلمية التي لا تستند إليه قد تعدل من آرائها بعد حين من إعلانها لتلـك الآراء في هذا الموضع أو ذاك، وفي تلك القضية أو غيرها.

نعم لنا الافادة من الكشوفات العلمية الغربية، ولكن بعد أن يكون المنهج العلمي الذي يخصنا هو المنهاج القرآني من حيث حسنه وبلاغته. فإذا وضح المنهاج وتبلـورت ركائزه أخذنا بالنتيجة العلمية الغربية إذا قاربته ونبذناها إذا خالفته... فما وسـائلها في التبين الكوني وسائلنا، وبالنتيجة ليست نتائجها طباق نتائجنا... فيزياءً وكيمياءً وأحياءً ورياضةً...

٩- إن أولية البسملة في الترول، تبيان لأولية النشوء الكوني. وكما أن الأولية الكونية كائنة في المتكونات جميعاً، هناك في العمق منها، كذلك البسـملة كائنـة في السورة، فالسورة القرآنية تبيان التكون وحركية الـ"كن". أما البسملة فتبيان لتلـك المرحلة السابقة للتكون العنقودي للأشياء وفقاً لتسلسله السباعي أو الخماسي مما تبينـاه سابقاً. وبموجب ذلك تصير قراءة السورة القرآنية مقترنة بقراءة البسـملة، ولا قـراءة

بليغة ولا تلمساً لكونية البلاغة دونما إحالة السورة على البسملة، أي دونما حضور الوعي بالرحمانية باعتبارها مركزاً ومحيطاً لكل آية،ومن ثم لكل سورة. وهاهنا تبين لنا بلاغة الرأي القائل بوجوب قراءة البسملة أول كل قراءة لكل سورة من سور القرآن، عدا براءة. ولاستثناء (براءة) أسباب نستهدي ببيانها في الجزء الثاني من هذا الكتاب...

١٠- مما تبين عنه البلاغة الكونية التي قرنت الرحمة بالعلم في آية"وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً"، هو إن للرحمن وجهتين، وجهة العلم الإلهي، ووجهة التعلم الكوني،وإذا كان القرآن الكريم مظهراً للعلم الإلهي الذي لا يحاط بشيء منه إلا بإذنه، فهو استظهار بشري لما بان بموجب ذلك العلم من أشياء. وإذا كانت عنصرية الكون منفعلة ببلاغة القرء والضم من حيث انضمامها الأول ثم انفجارها ثم قرارها الخارجي وحركيتها الداخلية، فعنصرية الكون العقلي الإنساني منفعلة كذلك الانفعال،ومستعدة للتبين والتعلم والاستيحاء والاستلهام التكويني كما يستلهم الجنين حياة الرحم وما وراء الحياة، وهو يقابل بين حياتين حياته الكائنة فيه وحياة الرحم، فحياته انتظام تكويني عالق بنظام الرحم . فالرحم ليس مستودع الشفقة والحب والعطف والإحسان حسب، وانما هو مستودع العلم. وهكذا هو (الرحم) وهذا ما لا تنكره الكشوفات العلمية المعاصرة[1]. على أن العلم علمان، علم النظام من حيث هو فطرة الله وعلم الانتظام على وفق النظام... وبموجب ذلك نرى إلى الجنين على أنه وليد رحمين، الرحم الذكوري (صلب الأب وترائبه) وهاهنا يتحقق للجنين علم النظام، والرحم الأنثوي(صلب الأم وترائبها)، وبموجب ذلك تبين لنا البلاغة الكونية القرآنية وهي تسمي الأب والأم (والدين)، مع أن الولادة انثوية لا ذكورية ظاهراً، وهي عندنا ذكرية

---

(١) انظر: عباس أحمد صالح وآخرون، الوراثة والسلوك، مطابع جامعة الموصل، العراق، (د.ط.تا): ج١/ ص١٢٩ وما بعدها، وص١٩٦ وما بعدها.

لحظة خروج النطفة، وأنثوية لحظة خروج النطفة، والتعالق بين النطفتين أو الكائنين المنويين هو بدء التكون والتسلسل الولادي، ولهذا لا تظهر كلمة الولادة لما رسخ في أذهاننا عن حالة ما بعد الطلق الأنثوي بالجنين حصراً، بل تظهر مقترنة بجمع الولادة للأب والأم؛ ﴿وَوَصَّيْنا الإنْسانَ بِوالديْهِ إحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهَاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾ (الأحقاف:٤٦). وما إفراد الوضع للأم هاهنا،إلا دليل على أن الأم وإن كانت والدة، فولادها هاهنا وضع خارجي لما سبق ولادته أصلاً، قبل تسعة أشهر. وهاهنا تصير الولادة متسلسلة كونياً على الوفق الثلاثي نفسه،

ولادة الأب ← ولادة الأم الأصل ← الوضع الخارجي...

وبموجب ذلك علينا أن نعيد النظر في البلاغة الكونية لقوله تعالى؛ ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ*خُلِقَ مِن ماءٍ دافِقٍ*يَخْرُجُ مِنْ بَينِ الصُّلْبِ والتَّرائِبِ*﴾(الطارق:٥-٧). على أن الصلب ليس صلب الرجل حسب، وان الترائب ترائب المرأة حصراً،وانما الصلب والترائب مستودع الخلق في الرجل والمرأة... وهاهنا نحصل على التسلسل الخماسي للحركة الكونية، (صلب، وترائب (ذكرية)، صلب وترائب (أنثوية)، علقة، أو جنين)، فإذا شئنا عرض هذه الحركة على التسلسل الكوني حصلنا على الأصلين الكونين؛ (الرجل بكليته(يقابل السماوي)، والمرأة بكليتها (تقابل الأرضي)).

١١- الرحمن، بعد ذلك كله هو تبيان الجمع الكوني ومستودع الولادة، وضم المتفرق، الكائن في الكائنات جميعاً، وكما هو تبيان الأصل فإنه تبيان العَوْد، فالكائنات جميعاً ستعود بعد فرقها وتمام تسننها الزمني إلى حيث الجمع الأول. وكما ترجع المتكونات إلى المكونات ، ترجع التبينات إلى البيان، ويرجع القرآن إلى الفاتحة، والفاتحة إلى البسملة. وعلى الطرف الآخر، ترجع النبوات إلى نبي الرحمة، ومن جهة أخرى وكذلك الرجوع، يرجع الزمن الأرضي إلى الزمن الرباني، ويرجع الضوء إلى الصوت وترجع الأشياء إلى الـ"كل شيء" الجامع، وترجع الحواس إلى العقل الجامع،

وترجع الكلمات إلى الكلمة الجامعة، والمؤتمرات إلى الأمر الأول، أمر الـ"كن"... وقد انقرأت وانقرنت مطاوعة مستجيبة مستكينة خاضعة، وبكليّتها، سواءً وهي تتسلسل في مظاهر الدورات الكونية الصغيرة أو الصغرى في الحياة الدنيا أم وهي تخلص إلى أصل التسلسل ومنبعه حيث الدورة الكونية الكبرى، الدورة التي بدأت مع بدء الكلمة الكونية الأولى وخلق الخلق، وتنتهي بنهاية الخلق وقيام الساعة، لتبدأ بعدها دورة كونية كبرى بإذن الله سبحانه...

ثالثاً : الأنموذج الإنساني ، كونية (البَدْء) _ تكون (الجَعْل) :

إن قراءة الكلام قراءة بليغة، تعني مما تعني تتبع تكونه الداخلي الكائن تحت السطح الخارجي انطلاقاً من السطح عينه. بينما تعني قراءة الكلام قراءة فصيحة حسب أو بسيطة، تتبع تكون الخارج، أو تتبع الظاهر من التكون الداخلي.

فللكلام إذن وجهان ، وجه داخلي وآخر خارجي. أما الخارجي فهو الوسيط البياني الذي تمظهر الداخل بوساطته، وهو يكرر الفكرة العميقة التي هي طرف الكلمة الخارجية، كمياً بوساطة كلمة وأخرى وثالثة.. وحينما تتشكل الفكرة: كلمةً تتحول إلى مظهر، ينبثق بالكلمة من الفكرة. والذي يروم قراءة المظهر أو إدراكه عليه أن يعمد إلى التكرار الذي سلكه المتكلم بغية إعادته نوعياً والإحاطة به من حيث هو مظهر عميق أم لا. وكما يمكن تكرار المظاهر وثبوت العمق يمكن تكرار الأعماق وتعددها بإزاء ثبوت الظاهر أو واحدية المظهر البادي للحس أو العلم الحسي.

ومن صفات الكلام البليغ أن يجيء مظهره طباق جوهره، أو لنقل، أن يجيء ظاهره طباق باطنه، أي أن ينبثق الظاهر من صلب الباطن، مع فارق الإحاطة الحسية بالمظهر، وعدم الإحاطة بما وراء المظهر. فالمظهر، او الظاهر شيء من علم الباطن، ولا يمكن الإحاطة بذلك الشيء من العلم إلا إذا كان المتكلم يريد تحقيق تلك الإحاطة، فإذا أراد جاء الكلام كاشفاً عما وراءه من علم يراد نيله ... وعلى قدر الإرادة

وبلوغ أمرها وسعتها وقدرة تكونها أو تشكلها البياني، يكن الكلام محيلاً على ما بعد المعنى الأول من معان ثوان.. وتبقى الحقيقة الكامنة وراء التشكل المظهري للكلام من حيث هي نظام داخلي، كائنة من حيث هي مظهر في كل الطرق والأساليب التي يسلكها المتكلم أو يترع إليها كاشفاً أو موضحاً ما هو عميق وداخلي.

فالتشكل الخارجي للفكرة من خلال الكلام هو طرف البيان الأول وجهته الرئيسة التي هي جهة المتكلم، أما تلمس ما وراء ذلك التشكل، شرط اتباع نظام التشكل الذي هو خاصة المتكلم، فذاك هو طرف البيان الثاني وجهته المترتبة التي هي جهة القارئ سواء قرأ بسمعه أم ببصره... وهذه هي جهة الكشف، أو التكون البياني لدى القارئ والتي لابد أن تنتظم على وفق نظام البيان من حيث طرفه الأول. والمتبين بعد ذلك وهو يحاول أن ينتظم بنظام البيان ، لا يمكن أن يرقى إلى درجة الإمساك بطرف الحبل الذي هو طرف المبين أو المتكلم، لذا هو به حاجة دوماً إلى تعدد الطرائق ممثلة بتعدد الكلمات أو تعدد أنواع التراكيب، أي تعدد المظاهر ، لاستحصال التبين، وإلا فإن المتكلم قادر على الإبانة بكلمة واحدة أو طريقة واحدة أو مظهر واحد ولكن هذا يستلزم أن يكون المتبين على مثل قدرة المبين، ثم يستلزم أن يكون المتبين ذاتاً واحدة لا عدة متبينين...

وهاهنا نرى إلى بلاغة البيان وهي تأخذ أحد طريقين، طريقاً مباشرا ليس به حاجة إلى وسائط وطريقاً غير مباشر وسائطي. أما الطريق المباشر فهو طريق الكلمة الواحدة، وأما الطريق الثاني فهو طريق الكلمة والثانية والثالثة... ويقيناً إن الكلمة الثانية متعلقة بالأولى وإن الثالثة متعلقة بالثانية والأولى ، وكذلك الرابعة والخامسة... وتبقى الفكرة أو الحقيقة أو الإبانة واحدة لا تتغير وان تغيرت الطريق من حيث المباشرة أو التسلسل... ولقد كانت الإبانة الإلهية من حيث الطريق الأولى ممثلة بالخلق الأول جميعاً

أو ممثلة بخلق آدم وحواء وعيسى، ولو باختلاف قليل عن الخلق الأول، خلق الجمــع أو الرتق السماوي الأرضي...

أما الطريق الثاني، فممثل بما بعد الأيام الستة، أيام الخلق الأول وما ترتب علـــى ذلك من توالد ذاتي وتسلسل كوني مترتب على تعليم الكائنات أو إلهامها السنة الإلهيــة التي لا تحويل لها ، مذ ما بعد الأيام الستة حتى يومنا هذا وما يليه ما شاء الله...

فالذي تشكل بالكلمة الأولى، كلمة البيان الجامع، الــ"كن"، هو الـــــــ"كــل شيء"، فالــ"كن" هي تبيان الأصل الكلي للكون الصوتي، صوت الإيحاء الأول الــذي لم يكن ثمة قرع له، فهو صوت غير مسموع، وكيف يسمع؟ وأي أذن تسمعه وهـــو أصل تخلق الأذن وغير الأذن، ثم كيف للأشياء أن تسمعه وهو داخل لا خارجي. إنـــه صوت الفكرة الذي نشعر به مدوياً في دواخلنا ونسمعه بقلوبنا لا بآذاننا ، وكذلك هو في كل الأشياء ، وكذلك هو كامن في ال"كل شيء"، فال"كل شيء"، هـــو التشـــيؤ الأول للكلمة ... التشيؤ الذي تمظهـــر في رتق السموات والأرض ، ثم في فرقها ثم مــا تلا ذلك ... فال " كل شيء " هو المادة السائلة الكونية الأولى التي ظلت تتسلســل في الكائنات جميعاً من حيث هي حامل للصوت الداخلي الكائن في كل صغير وكبير، بــل في كل جزء خيالي أو (ملياري) عداً و إحصاء من كل جزء من الكائن الواحد ثم مــن الكائنات جميعاً ... أما الذي تشكل بال"كل شيء " الكوني الأول فالمادة المتشيئة وأما الذي تشكل بالصوت الكوني الأول فالطاقة بكل أنواعها ، والذي نشأ عن الطاقة نــور ودخان وظلمة ، والذي نشأ عن المادة الشيئية ، كل العناصر ومضاداتها ، مادة ومـــادة مضادة ، عناصر ونظائر وبما يقابل مضادات الطاقة. وما ذلك إلا لأن الكلمـــــة الأولى جامعة ل" كل شيء " ، وال " كل شيء" جامع لكل سمات وعلامات التشيؤ ، بـــدءاً وإعادة ، زيادة ونقصاً ، حركة وسكوناً ، استقامة و دائرية ، جذباً وطـــرداً ، ســلباً وإيجاباً ، إحياءً و إماتة ، ... الخ ، أما الذي نشأ عن التضاد الشيئي الأول ، فـــالحجر

الأرضي الكوني ، والحديد السماوي الكوني ... وأما الذي استخلص من كل ذلـــك بوصفه الأصل السائل ، فالماء جُرِّدَ من تلك الثخونات العنصرية الغرينيـــة الســائلة ، وباستخلاصه ونزوله على الأرض بانت الأرض عن جغرافيتـــها الأولى بعـــد قرارهـــا واستواء حركتها وهمود تربتها وخفوت حرارتها وتكون جبالهـــا وتقديـــر أقواتهـــا العنصرية من حيث هي استعداد كامن في الأرض ...

فأما الذي بان عن النور الأول فالملائكة، وأما الذي بان عن النار الأولى فــالجن، وأما الذي بان عن المادة المتشيِّئة المزيجة فالإنسان... فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يجمع صفات النور والنار والتراب ، ثم يحتمل كل تحولات المـــادة الغازيـــة والســـائلة والصلبة، وكما فُتقت السماوات والأرض بعد رتق، كان الذكر والأنثى رتقاً ففتقـــا. فالإنسان هو المظهر اللساني للكلمة الكونية الأولى ذات الوجهتين، الوجـــه الكـــوني (السماوي الأرضي)، والوجه الإنساني (الذكري الأنثوي)، وكمـــا اســـتلزم ظـــهور السماوات والأرض حيناً من الدهر الكوني أو التسلسل الزمني للكينونة، استلزم ظـــهور الإنسان حيناً من الدهر لم يكن قبله شيئاً مذكوراً . فالظهور هو اكتمـــال التسلســـل العنصري للمكونات دورته السباعية سماءً وأرضاً أو ذكراً وأنثى،وما اكتمال التسلســـل إلا بتمام التسوية،فالتسوية بلاغة الخلق والخلق بلاغة التشيّوء والتشيّوء بلاغة الكلمـــة، ﴿سَبِّح اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى* الّذِيْ خَلَقَ فَسَوَّى* والّذِيْ قَدّرَ فَهَدَى* وَالّـــذِي أخْـــرَجَ المَرْعَى* فَجَعَلَهُ غُثَاءً أحْوَّى*﴾ (الأعلى: ١-٥).

فما هي تلك الحقبة الزمنية التي كان فيها الإنسان يتسلســـل في العمـــق قبـــل تسويته؟ وهل مر الإنسان بمرحلتي التشيّوء المباشر والتشيؤ الوسائطي؟ وهـــل للرحـــم وجهتان، وجهة كونية مشتركة ووجهة خاصة؟ وهل تصلح الأرض أن تكون رحمـــاً كونياً للإنسان كما يصلح رحم المرأة لكينونته... وهل تصلـــح الأرض والســـماء ، صلباهما وترائبهما لتكونا والدين قبل الوالدين؟ وهل تصلح الأرض لوضع الجنين كمـــا

تصلح الأم، وهل طلقت الأرض بالجنين كما تطلق الأم؟ ومن ثم هل نقدر أن نمتدّ ببلاغة المزاوجة والولادة والإنجاب بكل حيثياتها إلى حيث بلاغة النشوء الكوني الأول، من حيث إن ذلك الخلق هو السُّنة وما يترتب عليها من مرات خلق لاحقة هي التسنن فالسنة كامنة في التسنن، والتسنن الخلقي، أو التخلق، يقضي في ضوء بلاغته الكونية، بأن أي جامع حياة صغير أو قليل وحيوي حركي، يتخذ له فجوة في مكان ما، ثم يتنزل عليه الماء أو يستلهم ويمتص الماء الكائن في ما حوله من الفجوة، فيخرج بعد دخول، ويظهر بعد بطون، ويكبر بعد صغر، ويتحرك بعد سكون...؟

يقول تعالى؛ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدّهرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوْراً* إِنَّا خَلَقْنا الإنسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أمشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً*﴾ (الإنسان:١-٢).

ما من شك أن (الحين من الدهر) نسبي بالنسبة إلى المكان والكائن كما تبيّنا سابقاً، وهذا يعني ان للحين من الدهر وجهتين، وجهة كونية مشتركة عميقة ووجهة كونية خاصة ظاهرة. وبموجب ذلك فالإنسان وهو نطفة في العميق من والديه ليس بشيء مذكور أو ذي قيمة قبل جعل السمع والبصر، ثم استقبال أو تلقي المسموعات والمرئيات بعد الخروج من الرحم، فقيمته كائنة وكامنة في بدء التلقي الخارج، وماذاك بكائن قبل الخروج. أما نطفية الإنسان السابقة لتسويته أي السابقة لمزاوجته وملاقحته العنصرية الصغيرة، فتقل أو تكثر بالنسبة إلى سن الزواج بالنسبة إلى الوالدين، والذي يختلف من زوجين إلى آخرين، ثم بالنسبة إلى ما بين حصول المجامعة وحصول الأخرى... وهاهنا يختلف (الحين) الذي يظل فيه الإنسان ليس بشيء مذكور من والدين بعينهما إلى غيرهما، ثم من مجامعة إلى أخرى بالنسبة إلى والدين بعينهما...

ولكن لهذا (الحين) وجهة أخرى،وجهة كونية مشتركة،وجهة أولى فيها النطفة الأمشاج نطفة كونية، والأمشاج أو الاختلاط أو الملاقحة حاصلة بلقاء الوالدين، الكونيين للإنسان، أي السماء والأرض، وما الرحم حينها إلا الرحم الكوني، الرحم

الأرضي... وليس الحين من الدهر وقتذاك إلاّ الحين عينه الذي يقضيه الإنسان في ما قبل الخروج الظاهر أو البشري بدءاً بالأصلاب والترائب وانتهاء بالرحم، مع فارق السنة والتسنن، أو الوجهة الربانية للزمن والوجهة الأرضية. فإذا كانت السبعة الأشهر كافية لخروج الجنين من الرحم مكتملاً، وان كانت بلاغتها هي التسعة الأشهر، فإن السبعة عينها، ستة وواحداً، هي ذاتها أيام الخلق الأول خلق السموات والأرض ثم الفراغ من الخلق،فهي ذاتها حقبة (الحين من الدهر)،مع فارق الوجهة التي نقرأ بها الزمن، ولنا بعد ذلك ان نرى إلى حقبة (الحمل) السكونية الأولى للإنسان على أنها ثلاثمائة وخمسين سنة بالتوقيت الأرضيّ، بعد خلق الكون، ولنا أن نرى إليها أنها لا تساوي لحظات من الزمن وبما لا يعدّ، ثم صار الإنسان إلى خروج... ولنا أن نرى إلى الحقبة الزمنية الفاصلة بين خلق السماوات والأرض وبين ظهور الإنسان على الأرض، على أنها الحقبة عينها التي تفصل بين ولادة الإنسان وبين بلوغه سن الزواج شرط كونه رجلاً لا امرأة ، ثم شرط الأخذ بعين الاعتبار بلاغة التناسب فيما بين الزمن الكوني الأول و الزمن الحاضر ، تلك النسبة التي لم يراعها الغربيون وهم يقدّرون عمر الأرض وعمر الكائنات ، بسبب من بصرية مدخلهم القرائي، الذي لا يقودهم إلى انْ قدرة الله سبحانه في دوام خلق وتكوين ، وإذ هو كذلك فإن الخلق في اتساع مستمر وكذلك التكوين بما في ذلك التكوين الزماني ، وهذا يعني أن سنن الكون وقوانينه متغيرة فيزيائياً وكيميائياً وأحيائياً ورياضياً وهي في الماضي تختلف عنها في الحاضر والمستقبل، وانّ قياساتنا الحاضرة للزمن غير القياسات الكونية الأولى، فقياساتنا الحاضرة في ازدياد مستمر مذ نشأة الزمن الأول أو الثابت القرآني للزمن حتى زمن كتابة هذه السطور وما بعد. وإن الزيادة في الزمن هي التي أوهمت الغربيين بتلك الملايين الكونية من السنين فيما بين نشوء الكون وظهور الإنسان، وما الأمر كذلك إلا إذا نظرنا إلى ذلك الزمن الكوني من حيث وجهته الحاضرة، فالزمن نسبي بالنسبة إلى

الكائن وبالنسبة إلى المكان وبالنسبة إلى الأول والآخر، وبالنسبة إلى الماضي والحاضر والمستقبل ... ولهذا نرى إلى النظرية النسبية الغربية على انها قاصرة.. وبموجب هذه النظرة يصير واضحاً اختلاف توقيتاتنا للزمن من مكان لآخر ومن زمان لآخر ومن كائن لآخر ومن حقبة زمنية لأخرى طالما أن الثابت الزمني هو ثابت قرآني سماوي ، وأن السماء في سعة دائمة ، وأن السُّنَّة الثابتة للزمن هي العميق الذي ينبثق منه المظهر ثم يختلف ثم تتعدد ألوانه تعدد الألوان والألسنة ...

نرجع لنقول إن الإنسان من حيث الوجهة الكونية للتخلق، ثم من حيث الوجهة الكونية للولادة والحمل ، قضى من عمره ما قضى، خليطاً سائلاً متسلسلاً في عنصرية الوجود الكوني الأول للكلمة التي تشيأت أول كونها الجمعي رتقاً ففتقاً في السماء والأرض، ثم في رحم الأرض... وهذه هي الوجهة الكونية للحين من الدهر الذي أتى على الإنسان و لم يكن شيئاً مذكوراً،أي و لم يكن شيئاً مستقبلاً متلقياً قارئاً منفعلاً وفاعلاً بالسمع والمسموعات، والبصر والمبصرات... ولهذا الحين ولهذه الشيئية الكونية للإنسان تسلسلات هي عينها تسلسلات الكينونة "كن فيكون" من حيث وجهتها السباعية، مكاناً وزماناً وكائناً... وهذه هي التسلسلات وأطوارها:

١- التسلسل الأول_ الطور الترابي؛ ﴿وَمِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ (الروم:٢٠).

٢- التسلسل الثاني_ الطور المائي- النطفي؛ ﴿إنَّا خَلَقْنا الإنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أمْشاجٍ﴾ (الإنسان:٢).

٣- التسلسل الثالث- الطور العلقي؛ ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى*﴾ (القيامة:٣٨).

٤- التسلسل الرابع_ الطور الطينيّ؛ ﴿إذْ قالَ ربُّكَ للمَلائِكةِ إني خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِيْنٍ* فإذا سَوّيْتُهُ ونَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوْا له سَاجِدِينَ*﴾ (ص:٧٢).

٥- التسلسل الخامس- الطور الحَمَأي؛ ﴿إذْ قالَ ربُّكَ للمَلائِكةِ إني خَالِقٌ بَشَرَاً من حَمَأٍ مسنُونٍ * فإذا سَوّيْتُهُ ونَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُواْ لَه سَاجِدِينَ*﴾ (الحجر:٢٨-٢٩).

ويجمع هذا الطور مرحلتين؛

أ- ما بعد اختلاط الماء السماوي بالتراب، ثم تكون الطين الكوني الأول، وطول فترة مخالطة الماء للتراب، وما ينتج عنه من تغيرات وتبدلات في مظاهر المادة وخواصها، ومنها تغير اللون إلى السواد (امتصاص الألوان جميعاً_ أي امتصاص الخصائص الحيوية كاملة)، ومن ثم تغير الرائحة. وبتمامهما تتحقق بلاغة المشج العنصري لمكونات الوجود الكوني الأول.

ب- يبس الطين، ثم تمام بلاغة اليبس بحيث إن الطين يصير مُصوِّتاً (ذا صلصلة) إذا نُقِرَ.

وما زال الإنسان (آدم) في هذا الطور لم يُخلّق بعد، التخليق الذي هو تخليق التسوية...

٦- التسلسل السادس- الطور الصلصالي "خَلَقَ الإنسانَ مِنْ صَلْصَالٍ كالفخَّارِ* وَخَلَقَ الجَانَ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ*" (الرحمن: ١٤-١٥).

وفي هذا الطور، تحول الطين اليابس بفعل من مخالطته للنار إلى حافّة الفخاريَّة أو أول صفة الفخارية التي تتكون بشوي الطين بالنار حد التحجر. ولكن الذي بين الصلصالية والفخارية هو (القليل) الذي أشرنا إليه في موضع قريب...

ولابد من الإشارة هاهنا، إلى أن هذا التسلسل شهد خلق الجان بتكون النار في هذه الحقبة من حقب التسلسل الكوني للنشوء الأول، بدليل قرن آية خلق الجن بآية خلق الإنسان من صلصال كالفخار، بينما شهد التسلسل الخامس- الطور الحمأي،

خلق الملائكة، بدليل الظهور التبيان الأول لـ(الملائكة) في هذه الحقبة الزمنية للكينونة، كينونة التخلق.

٧- التسلسل السابع- طور النفخ؛ وهو الطور الأخير الذي بتمام بلاغته، تمّ لآدم خلقه وبيانه، البيان الذي تعددت طرائقه وتحولات كينونته. وبموجب تحققه، يسجد الملائكة لآدم عليه السلام، السجود الذي شرط له رب العزة تمام النفخ بعد تمام التسوية، وتبيان هذا الطور قوله تعالى؛ ﴿فإذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ روحِي فَقَعُوْا لَه سَاجدِينَ* فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أجْمَعُونَ* إلاّ إبلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الكَافِرينَ*﴾ (ص:٧٢-٧٣).

وبتمام هذا الطور،صار الإنسان (شيئاً مذكوراً)،بعد أن لم يكن كذلك،وإن كان شيئاً في رحم الأرض، وقبل ذلك في صلبها وصلب السماء. وفي هذا الطور تم للإنسان اكتمال أدوات الإدراك العقلية، بخلق العقل، فالعقل أو الخلق الروحاني الذي يفرق بين عجمة التكون وتبينه أو بين الشيئية الغُفْل والشيئية الآدمية التي هي لقاح الداخل والخارج، النظام والانتظام، الاستعداد لتلقي الذِّكْر وتلقي الذِّكْر وتبينه؛ "وَأَنْزَلنَا إلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للنَاسِ ما نُزِّلَ إلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ*" (النحل:٤٤).

وكما حصل للإنسان بوصفه متسللاً كونياً، ثم شيئاً مذكوراً، (ذَكَراً)، حصل لوجه الذكورة الكامن، أي الوجه الأنثوي العميق ممثلاً بـ(حوّاء)، وهي تتسلسل في صلب آدم ثم تكون شيئاً مذكوراً، والذي حصل لهما هو عينه الذي حصل للسماء والأرض من قبل، باعتبار ذكورة السماء وأنوثة الأرض...

وكذلك سيحصل للإنسان المولود بالأسباب الوسائطية وهو يتسلسل بين السماء (الوالد) والأرض (الوالدة) ثم يتكون أطواراً في الرحم الأنثوي. فالتخلق وجهتان وجهة (البدء) الكوني المباشر، ووجهة (الجعْل) التناسلي الوسائطي؛ ﴿الـذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ وبدَأَ خَلْقَ الإنْسانَ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مـاءٍ

مَهِيْنٍ* ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فيهِ مِنْ رُوحِهِ وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الأبْصارَ وَ الأفئِدَةَ قَلِيْلاً مَـــا تَشْكُرُونَ* ﴾ (السجدة:٧-٩).

أما الوجهة الأولى فالوجهة التي تبيّنا تسلسلها، وأما الوجهـــة الثانيـــة(وجهـــة الجعل)، التناسلي الوسائطي، فهذا تبينها. وقبل الشروع في التبين لابد من الالتفـات إلى أن تكوّن السمع والأبصار والأفئدة، خاضع للتسلسل الكوني عينه، وللأطـوار عينـــها وكذلك تكوّن المسموعات والمرئيات في الآفاق والأنفس.

جاء في التزيل العزيز وهو يقرن الخلق (الجعلي) بالخلق البدئي، قوله ســـبحانه؛ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ سُلالةٍ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِيْ قَرَارٍ مَكِينٍ* ثُمَّ خَلَقْنَـــا النُطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضغَةَ عظَاماً فَكسَوْنَا العظَامَ لَحْماً ثُمَّ أنْشَـأْنَاهُ خَلْقَاً آخَرَ فتَبَارَكَ اللَّهُ أحسَنَ الخَالِقِينَ*﴾ (المؤمنون:١٢-١٣).

ويقول سبحانه؛ ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنْ كُنتُمْ فيْ رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فَإنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فيْ الأرحـــامِ مَـــا نَشَاءُ إلَى أجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجَكُمْ طِفلاً﴾ (الحج:٥).

فإذا استثنينا التسلسل الطيني، باعتباره تسلسل (البدء)، الذي هو أصل تسلســـل (الجعل)؛ حصلنا على التسلسلات السابقة عينها عن طريق الآيتين السابقتين؛

١- التسلسل الأول (النطفي).

٢- التسلسل الثاني (العلقيّ).

٣- التسلسل الثالث (المُضغيّ).

٤- التسلسل الرابع(العظمي).

٥- التسلسل الخامس (الإكسائي – الحميّ).

٦- التسلسل السادس (الإنشائي – الخلق الآخر).

٧- التسلسل السابع (الخروجي ــ الإخراج طفلاً).

وبقرن هذا كله، هذه تبينات وقراءة؛

١- إن مما يدعونا إليه القرآن، هو قرن قراءة الآفاق بقراءة الأنفس انطلاقا من قراءة القرآن، وتخلُّقا بخلقه. فإذا كان القرآن خطاباً أو إعلاماً أو إبانة للإنسان عن نظام القرن والقرء الكوني، فالأنموذج اللساني هو المدخل الذي لابد ان يُعْتَبَر، وباعتباره لابد من تقديم السمعي على البصري،ثم الانطلاق من الأنموذج الإنساني بوصفه الأبلغ في تمثل النظام السمعي الكوني، بغية الامتداد ببلاغته إلى حيث بلاغة الكون. وهاهنا مدخل ومخرج، إما المدخل فاللسان القرآني، وأما المخرج فالأنموذج الإنساني وأما الغاية الكامنة وراء ذلك فقراءة الكون الخارجي...

٢- إن عدم اختلاف التسلسل الكوني الذي جرى على آدم وله حينما كان في صلب الأرض والسماء، ثم حينما كان مستودعاً في رحم الأرض، والذي لم يتغير حينما كان (بدءاً) عنه حينما صارَ (جَعْلاً)، يعني مما يعني أن السُّنَّة الكونية لم تتبدل أو تتحول وإن اختلف المظهر، أو اختلفت الكيفية باختلاف المباشرة مرة والوسائطية مرة أخرى.

٣- إن التسلسل الذي جرى على آدم وله، هو عينه الذي جرى للكون أرضاً وسماءً وكائنات. وما ذاك إلا لأن الخالق واحد، وخلق الواحد واحد، سواءً في حقبة ما قبل الكشف والإبانة أم في الحقبة التالية أي حقبة الكشف والإبانة والتمظهر.

٤- إن قوله سبحانه لإبليس وقد امتنع عن السجود لآدم؛ ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ ﴾ (ص:٧٥)، لا ينفي أو يتقاطع مع تبين تسلسل آدم الكوني في رحم الأرض. فآدم مخلوق بخلق الأرض ومتسلسل فيها، التسلسل الذي تستلزمه الكينونة المكانية والزمانية للكائن قبل تكشفه وتبينه أو تمظهره. وما قبل التكشّف حقبة لابد أن يبدأ من عندها كل كائن أرضاً كان أم سماءً أو متكونات.

فالحقبة الأولى هي حقبة التقدير الرحمي الكوني للأشياء جميعـــاً، أو للكائنـــات جميعاً، والتقدير الرحمي يستلزم الخروج كما جاء في آيات سورة الأعلى ممـــا ســبق ذكره. وللتقدير الرحمي الكوني صورة مظهرية، جاء في بيانها قول نبي الرحمة؛ "إن مـــا قُدِّر في الرّحمِ سيكون"[1]. وكما بين نبي الرحمة ما يترتب علـــى التقديـــر الرحمـــيّ (الجعلي) التناسلي، بيّن ما يترتب على التقدير الرحمي (البدئي)، الكونيّ. فقد ورد عنه؛ "إن الله خلق آدم من قبضةٍ من جميع الأرض، فجاءَ بنو أدم على قدر أهل الأرض، جاء الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب"[2].

فهي قبضة جامعة إذن من جميع الأرض، تسلسلت ســبع مــرات، ثم ســواها الخلاق العليم بيديه، ونفخ فيها من روحه، فكان آدم. وبكونه وفتق حــواء في ومــن ضلعه، تسلسلت التربة في ذريته، بكل تناقضاتها السابقة من حيث عنصريتها الجامعـــة لــ"كل شيء"، بوصفها الوحي والإلهام التكويني العميق، الذي سيستلهمه الإنســـان بكليته مغلباً هذا العنصر على ذاك وميّالاً إلى هذه الطبيعة دون تلك، ومخرجـــاً هـــذه الصفة ومخفياً غيرها، وهذا هو اختياره وتلك إرادته، وهذه هي حيويته البليغة الـــتي لا تتوفر لغيره.

من جانب آخر، وبظهور آية "لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّْ" مقترنة بخلق آدم دون غيره من المخلوقات ثم نسبة (اليدين) إلى الذات المقدسة، يعني التبيّن السابق مما يعني، ان تخلّـــق الكائنات مترتب على خلق آدم،فالمخلوقات متكونة بالطريق الوسائطي وغير المباشـــر، أو هي مستفيدة من القدرة العظيمة، قدرة المقتدر، التي وسعت كل شيء، فتعـــددت الأشياء بذلك الــ"كل شيء" الغنيّ بمكوناته المُغني لما يعدّ ويحصى ولمـــا لا يعـــد ولا يحصى مما نعلم أو مما لا نعلم من المخلوقات. وما ذاك إلا لأن الكلمة كلمة الــ"كـــن"

---

(1) الأحاديث الصحيحة : مج٣/ص٢٨.

(2) نفسه: مج٤/ ص١٧٢. وورد، "إنّ ابن آدم خُلق من ثلاث تُربات: ســوداء، وبيضـــاء، وحمـــراء" المصدر نفسه: مج٤/ص١٠٧.

بليغة البلاغة المطلقة، والذي تقضي به البلاغة المطلقة هو تكون مالا يعد من الحقائق (المعاني) المترتبة على المعنى الأول الذي تبين عنه الحكمة أو الكلام البليغ... وتبقى العبارة واحدة، أو وتبقى الكلمة الأولى واحدة، مع إننا لنا أن نشتق منها الكثير من الكلمات، فالكلمة الأولى إيجاد مباشر، والكلمات الأخرى، إيجاد بوساطة الكلمة الأولى..

وهذا ما يفسر لنا انتفاع الكائنات بتلك البلاغة وذلك البلوغ الأمريّ للكلمة، من خلال تخلّق الكائنات التي تبدو لنا مظهرياً، وكأن الكون الخارجي، أو وكأن الإنسان بإمكانه أن يستغني عنها، من مثل بعض الحيوانات أو الحشرات أو الطيور أو النباتات، وحتى الجنّ... وليسَ الأمر كذلك لمن يحتكم إلى نظرة بليغة. فما من مخلوق إلا ويسهم بشكل أو بآخر في انتظام التوازن العميق بين الـ"كن" والتكون. وعدا ذلك فإن الـ"كن فيكون" هو الأمر الإلهي البالغ، والساري في المادة جميعاً. أي الساريّ في الـ"كل شيء" الجامع الكوني. والـ"كل شيء" خليط من المتناقضات كلها والمتباعدات أصغرها وأكبرها،ولو لم يكن الأمر كذلك، أو لو لم يكن الـ"كل شيء" خليطاً من هذا وذاك، لما كان قابلاً للتجمع والتشكل ثم الفناء ثم الإعادة. ولو لم يكن خليطاً، لما كان بالإمكان تخلق الإنسان أصلاً، ثم لما كان بإمكان الإنسان أن يجد أي شيء من حوله. والأبلغ من هذا كله أن خلوص الأشياء من أخلاطها يعني تحولها إلى مادة خالصة، وهذا ما لا يتوفر في الحياة الدنيا، بل في الحياة الآخرة، أي في الجنّة حصْراً للمؤمنين الذي يتجردون هم أيضاً من تناقضات المادة وأخلاطها حينئذ...

وإذن، وبموجب الطبيعة الشيئية للمادة، تنوّعَت أشكال الإبانة عن الـ"كن فيكون"، سماء وأرضاً وشجراً ونهراً وطيراً وحشرة، وحيواناً وجناً... وما التنوع إلا مظهريّ.أما الـ"كل شيء" الكونيّ فكامن بالدرجة عينها في المخلوقات جميعاً... بل ان الإنسان نفسه ذلك الذي ينظر إلى بعض الكائنات نظرة استهانة واستغناء، هو

نفسه خليط من تلك المتناقضات (قبضة من جميع الأرض)، التي تظهر وتبين من عليه من خلال قوله وسلوكه، ثم من خلال ما توسوس به نفسه وإن كان مستقيماً ملتزماً، باعتباره تبيان ما خلق منه، وليس الذي خلق منه، إلا ذلك الجمع المتناقض الذي يؤالف بين الشيء وضده في الكائن الواحد، وبين الكائن والآخر...

٥- مرة أخرى، يبين لنا عدم جَدوى ذلك الجدل القائم بين متبيّن وآخر، حتى إن بعض المتبينين يكرّس الكثير من وقته وجهده له، ثم يشغل حيزاً غير قليل من صفحات الكتب والدوريات وهو يدافع عن حجته، التي هي حجّة ذاتية غالباً، حجة لم تنطلق من بلاغة القرن الكائنة بين المظهر والظاهرة، أو بين بلاغة اللسان وبلاغة الكون.

أما الجدل المقصود، فذلك الذي همّه معرفة خلافة الله أو خليفة الله في الأرض، من حيث أولية الخلافة، هل هي للملائكة أولاً ثم للجنّ ثم لآدم، وهل الخليفة إن كان هو آدم، غير آدمنا، وهل، وهل... والذي نتبينه موجزين، هو ان تمام تسوية الأرض، قضى بتمام تسوية آدم، وبالتراتب، وان تمام تسوية السموات قضى بتمام تخلّق الملائكة، والجن. فالجن إذن ليس ذلك المخلوق الذي زامنت أطوار تخلّقه أطوار تخلّق الأرض، وكذلك الملائكة، أما الذي خلقه بيديه، وأنبأ الملائكة بخلقه قبل ظهوره، فهو الذي يصلح لخلافته لا سواه. لأنه وحده البليغ الجامع الذي تمثّلَ بلاغة الجمع الكلي، جمع الـ"كل شيء" الأرضي، ولا يصلح لتبين الـ" كل شيء" الارضي، ولا يصلح لتبين الـ"كل شيء" الجمعي إلا الـ"كل شيء" الإنساني.

٦- إن عودة سريعة إلى نظام البيان العربيّ، الذي استله البلاغيون القدامى من القرآن الكريم، (وإن لم يفيدوا منه الإفادة البليغة)، وخاصة ما يتعلق بالفصاحة،أي ما يتعلق بالكشف والظهور، تبين لنا، ان شروط فصاحة الكلام، هي نفسها شروط فصاحة الكلمة. فشروط الفصاحة تكرر نفسها في المرة الواحدة (الكلمة الواحدة)

والمرات المتعددة. وكأن الشروط التي وضعها البلاغيون، أو التي استلها البلاغيون من جمع الحرف على الحرف في الكلمة، هي نفسها التي استلوها من جمع الكلمة على الكلمة. وكما يستوجب الحرف حرفاً وثالثاً، تستوجب الكلمةثانية وثالثة، فالكلمة في العبارة هي مقابل الحرف في الكلمة الواحدة، والكلمات هي الحروف مجتمعة في الكلمة الواحدة عينها، وهكذا تصير شروط الفصاحة عوداً على بدء، وبدءاً من عود، من الحرف إلى الكلمة، ومن الكلمة إلى الكلمات وبالعكس. وكذلك الأمر، فيما يتعلق بفنون وطرائق التعبير البيانيّ (تشبيهاً، أو استعارة، أو مجازاً، أو كناية)، وبعيداً عن كل ذلك، فالطرائق البيانية البليغة، هي أطوارٌ وتهيئات تلك الشروط (شروط الفصاحة، كلمة أو كلاماً).

وكذلك هو الظهور والتبين القرآني سواءً كان لسانياً (في الكتاب) أو شيئياً (في الخلق والمخلوقات)، وكذلك هو تبين المخلوقات، مخلوقاً وآخر،ومخلوقاً وآخرين، وعلى مثل كيفية التبين(الفصاحيّ)، حرفاً وآخر وثالثاً، أو كلمة وثانية وثالثة. فالمخلوقات جميعاً، كلٌ يكرر صنْوَهُ ومقابله ومواجهه ومُقادده. ودائماً تعلق الكلمة الثانية بسابقتها، كما يعلق الحرف الثاني، وكما يعلق المخلوق الثاني بسابقه وكما تعلق السورة الثانية بسابقتها، فالكلمة الثانية علقة ناشئة عن اجتماع الكلمة الأولى والمعنى، والثالثة علقة ناشئة عن اجتماع الأولى والثانية... وهكذا...والمترتب على ذلك كله، ان الكائنات جميعاً هي حاصل تبين المعنى أو الحقيقة أو الإرادة الالهية في الكلمة الأولى، ثم الثانية التي هي حاصل جمع الثانية على الأولى، ثم الثالثة على الثانية... وكذلك هو تبين الزمن، وكذلك تبين الدنيا والآخرة،وكذلك تبيّن العلم البشري، مُذْ كونه فكرة غير مرادة إلى كونه فكرة مرادة حتى تبينه الأخير بعد تسويته كلمة على اللسان، مشافهة، أو كتابة، من القلب إلى ما فوق المرتبة البسيطة للعقل، مرتبة توقّد العقل (الذهن)، إلى المرتبطة البسيطة للعقل، إلى المرتبة الخيالية إلى المرتبة الحسية، وبالعكس.

٧- فإذا علمنا ان أطوار التسلسل الكائنة في نظام الكلام،هي نفسها أطواره الكائنة في نظام الكلمة، واذا علمنا أن علاقة الكلمة بالأخرى هي علاقة قرن وجمع وقرء، خلصنا إلى ان لكل كلمة قريناً، ثم ان لكل كلام قريناً، ثم ان لكل كتاب سماوي قريناً: (النبي)، ثم ان لكل أرض قريناً: (السماء الدنيا، وهكذا بقية الأراضي)، ثم ان لكل انسان قريناً؛ ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ أَنِّي كانَ لي قَرِيْنٌ ﴾ (الصافات:٥١)، ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحمنِ نُقَيِّضْ لهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَه قَرِيْنٌ﴾ (الزخرف:٣٦)، ﴿ وَمَنْ يَكُنِ الشَيْطَانُ لَهُ قَرِيْنَاً فَسَاءَ قريناً﴾ (النساء:٣٨)، ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ وَشَهِيْدٌ* وَكُنْتَ في غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غطاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيْدٌ* وَقَالَ قَرِينه هذا ما لدي عتيد﴾(ق:٢١-٢٣)، ﴿ ولقدْ خَلقنا الإنسانَ ونعلَمُ ما تُوسوسُ بهِ نفسهُ ونحنُ أقربُ إليهِ منْ حبلِ الوريدِ* إذْ يتلقّى المتلقيانِ عنِ اليمينِ وعنِ الشمالِ قعيدٌ* ما يلفظُ منْ قولٍ إلا لديهِ رقيبٌ عتيدٌ ﴾ (ق:١٦-١٨). ومن ثم، فإن لكل سورة قريناً، ولكل آية، وبالجملة، إن لكل كائن مكانيّ أو زمانيّ، قريناً.

وهذا ما يفسر ما يسمّيه علماء المادة؛ النظائر، ويقصدون بها العناصر المشعة، وهو نفسه يفسِّر، علاقة المادة بالطاقة، ثم علاقة الصوت بالضوء، وأخيراً علاقة المادة بالمادة المضّادة.

فإذا تذكرنا ان التنزيل العزيز، يعلي من شأن اليمين، وأصحاب اليمين، وان المشهور عن ملك اليمين، انه الملك الذي يتولى كتابة حسنات الإنسان... إذا تذكرنا كل ذلك، و قرنّا ما تذكّرنا إلى فئة اليمين والميامنة في السنة النبوية، خلصنا إلى ان جهة اليمين أكفأ من حيث هي قرن من جهة الشمال، وان جهة الشمال هي المقابل الفرقي لتلك الجهة.وهذا ما يُفسِّر مما يُفسِّر، مهبط الرسالات في مشرق الأرض، بينما كانت جهة الغرب تفتقر إلى مهبط نبيّ ودائماً، وها هو الشرق وجهة الروحانيات، فيما الغرب وجهة الماديات.

وهكذا هو الـــ"كن" عن يمين، بينما الـــ"يكون"عن شمال، ضمن تسلسل الآيـــة لسانياً.

وبعد ذلك فإن ماسبق يفسر طواف الحجيج حول الحجر الأسود من اليمـــين إلى الشمال، وذلك لأن الحجر الأسود هو قلب اليمين ومركز الكون.

ومن ثم نخلص، إلى ان لكل كائن من حيث هو مادة، مادة مضادة ونظيراً بمـــا في ذلك الإنسان، وعلى وفق حركتين من الشمال إلى اليمين ومن اليمـــين إلى الشـــمال. وهذه هي حركة (الجينوم) الوراثي في داخل الخلية.

فإذا بحثنا عن مصاديق جديدة لما سبق، وجدنا قوله تعالى؛ ﴿ هذا كتابُنَا ينطـــقُ عليكمْ بالحقِّ إنَّا كُنَّا نستنسخُ ما كانُوا يَعْملونَ﴾ (الجاثية:٢٩).

وفي ضوء هذا يصير واضحاً مفهوم النسخ في القرآن الكريم، فالناسخ، هو قريـــن المنسوخ ونظيره وطباق نظامه، وتبيان بيانه، فلا تفاوت بين المنسوخ والناســـخ؛﴿ مـــا نَنْسَخْ مِنْ آيةٍ أو نُنْسِها نَأْتِ بخيرٍ مِنها أو مِثْلِها أَلَمْ تَعلمْ أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديـــرٌ﴾ (البقرة:١٠٦). فالناسخ قرين طور التخلق والتكون الجديد، بينما المنســـوخ قريـــن أو تبيان طور التكون السابق، وكلاهما الناسخ والمنسوخ تبيان للشيء عينه، ولكن كـــلُ وفق سياقاته التكوينية.

فإذا بحثنا عن مصاديق أخرى لما سبق وصدرنا الحديث به في هـــــذه النقطـــة، وجدنا ان علاقة الناسخ بالمنسوخ ، هي ذاتها علاقة الحرف الثاني بالأول والكلمة الثانية بالأولى، تلك العلاقة التي تكشف عن صفة الانسجام بـــين الأول والثـــاني، والثـــاني والأول، ثم تكشف عن تبيان جديد له وهكذا تكون الآية الثانية الناسخة،ليست خـــيراً من سواها باعتبار ان الخيريّة كائنة فيما بين نظام ونظام بل هي كائنة فيما بين تكشـــف وتكشف جديد. وذلك ان الجنبة الإلهية للقرآن وآياته، والكون وآياته،جنبة واحـــدة، بينما الجنبة البشرية متعددة، متنوعة بتنوع الكائنات، ثم بتنوع أطوار تكونها. فالإنســـان

وهو عظام خير منه وهو نطفة، وهو إذ يخرج من رحم أمة خير منه وهو في رحمها، وهكذا.هذا من جانب الخيريّة، أما من حيث المثلية، فهو إذ كان مضغة مخلّقة مثله إذ كان مضغة غير مخلّقة، وهو إذ كان صلصالاً من حمأ مسنون مثله إذ كان صلصالاً كالفخار، ثم، هو إذ كان متسلسلاً في الأرض مثله وهو يتسلسل في صلب أبيه ثم في رحم أمه... وهكذا هي علاقة الآية الناسخة بالآية المنسوخة. ومن جانب آخر فإن القرآن تبيان للناس وهدى ورحمة للمؤمنين، وبموجب تبيانيته وهداه ورحمته، جاء مفرقاً ليناسب ما عليه الإنسان من فرق، وجاء قرآناً ليناسب ما عليه الإنسان، وما يصل اليه من قرن وقرء عقلي ونفسي وإراديّ، ولهذا جاءت الآيات الناسخة لتبين ما عليه النفوس الإنسانية والإرادة البشرية والترقي العقلي، الذي يتسلسل طوراً بعد آخر ومرحلة وأخرى.ودائماً المرحلة الثانية من حيث القرء أفضل وخير من الأولى... ولهذا تأخر فرْق آيات الحلال والحرام إلى ما بعد هجرة نبي الرحمة إلى المدينة. ولهذا جاء الناسخ طباق استعداد بشري لقرء وجمع وقرن، أو لرقيّ نفسي وإرادي أتَمّ.

٨- والفقرة الأخيرة تدعونا إلى تبيُّن حقيقة ان القرن والقرء والضم والجمع، هو ناموس الكون، واستعداده الكائن في عمقه، لهذا تسعى الكائنات جميعاً إليه، ويسعى إليه الإنسان عقلاً ونفساً ومعيشةً؛ شعوباً وقبائل... فالقرن خير من الفرق، والفرق نقطة انطلاق جديد لقرن جديد. وهذا هو نظام التطور الكونيّ الشيئي والإنساني، على أن القرء والضم هو قرءٌ داخليٌ لا خارجيّ. وهذا يعني، ان الكون في سعة دائمة خارجياً، ولكنه من الحيث العمق الداخل، يسعى إلى ما هو أقل وأصغر وأوجز، وبموجب ذلك، يتبين لنا ان الكون سينجمع على نفسه، كواكب ومجرات قبل فنائه الأخير، الجمع الذي سيزيد من تثاقله ثم انفجاره، مع إنه فيما يبدو خارجاً يزداد سعةً، ولكن السعة البادية هاهنا ليست سعة الكائن نفسه، وإنما هي بُعْدُ الكائن عن الكائن، والشيء عن الآخر، والكوكب عن مثيله. أما ما بين الكائن ونفسه، فان

التجمع والتجاذب هو المعيار وهو الجاري، فالكون لن يتسع حسب، ولـــن يصغـر حسب كما يذهب إلى ذلك بعض العلماء الغربيين، وهم يختصمون فرقتيـن، فرقـة تذهب إلى سعته وفرقة تذهب إلى صغره وانكماشه(١).

فقد جاء في الحديث الشريف؛ ان الله سبحانه خلق آدم، طوله ستون ذراعـاً، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن(٢). فإذا قرنا ذلك بطول الأعمار قديمـاً، وجدنـا أنّ عمرَ نوح عليه السلام، مثلاً يزيد على تسعمائة وخمسين عاماً، وهو في مرحلة تاليـة لآدم. وبناء على هذا نخلص إلى أن أول ظهور الإنسان على الأرض يعني كمال فرقـه الخارجي كوناً خلقياً أو زمنياً، وكذلك خلق الكائنات الأخرى، بما فيها الحيوانـات المنقرضة، ولقد كان آدم واحداً، ثم تكثّر وما زال يتكثر إلى الآن. ولكنه من حيث هـو داخل وعمق ظل يتكامل طوراً بعد طور، حتى انتهى به التكامل إلى عصـر الرسـالة المحمدية، فتم له كمالُه العقلي؛ "ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يسـتكمل العقـل، ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمته". كما ورد في حديث سبق ذكـره. وكمـا البشر، أبناء آدم ذرية بعضها من بعض، فالنبيون أمة واحدة باعتبار صفة النبوة، وهـم أيضاً ذرية بعضها من بعض، وكمال عقولهم، بتمام النبوة وختمها في سـيّد الرسـل محمد عليه وعلى الرسل والأنبياء، صلوات الله وسلامه، وما ذاك إلاّ لأن القرن حـلصل بين الأنبياء من حيث هم حاملو صفة النبوة، وبيان تسلسلها وتطورها. فهم من حيـث هم عدد خارجي، متكثّرون، ولكنهم من حيث هم قرن داخلي ورقيّ نبويّ يسـعون إلى أقل ما يكون عليه الجمع والضم، بحيث لا ضم أوجز منه وأبلغ، ومن ثم فلا علـم أتمّ وأكمل، ولقد تحقق ذلك في شخص نبي الرحمة محمد... وكذلك على المسـتوى

---

(١) انظر: د. أحمد محمد عوف، سيناريو النشوء والارتقاء والفناء بالكون (بحث مستلّ)، مجلة العلـم المصرية ، عدد ٣٠٢، نوفمبر ٢٠٠١م.

(٢) انظر: الأجاديث القدسية : ص٩٥-٩٦.

البشري، أو من حيث الجهة البشرية للرسول، أي الجسدية، فإن الجسد وإن تكثر بالعددية، يظل يصغر بالذات والخاصية، سعياً إلى جمع أشدّ، وما الجمع الأشدّ إلا بتلك الصفة الجسدية التي كان عليها الناس أيام الرسالة المحمدية، فلا جسد أجمع مما كان عليه الناس أيام الرسالة مقارنة بالعصور السابقة، ولا جسد أجمع من جسد النبي[1] مقارنة بالأنبياء والرسل، ثم مقارنة بأجساد أمته. وكذلك كملت الأعمار بعمره، وأعمار أمته، أي أنها صارت أشدّ جمعاً.

نخلص من ذلك، إلى أن الكائنات جميعاً، كانت على أتم ما يكون الفرق،بدليل خلق آدم وعمر نوح ومتحجرات الحيوانات المنقرضة... وهذا يعني أن السماء وكواكبها ومجرّاتها كانت كذلك، ثم تقلصت على ما هي عليه اليوم، كل على حدة، وتوسعت مجتمعة. أي تباعدت المسافة بينها وبين سواها، وهذه هي حركية الـ"كن فيكون" الكائنة بين الصغر والكبر والتمدد والتقلص. وهذه هي المواجهة بين المعنى والشكل، وهذا هو نظام الذرة الواحدة، جسيمات ذرية وجزيئات تتجمع في مركز الذرة، أو نواتها، أو اليكترونات متباعدة تدور حول المركز،وقد تتخلى عن الذرة إلى غيرها.

٩- إن العلاقة الكائنة بين المعنى، باعتباره خلوص المادة إلى حيث اللامادة، وبين الشكل، باعتباره تكشف اللامادة وتبين صفاتها في الشكل، هي نفسها العلاقة الكائنة بين ما يسميه الماديون؛ الطبيعة، وما وراء الطبيعة. وهي نفسها العلاقة الكائنة بين الدنيا والآخرة، وما في الدنيا وما في الآخرة.

ورد في التنزيل العزيز؛ ﴿ وَبَشِّرِ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحات أنَّ لهمْ جنات تَجري مِنْ تحتِها الأنهارُ كلّما رُزقوا مِنها مِنْ ثمرةٍ رزقاً قالوا هذا الذي رُزِقْنا منْ قَبْلُ وأتوا بهِ مُتشاهاً وَلهم فيها أزواجٌ مُطهرةٌ وهُمْ فيها خَالدونَ ﴾ (البقرة:٢٥).

---

(1) انظر: لسان العرب، مادة (جمع).

وورد عن نبي الرحمة؛ إن النهرين الظاهرين، الفرات والنيل همـــا الباطنـــان في الجنة[1].

الذي للأشياء هناك، فيما بعد المادة، هو خلوص الشكل معنًى، وخلوص المـــادة لا مادة، وخلوص التكون، "كن" وخلوص الفرق جمعاً وقرناً وقرءاً. وهنـــاك تتبـــين الذات البشرية من حيث هي تسمع وتبصر، ما لم تسمع من قبل و ما لم تبصر، ومـــا ذاك إلا لأن الذي حجبته عنها المادة التي تشكلت بها القوة السامعة، أو القوة البـــاصرة في الحياة الدنيا لن يكون محجوباً في الآخرة، لتجردها — أي الذات البشرية– من الثخونة والشوب والعجمة.

فالذي يحصل للمادة هناك، هو تكشفها الأخير عن المعنى مجرداً من الشـــكل، أو الذات مجردة من المادة، وحينها تتحول المادة إلى اللامادة، والعنصر إلى النظير،والكتلـــة إلى طاقة غير قابلة للفناء، "وهم فيها خالدون". أما الذي في النار فـــهو تمـــام بلاغـــة الشكل المجرد من المعنى، انه الشكل الذي يظل يكرر نفسه دائماً حيث لا معـــنى لـــه ليفرغ منه بعد تمام بيانه. فالشكل الذي هو المادة على أبلغ صورها، شكل خـــالد، لأن المادة تسافلت في البلوغ والانتهاء إلى غايتها حتى لم تعد مما يجوز عليها الفناء كما هـــو حالها في الدنيا، وبموجب ذلك يصير الخلود صفة المادة كما كان الخلود صفة المعـــنى، ويسري نظام الـــ"كن" فيكون ثانية، بدءاً وإعادة، فلا فناء؛ ﴿ فالذين كَفروا قُطِّعـــتْ لهم ثيابٌ من نارٍ يُصَبُّ من فوقِ رؤوسِهم الحميمُ* يُصهَرُ بِهِ ما في بُطونِهِم والجلُـــودُ* ولهم مقامعٌ منْ حديدٍ* كلّما أرادوا أن يخرجوا مِنها من غمٍّ أُعيدوا فيها وذُوقوا عـذابَ الحريق*﴾ (الحج:١٩–٢٢)، ﴿ إنّ الذينَ كفَروا بآياتِنا سوفَ نُصْلِيـــهِم نـــاراً كُلّمـــا نَضِجتْ جُلودهم بدّلْناهُم جُلوداً غيرَها لِيذوقوا العذابَ إنَّ اللهَ كان عَزيزاً حَكِيمـــاً﴾ (النساء:٥٦).

---

[1] انظر : الأحاديث القدسية : ص١٣٢.

وهاهنا الفرق الدائم، والتكون الدائم" كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلـــوداً غيرها"، "كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها". أما نظام الـــ"كن" الدائـــم فهو الجنة، فالـــ"كن فيكون" من حيث نظام كلي خارجي شمـــــولي، يبـــدأ بالجنـــة باعتبارها قرين الـــ"كن" وصنو المعنى، وينتهي بالنار، باعتبارها قرين الـــــ"فيكـــون" وصنو الشكل. وهو أي نظام الـــ"كن فيكون" من حيث هو نظام خاص بكل كـــائن على حدة، تام من حيث هو "كن فيكون" في الجنة؛ ﴿ نحنُ أولياؤكم في الحياة الدنيـــا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون﴾ (فصلت:٣١). فـــهو تام من حيث هو إرادة إلهية خلقت وأخلصت ما خلقت، حتى لا يمكن لعين أو سمـــع أن تتصور طبيعة الكون والتكون. وما ذاك إلا لأن الـــ"كن" هناك، أتم وأخلص مـــن حيث هي أعلى من المادة، مقارنة بالـــ"كن" البشرية أذناً أو سمعاً، باعتبار ان التخيـــل أو التصور البشري في الحياة الدنيا، هو تصور تحمله المادة القاصرة أي الخلايا العصبيـــة. فالذي يتصور يريد، وبإرادته يحقق صورة لما يريد، هذه الصورة هـــي حـــاصل أمـــر للمخيلة بالتصور، أي هي حاصل "كن"، ولكن الـــ"كن" هنا قاصر بإزاء الـــ"كـــن" هناك، في ما هو أعلى من المادة، لذلك سترى العين وتســـمع الأذن في الجنـــة، مـــن ظهورات الـــ"كن" الإلهية، ما لم يكن مما يحيط به "كن" الخيالي البشري في الدنيا.

ومن جانب آخر، فإن أولئك الخالدون في الجنة، سيشتهون، أي أنهم ســـيريدون ويترتب على الإرادة أمر، ويترتب على الأمر؛ "كن" بشرية جديـــدة. ولكـــن هـــذه الـــ"كن" ستحقق ما تريد حقيقة لا خيالاً؛ ويستكمل الاشتهاء بـــامتلاك المشـــتهى. وتكتمل الـــ"كن" بالـــ"يكون". فهي إذن تامة، من حيث جهتها الالهية ومن حيـــث جهتها البشرية. أما صفتها في النار، فتامة من حيث الجهة الإلهية، وكما أن الـــذي في الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، كذلك الذي في النار، فالـــ"كن فيكـــون" في أتم صورها وأبلغ ظهوراتها، ولكنها من حيث الجهة البشرية التي كانت قاصرة في تخيلـــها

دنيوياً، ليست تامة، ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ (سبأ:٥٤). فالحاصل بشرياً، هو الـ"كن" ولكن الـ"يكون" المشتهى غير حاصل. والذي هو حاصل محله ومخالف له، هو (ما لا يشتهون)، أي هو؛ "فيكون" ذات الجهة الإلهية المريدة الآمرة المطاعة.

الجنة إذن، هي بلاغة الـ"كن" التي لا تبدأ وتعاد وتبدأ وتعاد... إنها جريان مستمر وسرمدي. بينما النار، بلاغة الـ"فيكون" التي هي تناوب وتعاقب، نضج جلود وتبديلها، ومحاولة خروج وإعادة، واشتهاء ومنع... ووجود الجنة بعد ذلك، هو أصل وجود النار، فلا وجود للنار دون وجود الجنة، كما لا وجود للشكل دون وجود المعنى، ولا وجود للشيء دون وجود الذي "ليس كمثله شيء"، وكما لا وجود للـ"فيكون" دون شرط الـ"كن"، ومن ثم، فالجنة سابقة النار، والثواب سابق العقاب...

١٠- جاء في الحديث الشريف، ان النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، مر بالمدينة فرأى جماعة يحفرون قبراً، فسأل عنه، فقالوا : حبشياً قدم فمات، فقال النبي؛ "لا إله إلا الله سيق من أرضه وسمائه إلى التربة التي خلق منها"[1].

ولا شك إن أول سامع للكلمة بعد أن تقال هو قائلها،فالكلمة تبدأ منه وتعود إليه. يقول تعالى: ﴿ قُلْ أغيرَ الله أبغي ربّاً وهو ربٌّ كلِّ شيءٍ ولا تكسِبُ كلّ نفسٍ إلا عليها ولا تَزرُ وازرةٌ وزرَ أُخرى ثمّ إلى ربِّكمْ مرجعكُمْ فيُنبئكُمْ بمـا كُنتـمْ فيـهِ تختلفونَ﴾ (الأنعام:١٦٤) ويقول سبحانه في معرض حديثه عن خلق الأرض؛﴿ مِنهـا خَلَقْناكُم وفيها نُعِيدكُم ومِنها نُخرِجُكُم تارةً أُخْرَى﴾ (طه:٥٥).

ولا شك اننا كلمة الله التي ظهرت أرضاً ثم تكررت بشراً ثم تتكرر أرضاً، ثم ترجع إلى قائلها، الله سبحانه. فالكلمة الأولى شروط تجمع وتكشف جمع، نُظِمَتْ في سلك واحد، هو سلك الـ"كن فيكون"، وما قطع السلك ووقف دوامه إلا أمر

([1]) سلسلة الأحاديث الصحيحة : مج٤/ ص٤٧٣.

جديد للخرزات المنظومات أن يتبع بعضها بعضاً. يقول نبي الرحمة؛ "الآيات خرزات منظومات في سلك فإن يقطع السلك يتبع بعضها بعضاً"(١).

ولابد للأرض التي بدأت دورة الـ"كن"من علقها، أن تكون ذاتها الأرض التي تنتهي فيها تلك الدورة. فالحياة والموت وجهان لحقيقة واحدة، والإنسان حامل لعناصر تربة تخلقت فيه بشراً حياً، وتتخلق فيه ميْتاً. والذي ما بين الموت والحياة هو ما بين الكلمة والثانية، وما شروط الثانية إلا شروط الأولى.

فالطور الأول إذن، هو إعادة الشكل ــ الجسد، إلى الموضع الذي خرج منه، أما الطور الثاني فهو عودة الموضع نفسه إلى مصدره الأول، باعتبار ان ذلك الموضع هو كلمة أيضاً، وما بين الطورين، خروج الجسد ثانية، فهما دورتان متقابلتان؛ باعتبار الإنسان وباعتبار الأرض والإنسان الذي خلق، ثم يعاد ثم يخرج، فهي دورة الخلق والإعادة والإخراج ، وعلى ثلاث مراحل، ما المرحلة الثالثة منها إلا فرق جديد لوجهي الـ"كن"؛ الخلق ــ الإعادة. وكذلك دورة الأرض خلق وإعادة وإخراج، فما ينطبق على الابن ينطبق على الأم، فالأم تكرر خلقها الوسائطي من خلال جنينها... وما ينطبق على الإنسان والأرض، باعتبار الإنسان فرق الأرض وبيانها وكشفها، ينطبق على كل نظام بيان وكشف وإظهار: الماء والهواء والنباتات والحيوانات ثم الكواكب والمجرات. وهذا يعني أن فناء الكون سيبدأ كما يبدأ الناظم نظم الخرزات في سلك أي أن الإعادة ستبدأ من الأخير إلى الأول، من الشمال إلى اليمين لا من اليمين إلى الشمال هذه المرة، فيعود الإنسان إلى الأرض،باعتبار الإنسان آخر وأبلغ ما تكشفت عنه الأرض أي باعتباره تمام بيانها، ويتبع ذلك عودة المخلوقات الأخرى مما بانت عنه الأرض إليها، يتبع ذلك نسف الجبال ثم قطع البركة ورفعها، أي انعدام الاستقرار والثبات، فتصير الحركة مطلقة ضمن المحيط الأرضي وفي كل

---

(١) نفسه: مج٤/ ص٣٦١.

الاتجاهات، يقابل ذلك سماوياً ــ السماء الدنيا ــ ابتلاع النجوم والكواكب بعضها بعضاً، سابقها لتاليها، وهكذا، حتى يتم فناؤها جميعاً في الشمس، ولكن باعتبارها طاقة، أما باعتبارها مادة فيكون عودها إلى الأرض، وأيضاً بحركة فائقة وعظيمة وانفجارية، يرافق ذلك ابتلاع الظلمة للضوء، والحرارة للبرودة، ثم البرودة للحرارة، فيترل الماء لتعود الأرض تكرر أطوارها الأولى، وبتمام الأطوار يكون الجمع الأول، قد عاد جمعاً كما كان، وليس ثمة بعد الجمع الشيئي إلا الجمع الصوتي، أي إلا الكلمة، وتكون الكلمة كلمة الخروج، (دعوة واحدة)، فيكون الخروج. وليس ثمة بعد الخروج إلا العود إلى الداعي، أو عود الكلمة إلى القائل، وكما يسمع القائل كلمته عبر سبعة ممرات في الأذن، وكما تسلك الكلمة البشرية هذه الممرات جميعاً، التي هي طرق البيان وفنونه فيما المعنى واحد، كذلك يسلك الإنسان سبعة ممرات أو طرق فالسموات السبع لم تعد سموات، بل طرق، سيسلكها الإنسان جميعاً، وبسرعة مطلقة إلى حيث المرجع الجسدي الأخير؛ "إلى ربكم مرجعكم"، وما ذاك إلا لأن الذي يمنع الموجودات الأرضية من عدم الوزن والانفلات من محيط الأرض، هو وجود السماء، ذات الرجع، أي ما يسمى علمياً الجاذبية الأرضية، وما هو إلا اجتماع قوتين بحسب القرآن ؛ (الصدع الأرضي ــ والرجع السماوي)﴿ والسَّماءِ ذاتِ الرَّجعِ* والأَرضِ ذاتِ الصَّدْعِ* ﴾ (الطارق: ١١-١٢) أي، قوتي الجذب والطرد، على أن الذي بينهما، هو برزخ لا يبغيان، ولذا يصير لكل منهما محيطه، كما لكل كلمة محيطها، وكما ان الذي ما بين الكلمة والأخرى، هو صدع ورجع.

فإذا ما تم للسماء رجع كل ما تم بيانه فيها، (وهي تقوم بذلك يومياً، ولكن بقدر، كإرجاعها للمطر، أو ذرات الحديد، أو الغبارات الكونية...)، لم تعد لتطرد أو ترجع أي جسم يدخل محيطها...

الباب الثالث

القَرْءُ والتقرُّء

تبيان القراءة . قرآنية الكائنات

الفصل الأول

بلاغة القراءة الكونية

المفعولية والفاعلية

أولاً: التبيُّن والتقرُّؤ:

مما جاء في تفسير إبي السعود مما يتعلق بتفسير سورة العلق، قوله في الآية الأولى؛ ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ ، "باسم ربك، أي اقرأ ملتبساً باسمه تعالى أي مبتدئاً به لتتحقق مقارنته لجميع أجزاء المقروء"[1].

ترى ما المقروء وما اجزاؤه، وكيف تتم الملابسة؟

بديّاً لا بد من التذكر ثانية، ان تبيانية القرآن ، لا تقتصر على الأمر والنهي والوعد والوعيد والثواب والعقاب... أي أن تبيانيته لا تقتصر على ما هو شرعي أو ديني، وإنّما تمتد لتشمل كل ما هو شيئي في هذا الكون السماوي الأرضي وما تكوّن بتكونه من كائنات. فإذا تذكرنا ذلك، عدنا لنتساءل ثانية، ما المقروء؟

لا شك ان دوام وجود المصحف الشريف بين أيدينا السابقين منا ونحن واللاحقين، يعني مما يعني دوام مطالبتنا بالقراءة،... ولكن الذي لا بد أن نتبينه هو؛ أيّة قراءة تلك التي يطالبنا القرآن بدوامها وهو يواجهنا في أول نزوله المقدس بكلمة؛ "اقرأ"، الكلمة السابقة لنا والباقية بعد زوالنا... أهي حصراً دوام ترتيل القرآن وتزيينه بأصواتنا من خلال التصويت به، أو من خلال تمرير العين على حرفه المقدس؟

فإذا قلنا إنها تلك القراءة وغيرها، أي التمعن فيه أو تدبره... فما نوع ذلك التدبر وما الذي نتدبره في القرآن...؟ فإذا قلنا إننا نتدبر فيه حلاله وحرامه وأوامره ونواهيه وعبره وعظاته، ثم آيات الله سبحانه في الآفاق والأنفس، إذا قلنا ذلك،خلُصنا إلى أن المقروء هو الكلمة القرآنية بوجهتيها المسموعة والمرئية، أو المكتوبة بقلمنا الأرضي، وقبلها المكتوبة بالقلم الكوني، القلم الذي جرى بما هو كائن ويكون من الأكوان والكائنات.. وتبقى الكلمة القرآنية واحدة وإن اختلف المظهر، ويبقى المقروء واحداً، ولكن القارئ يختلف من حيث قدرته على الجمع والقرء ثم من حيث قدرته

---

(1) تفسير أبي السعود : ج٩/ ص١٧٧.

على تبين هذا البيان الإلهي الكائن من خلال تكشف السماوات والأرض ثم من خلال تخلّق المخلوقات وتنوعها بدءاً بالكواكب والنجوم وانتهاءً بالجبال والبحار والأشجار والحيوانات والزرع المختلف ألوانه، ثم خلوصاً إلى جسم الإنسان بوصفه كوناً مصغراً ومركزياً على وفق نظامه وانتظامه جرى النظام والانتظام في الأشياء المحيطة بذلك الإنسان...

تُرى، هل يجوز على الله سبحانه، أن يطالبنا بقراءة الكلمة القرآنية التي ورد في حسنها، أنها تبيان لكل شيء، فيما النظام اللساني للكلمة مختلف عن نظام الـ"كل شيء"؟ بتعبير آخر، هل يجوز على الله سبحانه أن يطالبنا بقراءة الكون، فيما نظام القراءة مختلف عن نظام الكون؟ حاشا لله الرحمن الرحيم العدل الحق... فإذا بان لنا ذلك كله، أعدنا النظر في ما رسخ في أذهاننا عن المقروء الذي يطالبنا سبحانه بقراءته فالمقروء إذن ليس قائمة المحتويات أو (الفهرست) بالنسبة إلى الكتاب، وإنما هو الخلاصة بالنسبة إلى المتن أو المشروح، وما الخلاصة إلا الكتاب (المصحف الشريف) الذي بين أيدينا، وما المتن أو المشروح إلا الآفاق والأنفس سماءً وأرضاً ومخلوقات ... أما إذا نظرنا إلى المقروء على أنه حصراً قائمة محتويات، أسأنا القراءة، وترتب على إساءة القراءة تدخلنا في لَيِّ عنق الكلمة القرآنية لتنسجم مع ما هو راسخ في أذهاننا رسوخاً ذاتياً بفعل من موجهات سابقة وتابعيات أبوية، وتوهمات إدراك ومسلمات لغوية بشرية...

المقروء إذن مثله كمثل الخريطة أو التصميم أو (الكاتولوج) المقادد والمطابق للمصنوع أو المُنْشَأ مع فارق ان الخريطة بالنسبة إلى البناء والكتالوج بالنسبة إلى الآلة، هما البناء أو الآلة ولكن مكتوبان أو مجردان من الشيئية، بينما البناء أو الآلة هما الخريطة أو الكاتالوج ولكن مجسدان أو مُتشيِّئان...وليس من حق القارئ التدخل في

الخريطة، مقاييسها أو خطوطها أو ألوانها أو أسهمها أو رموزها... إلخ، فإن تدخّل فغيّر واستبدل ومحا وتأوّل ما أساء إلا إلى نفسه...

وهاهنا بعض من مظاهر النظر إلى المقروء على أنه (فهرست) حسب، وإذ هو كذلك فلا قيمة ـــ حاشا ـــ للقرء الإلهي لحرفه وكلماته على شكل آيات وسور، مما علينا أن نكون على قرئه، أي مما يجب علينا أن نتبعه في القرء، باعتبار أنّ المطالبَ بقراءته وضم أجزائه وقرنها — أي القرآن –، هو أيضاً مقرون مجموع بالجمع الإلهي المطابق لجمع الأشياء خارجه...

وهذا شيء من عدم القرء على مثل طريقة القرء الإلهي للكلمة التي هي طباق كل شيء؛

- ((المراد من قوله؛ اقرَأ، أي اقرأ القرآن. إذ القراءة لا تستعمل إلا فيه)).
- ((اقرأ باسم ربك)). ((اقرأ يا محمد بذكر ربك)).
- ((محل ((باسم ربك)) النصب على الحال، أي ، اقرأ مفتتحاً باسم ربك. قل باسم الله، ثم اقرأ)).
- ((ومفعول اقرأ محذوف تقديره اقرأ ما يوحى إليك)).
- ((وقال الأخفش الباء بمعنى على، أي اقرأ على اسم الله)).
- ((وقال أبو عبيدة الباء صلة والمعنى اذكر ربك)).
- ((وجاء باسم ربك و لم يأت بلفظ الجلالة لما في لفظ الرب من معنى الذي رباك ونظر في مصلحتك)).
- ((باسم ربك)) ، ((الباء هنا زائدة)).
- ((باسم ربك))، ((أي اجعل هذا الفعل لله وافعله لأجله)).
- قوله ربك، و لم يقل باسم الله ((أبلغ في الحث على الطاعة، ولاستمالة الرسول ليزول فزعه فقال هو الذي ربّاك فكيف يفزعك؟))؟

- ((يكون قوله ((اقرأ باسم ربك الذي خلق)) مبهماً ثم فسره بقوله ((خلق الإنسان من علق)) تفخيماً لخلق الإنسان ودلالة على عجيب فطرته)).
- ((والإنسان هنا اسم جنس والعلق جمع علقة فلذلك جاء من علق)).
- ((من علق؛ أي من دم جامد... الإنسان في معنى الجمع لمراعاة الفواصل [أي مراعاة السجعة بين كلمتي: خلق، علق]...))...إلخ[1].

هذا نزر يسير مما تحفل به تبيّنات المتبينين من التدخلات الذاتية في النظام القرآني للـ"كل شيء" وسنته الكونية. ويقيناً إن الذي قاد إلى ذلك هو الفصل بين بلاغة التنزيل العزيز وبلاغة الكون الخارجي، ثم توجيه البلاغة القرآنية في ضوء البلاغة الشعرية، أو توجيه العربية القرآنية في ضوء العربية البشرية...

ولنتساءل ثانية... تُرى حينما يريد أحدنا تبين شيء ما أمامه، هل يعمل على التلاعب به وتغيير نظامه زيادة أو نقصاناً، تقديماً أو تأخيراً، تلويناً أو محواً للألوان...؟ فإذا كان ذلك الشيء شجرة قطع أغصانها، وإذا كان بئراً رمى به حجراً، وإذا كان طيراً ذبحه، وإذا كان بناءً هدمه...!

نعم وارد كل ذلك، ولكن وروده فقط لتلمس ما وراءه، ثمّ إعادته إلى ما كان عليه. فتفكيك الشيء يستلزم إعادة بنائه، ونزول المطر على الأرض تليين لها بغية استنباتها ثانيةً، أما أن يكون إنزال المطر يستلزم تدمير التربة، فهذا مما يختلف مع الوجه الرحماني لإنزال المطر. ومن ثم فإن التعلم الحق والتقرء الحق هو الذي يجري على مثل المقروء الإلهي، لا إجراء المقروء أو المعلوم الإلهي على وفق التقرء أو التعلم...

---

(1) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ج٣٠/ص٢٥١، والكشاف: ج٤/ص٦١٨،ومجمع البيان في تفسير القرآن: ج٩-١٠/ ص٧٨٠، وتفسير الفخر الرازي؛ ج٣٢/ص١١-١٥، وتفسير البحر المحيط: مج٨/ ص٤٩١-٤٩٢، وتفسير أبي السعود: ج٩/ص١٧٧.

وعدا ذلك فإن ما يجوز على الكون الشيئي البصري من تبديـــل وتغيـــير بغيـــة استحصال إحاطة إدراكية عليا، لا يجوز على الكون القرآني، وإلا فإن المحصلة المعرفيـــة وما يترتب عليها إلهياً تقترب كثيراً من تلك المحصلة المترتبة على الأمر الإلهي لأولئـــك المنكرين الغربيين ومن تبعهم ، بتبديل خلق الله وتغييره...

نعم إن الإخلاص المطلق للبلاغة القرآنية أمر غير وارد بالنسبة لنا نحن المتبينـــين ممن لا تنطبق علينا صفة النبوة... فنحن أصلاً جهة التسنن بالنسبة إلى جهة الســـنة، أي بالنسبة إلى جهة النبوة. أو إننا الوجهة الأقل تجريداً من الشيئية بالنسبة إلى وجه الطاقـــة النورانية السارية في النبوة وبها نبياً بعد نبيّ وعلامة بعد علامـــة وصـــولاً إلى الحقيقـــة المحمدية الظاهرة، والتي هي وجهة الحقيقة القرآنية الأولى، التي ستتعرض بوصفها جسداً كما سنتبين بعد قليل إلى الضم والقرء الملائكي ممثلاً بأخذ جبريل للنبي ثلاث مـــرات، وهو يتوجه إليه بالأمر الإلهي الأول؛ "اقرأ"، بغية رد الظاهر على الباطن، ثم رد العلـــم الحسي على العقلي الجامع..نعم نحن أدنى بكثير من تلك المرتبة النبوية، ومن ثم فإننـــا أدنى في الإخلاص للبلاغة القرآنية إخلاصاً مطلقاً، لأننا أصلاً غير قادرين على التجـــرد الكلي من شيئيتنا البشرية الحاجبة والمانعة من تحقق التكشف المطلق... ولكن هـــذا لا يمنع من المجاهدة في تحقيق أبلغ ما يمكن من درجات الإخلاص لبلاغة أحسن الحديـــث، وما يتحقق ذلك الـــ" أبلغ" من درجات الإخلاص، إلا حينما يكون القارئ على قـــرء المقروء، أي حينما يكون القارئ أرضاً ويكون المقروء مطراً محدثاً، فإذا كان القـــارئ كذلك أنبت من كل زوج بهيج، ويبقى المقروء هو المقروء، كما يبقى الماء هـــو المـــاء سواءً أنبتت الأرض أم لم تنبت، وليس عدم إنباتها لِعلَّةٍ في المطر بـــل لعلَّـــة في الأرض ذاتها... وكذلك يبقى الماء هو الماء سواء كثر النبت أم قلّ، وما قلة النبت أو قلتـــه إلا بحسب استعداد الأرض وبحسب بلاغتها في التفتت والتصدع من جهة والتماسك مـــن جهة ثانية، ثم بحسب خصوبتها... أما الماء الكوني، أو أحسن الحديث فهو هو، وإذ هو

كذلك، فإنه كما يقول نبي الرحمة؛ " لا يعوَجُ فيُقَوَّم، ولا يزيغُ فيُستَعْتَب، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد"[1].

ويترتب على الحديث الشريف، إننا حينما نقرأ القرآن، لا نزعم تفسيره وإنما نزعم اننا نتبين به ونتعلم بعلمه ونتوسم بسمته، ونتخلق بخلقه، أي أننا نروم أن نقوّم اعوجاجنا المعرفيّ بإقامته وقيوميته، وما الذي يواجهنا من القرآن في المصحف إلا كلماته التي انتظمتها أسطرها فهي مسطورة بالنسبة إلى جهة السطر الإلهي، أو العلم الألهي، وهي السطر بالنسبة لنا، نحن البشر والأشياء ... وعلينا حينما نروم تبيناً ما أن لا نتدخّل بالسطر كيما يتماشى مع اعوجاج الكتابة،أو كيما يتماشى مع عدم القدرة على تحقيق رسم خطي مستقيم للكلمات منسجماً مع السطر، كما يحصل لأطفالنا وهم يتعلمون المبادئ الأولى للكتابة...

السطر القرآني إذن قائم ومستقيم، وعلى قدر الانتظام وعلى وفق استقامة السطر يتحقق للتبين بلوغه، وتتحقق للبلوغ بلاغته القرآنية الكونية التي على المتبينين من ذوي الاختصاصات الشيئية (العلمية) أن يدللوا عليها بالتجربة بعد التدليل عليها بالتسلسل الكوني الثلاثي للبلاغة القرآنية ممثلاً بالقرآن والإنسان والـ"كل شيء"، وعلى وفق تسلسل ثلاثي كوني لبلاغة الإدراك القرآني، ممثلاً بالحس، والخيال، والعقل، مجتمعين، بياناً وعرفاناً وبرهاناً.

وبموجب ذلك وبموجبه فقط، يصير التبيّن وجهاً للتقرء، أي يصير التكشف والتوضّح وجهاً للتضام والانضمام، أما التضام فبالقرآن وأما الانضمام فإليه. وهذا أول الضمّ، ويليه الضم الثاني، ألا وهو ضمّ الأشياء إلى بعضها بعد ضم الآيات إلى بعضها في التزيل العزيز أو في الكون. فإذا تحقق ذلك تحقق البلوغ وتبينت البلاغة الكونية التي وجهاها العلم الإلهي بوجهيه، وجه أحسن الحديث ووجه أحسن الخلق...

---

(1) مصنف ابن أبي شيبة:(كتاب فضائل القرآن)، ج٧/ص١٦٥،وفضائل القرآن: ص١٨٣-١٨٤.

فإذا بحثنا لذلك عن بسيط وجيزٍ جامع نتعلم منه وبه ونتوسمه ونجري على سمته ونستوحيه، خلصنا إلى الكلمة الأولى، الكلمة القارئة الجامعة الضامة التي بان بها وعن أمرها وقدرها، الـ"كل شيء"، وليست تلك الكلمة إلا الـ"كن فيكون"، تلك المنسربة في الإنسان والأكوان، والمتكون بها كل ما نعلم وما لا نعلم من الأكوان صغيرها وكبيرها، ما لا يمكن إحصاؤه وعدّه وما يمكن إحصاؤه وعدّه، ما يمكن الإحاطة به وما تستحيل الإحاطة به...

فالـ"كن" هي أول البطون القرآني، المتسلسل في الأمكنة والأزمنة والكائنات مذ أول الخلق وما بعد الفناء... وللبطون الأول ظهور، وما ظهوره الأول ، إلا الكلمة الأولى في الترول، كلمة؛ "إقرأ"... وعلينا أن نتبين الـ"كن" بالقراءة، وما الـ"إقرأ" من حيث جمعها وضمها المطلق الكائن فيها بوصفها دلالة كائنة في الفعل الأمر الأول الذي بدء به التتريل العزيز، إلا طباق الجمع والضم الكائن في الـ"كن"... فتكوُّنُ القراءة ، هو تقرء الكينونة، وكما تتكون الأشياء على وفق تسلسلات الـ"كن فيكون"، علينا أن نتكون أو نتقرأ... على أن الكائنات من حيث تكونها الشيئي وتبينها التكويني الماثل أمام البصر، قد أخلصت الخلوص كله للـ"كن" وليس لها إلا أن تخلص، وبإخلاصها بانت أو كانت وتكون وستكون... وبموجب ذلك ، علينا أن نخلص لـ"اقرأ" وبلاغة القراءة، ومن قبل للآمر بالقراءة، الله عز وجل، وعلى قدر الإخلاص ننتفع برحمانية الإقراء. فالإقراء خاصة المقرئ الأول الله سبحانه وتعالى ولهذا يقول نبي الرحمة؛ "تعلموا القرآن (...) فإن القرآن يتعلمه ثلاثة، رجل يباهي به، ورجل يستأكل به، ورجل يقرؤُه الله"(1)...

---

(1) سلسلة الأحاديث الصحيحة : مج1/ص100.

ثانياً : صفة القراءة ـــ بلاغة التبيان:

بادئ بدء، علينا أن ننسى تماماً ما تحيلنا عليه كلمة (قراءة) من معـــنى بســـيط مفاده؛ تمرير البصر على الكلمات المكتوبة على صفحات كتاب. فالقراءة الـــتي نعـــني أعمق من ذلك وابعد غوراً، خاصة ونحن نحاول الإلمام بشيء من بلاغتـــها أو تكونهـــا الذي هو بفضل الأمر الإلهي المتجلي بالـــ"كن فيكون"،وذلك مـــن خـــلال الكلمـــة القرآنية، سواءً كانت كلمة "اقرأ" التي وردت أول سورة العلق،أو غيرها من الكلمـــات القرآنية. وهكذا سنحاول إذن أن نقرأ كلمة "اقرأ" وكأن قراءتنا لها هي قراءة لغيرهـــا من الكلمات فلا فارق بين الكلمات القرآنية من حيث شرط القراءة التي نريد، وهـــذا يعني ان الأسس والأطر المنهجية التي تترتب على كلمة "اقرأ"في سورة العلق، هي ذاتهـــا الأطر التي لنا أن نرتكز عليها لقراءة الكلمة القرآنية، سواء بوصفها مفردة أم بوصفـــها تركيباً أو بوصفها آية أو سورة، أينما وردت في القرآن الكريم.

ولقد كنا فرغنا من محاولة الربط بين القرآن السمعي(كتاب الله المترل على نبيـــه الكريم) وبين القرآن البصري (عالم الشهود)، فخلصنا إلى أن التبيان القرآني طباق عـــالم الشهود ومساويه من حيث ان الكون أو عالم الشهود نتيجة لنظام خلاّق جاء القـــرآن لتبيانه والتدليل على كلياته دون جزئياته، باعتبار الكليات أصولاً كونية لـــن تكـــون الجزيئات إلا مترتبة عليها. ثم نظرنا إلى الكونين، الشيئي واللساني، باعتبار المظـــهر أو الشكل أو العلامة، مرة،وكانت النظرة نظرة اكتشاف لنظام الفرق. ونظرنا مرة أخـــرى باعتبار العمق الذي يجمع المتفرقات الخارجية في نظام كلي شمولي موحـــد، فكـــانت النظرة نظرة قرن الشيء بالشيء والصفة بالصفة، عوداً بها إلى ذلـــك النظـــام الـــذي يوحدها جميعاً ... وبموجب ذلك، وفي ضوء كون القرآن ، ممثلاً بالـــ"كن فيكـــون"، تبيّنا قرآنية التكوّن، من حيث هي مظهر لذلك النظام الكلي، سواء في القرآن بوصفـــه سوراً وآيات وكلمات، أم بوصفه سماوات وأراضين ومخلوقات وصفات مخلوقـــات، ثم

بوصفه نبياً ونبوّات، أو معلومة سائلة صغيرة وعلامات (قلباً وعقلاً وحواساً) أو عقــلاً ومعقولات، وحساً ومحسوسات، وعلماً ومعلومات...

ولقد خلصنا فيما مضى من مواضع البحث، إلى حقيقة أن الحقيقة المحمدية الــتي تجسدت بشخص الرسول الكريم محمد عليه وآله وصحبه صلوات الله وسلامه، هــي أرقى وأكمل، ثم أقدر المخلوقات الإلهية تمثلاً لقانون الــ"كن فيكون"، وهي بعد ذلـك الأجدر في تجليته وسريان ديمومته، ثم في تجسيده أكمل تجسيد. وهذا يعــني ان نظــام القرن والجمع والضم قد تبين تحققه الأعلى بشخص النبي الكريم، لهذا كان الخطــاب الإلهي الموجه إلى شخص النبي الكريم،قد ابتدأ بأنفس وأكرم وأبلغ ما بان عنه الخطــاب الإلهي لأحد من أنبيائه ألا وهو خطاب القراءة، بكل ما لذلك الخطاب من صفــات الإحاطة والشمول والقدرة على النفاذ في الأشياء جميعاً،من حيث هي علامات أو مــن حيث هي نظام تكونت تلك العلامات بموجبه وبفعله.

وهاهنا تبين لذلك النظام من خلال مظهر جديد من مظاهر الأمر الإلهي؛ "كــن فيكون".

لقد جاء الخطاب الذي هو أول نزول الوحي على صدر النبي الكــريم، بصيغــة الفعل الأمر "اقرأ" فكان الخطاب في الغاية القصوى من البلاغة والتبيان، وهذا بعض من تلك البلاغة وذاك التبيان؛ الذي جلّته كلمة (اقرأ)، بوصفها صفة أو علامة؛

أولاً: بيان الصفة:

أ- قرأتُ الشيءَ قرآناً: جمعته وضممت بعضه إلى بعض.

وكل شيء جمعته فقد قرأته

وقارَأَهُ مُقارأةً وقِراءً ، بغير هاء : دارسَهُ.

واستقرأهُ : طلب إليه أن يقرأ.

وتقرّأَ : تفقّهَ . و تقرّأ : تنسّكَ.

وقرأ عليه السلام يقرؤُهُ عليه و أقرأَهُ إياهُ : أبلغهَ .

ويقال للحمى: قَرء، وللغائب: قَرْءٌ، وللبعيدقَرْءٌ. والقَــرَءْ والقُــرْءُ : الحيــض، والطهر ضدّ. وذلك ان القَرْء الوقت، فقد يكون للحيض والطهر.

وأقراءُ الشِّعر : قوافيه التي يختم بها.[1]

ب- فعل أمر مبني على السكون لأنه صحيح الآخر، فاعله مســتتر فيــه وجوباً تقديره؛ أنت. وهو من الأفعال المتعديّة أي التي تستلزم جملتها مفعولاً به.

ثانياً : بلاغة التبيان :

(اقرأ)، أول جملة طلبية انشائية أمرية/ أداة الأمر؛ فعل الأمر (اقرأ)، (أداة أصلية)/ نوع الأمر: حقيقي، لأنه صادر من أعلى إلى أدني ، فهو واجب التنفيذ، لما فيه من قــوة وإلزام.

القَرْءُ، إذن هو عملية جمع وضم للشيء، يجري في زمن باعتبار ان القــرء هــو الوقت. فإذا تذكرنا ان هذا القرء هو فعل فاعل مستتر فيه أو كامن في ثناياه،فهو قبلــه وفيه ومعه وبعده، خلصنا إلى ان عملية القرء، هي عملية حدوث بفعل مُحدِث،وهــي أمر بآمر، وهي قدرة بقادر، وهي حدوث مستمر، لأن توقف حدوثــها يعــني زوال أمريتها، ومن ثم، فإنه يعني عدم الحاجة إلى محدثها، وأخيراً فإن توقف حدوثــها يعــني توقف بلوغها وبلاغتها المطلقة الدائمة.

فالقرءُ إذن صفة القارئ (النبي)،والقارئ لا يظهر بذاته، بل بصفتــه، أو بفعلــه الذي هو فعل الجمع فهو الفاعل الجامع لحظتئذ لا الفاعل الذي هو صفة أخــرى، وإن كانت الصفات الأخرى التي هي لزيمة الذات مستترة باستتار الذات في الفعل الظـــاهر الذي هو فعل الجمع. فالقارئ لحظتئذ، (يتمركز) في صفة القراءة مـــن بـــين صفاتـــه الأخرى، من مثل الحياة والموت والكلام والصمت، أو مثلاً، الطول والعمر، والجـــوع

---

[1] لسان العرب ، مادة (قرأ) .

والشبع والارتواء والعطش...إلخ، فالصفات جميعاً كائنة كون البطون في صفة واحـــدة، هي صفة القَرْء...

وهاهنا يستلزم القَرْء، أو يلاقي بين طرفين؛ القارئ، والشيء الذي ينقــــرئ أو الذي يمتثل لفعل القارئ الاول. وبموجب ما يستلزمه القرء من تعالق الطـــرف الثـــاني بالاول، تصير (اقرأ) من حيث هي جملة الفعل والفاعل، علامة أولى علــــى كيفيـــة امتثال الأشياء للفعل الأول:الفعل التكويني.فالجملة تبيان أول للقرء الأول الإلهي. فـــالله سبحانه فاعل القرء في القارئ الثاني (النبي) وفي المقروء الـــ"كل شــــيء"، أي فـــاعل الجمع والضم والقرن الكوني كله بموجب صفة الربوبية، ثم الخالقية، وكلتيــهما جمـــع وضم وقرء. أما الفاعل الثاني للقرء(النبي) ، الذي فعله فعل الجمع والقـــرن والضـــم العلمي بالجمع والضم والقرن الخلقي، وقد يتجاوزه ويترقى عليه لمرتبة أعلى من مراتـب الجمع، ألا وهي مرتبة الخلق إذا اذن الرب بذلك. فهو أي ذلك الفاعل، يتوزعه فعـــل وانفعال. فهو مرة مفعول به لفعل الخالق وأمريته، ومرة فاعل لفعل القرء والجمع، مـــن حيث إن الجمع هو جمع وضم لذاته النبوية على ذوات الأشياء، فتصير الأشياء مفعـــولاً به له أو لفاعليته فيما هو مفعول به لفاعلية القارئ الأول الله عز شأنه، أي لفعل الآمـــر فيه وفي الـــ"كل شيء"، الآمر الذي لا يجوز عليه الانفعال.

وهكذا هو موقع الأشياء من قطبي الفاعلية والمفعولية القرائية. فالأشــــياء هـــي الأخرى منفعلة بفاعلية القارئ الأول، ومستجيبة لأمريّتها التي هي أمرية الـــــــ"كـــن فيكون". فهي مفعول به لفعل الـــ"كن فيكون"، وفاعل بوساطة ال"كـــن فيكـــون" فيها، بحيث الها وبموجب ذلك السريان الكوني، تنجمع وتضطمّ بعضــــها إلى بعـــض، سواءً بوصفها أبعاض شيء بعينه، أم بوصفها أشياء متفرقة يحكمها نظام الـــــــ"كـــن فيكون" الذي هو نظام الـــ"كل شيء". فهي إذن فاعل لفعل القرء، ولكن فعلـــــها لا يتجاوز شيئيتها إلى العلم بشيئيتها.

النبي إذن، هو قَرْء الـ"كل شيء" ، فهو صفة القرء الأرقى والأكمل، أو هو جامعها وجُمّاعها، وجميعها وأجمعها(*). فهو مقروء، أي مفعول به لفاعلية القرء الإلهي بموجب الخالقية الأمرية التي للـ"كن فيكون".وهو كما سبق وبان لنا في موضوع من مواضع البحث، الأكمل بحسب استعداده لتجسيد تلك المفعولية، فهو إذن تمام تجسيد القرء. وإذ هو كذلك، فإنه تمام تجسيد القراءة ومن ثم فإنه أكرم من يقدر على تجسيد دور فاعل القرء، بعد أن تم به كرم تجسيد دور مفعول القرء. لذا فإنه سيليق به بموجب العلم الكائن في خالقية الـ"كن فيكون"، أن يقرأ ويعلم، (حيث القرء والعلم وجهان لحقيقة واحدة)، أي أن يجمع ويضم ويقرن، الجمع الأكمل والضم الأكمل والقرن الأكمل.

وبموجب ذلك سيكون جديراً بأن يكون وبكليته؛ جسداً وروحاً، رأساً وصدراً، عقلاً وقلباً، حاضراً ومستقبلاً، مكاناً وزماناً، مجتمع نزول آي القرآن؛﴿ ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾. وما ذاك إلا لأنه به تم تبيان كل شيء، وكذا أو قبل ذلك، لأنه به تم قرن وجمع وضم كل شيء. وبموجب ذلك سيليق بالنبي أن يكون مفعولاً (من حيث جنبة القرء الإلهي)، فاعلاً (من حيث الجهة الشيئية، الكونية، بما فيها — أو أخصها البشرية — للقرء)، وبموجب ذلك سيكون جديراً بأن يترقى بالقرن الأرقى، إلى مرتبة؛ ﴿ وَأَنْزَلنا إليكَ الذِّكْرَ لِتُبيِّنَ للنَّاسِ ما نزِّلَ إليهمْ ولعلّهُمْ يتفكّرونَ﴾ ثم، ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلاّ لتبينَ لهمُ الذي اختلفوا فيهِ وهُدىً ورحمة لقومٍ يُؤمِنون﴾ (النحل: ٦٦).

وبموجب ذلك سيصير واضحاً، ان الذي به بلغ الأمر الإلهي غايته، أي النبي

(*) أمرٌ جامع: يجمع الناس.. وجُمّاع كلّ شيء: مجتمع خلقه. وجماع جسد الإنسان: رأسه. وجُمّاع الثمر: تجمّع براعيمه في موضع واحد على حمله. والجُماع: مجتمع أصل كل شيء.. ورجل جميع: مجتمع الخلق. وفي صفته، صلى الله عليه وسلم: كان إذا مشى مشى مجتمعاً أي شديد الحركة قوي الأعضاء غير مسترخٍ في المشي. انظر: لسان العرب، مادة (جمع).

الذي هو قرن القرآن ومجتمعه، ليس به حاجة وهو المُعلّم، لأن يتعلم بمعلم أي بوساطة معلّم، وما ذاك إلا لأنه هو وساطة المتعلمين وهذا يعني ان علمه الذي هو قراءته، علم زلق وطبق، للقرآن وفي القرآن ، فصدرُه الشريف ظرف القرآن، والقرآن ظرفه، وهذا يعني أن النبي ليس به حاجة إلى من يشرح أو يوضح أو يدلل أو يقايس له كي يتحقق له قرن حادثة ما من حوادث الكون الشيئي، (بكل موجوداته، ثم بكل ما لتلك الموجودات من علائق فيما بينها وغيرها)،بعلمها وتبيانها وبيانها القرآني، لأنه هو شرح التبيان وتفصيله، وهو أبعاضه وجميعه. وهكذا لم يكن الرسول الكريم، وهو من هو ، من حيث مركزية التبيين، ليتأخر عن تبيان قرين الحدث أو الحادثة أو المشكل المعرفي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو النفسي أو الفقهي أو التشريعي الماضي أو المستقبلي.. الكائن والذي سيكون..

وهكذا كان النبي على قرء الكتاب أي على مثل طريقته. أما ما يروى عن تأخر النبي عن الإجابة على بعض الأسئلة، أو تأخره عن البت بأمر ما من الأمور التشريعية أو الفقهية، فليس ذاك عن عدم علم أو عن إحاطة قاصرة بما يلزم الناس، أبداً، فقد حصل العلم بحصول القَرْء المتمثل بـ(اقرأ). وهذا ما سنوضحه بعد قليل، ولكن العلم الذي حصل بتمام الأمر بالقراءة، هو علم كلي، أي أنه كما يوصفه القرآن في سورة العلق، علم علقيّ.

فالكلمة القرآنية ــ وليس الحرف الذي هو مكون من مكونات الكلمة ــ هي، علقة بكل ما في تلك الكلمة وما لها من قدرات كامنة أو ظاهرة، سواء على السطح أم حيث الذي تحت السطح. ويترتب على ذلك ان محدودية الكلمة، بوصفها علقة، هي ، ظهور صغير لا يترتب عليه تخلف الكلمة، عما يتوفر عليه الكبير (التركيب) من إمكانات الجمع والضمّ، وما يترتب على ذلك الجمع والضم من أنظمة

وحيوات، طالما ان القرن أول ما يبدأ بالواحد سواءً كـــان رياضيـــاً أو (ألفبائيـــاً)، أو لفظياً، أو خلوياً مادياً، أو ذرياً، أو زمنياً... إلخ(*).

وإذن، وبموجب ذلك يتوالى نظام القرن والجمع بين الصغير والصغير، بين الواحد والواحد، بين الحرف والحرف، بين الكلمة والكلمة... وكل قرن فيما بـــين الشـــيء ومثيله أو مخالفه، هو قرن علقي منويّ من حيث النظام والكيفية، وما يكمن في تلـــك الكيفية وذلك النظام من حكمة الحكيم الخبير. وهذا يعني فيما نحـــن بصـــدد تدبـــره وقراءته، ان الكلمة القرآنية علقة، وان الآية علقة ، وإن السورة علقـــة، وإن القـــرآن بمجموعه ـــ من حيث هو علم كلي ـــ علقة، أولها وموئلها ونشوها هو﴿ الرَّحمـــــن* علَّمَ القُرآنَ* خلقَ الإنسانَ* علَّمَهُ البَيانَ﴾ (الرحمن:١-٤)، فالرحمن أول القرء الإلهـــي للأكوان، والنبي أوله البشريّ.

وهكذا يصير نزول القرآن منجماً (سورةً بعد أخرى، وجزءاً من ســـورة بعـــد جزء) علوق العلقة بجدار الرحم، فالنزول الأول؛ "اقرأ"(**) هو علقة، ستصير – كمـــا هو الحال مع العلقة البشرية ، أو الكونية – رحماً لنزول جديد هو " نون و القلـم " ، ثم

(*) قرّةً أخرى ظهرت أهمية ما يرقد تحت الظاهر وتحت السطح وتحت النص،فلا يمكن فهم تجليـــات "ما هو فوق" دون اكتشاف البنى العميقة والآليات الدفينة التي تكمن وراء هذه التجليـــات. لقـــد ســـعت المدرسة البنيوية وما بعدها، بل النظريات الحديثة للدنياميكا الحرارية، إلى اختراق حاجز التعقد الـــذي يفصل بين الظاهر والباطن، التعقد الذي يبدو وكأنه ذو قدر ثابت، فكل تعقد يغيب عن ظاهر الأشياء لا يضيع سُدى، بل يغوص ليستتر في طبقات باطنها، وهو الأمر الذي يفرض علينا ضرورة اقتفاء أثـــره أيّاً كان غور باطنه حتى يدين لنا بفهم تجليات ظاهرة". الثقافة العربية وعصر المعلومات : ص٢٢٦.

(**) بعيداً عن الخلاف الدائر حول أيهما أسبق في النزول، سورة الفاتحة، أم سورة العلق، حتى ان ابن مسعود وطرح الفاتحة من المصحف لأنه يرى الأسبقية للعبق.. يرى البحث إلى هذا الأمر بناءً علـــى اعتبارين، الأول اعتبار الرحمية، والثاني اعتبار العلقية. وبموجب الاعتبار الأول يرى (الفاتحة) أسبق، بينما يرى إلى (العلق) على أنها الأسبق باعتبار العلقية.. انظر: في الخلاف في أولية النزول وطـــرح ابن مسعود للفاتحة من المصحف، مقدمتان في علوم القرآن، وهما مقدمة كتاب المباني، ومقدمة ابـــن عطية، تصحيح آرثر جفري، مطبعة السنة المحمدية، مكتبة الخانجي، ١٩٥٤، ص٨-١٦.

تصير " نون والقلم " رحماً لـ " المدثر" أو " المزمل" [1] .. إلخ ، وهكذا حتى تمام علقيّة القرآن التي هي علقية " اقرأ " ، وبتمامها تتم رحميته (نسبة إلى الرحم) التي بتمامها تتم رحمية النبي الكريم للمؤمنين، و إن كان النبي الكريم هو رحمهم مذ أول ما بعث إليهم ، و هو تمام تلك الرحمية عند آخر آية أنزلت على صدره الشريف ، وهو كذلك إلى أن تقوم الساعة و بعد قيامها ، بموجب كينونة أي ديمومة " اقرأ " التي هي ديمومة المكان و الزمان ، فهي جمع في أولها و هي جمع في آخرها ؛﴿ إنَّ في ذلكَ لآيةً لمنْ خافَ عذابَ الآخرةِ ذلك يومٌ مجموعٌ لهُ النّاسُ و ذلكَ يومٌ مشهودٌ * وما نؤخِّرُهُ إلاّ لأجلٍ معدودٍ * ﴾ (هود : ١٠٣ – ١٠٤) . ﴿ وتَركْنا بعضَهُم يومئذٍ يَموجُ في بعضٍ ونُفِخَ في الصُّورِ فجَمعناهُم جمعاً *﴾ (الكهف : ٩٩) . ﴿ هذا يَومُ الفَصْلِ جَمَعْناكُم والأوّلينَ * ﴾ (المرسلات : ٣٨) ... ﴿ يومَ نَطْوي السَّماءَ كطيِّ السِّجِلِّ للكُتُبِ كما بَدَأنا أوّل خلقٍ نعيدُهُ وَعْداً علينا إنّا كُنّا فاعلين *﴾ (الأنبياء : ١٠٤) . ﴿ وما قَدَرُوا الله حقَّ قَدْرِهِ والأرضُ جميعاً قبضَتُهُ يومَ القيامةِ والسّمواتُ مَطويّاتٌ بيمينهِ سُبحانَهُ و تعالى عمّا يُشركون *﴾ (الزمر : ٦٧) .

ثالثاً : بلاغة الإقراء :

جاء في حديث الإقراء ، أن نبي الرحمة وقبل أن يفجأه الحق في غار حراء، كان بان له و تبين لغيره أن الرؤيا التي يراها لم تكن إلا لتتحقق ، وإنه حُبِّبَ إليه الخلاء الليالي ذوات العدد ، ثم فجأه الحق بنزول جبريل عليه السلام بالوحي ، ويروي المحدثون عن نبي الرحمة، انه حين نزل عليه جبرائيل بالوحي، كان قائماً ، فجثى لركبتيه، كما يروى عنه ، " قال (جبرائيل) : اقرأ ، قلت : ما أقرأ ؟ ، فأخذني فغطني ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد، ثم قال "اقرأ باسم ربك الذي خلق" فقرأت.."[2]

والذي يبين من الحديث ، أن جبريل عليه السلام ، قد استقرأ نبي الرحمة ، أي

---

(1) انظر: مقدمتان في علوم القرآن: ص٨، ص١١، ص١٤.

(2) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ج٣٠/ ص٢٥١.

انه طلب منه أن يقرأ ، بصيغة الأمر ، باعتبار أن الأمر هاهنا طلب صادر من أعلـى إلى أدنى فهو ملزم الحدوث . وهذا يعني أن الرسول كان يعلم القـراءة ، فـالقراءة علـم داخلي عميق في شخص النبوة المحمدية، ولكن أي قراءة تلك التي كان نـبي الرحمـة يعلمها ، هل هي القراءة البسيطة قراءة الكلمات المرسومة أو المخطوطة علـى ألـواح الطين وجلود الحيوانات وسعف النخيل كما كان سائداً في عصره ؟

الحقائق التاريخية ، تؤكد أن الرسول لم يكن يعرف هذا النوع من القراءة قبـل بيان نبوته، والحقائق القرآنية، تؤكد أنه النبي الأمي؛ ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمـي الذي يُؤْمِنُ بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون *﴾ (الأعراف : ١٥٨) . هذا مـن جانب ، ومن جانب آخر فإن دلالة كلمة (الوحي)، ثم ، إيراد الحديث بلفظ (قـال) فيما يتعلق بجبريل ، ثم سطحية فكرة أن جبرائيل ، قد نشر على النبي ، وينشر عليـه في كل نزول ورقة أو غيرها، قد كتب فيها كلام الله ، ليقوم النبي بقراءته ... فيما تؤكـد الحقائق التأريخية أن الوحي يترل على الرسول أحياناً ، وهو بين المسلمين ، فلم يـرد عن المسلمين الأوائل سوى أنه كانت تظهر عليه علامات الترول ، ثم يتلو عليهم مـا نزل عليه ، دون ذكر لقراءة في وسيط إلا صدره الشريف ... كل ذلـك يؤكـد أن الإقراء لم يكن قراءة كلمة مكتوبة على وسيط خارجي ، وإن كانت تكتب علـى وفي الوسيط الخارجي ، أي صدره الشريف ، حتى إن الرسول كان يحرك لسانه بما يترل إليه خشية أن يتفلت منه ، أو ينساه ، فنهاه الله سبحانه عن ذلك .

وهذا يعني أن القراءة كانت أعمق من قراءة المكتوب الخارجي ، إنهـا قـراءة المكتوب الداخلي ، قراءة الكتاب المترل على الصدور ، حيث مجمع العلمـين ، علـم الداخل وعلم الخارج ، إنها إذن قراءة ما هو غائب وبعيد عن الحس البصـري ، ومـا الحكمة المقروءة إلا كلمة الوحي والإعلام الخفي. وما القراءة إلا هناك حيث العمق.

ولقد ورد في حديث الاقراء إن جبريل أخذه فَغَطَّهُ ، و في روايـة (فـأخذني فضمَّني)، ثلاث مرات[1] . و قد بان لنا ، في بيان صفة (قرأ) من حيث هي دلالـة

([1]) المصدر السابق: ج٣٠/ ص٢٥٢.

وضعية ؛ (قرأت الشيء قرآناً : جمعته و ضممت بعضه إلى بعض) . فـأخْذُ جـبريل للنبي ، هو جمع و ضم إذن ، وهو قرء شيئي قبل أن يكون قـرءاً علميـاً ، فـالأخذ والضم، واقع على الجسد الشريف ، الذي بلغ منه الجهد بذلك الأخذ ، أخـذ ملـك عظيم الشأن والقوة بالنسبة إلى جسد النبي الشريف ، فهو إذن تغييب كلـي للجسـد الشيئي في فعل القرء ، فالنبي بوصفه جسماً ، أو مادة (شيئاً) مأخوذ بفعـل القـرء الأول ، القرء الشيئي ، قرء العلامة، والصفة ، بعضاً إلى بعض، وبعضـاً إلى بعـض، وبعضاً إلى بعض، حتى ليس ثمة، بعضية بل كلية، وليس ثمة أعضاء بل عضـو واحـد، وليس ثمة خارج وداخل، بل الداخل الخارج والخارج الداخل، وليس ثمة سمع وبصـر، بل سمع بصريّ، وبصر سمعيّ، وليس ثمة حواس وعقل وقلب، بل ثمة عقل جـامع، أو صفة واحدة تجمع الأعضاء كلها، ثمة عقل،هو خلاصة كل تلك الوسائط والعلامـات، عقل سائل صغير، كامن وراء العين ووراء الأذن ووراء العصب، ووراء القلـب ووراء الدم، عقـل كامن في المادة ووراء المادة، فهو معادل المادة الصغير، أو هـو خلاصـة جمعها وضمها وغطّها بعد أخْذِها...

وبعد ذلك، فالأَخْذُ الملائكي، من حيث الطبيعة اللامحسوسة للملائكة، التي يجيء جبرائيل على رأس بلاغة تكونها النوراني، ما هو إلا تقريب و إدناء الطبيعة البشرية مـن الطبيعة الملائكية، حتى لا فاصل بينهما، انه إذن تعشـيق وصـهر ومـزج وتذويـب للطبيعيتين، أو للبشرية في الملائكية، والغاية من كل ذلك، هـي إظـهار وكشـف، وإيضاح ذلك العميق الملائكي، بل الأعلى نورانية، ذلك الكامن في صلـب الطبيعـة البشرية للنبوة ، وهو بعد ذلك بيان وإيضاح نظام الجمع الكلي البليغ الكائـن بكينونة النبوة المتسلسلة في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، جيلاً بعد جيل وأمة بعد أمة.

والأخذ هو دورة جديدة، للتكون الشيئي الذي بدأ بخلق الأرض ومن ثم تسـوية السموات. فالأخذ لم يكن أخذة واحدة، ولا أخذتين، بل ثلاث مرات، جاءت طباقـاً لتسلسلات الـ"كن فيكون" الثلاثة الرئيسة... وهكذا تكررت في تلك اللحظـات الثلاث، نواميس الجمع الأخير دنيوياً، للنبوة في شـخص نـبي الرحمـة، وفي تلـك

اللحظات، انتظمت حركة الأخذ أو الضم ثلاثاً مع حركة النظام الكلي للـ"كل شيء" أي أن الذي حصل هو إعادة ضبط الحركة بالحركة، جمعاً بجمع، كي تتحقق السيادة النبوية، والخلافة الأرضية الأخيرة للأرض، بوصف الأخيرة تبياناً للأولى، تلك التي كانت منذ الخلق الأول... فالأخذ كان مرة واحدة بدأت وانتهت، وثانية بدأت وانتهت، وثالثة بدأت و لم ينته أثرها، وان انتهى فعلها الخارجي، فأثرها ظل يتسلسل على وفق كيفية الأخذ نفسها، مع كل نزول، دونما حاجة إلى أخذ وغطّ جديد، بل بالأخذ الأول الذي هو غطّات أو ضمّات ثلاث... وكل ضمة هي قراءة أو قرء للطبيعة الجسدية النبوية بغية استكمال تسلسلات الكون القرائي النبوي وعلى مثل التسلسلات الكونية.

وفي ضوء ذلك كله، نتبين كونية هذا الفعل، فعل الأخذ، ثم تعالقه وعلوقه بالنظام الداخلي العميق للكون، وبموجب ذلك، سنتبين المظهر الآتي للقراءة، ولكن لا بد من الإشارة قبل ذلك، إلى أن منطق التكون القرآني، وقرآنية الكون، يُنحي جانباً، وتماماً، الرواية الأخرى لحديث الإقراء، والتي تذهب إلى أن نبي الرحمة، إذ قال له جبريل، اقرأ، قال؛ ما أنا بقارئ ، فأخذه فغطّه، فقال له اقرأ، فقال ما أنا بقارئ، فأخذه فغطه فقال له: اقرأ[1]... ذلك من حيث الذهاب إلى أن المقصود بـ(ما أنا بقارئ)، هو النفي حصراً أي نفي النبي لعلمه بالقراءة، من حيث كون القراءة متعلقة بكلمات مكتوبة ظاهرة للحس البصريّ...

ان الجمع بين النفي بـ(ما)، وتوكيد خبرها بـ(الباء)، في عبارة (ما أنا بقارئ)، بلاغياً، يعني ان الجملة، جملة نفي لا جملة استفهام، فالـ(ما) نافية عاملة عمل ليس، والباء الداخلة على خبرها علامة (ما) المشبهة بليس النافية، وما هو علامة على الاستفهام الكائن في (ما) الاستفهامية.

فإذا كان الأمر كذلك، ترتب، ان نبي الرحمة ينفي علمه بالقراءة من حيث هي قراءة كلمة مكتوبة، ولقد تبين لنا أنّ لا كلمة مكتوبة نشرت ورقتها لحظتئذ، ليقرأها

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم : ج٤/ص٤٩٨-٤٩٩.

النبي، أو لينفي معرفته بقرائتها. ومن بعد فإن نفي القراءة، يعني، ان فعل الـــ"كـــن" لم يكن بليغاً البلاغة التي كانت له مع عصا موسى مثلاً. فهل يعقل، ان تمثل عصا موســـى لفعل الـــ"كن" وبلاغته وبلوغه الإلهي المطلق، أبلغ من تمثل شخص النبي، وهو الـــذي ظهرت وبانت فيه بلاغات الأشياء جميعاً؟

فالعصا، اهتزت، مذ صدر الفعل إلى موسى لا إليها، ثم سعت بوصفها ثعبانـاً ثم عادت إلى طبيعتها ولقفت ما يأفكون، ولقد تساءل الرسول بعد جثيّه علـــى ركبتيـــه اهتزازاً، كما اهتزت العصا، وتهتز الأرض، وتهتز السماوات[1]، وكما ستهتز شـــفتاه ولسانه كما سنتبين بعد قليل... وبعد جثي الرسول، كان التساؤل عن كيفية القـراءة، فجاء إعلام الكيفية ورسمها وبيانها ممثلاً بقوله تعالى "باسم ربك الذي خلق"... أمـــا الذي ترتب على التساؤل، فهو استحصال الإجابة، أو التبين الكلي، علـــى دفقـــات ثلاث، دفقة الجمع والقرء، ثم دفقة تكرار القرء وطباقه من الـــ(كاف) إلى (النـــون) في (كن)، ثم دفقة البيان، المتسلسلة على أطوار خمسة، بانت في خمـــس آيـــات ســـبقتها البسملة بوصفها أول تسلسل الجمع بوجهيه،ممثلاً بالآيات الخمس من حيث هن تبيـــان علم الخلق وتخلق العلم، بوصفهـــما وجهين قرآنيين كونيين، وجـــه النظـــام ووجـــه الانتظام، أو وجه القرء الإلهي للـــ"كل شيء" ووجه القرء البشري...

ولنقرأ الآية التالية، لنتبين ما نحن بصدده، من خلال مظهر آخـــــر، ومواجهـــة جديدة.

رابعاً: الإقراء والاتباع ـــ قراءة الكتابة:

جاء في التنزيل العزيز، وهو يتوجه بالخطاب الكوني إلى نبي الرحمة؛ ﴿ لا تُحـــرِّكْ بهِ لسانَكَ لِتَعجلَ بهِ* إنَّ علينا جمعهُ وقُرآنه* فإذا قَرَأْناهُ فاتَّبِعْ قُرآنه* ثمَّ إنَّ علينا بَيَانَـهُ*﴾ (القيامة:١٦-١٩).

([1]) انظر: الأحاديث القدسية: ص٣٢٨-٣٣١. ونص الحديث: "إنّ الله يقبض الأرض- أو الأرضيـــن- وتكون السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، وفي رواية "ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك، أنا الملك".

وورد عن الصحابة، ان نبي الرحمة، كان إذا نزل جبريل بالوحي، يحرك لسانه ويسارع تكرار النطق به، خشية تفلته منه أو نسيانه،ثم صار بعد ذلك، إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب عنه قرأه كما وعده ربه في الآية المباركة السابقة.

لقد بان لنا في موضع سابق من البحث، ان ظهور شخص النبي الكريم يعني مما يعني ظهور العلم الكلي بشرياً بعد تمام بلاغة البطون أو العمق، وانه ملتقى الظهورات الكونية للنظام الداخلي، وهي تستجمع تسلسلاتها الكونية في الـ"كل شيء" بوساطته، فهو بيانها، وتبينها، وهو طباق نظامها الداخلي، سواء من حيث هو طبيعة بشرية جسدية، أم من حيث هو حقيقة مجردة من غلظة المادة وكدورتها، بوصفه لا ينطق عن الهوى...

كذلك بان لنا، ان البيان الخارجي للفكرة، اية فكرة، ما هو إلا تكرار لبلاغة تكونها الداخلي في العقل، العقل الذي هو جماع كل مواضع العلم الكائنة في الإنسان، جلداً ويداً ورجلاً وقلباً وسمعاً وبصراً، سواء كانت هذه المواضع مما يوسم بالصغر البليغ أو بالكبر البائن والواضح.. فالبلاغة سمة الانتهاء بعد الوصول، والنضج بعد الولادة، والإحاطة بعد الإرادة، والجمع أو الضم بعد الفرق أو التباعد، والوصل بعد الفصل ، والقرب بعد البعد، والنيل بعد الدَّرْك...

ولقد كان النبي زمن البدء الأول للخلق جمعاً، فَفُرِقَ وجُمِعَ، بعد الجمع الأول. فُرِقَ في الأنبياء قبله وجُمِع بولادته الشريفة، فبان بجمعه الجسدي ، ومع جمعه الجسدي الذي هو بلاغة التكون الشيئي، وتربته التي ليس ثمة ما هو أكرم منها ، تحقق جمع العلم الذي فرق في الأنبياء وغير الأنبياء. وما فرق العلم وجمعه في ذات النبي، إلا نظام كوني سار في الموجودات جميعاً من حيث هي شاعرة أو غير شاعرة بسريان العلم... فاستحصال العلم بالشيء والإحاطة به، لا بد ان يسبقها طور الفرق والتباعد والفصل والتباين والاختلاف والإدراك الذي يترتب عليه نيلٌ ما، وقد لا يترتب بالنسبة لنا نحن الذين لا ننطق عن الوحي ...

والذي حصل مع القاء الحكمة العليا في جوف النبي الكـريم؛﴿ وإنَّـك لَتُلقـى القُرآنَ مِن لَّدُن حكيمٍ عليمٍ*﴾ (النمل:٦) ، هو تكون الحكمة وتبين العلم، وما الحكمة إلا قرء للمظاهر في الجواهر، وللسطوح في الأعماق، وللأشياء في الـ"كـل شـيء"، وللتكونات المختلفة في (كون) واحد. وما تكونها في تربة النبوة، إلا تكون النباتـات في التربة الخصبة بإنزال المطر، فالبذرة كامنة في العمق من التربة، بهـا خلقـت، ومنـها أخرجت،وإليها تعود. وهكذا هو العلم بكل شيء من قبل النبي علم أول خُلِقَ بـالخلق الأول، فكمن، ثم خرج بانزال الوحي، ثم يعود نظاماً سارياً صغيراً عميقاً في الـ"كـل شيء" سواءً بظهوره المرئي (الكتاب الذي بين أيدينا)، أم بظهوره اللامرئي الـذي لا تطاله الحواس لحكمة يعلمها الحكيم العليم...

وما أمر النبات ، الذي هو أمر مشترك بين نباتات الأرض، وبين بني الإنسـان كما بان لنا سابقاً، إلا تكون واحد وان اختلفت المظاهر، فالانبات هو الإنبات، ولقـد أنبتنا الله سبحانه نباتاً، كما أنبت البذرة في التربة، وأنبت البويضة في الرحم بعد إنـزال ماء الرجل... وكذلك كلُّ تكوِّنٍ... ومنه تَكوُّنُ المعلومة في الذهن ، فـهي تسـتنبت إنباتاً وتخضع للشروط عينها،ويجري عليها التسلسل الكوني نفسه... وسواءً اصطلحنـا على تكون البذرة انباتاً أم اصطلحنا على تكون المعلومة تفكيراً، فقرء السمتين واحـد، كتابة كان أم قراءة لمكتوب أو إنباتاً أو تفكراً...وليس الفارق بين هذا وذاك إلا فـارق المظهر والطبيعة النوعية للمتكون الذي يختلف من حيث النـوع ويتفق مـن حيـث التكون الداخلي، فلا فرق بين متكون وآخر .. الكل منفعـل، أولاً ثم فـاعل ثانيـاً، والكل مفعول القراءة وفاعلها...

وهكذا يبين لنا أن اطلاق أو تعليم صفة التتريل بكلمة أو علامة (الكتـاب) في آية؛ ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾، يعني أن الكتابة من حيث هـي فعـل تكون داخلي، تشكل سمة التتريل الذي هو تبيان لما هو مكتوب أصلاً في ذلك الجـوف الشريف وعليه، فالمعلومة مكتوبة أصلاً، وما حياة النبيّ وما نزول الوحي إلا تكوين لهـا وإظهار وإيضاح وتبيان. وهكذا تبدأ سورة النمل التي استشهدنا بآيتها السادسة قبـل

قليل، بهذه الصورة؛ ﴿ طس تلكَ آياتُ القُرآنِ وكتابٍ مُبينٍ*﴾ (النمل:١). وهنا يبين القرن الكائن بين القراءة والكتابة والإبانة، والجميع تتصدرها علامة (تلك) للإشارة على البعيد ــ بحسب اللغويين ــ ، وتتصدر "تلك" ، "طس".

فالقرآن مكتوب إذن، مكتوب كتابة الفرق الكوني "طس"، أو "ألم" كما جاء في أول البقرة، التي استشهدنا بآياتها في مبحث البيان، ﴿ ألم * ذلكَ الكِتابُ لا ريْبَ فيه هُدىً للمُتَّقينَ*﴾، وكذلك، تصدر "الكتاب"، اسم اشارة الدال على البعيد "ذلك"، وصدر الجميع بــ"ألم"، فهي "ألم"، ثم "ذلك"، ثم "الكتاب" الذي "لا ريب فيه هدى للمتقين".

الذي يعنينا هاهنا، من الكتابة ــ وإلا فإن أمرها سيكون موئل تبين في الكتاب القادم إن شاء الله ــ هو انها كائنة في صدر النبي، وان القرآن مكتوب قبل كتابته من قبل الصحابة، وانه مجموع قبل جمعهم، ولكن بوصف الكتابة والجمع كونين عميقين وداخليين. فالمكتوب مكنون في الصدر الشريف، كما تكنُّ الأرض بذورها، وإنزال الوحي إبانته التي تبين الآخرون بوادرها وأول وسمّيها، من خلال الرؤى الصادقة، التي عرف بها النبي قبل البعثة، وأيضاً اتخاذه غار حراء، موضعاً، يعتزل الناس فيه ويتلقى بوادر الوحي ويكنّ؛ متخذاً الجبال أكناناً؛ ﴿ وجَعَلَ لكُم منَ الجِبالِ أكْناناً﴾ (النحل:٨١)، وما ذاك الاتخاذ إلا تساوقاً مع كونية الفعل النبوي، ثم كونية النظام الداخلي للــ"كل شيء" وما النبي إلا تبيان كل شيء، فهو نظام كل شيء.. وما الفعلان الجاريان في تكوّن الــ "كُلّ شيء" وتبيّن الــ "كلّ شيءٍ" إلا واحد، فهاهنا بذرة النبوة في غار حراء، وهناك بذرة ما في موضع ما تحت سطح التربة، والذي لترول المطر عين الذي لترول أحسن الحديث... وليس الأمر في كل ذلك خيالاً خصباً، بل حقيقة كونية شاملة...

خامساً : الإقراء والاتباع – قراءة التسلسل الحركي:

إن نهي الفاعل الأول للقراءة الكونية، الله سبحانه وتعالى، لنبي الرحمة عن تحريك لسانه بما يوحى عليه، يعني بدياً، ان الذي سبق فعل التحريك، هو الإنزال، فإنزال

الوحي إذن فعل سابق تلاه فعل التحريك، وهاهنا فعلان، الإيحاء والتحريك، فإذا اعتبرنا بأنّ الرسول كان يحرك لسانه بالوحي فعلاً، تبينا، ان مسألة التحريك هذه، مسألة طبيعية جداً، بل هي واجبة سواءً من حيث هي استعداد الطبيعة النبوية لحدوثها، أم من حيث حدوثها فعلاً.

وببيان ما سبق تبيانه في المبحث السابق، يتضح لنا أن المترتب على أول الإيحاء هو الحركة، فلا حركة دون تحريك، والمتحرك ووسطه الحركي متأثران بفعل الحركة، سواءً كانت حركة الكتابة أم حركة الإنبات أو حركة الأحياء أو حركة الإماتة، أو حركة الفكرة في الذهن. بل أية حركة شيئية لجسم في وسط لا بد أن يترتب عليها حركة الوسط نفسه.

فتحريك اللسان بالوحي قبل تمامه، مترتب كوني أول، يتلوه سكون؛ (إطراق الرسول بعد نهيه عن التحريك)، ولهذا ما يقابله كونياً أو شيئياً ممثلاً بترول المطر على الأرض، وتكوُّن الحركة الاهتزازية: "اهتزت وربت وانبتت" فالاهتزاز، مترتب كوني انفعالي أول، يتلوه سكون. وما السكون إلا كمون الحركة بعد ظهورها بالاهتزاز.

فتحريك اللسان به أي بالوحي تبيان لما يجري في دواخل الذات النبوية من "جمعه وقرآنه" العميق، لا من موضع بعينه من الجسد الشريف، بل من المواضع جميعاً، فبلوغ الكلمة الإلهية التي هي كلمة(اقرأ) بوصفها معادلاً للـ"كن" لا يتوقف عند موضع بعينه، انه يضم المكتوب الكوني ضماً بعد ضم، ومن المواضع جميعاً، ليبين بوصفه خلاصة الجمع، وما الجمع حينها إلا بفعل الـ"كن" أيضاً، فالجمع جمع إلهي "إن علينا جمعه وقرآنه"، والذي يترتب على الجمع بعد الفرق في الـ"كل شيء" أو الـ"كلِّ موضع" من مواضع العلم في الجسد الشريف، هو القرء. فالقرء ضم المجموع إلى المجموع، والقرء بلوغ الجمع تمامه، فإذا بلغ الجمع تمامه بالقرء بلغت الحركة تمامها بالسكون، وحينها يتبع القرء النبوي، القرءَ الإلهي، وبتحقق الاتباع تتحقق الإبانة عن المقروء... وها هنا تصير القراءة النبوية طباق القرء الذي عليه الوجود، الذي جمعه الله سبحانه باسمه الجامع، فاقترنت متضاداته ومختلفاته في وحدة واحدة، هي وحدة النظام

الكوني الشامل والكلي العميق، نظام الـ"كن" والتكوون بكل مظاهره الشيئية والحيويّة...

والذي سيرافق تلك الحركة الكامنة حينها،هو نفسه الذي يرافق حركة المعلومة المكتوبة في الدماغ البشري، والظاهر بوصفه طاقة حرارية متولدة بمقادير كبيرة اثناء عمل المخ(١)، وهو نفسه الذي يتولد عن عمل المحركات البخارية أو غيرها، من طاقة حرارية كبيرة، وهو نفسه الذي يماثل الطاقة الحرارية الكائنة في الجو، والمسببة لنزول المطر. وهكذا كان الجسد النبوي الشريف، يتفصد عرقاً أثناء نزول الوحي، وكان يُرَى عليه من العلامات، ما دعا المستشرقين جاهلين أو متجاهلين هذه الحقيقة الكونية، إلى اتهامه ـــ حاشا له ـــ بشتى الاتهامات النفسية.

وعدا ذلك، فقد طابقت حركية الآيات المباركات السابقات، تلك التسلسلات والمخاضات التي تتولد عنها الفكرة على اللسان، حينما تكون الفكرة مهمة وفاعلة ، كأن تكون ابتكاراً علمياً، أو نظرية فلسفية، أو عملاً إبداعياً.

وكذلك طابقت تسلسلات المخاضات الولادية في الأشياء جميعاً، فتسلسلات الآية، نظام كوني شمولي يخضع له كل شيء، بوصفها تبياناً لـ"كل شيء"، ولنبحث ولنتقص ذلك، في الأشياء جميعاً، كما يطالبنا القرآن بذلك...

أما التسلسلات الكونية التي تبينها الآيات، فيما يتعلق بنشوء الكون جميعاً، خلقه وفنائه، إحيائه وإماتته، أرضه وسمائه... فهي؛

أ- الايحاء (التنزيل).

ب- بدء الحركة / تحريك اللسان به.

ج- السكون / "لا تحرّك به لسانك".

د- الجمع / "إن علينا جمعه".

هـ- القرء / "وقرأناه" "فإذا قرأناه".

---

(١) انظر: مات ريدلي، الجينوم - السيرة الذاتية للنوع البشري، ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمي، سلسلة عالم المعرفة (٢٧٥) - الكويت ٢٠٠١، ص٢٦٦.

و- الإتباع / " فاتبع قرآنه".

ز- البيان / " ثم إن علينا بيانه".

فإذا نظرنا إلى الحركة من جهة التكون، رايناهـا تتسـلل، هكـذا؛ في ضـوء الآيات(١٧-١٩)

الجمع والقرء ←── القرء والقرء ←── البيان

الطور الأول ←── الطور الثاني ←── الطور الثالث

"إنا علينا جمعه وقرآنه" ←── "فإذا قرآناه فاتبع قرآنه" ←── "ثم ان علينا بيانه".

ودائماً، الطور الأخير، مسبوق بـ"ثم" التي هي حرف عطف للتراخي، تبيانـاً لطول الحقبة الزمنية الفاصلة ما بين الطور الأخير وما قبله. ولنتذكر هاهنا، التـترلات الزمنية للكينونة (كألف سنة)، (ألف سنة)، و(خمسين ألف سنة)، ولنقرن بلاغة الطـور الأخير للقراءة بالتترل الأخير للزمن (اليوم الرباني).

أما الذي لنا تبينه الآن، فهو مدى مطابقة تسلسلات الآية السابقة، لتسلسـلات الخلق البشري... يقول تعالى في تبيان خلق الإنسان؛ ﴿ ولَقَدْ خلقنا الإنسـانَ مـنْ سُلالةٍ منْ طين* ثمَّ جعلناهُ نُطفةً في قرارٍ مكين* ثمَّ خلَقْنا النُّطفةَ عَلَقَةً فَخَلقنـا العَلَقـةَ مُضْغةً فخَلقنا المُضْغة عِظاماً فَكَسونا العِظام لحماً ثم أنشأناهُ خَلقـاً آخـرَ فَتبـاركَ اللهُ أحسَنُ الخالقينَ*﴾ (المؤمنون:١٢-١٤).

والذي يبين من الآيات المباركات، ان تسلسل الحركة الكونية مر بثلاثة أطـوار، في سبعة تسلسلات، أما الأطوار فهي؛

أ- الطور الطيني، حيث كان الإنسان يتسلسل في التربة، مفرقـاً فيـها بوصفه كوناً عنصرياً، كما تبينا في موضع سابق من البحث. وهذا مـا تبينـه الآيـة الأولى؛ "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين". وهذا ما يقابل بـدء الحركـة أو الإيحاء.

ب- الطور النطفي، طور القرار، وفيه صار الإنسـان نطفـة في صلـب وترائب والديه فقرت الحركة وسكنت، بعد بيانها بالخلق الأول للإنسان. وهذا ما تبينه

الآية الثانية؛ "ثم جعلناه نطفة في قرارٍ مكين". وهذا يقابل، سكون الحركة، والامتثال إلى الأمر الإلهي الكوني من قبل المتكونات جميعاً في مثل هذا الطور.

أما الذي يفصل ما بين الطور الأول والطور الثاني، فحين من الزمن، تدل عليه أداة العطف السابقة؛ "ثم". ومن مظاهر هذا الفاصل الزمني، ان النبوية على طورين، طور كامن وطور ظاهر. وما بين الطورين، هو الزمن الفاصل ما بين أول الخلق وبين ولادة نبي الرحمة الظاهرة في الجزيرة...

ج- طور التكون (الخماسي)، الذي تمثله الآية الثالثة من آيات (المؤمنون) التي تبين عن تكون النطفة، وأيضاً بعد زمن متراخٍ تدل عليه (ثم) وعلى الوفق التالي؛ (العلقة، المضغة، العظام، اكساء العظام لحماً، ثم الإنشاء خلقاً آخر). وهذا ما يقابل النظر إلى حركة الإقراء السابق تبينها، من جهة التكون... ومن مظاهر هذا الطور، البعثة المحمدية بعد تجاوز نبي الرحمة سن الأربعين، أي بعد بلوغ الأربعين...

فإذا فرقنا، ثم قرنّا بلاغياً، أطوار الخلق البشري، بتسلسلات الإقراء السابقة، حصلنا على؛

الفرق الطيني ← الجمع النطفي ← الجمع العلقي ← القرء المُضغي القرء العظميّ ← اتباع العظام أو اكساؤها لحماً ← التبين البشريّ المتكامل، أو الإنشاء خلقاً آخر...

فإذا اكتفينا بقرن تكون الأطوار بتكون الإقراء، من حيث التسلسل الخماسي للطور الأخير، حصلنا على:

آ- الجمع ← العلقة / "إن علينا جمعه" ـــ "خلقنا النطفة علقة".

ب- القرء ← المضغة / "وقرآنه" ـــ "فخلقنا العلقة مضغة".

ج- القرء الثاني ← العظام / "فإذا قرأناه" ـــ "فخلقنا المضغة عظاماً".

د- اتباع القرء ← إكساء العظام لحماً / "فاتبع قرآنه" ـــ " فكسونا العظام لحماً".

و- الإبانة ←── الإنشاء خلقاً آخر / "ثم إن علينا بيانه" ــ "ثم أنشأناه خلقاً آخر".

لنجمع ما سبق تبينه على سورة القيامة ثانية، السورة التي سلسلت آياتها مما سلسلت، بيان النهي عن تحريك اللسان النبوي بالوحي. والذي يعيننا الآن مما تبين عنه السورة المباركة هو قراءة بلاغتها الكونية، أو تبيانها للجمع الأخير، جمع قيام الساعة، وتحديداً جمع العظام وتسويتها. ولنتذكر أنّ الحامل الشيئي للعلم، من حيث هو مادة صغيرة، كائنة في اللسان، هو نفسه الكائن في العظام، وهذا ما تبين عنه الكشوفات العلمية الشيئية، الإحيائية، والكيميائية، وخاصة ما يتعلق بالوراثيات المعاصرة.

تبدأ السورة المباركة،هكذا؛ ﴿ لا أُقسِمُ بيومِ القيامةِ* ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللّوامةِ* أيَحْسَبُ الإنسانُ ألَّنْ نجمَعَ عظامَهُ* بلى قادرِينَ على أنْ نُسَوِّي بَنانَهُ*﴾ (القيامة:١-٤)، وتستمر السورة كذلك حتى الآية السادسة عشرة، آية "لا تحرك به لسانك" ثم تخلص السورة المباركة إلى آياتها الأخيرة، تبياناً لـ:﴿ أيَحْسَبُ الإنسانُ أنْ يُتركَ سُدى* ألَمْ يَكُ نُطفةً مِنْ منيٍّ يُمْنى* ثمّ كان علقةً فَخَلقَ فَسوَّى* فجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَينِ الذَّكَرَ والأُنْثَى* أليسَ ذلكَ بِقادرٍ على أنْ يُحْيِي المَوْتَى*﴾ (٣٦-٤٠).

فإذا اكتفينا بالآيتين ﴿ ألم يك نطفة من منيٍّ يمنى* ثم كان علقة فخلق فسوّى﴾ تبين لنا طباق جديد لتسلسل الحركة الكونية في الوجود، وعلى الوفق نفسه، الذي سنترك للقارئ تبينه...

وبعد ذلك كله، ألا يبين لنا أن الحركة الكونية متماثلة في الموجودات جميعاً، وعلى اختلاف ظهوراتها وأنواعها، ثم ألا يدعونا ما سبق، في ضوء تعالق الأشياء بعضها ببعض، الذي هو تعالق آيات القرآن بعضها ببعض، إلى إعادة قراءة، لآيات النهي عن تحريك اللسان وما بعدها، في ضوء السورة بتمامها، فلا نفرق مجموعاً ولا نباعد بين موصول، لا في هذه السورة حسب، ولا في القرآن الكريم حسب، بل في القرآن، بوجهتيه الكونيتين، اللسانية والشيئية، طالما أننا نؤمن ان الذي عالَقَ الأشياء بعضها، القمر بالشمس، والشمس بالكواكب، والكواكب بالسماء، والسماء بالسموات،

والسموات بالأرض، والأرض بالأراضين، والأراضين بالجبال، والجبال بالأنهار، والأنهار بالأشجار، والأشجار بالإنسان، والإنسان بالقرآن والقرآن بالأشياء ... هو ذاته جل شأنه الذي عالق آيات القرآن، وكلماته وسوره، كلمة بكلمة وآية بآية وسورة بسورة، حتى صار نظاماً كلياً للوجود، ذا ظهورات متنوعة يحيل بعضها على بعض، ويؤدي بعضها إلى بعض، ويبين بعضها بعضاً،استجابة للأمر الإلهي الواحد وسنته التي لا تحويل لها، السنة المكنونة تحت المظاهر، والكائنة بها المظاهر، سنة جمع الشيء على الشيء وقرء الشيء بالشيء وبيان الشيء من الشيء... سنّة؛ "جمعه" و "قرآنه" و"بيانه"...

الفصل الثاني

القراءة من العلم إلى البيان

أولاً: مواجهة القراءة، المُعلّم والمُتعلّم ــ العِلْمُ والتّعلُّم:

جاء في التتريل العزيز، قوله تعالى؛ ﴿ الرَّحمنُ* عَلَّمَ القُرآنَ* خَلَقَ الإنْسانَ* علَّمَهُ البَيَانَ*﴾ (الرحمن:١-٤). وورد عن نبي الرحمة؛ "إنما العِلْمُ بالتعلُّم (...) ومن يتحرّ الخير يُعطَهُ"[١].

ولقد تبين لنا في موضع سابق من البحث،ان الأسماء الحسنى، من حيث مواجهة الجمع والفرق، هي فرق الرحمة، وان الرحمن جمعها الأول والأخير، وهو بدؤها ، وعودها. فالتتريل العزيز يسلسل لنا العلاقة بين الذات المقدسة، الله سبحانه، والأسماء، هكذا؛ الذات المقدسة، الرحمن، والأسماء الحسنى؛ "ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى". فذات صمدية، واسم جامع، وتسلسل اسمي، يبدأ بالرحمن وينتهي عنده، والرحمن هو الاسم الذي وسع الأسماء والأشياء جميعاً...

فالاسم (الرحمن) هو العلامة التي يتوسّمها المتبيِّن، باعتبار جمعها وصدور الأشياء عن علم الذات المقدسة الكائن في شمولها وإحاطتها. وسعة الربّ، هي سعة الرحمة والعلم؛ ﴿ ربَّنا وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ رحمةً وعِلماً﴾ (غافر:٧) ، وعلى المتبين ان يتدبر ظهور تلك السعة الرحمانية العلمية...

ولقد خلصنا سابقاً إلى ان ما يترتب على تبيان "الرحمن" هو طباق ما يترتب على تبيان الـ"كن" من حيث جريان الـ"كن" الدائم في الأشياء، ومن حيث جمع الـ"كن" وأصالته بالنسبة إلى التكون. وان الكائنات جميعاً من حيث هي "كل شيء" قد تمثلت الـ"كن" كل حسب استعداده، فتكونت بأولية الـ"كن" فهي بتعبير آخر، أو من حيث الوجه الآخر للتمثل، تمثلت، الرحمة الإلهية والعلم الإلهي، وذلك في تلك المرحلة التي ما زالت فيها الكائنات، مادة سائلة، مجموعة جمعاً عنصرياً،مضموماً بعضه إلى بعض، مقروناً بعضه ببعض، فالشيء نظير الشيء وقرينه ومماثله حيث لا مظهر كائناً بعد للأشياء، ثم ظهرت فتنوعت عن ذلك الأصل الأول الجامع، منتفعة

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : ج١/ص٥٣.

بـــ،ومتمثلةً ظهور الأسماء الحسنى من (الرحمن) لتكون بعد ذلك، الطــــــرف الشـــيئي للتبيان المترتب على الأصل، ثم لتكون مفعولة بالأصل، أصل الرحمة وتنوعاته (الأسمــــاء الحسنى). وأيضاً، وفي الوقت نفسه، فاعلة من حيث وجوب اتصافها وتخلقها ببلاغـــــة القرء ذات الوجهتين، المفعولية والفاعلية، واللّتين بتمثلهما البليغ جرى التسلسل مـــــن المفعولية إلى الفاعلية وبالعكس، ليقابل دوام هذا التسلسل دوام التكون الذي هو لـــزيم الـــ"كن فيكون".

إن أسماءه الحسنى جل شأنه، ظهورات علمه الذي يحيط بالزمان ماضيه وحـاضره ومستقبله، وبالمكان قريبه وبعيده وبالكائن كله وبعضه. والإحاطة حاصلـــة في وقـــت واحد (بلا فترة من الزمن أو تفاوت في العلم) للزمان والمكان والكائن. وتلـــك هـــي بلاغة العلم الإلهي مما نتبين، والأبلغ منها ما لم نتبين بعد، والأبلغ مما لم نتبين بعد، ما لن نتبين أبداً...

فالعلم هو السمة أو العلامة التي تدلنا ببيانها على ما وراء البيان، فنهتدي ببيانهـــا إلى المبين، وليس اهتداؤنا إليه لنحيط به وكيف لنا، وحاشا لله أن يحيط به من وضعـــت له العلامة للاستدلال لا للوصول... فشأننا إذن هو التعرف على العلامة فإذا حصلنا لنا شيء من التعرف على العلامة حصل لنا شيء من علم يكفينا للإعتقاد النهائي بأن وراء العلامة معلم...

أما العلامة فشأنها أن تكون واضحة بينة ظاهرة، وما وضوحـــها إلا إعلامـــها، وليس من شأن إعلامها إلا أن يكون في الدرجة القصوى من البلاغـــة وبمـــا يؤمـــن حصول العلم وتأمين حاجة المستعلم صغيراً كان أم كبيراً، بليغاً أم لم يكن، عالماً أم غـــير عالم، فكل له من تلك العلامة موضع أو جهة يتوجه إليها وبها...

وليست العلامة خارجية حسب، أي ليست العلامة مما هو منفصل عن الســـاعي إليها من بني البشر، وانما هي داخلية أيضاً... فالعلامة الخارجية لا يمكـــن أن تكـــون علامة على شيء لطالبها إذا كان طالبها لا يمتلك القدرة على الإحاطـــة بهـــا. ومـــا

الإحاطة بها قلت أو كثرت، صغرت أم كبرت إلا دليل على ان طالب العلامة ــ الإنسان، هو الآخر علامة، وعلاميته كائنة فيه وكامنة في دواخله وجارية في مسالكه جريان الماء النازل من السماء في الأرض... وما سماع أو مشاهدة أو لمس أو ذوق أو شم العلامة الخارجية إلاّ وسيلة أو محاولة لنظم العلامة الخارجية وإطباقها وإتباعها العلامة الداخلية... ولكن العلامة الداخلية هي عينها العلامة الخارجية وإن اختلفت الأخيرة عن الأولى اختلاف التشيؤ الخارجي الحسي عن الأولى المجردة من التشيؤ، فالخارجية إذن مظهر الداخلية وصورها وشكلها...

ومما هو مركوز في طبع الإنسان، انّه حينما تختلف عليه العلامات الخارجية الدالة على معلوم واحد، يلجأ إلى الاختزال أو التعميم أو التجريد، وما التجريد والتعميم والإختزال إلا (فهرسة) للعلامات أو العنوانات الفرعية تحت عنوانات رئيسة أقل منها وأوفى وأبلغ في الدلالة عليها جميعاً بأسرع ما يمكن من الوقت وأقل ما يمكن من الجهد...

وتبقى العنوانات الفرعية تفصيلاً للعنوانات الرئيسة لمن شاء تفصيلاً...

والذي يحيط بالإنسان بوصفه مستعلماً ما لا يعد ولا يحصى من العلامات وعلى اختلاف أنواعها وألوانها، تشابهها واختلافها .. فكيف يقدر على الإحاطة بها أو الاستدلال بها على ما وراءها؟ وها هنا تترتب على الحواس مهمة الإحاطة بوجود العلامات ثم ما بين العلامات مما يمكن قرنه بغيره فينجمع عليه وينفرق عنه، أو يقترب منه ويبتعد عنه. فما الذي يكمن وراء ذلك التوجه الحسي إلى القرن والضم والجمع والقرء؟ يقيناً ان الذي وراء تلك القراءة هو العقل الجامع، العقل الأصل الذي يتسلسل على وفق تكويني سباعي،من اليمين إلى الشمال؛ (العقل الجامع ←القلب ← الدماغ (العقل أو ملتقى الجمع الحسي الذي يتسلسل أو يتشعب خماسياً إلى: السمع ــ البصرــ الذوق ــ اللمس ــ الشم).

أما القلب فذو وجهتين، وجهة جامعة حيث الأصل الجامع لوسائل التعلم كلها،

ووجهة فارقة حيث الأصل الجامع لوسائل التعلم الحسي حصراً...

وهذه هي الطرائق السبع التي تسلكها العلامة إبان قراءتها القراءة البليغة، وما خلق السموات والأرض وتسلسلات الكينونة في المكان والزمان والأشياء خارج الإنسان إلا على وفق النظام الإعلامي ـــ الاستعلامي للإنسان، والأبلغ من ذلك هو إن خلق الإنسان نفسه من حيث هو جسد شيئي له سماته وأعضاؤه، جاء متسلسلاً من النطفة إلى الإخراج طفلاً، على وفق ذلك النظام الاستعلامي الكائن فيه وبه. وليس في ذلك أدنى شك، إذا ما عرفنا ان خلق الانسان بلاغة وراءها بلاغة عليا ألا وهي العبادة ﴿وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُون*﴾ (الذاريات:٥٦) وما العبادة إلا علم أوّل تكويني وتعلّم ثم علم مترتب على التعلم... علم أول فطري جعلي، علم السنة الأولى سنة الـــ"كن" ثم استعلام وتعلّم وتوسم لذلك العلم الأول من خلال ملاقحة الخارج بالداخل والداخل بالخارج، أي من خلال عرض آيات الآفاق على آيات الأنفس وبالعكس.. ثم وبعد ذلك يحصل العلم، العلم الإرادي الاختياري الجهادي. وما حصوله إلا دليل على أن التعلم كان بليغاً في تسننه وانتظامه وتابعيته للنظام...

وهاهنا نرى إلى بلاغة الخارج على أنها طباق بلاغة الداخل، ونرى إلى قراءة الخارج على أنها عين قراءة الداخل، ونرى إلى الأمر الإلهي لنا بالقراءة في أول التنزول العزيز على أنه في أتم درجات العدل وأكملها، فهو لا يطالبنا بقراءة ما هو مخالف في جمعه وضمه وقرئه لجمعنا وضمنا وقرئنا.

هنا وقد بان لنا العدل الإلهي الكائن في تلك الكلمة القرآنية الأولى، كلمة"اقرأ"، لابد لنا من التساؤل عن صلة هذه الكلمة بالعلامة؟

ولنتساءل ثانية قبل تبين بلاغة التبيان الكائنة في تلك الكلمة، ترى هل تمنعنا الحجب وتعيقنا العوائق الشيئية من مثل بعد المسافات بيننا وبين العلامة الخارجية، أو شحّة النور المنعكس على العلامة، أو وجود شيء ما يفصل بيننا وبين إدراك مباشر للعلامة، أو وجود علة ما خارجية في وسائلنا الإدراكية... إلخ، هل تمنعنا كل تلك

الحجب مجتمعة أو متفرقة عن التعرف على العلامة ومن ثم الاهتداء بعلاميّتها؟ الجواب، وبلا شك، نعم تمنعنا، فرؤية هيأة ما من بعيد لا تحقق لنا الجزم بأن تلك الهيأة هيأة رجل أم هيأة امرأة ، أو هيأة كبير أم صغير في السن، شاب أم شيخ، أسمر البشرة أم أبيض البشرة... بل اننا لنزداد توهماً ونبتعد عن اليقين إذا شح النور، فنظن الهيأة هيأة حيوان أو هيأة صخرة كبيرة... وما الهيأة إلا هيأة شجرة صغيرة من أشجار العليق مثلاً... وكذلك الأمر بالنسبة إلى الصوت ولكن بنسبة أقل كثيراً... وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الذوق والشم واللمس، لأن الاستعلام في الثلاث الأخيرة استعلام مباشر، فإذا أخطأ المستعلم التعلم أو إذا زلّ عن نظام العلامة فذاك لقصور فيه هو لا في السياقات التكوينية الفاصلة بينه وبين العلامة كما هو الحال مع العلامة المسموعة أو المرئية...

فما الدليل إذن على موضوعية العلامة وصدق التعلم ومطابقة الانتظام الذاتي الداخلي للنظام الخارجي؟ وهل من وسيلة جامعة ترتفع على الحجب جميعاً فلا يمنعها من تحقيق الإعلام والتعلم ما يمنع العلامة الشيئية الخارجية من سياقات تكوينية فاصلة؟

هنا نرجع إلى الخمس الآيات الأولى من سورة العلق، لنقرن تبيان العلم البادي من على الآيات الثلاث الأخيرة بتبيان الخلق البادي من على الآيتين الأولى والثاني، ثم نعيد النظر في تساؤلنا السابق...

لا شك ان العلم كائن في الخلق، وان الخلق كائن بالعلم، ولا شك أنهما متواجهان فالخلق وجهة العلم الشيئية الخارجية الظاهرة، والعلم وجهة الخلق المجردة الداخلية الباطنة. فالعلامة إذن ذات وجهتين خارجية وداخلية، ولا بد من قرء أو ضم الوجهتين إلى بعضهما... على ان اتجاه الضم هذه المرة، ليس من اليمين إلى الشمال، بل من الشمال إلى اليمين... وما ذاك إلا لأن الانسان غير قادر على الاستدلال على الخالق لمجرد وجود الخلق،وانما قادر على ذلك الاستدلال بموجب مدخل العلم. فالعلم لم يتحقق للإنسان بعد مشاهدة الخلق أو سماع المخلوقات أو تحسسها كما يذهب إلى

ذلك الأنموذج المعرفي الغربي، وانما هو كائن قبل ذلك ومذ تلك الكينونة النطفيـــــة ــ العلقية له. وما المشاهدة والسماع إلا استذكار لما نضِّد أو سطر أصلاً فيه، فالمشـــاهدة أو التجربة الحسية محاولة انتظام استذكاري يكون بموجبه الإنسان ذا وجهتين، وجهـــة خارجية ووجهة داخلية، وكأنه أشبه بمفتاح التيار الكهربائي الذي يوصل التيـــار مـــن المنبع إلى المصب، أي من المحطة الكهربائية المولدة إلى المصباح.. ومـــا عمـــل المفتـــاح الكهربائي حينها إلا تحقيق تمرير الداخـــــل في الخـــارج، أو اللامرئـــي (التيـــار) في المرئي(المصباح) .. وما تصنيع المفتاح الكهربائي (السويج)، إلا على وفق ما يكون عليه وما يتطلبه التيار الكهربائي لا على وفق ما يكون عليه المصباح...

ومن ثم، وقد تبينا بلاغة العلامة بين الداخل والخارج، فإن الذي بالإنسان حاجة إليه، وقد خلقه الله سبحانه للعبادة، وخلق كل شيء له(للإنسان)، هو نظـــام كـــوني للعلامة، نظام خارجي لا تعيقه العوائق، كما تعيق العوائق النظام الداخلي عن التبـــين، نظام يعلو على وهم المرئيات والمسموعات ــ بقدر ــ الخارجية، نظام كلـــي يجمـــع النظامين الخارجي والداخلي للإنسان والعلامة ... نظام يتبعه الإنسان وينتظـــم علـــى وفقه ويتسنن بسنته حتى إذا قال له ذلك النظام ان تلك الهيأة التي شـــاهدها وظنـــها صخرة، هي إنسان، قال هو (الإنسان)، إنها إنسان وهو على يقين مما يقـــول، اليقـــين الذي يقوده إلى تحقيق بلاغة الانتظام على وفق النظام... اليقين الذي يحقق له أن يجعـــل من نظامه الإدراكي العلامي السباعيّ، دائرة كهربائية، أو مفتاحاً كـــهربائياً لتمريـــر الداخليّ الظاهر (القرآن) إلى حيث الخارجي المنفصل البعيد أو القريب (المصباح)...

ويقينياً ليس ذلك الذي بالإنسان حاجة إلية إلا الكتاب المبين، وليس الذي لا بد أن يتعلمه بوصفه العلامة الأولى للترول، إلا القراءة، التي تضم الخلق إلى العلم وتنطلـــق من العلم إلى الخلق، بعد أن تضم العلم والخلق إلى القرآن، ثم بعد أن تضم ذات القـــارئ على ذات المقروء...

ثانياً : الأصالة والصدور:

وقبل، ان نتبين تسلسل الآيات المباركات، لابد أن نستوضح حقيقة العلم والمعلوم، من حيث الأصالة والصدور،فالذي لا شك فيه ان تعلم المعلوم لمتعلّم من قبل معلّم، يستدعي أن يكون العالم أصيلاً بالنسبة إلى المتعلم، فالمعلم موجود قبل وجود المتعلم، هذا أولاً. وثانياً،ان المعلومة التي يريد المعلم إيصالها وإفادة المتعلم بها، هي أيضاً سابقة وأصيلة لدى المعلم بالنسبة إلى المتعلم، فالمتعلم لم يحز على المعلومة إلا بعد امتلاك المعلم لها. أما ثالثاً، فإن تعليم المعلومة، لا يكون دونما نية وإرادة سابقة في إفادة المتعلم بها، بحيث إنه بامتلاكه تلك المعلومة ينتقل من حالة الجهل إلى حالة العلم، ثم إلى حالة العمل بالعلم والنهج في ضوء ما صار معلوماً. فالمعلومة إذن ستتكون بوصفها حقيقة مجردة ونظرية، بل بوصفها متمثلة من قبل المتعلم، وتمثلها يعني، تحول تلك الأصول النظرية المجردة إلى علم لم يكن المتعلّم، الصبي مثلاً، ليعلم به وان كان مستعداً لتعلمه من حيث هو مفطور على تلقي العلم، بموجب تمثله لظهور (الرحمن العليم) فيه وإفادته منه، ومن ثم فإنه سيتحول إلى مقرئ ، و هذه صفة العمل بالعلم ، وتكونه. فالعلم الذي هو (جمع) في عقل المعلم ، فُرِقَ في عقل المتعلم المستعد للتلقي ، فتحول الفرق إلى جمع ، بموجب رحمانية الـ " كن فيكون " من الجمع إلى الفرق إلى الجمع. وبموجب بلاغة التكون و التحول إلى جمع ثانية ، صار الصبي مقرئاً ، أي صار العلم المجرد شيئياً .. فمعلم التلاوة أصيل بالنسبة إلى الصبي من حيث جانب العلامة (العلم)، وعلوم التلاوة والتجويد أصيلة بالنسبة إلى الصبي. والغاية من التعليم هي الإفادة (بغض النظر عن الجانب الشرعي للإفادة، النفع والضر، الحلال والحرام... فقد يتعلم المتعلم علماً، ضاراً، ويراد به الضرر، وهذا النوع من العلم كذلك خاضع لبلاغة (الجمع والفرق والجمع)، مع فارق، وجهة الرضا الرحماني أو وجه الغضب... وكذلك تعليم الطالب قواعد اللغة العربية، أو فلسفة الفيزياء، أو تكنولوجيا المعلومات... وكذلك، تعليم القرآن).

الذي يبين لنا ثانية في ضوء المثل السابق انّ (القرآنية) من حيث هي سمة تبيان، موجودة بوجود الكون، لا قبله ولا بعده. فالقرآنية هي تشيؤ الكلمة القرآنية، والكلمة هي كلام الله، خطاب الله الخالق إلى مخلوقاته، ومخلوقاته كانت بعد وجوده سبحانه، وقد كان و لم يكن شيء، فهو قبل القبل،حيث لا قبل. أما مخلوقاته فلها قبل، أي إنها لها بدء، انتفع برحمانية (المبدئ) وجنبته التي هي احدى جنبات (الرحمن). فالبدء الشيئي للمتكونات بدء زماني مكاني، حيث الزمان والمكان صفة ما هو شيء، لا مَن "ليس كمثله شيء"... هذا من جهة الطرف الثاني للقرآن، طرف التبيان، أي من جهة التعلم لا من جهة العلم. أما من جهة العلم، فالقرآن أصل سابق للقرآنية، وذلك لارتباطه باسم الله الأحسن "العليم" ولا فصل للذات المقدسة عن الاسم. أما من حيث هو علم تعلمته الكائنات فهو مرتبط بالكائنات وهي مرتبطة به، فلا فرق للعلم إلا بوجود مفروق فيه،أي إلا بوجود الـ"كل شيء"،ولا صفة فرق إلا بوجود المفروق والمفروق فيه.. فالقرآن الذي هو نظام الكائنات،كائن في الكائنات ومعها .. وهاهنا وثانيةً نتبين المشكل الكامن وراء الفصل بين بلاغة القرآن وبلاغة الكون، ثم الاقتصار على تبيانه الديني دون تبيانه التكويني الشيئي...

ولنتبين مظهراً آخر من المظاهر التكوينية للمثل السابق، مثل المعلم والصبي...

فالصبي الذي تعلم أصول التلاوة على يد معلم، قد لا يكون صبياً، وانما هو رجل ناضج، تجاوز من العمر الأربعين، وهو طالب دراسات عليا مثلاً، في قسم اللغة العربية، يستمع إلى محاضرة في فقه العربية الذي لم يحط بعلمه قبل المحاضرة، من معلم يصغره عمراً... هاهنا علينا ان نميز بين صفة الصبيّ المتعلم العمريّة وصفته العلمية، فصفته العمريّة لا تعنينا هذه اللحظة، الذي يعنينا هو عمره العلمي، فعمره العلمي في مادة فقه اللغة العربية، هو (صفر) بالنسبة إلى أستاذه، وإن كان أستاذه أصغر منه عمراً من حيث ان العمر المقصود هو التكوين الشيئي الاحيائي، أي من حيث هو عمر

الإنسان، لا عمر المعلـــم.فعمر الإنسان بوصفه (معلماً) لا يتجاوز عشر سنوات مثـــلاً، وعمره من حيث هو إنسان ينيّف على الثلاثين، والذات واحدة...

وكذلك عمر المعلومة بالنسبة إلى المعلم، فقد يكون عمرها من حيث هي تحصيل علمي سابق، يتجاوز السنة، ولكن عمرها هذا لا يعنينا أيضاً، فالذي يعنينا عمرها مـــن حيث هي ظهور، أي من حيث هي محاضرة تُلقى في قاعة درس. أما ذاك فعمرها مـــن حيث هي جمع وبطون وعمق وخصوص، بينما عمرها الذي نقصد ونريد، هو عمرهـــا الذي يبدأ من عند اللحظة التي يلقي فيها الأستاذ محاضرته على الطالب الذي بلغ مـــن العمر أو بلغ العمر الرجولي الإنساني فيه، أربعين عاماً... وهاهنـــا تتعـــاكس حركـــة الزمن(كما بان لنا في موضع سابق من البحث)، بحيث، يصير زمن المعلومة من حيـــث هي جهة الأستاذ جارياً من الجمع إلى الفرق، ومن الكلي إلى الجزئي ومن الأعلـــى إلى الأدنى، ومن البلاغة إلى البيان، أو (من العلم إلى البيان)، ومن المســـتقبل إلى المـــاضي. بينما عمر المعلومة بالنسبة إلى الطالب، يجري معاكساً، فهو يبـــدأ مـــن المـــاضي إلى المستقبل، ومن البيان إلى البلاغة، أو (من البيان إلى العلم)، ومن الأدنى إلى الأعلى ومـــن الجزئي إلى الكلي، ومن الفرق إلى الجمع... وإن كان العد الزمني واحداً، فذاك لا يعـــني ان تسارعه أو تدفقه واحداً، فتدفق المعلومة وصدورها عن الأستاذ، يختلف، عن تدفقـــها وصدورها في دواخل الطالب، فتدفقها في الطالب لا يتم مرة واحدة، بل على مـــرات متقطعة، سيجد نفسه حيالها، يرفع يده بالسؤال والاستفسار والتبـــين، ثم سيستشـــير زملاءه بعد المحاضرة، ثم سيعيد قراءة ما دونه من فقرات رئيسة، ثم سيرجع إلى مصـــدر أو مصدرين بعد ذلك... وفي ضوء ذلك كله يبين لنا، ان القرآن من حيث هو ظـــهور العلم، الظهور اللساني، المقابل للظهور الشيئي للعلم، ليس سابقاً للـــ"كل شـــيء" ولا لاحقاً، بل مكون له ومتكون به، من حيث صفة (القرء أو الضم) الـــتي هـــي صفـــة القرآن، وصفة الـــ"كل شيء" العميق في الأشياء...

ثالثاً : الكلي والجزئي:

يتبقى لنا، أن نتبين قرآنية المعلومة نفسها، أو المحاضرة...

فالعربية هي العربية، سواءً علمناها تلميذاً في المرحلة الابتدائية أو الأساسية أم علمناها طالب دراسات عليا. والعربية هي هي، أساسيات مبسّطة و جزئيات مفرقة، أو فلسفة لغة وفقه. ولكنها في المرحلة الأساسية تتحرك من الجزئي إلى الكلي ، بينما تتحرك في الثانية من الكلي إلى الجزئي ، ولا غاية لاستحصال العلم الكلي إلا التمثل الجزئي السليم دفعاً لضر أو استجلاباً لمنفعة ، وبالعكس أحياناً . فالكلي سارٍ في الجزئي، وكائن فيه ، والجزئي متكون بالكلي ومترتب عليه . وعدا ذلك فإن الحركة الزمنية للجزئي ، هي حركة الماضي نحو المستقبل ، وبالعكس من ذلك حركة الكلي، وهذا هو الفرق بين علم القرء والضم الكلي ، وعلم الفرق الجزئي .

أما متى تكون المعلومة أو المحاضرة ، كلية أو شمولية و معنية بالركائز الرئيسة ، التي تعلق بها الجزئيات و تسبح في فلكها ، أي متى تكون المحاضرة نظرية ، فذاك حين يكون المتلقي – استناداً لقوله تعالى ؛ ﴿ وإنّك لَتُلَقّى القُرآنَ مِنْ لَدُن حكيمٍ عليمٍ ﴾ – قد ارتفع إلى درجة العلم الكلي فهو لا يعيقه الجزئي ولا يمنعه من الوصول إلى الكلي. فهو إذن يقيد علم الحس ،ولا يقيده العلم الحسي وذلك من خلال جمع علم الحس بوصفه جزئياً على علم العقل، ولا يصير علم الحس كلياً ومقيَّداً لا مقيِّداً (بفتح ياء الأولى وكسر ياء الثانية)، إلا بمواجهته لعلم القلب، ثم بمواجهته لعلم ما وراء القلب، بحيث يصير الحس وجهاً شيئياً مادياً لما هو لا مادي، وبذلك يكون العلم جماع علم القلب وعلم الفُصيصين الدماغيين وعلم الحواس الذي يجتمع فيه علم البصر على علم السمع ، ثم يكون العلم طباق أو مواجه ذلك العلم السائل . فالعلم إذن تلاقي أطراف وقرء وضم لوسائط ، فهو جمع الحس على الفصيص وجمع الفصيص على القلب وبالعكس، وصولاً إلى ذلك العلم المنضد والمكتوب أصلاً و فطرةً في مرحلة الذر، بغية تبينه كما تبين البئر عن مائها بدلو وبكرة وحبل ... وحينها سيكون المتلقي متميزاً

وفاعلاً، بعد انفعاله بالعلم ، فالمتلقي – المتعلم ، القارئ ، مفعول به وفاعل في وقـــت واحد ، لا مفعولاً به وحسب ، وهو ولكي يتحقق فيه ، أو يتكون علم المعلم ، لا بــد إن – يكون مستجيباً استجابة تامة لنواميس العلم وأسبابه ؛ ﴿ إنَّ في ذَلكَ لَذِكْرى لمــنْ كانَ لهُ قَلْبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وهوَ شَهيدٌ ﴾ (ق : ٣٧)، فالأمر إذن ، شـــبيه بإلقـــاء العصا ، أو إلقاء البذرة في التربة ، ولا بد إذن من إلقاء الحاسة في القلـــب ، أي إلقـــاء فرق الحاسة وعلمها الجزئي في جمع القلب وعلمه الكلي ، إلقاء الدلو في البـــئر بغيـــة استخراج مائها ، و ما عمل الحاسة إلا عمل الدلو بالنسبة للبئر مـــع الأخـــذ بنظـــر الاعتبار، الذي ألقى الدلو في البئر والغايـــة من الإلقاء ..

فالمعلم إذن محيط بالمتعلم ، و المقرئ محيط بالقارئ ، و الملقي محيـــط بـــالمتلقي، حتى لحظة علوق العلقة ، أو المعلومة أو المحاضرة ، وبعلوقها يتم التسلســـــل ، و تتـــم الإحاطة ، أي إحاطة المتلقي بالمعلومة فيتحول من مفعول به إلى فاعل بعـــد أن كـــان مفعولاً به – على أنه سيظل مفعولاً به دائماً و إن صار فاعلاً. فالفاعلية و المفعوليـــة ، ظهور وبطون لحقيقة واحدة – وبعد ذلك يتم التخلق ، أي يتم تشيئة المعلومة (تكونهـــا شيئاً) ، سلوكاً أو عملاً، وبتحقق التشيئة، تكون المعلومة مستعدة للبيان والوضـــوح، فوضوحها وضوحان ، تشيؤها ، تبين التشيؤ .

فإحاطة المتلقي بالمعلومة ، (تسبقها إحاطة المعلومة به) ، و إحاطـــة المعلومـــة بالمتعلم أو القراءة بالمتقرئ ، تعنيان أن المتلقى مفعول به لا فاعل ، وأنه لا ظـــهور لـــه حينها ، فالظهور ظهور المعلومة الذي هو ظهور المعلم الفاعل .

وفي ضوء ذلك كله وببيانه ، نخلص إلى أن تعليم القرآن بدياً ، كـــان تعليمـــه بوصفه علماً كلياً، أي بوصفه قرآناً سارياً عميقاً داخلياً ، لا قرآنـــاً مفروقـــاً ظـــاهراً الظهور اللساني ، قبل ألف وأربعمائة من السنين ، فهو ظهر مرتين ، وبطن مرتين، المرة الأولى بوصفه نظاماً داخلياً تمثله الـــ " كل شيء " ، فتنوع و تعـــدد ، بعـــد وحـــدة وتضام. فالوحدة بطون الشيء و بطون القرآن ، و القرآن نظام الـــ " كـــل شـــيء "

الأول، والـ "كل شيء" الأول ملاقيه من حيث أن كلاً من النظام الكلي، والـ "كل شيء" طرفان لحقيقة واحدة .ثم إن للـ "كل شيء" طرفاً آخر كما سنتبين بعد قليل. أما البطون الثاني وظهوره ، أي الكلي المجموع و تفريقه ، فدليلنا عليه ، نزول القرآن على النبي ، ثم تنجيمه أو تفريقه على مدى ما يزيد على عشرين عاماً ...

وبعد ذلك ، فإن ظهور القرآن الذي تمثله و تكون به الخلق ، بوصفه علماً كلياً يعني سريان القرآنية في الأشياء جميعاً ، ثم في العلامة و السمة التي تفرق هذا الشيء عن ذاك ، كفرق هذا المبحث من الكتاب عن سابقه و لاحقه ، ثم فرق الفصول ... والكتاب من حيث هو علم كلي ، كتاب واحد ، كائن في (كل فصل) و (كل مبحث) ، مع فارق الطبيعة البشرية القاصرة والمحدودة العلم، والصفة الإلهية المحيطة المطلقة العلم بالنسبة لما هو إلهي من الكتب ، ولله المثل الأعلى ...

رابعاً : تغييب الجزئي — حضور الكلي / (الشهودية) :

ترى حينما يحضر ذلك الطالب ، أمام أستاذه ليستمع إلى المحاضرة إياها ، فأي نوع من الحضور يحققه ويتحقق به ؟

يقيناً إن الطالب حاضر ، وليس غائباً ، و لهذا لم يدرج اسمه في قائمة الغائبين عن الحضور ، وهو ينتبذ مكاناً ما في القاعة بحيث إن المعلم يراه أمامه . يقيناً إن كل ذلك حاصل ، ولكن هل يرتب ذلك الحضور المفروغ منه استناداً إلى علم الحواس ، تحقق بلاغة الحضور ؟ و ما هي بلاغة الحضور ؟

لا شك أن المستمعين إلى مكلمهم ، على نوعين ، نوع يستمع إلى محدثه بإصغاء تام ، حتى إنه يشغله إصغاؤه عما هو كائن في الخارج بل عمن بجواره ، بل يشغله عن جسده نفسه ، فهو مشغول ، عن شيئية ذاته وجسديتها و ماديتها ، بما يعمل على تحقيق ما هو أبلغ و أتم و أكمل من تلك الشيئية. إنه مشغول عن ذاته بتحقيق ذاته ، وعن صفة البشرية ، بصفة العلمية ، وعن صفة المادية بصفة النورانية ، وعن صفة الجسدية بصفة العقلية (جماع الوسائط جميعاً،الحواس، والفصيص، والقلب وما وراء).

أما النوع الثاني ، فهو يستمع إلى محدثه ، نعم ، ولكنه غير دارٍ بما يقول ، حتى كأنه لا يسمع ، و ما ذاك إلا لأن الحس الخارجي ، شغله عن الحس الداخلي ، فما عاد يسمع و إن كان يسمع ، أي أنه لم يبلغ من السماع تمامه . بل إن من المستمعين ، من لا يسمع أصلاً ومن غير سوء ، فلا علة مرضية تمنعه من السماع، كذلك ليس ثمة علة خارجية ، كأن تكون ضوضاء قريبة ... ومع كل ذلك فإنه لا يسمع البتة ، و ما ذاك إلا لأنه شغله الحس الباطن بما هو غير المسموع في تلك اللحظة ، أي بما هو مسموع هناك في الداخل ، و هذا ما يسمى الشرود الذهني ... ، أما ذاك الذي يسمع ولا يدري ما يسمع ، فمشغول عن محدثه بما هو قريب ، قرباً شيئياً ، فقد ينشغل بمجاوره ، و قد ينشغل بجسده ، يده أو رجله ... و قد ينشغل بملابسه ، وقد ينشغل بالنافذة القريبة أو ما وراءها ... إلخ ، و كذلك ينشغل الثاني ولكن بما هو قريب قرباً خيالياً صورياً داخلياً ... و كلاهما منشغل بما هو جزئي .

ولكننا مع هذا لا نقدر أن نقول إلا أنهما حاضران ، فأيّ حضور هذا ؟

إنه الحضور الجسدي ، الحضور الشيئي ، الحضور المادي. و بعد ذلك فالحضور لا يتسم بأنه حضور بليغ ، و إن شاهدا و شوهدا ، فما حضورهما ذاك إلا حضور الذات المشهودة لا الذات الشاهدة ، وما حضورهما إلا حضور القريب بوصفه جسداً البعيد بوصفه ما وراء الجسد ، فحضورهما ، حضور فرق لا حضور جمع ، بالنسبة إلى المعلومة ، وحضور جمع على غيرها. إنهما إذن مقيَّدان بالجزئي لا مقيِّدان له (بكسر الثانية) .

وعلى العكس تماماً، حضور ذلك المصغي إصغاءً تاماً ، الإصغاء الذي يستلزم، القرب من المحدث ، فلا ثمرة للإصغاء بلا قرب يتجاوز الخارج إلى الداخل. فالقرب يبدأ من هناك ، من الداخل العميق ، الذي يجعل الجسد مشهوداً و شاهداً في وقت واحد . فالمعاينة الحسية تستلزم معاينة و شهوداً جسدياً ، يصير بموجبه الجسد بكليته أُذناً ، تحتضن المعلومة احتضان الأرض للبذرة . فالمعلومة بذرة تلقى في حفرة صغيرة

اسمها (الأذن) ، و الذي يلقيها ، ملق عالم ببلاغة الإلقاء و شرائطه ... أما الذي يغذي تلك البذرة ،فليس الحفرة حصراً ، نعم إن الحفرة رحم أول ، أو وسيط ، ولكنها طريق من طرائق سبعة للتغذية التي هي من شأن الجسد جميعاً . و الأذن بعد ذلك هي الأخرى بذرة ، فهي حفرة لبذرة الملقي ، وبذرة بالنسبة إلى صاحبها ، بذرة تلقى في القلب ، حيث مجمع العلم، الذي يقبض تلك المعلومة ثم يبسطها، فيفرقها البسط في الجسم كله ، لتلقح وتلاقح ...

وبيان ما سبق ، يتضح أن الشهود شهودان ، شهود الجسد و شهود العقل الجامع ، أي شهود الأشياء بعد تمام تكونها و اختلافها ، وشهودها و هي في طور التشيؤ الأول الجامع المشترك ، الـ " كل شيء " . و في الطور الأخير تتحقق للشهود بلاغته ، بلاغة تسلسل العالم الخارجي إلى حيث العمق الذي لو بلغه العلم الخارجي انتظم التعلم و استطر على وفق نظام العلم الجامع العميق المسطور في الدواخل .

وكما تتكون المعلومة في الداخل ، تتكون في الخارج ، مع فارق أن التكون الداخلي تكون كلي ، بينما التكون الخارجي تكون جزئي ، يجري في الأعضاء كل على حده ، و هكذا هي الأشياء و قد تمثلت نظام الـ " كل شيء " . و هكذا هي الأشياء و قد شهدت الكلمة القرآنية ، فهي مشهودة شاهدة ، مفعولة فاعلة ، على أن الأشياء كما الإنسان ، وجهان . فالطالب الذي يلقي السمع إلى المعلومة ، حاضر القلب ، لاقحاً بما يسمع ثم ملقحاً ، ذو وجهين ، يلتقيان ، دونما أن يعني ذلك التلاقي بغياً و اختلاطاً ، ألا و هما وجها المادي و اللامادي ، أي الطيني و النفخي – الروحي ، وبين هذا و ذاك برزخ البحرين ، يلتقيان و لا يبغيان ... استجابة لظرفية النفخ و المنفوخ فيه ، كلاً كبيراً و أجزاء صغيرة و صغيراً عميقاً ...

وببيان ذلك نرى إلى ما يسميه أهل اللغة حذف المفعول الثاني للفعل (علّم) في آية ؛ " عَلَّمَ القُرآنَ " على أنه تبيان لشمول العلم و أصالة نظامه وأولية كونه، ومن ثم فإنه تبيان لذلك الطور الذي كانت فيه الأشياء في مرحلة الـ " كل شيء " أي في

مرحلة القرء الأصل الأول ، قرء العلقية الذي يجيء الإنسان على رأس بلاغته وقد كـلن يتسلسل في رحم الأرض بوصفه عنصرية كيميائية كامنة ومكتملة العلـــم بإمكاناتهـــا الشيئية ولكنها يعوزها التسوية و النفخ . و هاهنا لم يكن ثمة علم حسي لأنه ليس ثمـــة حواس ، بل ليس ثمة تشيوء جسدي أصلاً . فالعلم في هذا الطور علم كلي ســـينتظم العلم الجزئي، (علم الحواس) على وفقه. فالعلم في ذلك الطور علم حاســـة جامعـــة ، وهذا ما يفسر بلاغة الحواس وهي تتراسل، على أن الحاســـتين الرئيســـتين: الســـمع والبصر، تلتقيان ، اللقاء الذي لا يرتب عليه تغيبياً نهائياً لإحداهما مقـــابل الأخـــرى ، وكذلك العلاقة بين الحواس، وكذلك هي بين الحواس وبين القلب ، وبـــين القلـــب والدماغ ...

وبموجب ذلك كله ، ننظر إلى ما يبين عنه ما يسمونه (الفاعل المستتر وجوبـــاً) في مفتتح سورة العلق " اقرأ ".. فالقارئ ، الفاعل ، مشهود ، ومقروء أي مضمـــوم ، ولا فعل للضم ، دونما تحقق الضم أولاً في الفاعل ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، .. فالقارئ هو النبي الفاعل المستتر وجوباً في فعل الأمر ، استتر جسداً فلم يظهر ما يـــدل علـــى الحضور الجسدي بوصفه لفظاً ، كأن يكون ؛ (يا محمد)، فبلاغة القرء و الضم تـــأبى ذلك ، لساناً و ما وراء اللسان ،و خارج اللسان ، كوناً شيئياً و لسانياً ، باعتبـــار أن الكون جميعاً يحكمه نظام واحد . وكذلك ، غاب الجسد ، حينما تحقق القرب المطلـــق بضمات جبريل الثلاث ، ولهذا حصل الضم . وكذلك غاب الجسد ، لا انفصل كمـــا يزعم الذين ينكرون كونية الإسراء و المعراج روحاً وجسداً . والغياب هـــو الغيـــاب، والدنو هو الدنو على نزلتين ؛ ﴿ ثمّ دَنَا فَتدلّى * فَأَوْحى إلى عَبْـــدِهِ مـــا أَوْحَـــى *﴾ (النجم: ٨-٩) ، ﴿ وَلَقَدْ رآه نَزْلةً أُخْرى * عِندَ سِدْرةِ المُنْتَهى*﴾ (١٣- ١٤).

الفصل الثالث

تكوّن القراءة

أولاً: الأصل والترتب :

لقد تبين لنا مما سبق تفصيله بغية ملاقاة أطرافه و مواجهة ظهورا تـه ومعالقة حقائقه أن لكينونة العلم وجهتين ، وجهة العلم الجامع أو الأصل المسطور ، ووجهة التعلم أو الاستطار . وان الوجهتين تلتقيان التلاقي البليغ الذي لا يترتب على حدوثه أو مرجه، بغي أو انحراف أو جور حينما يكون الملاقي بين الوجهتين متبعاً النظام ومنتظما به. فالصغير يلاقي الكبير و الداخل يلاقي الخارج، كما أن الـ(كن) يلاقي التكون، و الإيجاز يلاقي الإطناب و المعنى يلاقي معنى المعنى و الصدر يلاقي العجز، والفاعل يلاقي المفعول به بوساطة الفعل... وبالعكس.

القراءة ملاقاة القارئ والمقروء. فالفاعل مقروء وقارئ، ومشهود وشاهد ومعلوم وعالم. والعلم كائن ومتكون فيهما جميعاً ، فهما مجموعان بالعلم (الفعل) ومفروقان بالعلامة أو الصفة التي جعلت هذا الشيء شجرة وذاك طيراً ، و هذه عصا وتلك حية تسعى.

فإذا تذكرنا أن الركيزتين الشيئيتين لعالم الاكوان ، هما الأشياء والبشر ، وان اصل الأشياء هو الـ (كل شيء) وأصل البشر انسان واحد وأصل الـ (كل شيء) هو تلك الطبيعة الجامعة لعنصرية الوجود جميعاً ، والمجموعة بالـ (كن) و أصل الإنسان ، هو تلك العنصرية المجموعة على أتم ما يكون عليه الجمع في الذات البنيوية، مجموعة أو مفرقة، والتي بها كان بيان الخلق الآدمي المجموع في آدم والمتسلسل في ذريته....وإذا تذكرنا أن قدرة الـ(كن فيكون) المطلقة البالغة قد تكونت التكون البليغ الذي أحصى وأحاط بالمتكونات جميعاً ، مذ صدورها الأول ، أي مذ القول

الأول للـ(كن) مع بدء الخلق ... اذا علمنا كل ذلك ، صرنا إلى أن المتعلم لم يكن واحداً ، بل عدة متعلمين في واحد ...

فالمتعلم من حيث هو فرد في قاعة درس ليس واحداً من حيث هو صفة علم وعلامة طلب وعمر علمي. فهو واحد بأذنين وعينين وشفتين ولسان، وفصيصين، وبطيني قلب وأذينيه ، ورسائل علمية صغيرة تتوزع الجسم بكليته، وتحتشد في الأيدي والأرجل والجلود ... فهو إذاً واحد لكل أولئك المتعلمين، المجموعين في صفة الطالب المتعلم الواحد الذي سماه أبوه (س) أو (ص) ، و الواحد عدة ، من حيث هو أبعاض أو اشياء للكل شيء الذي هو الطالب أو العقل الجامع ...

أمّا المحاضرة التي تُلقَى على جمع من الطلاب في قاعة واحدة، فهي تلقى لطالب واحد و طالب كلي، طالب مجرد. وما فرق الطلاب و تعددهم الا تعدد للـ(كل طالب) الساري في الجميع والذي يشترك في تمثله الجميع على اختلاف . وكل منهم علامة أو ظهور خاص و نوع آخر له، فهو كائن فيهم و هم متكونون به ...

ولقد كان العلم القرآني ، الذي عُلِّمَ من لدن حكيم عليم ، علم الرحمن المحيط بكل شيء القادر على كل شيء ، والقائل للشيء (كن فيكون) علم الذي خلق الانسان وخلق كل شيء له . فلا بلاغة للخلق بلا انسان ، به كملت العبادة علما وعملا وبه البدء وبفنائه الفناء كما أن الإثابة والعقوبة بالعقل الذي هو خاصته دون غيره من الكائنات فهو المقدم عند رب العزة .... ، ولنبدأ من عند تبين الانسان بآدم ، فنقول إنه آدم واحد ، فهو متعلم واحد ، ظل يتسلسل فيه العلم أجيالاً بعد أجيال، فآدم هو القيمة المجردة السارية في ذريته كلها ، والمعلومة ألقيت إليه بوصفه الـ(كل انسان) ثم بانت في ذريته .... فإذا بدأنا من حيث بلاغة الإنسان وكليته المطلقة المجردة العليا التي بلغتها كلمة الـ(كن) مذ أول قولة .... وجدنا أنها تتمثلها الذات المحمدية أصدق و أبلغ و أبين تمثيل ، فالذات المحمدية هي القيمة المجردة المطلقة وهي

الـــ(كل نبي) الذي توجهت اليه المعلومة بوصفه البلاغة العليا الـــتي لا يلقاهـــا الا ذو حظ عظيم من البلاغة باعتبار ما سيكون شيئيا وما هو كائن في علـــــم الله الـــذي لا يحـــده مكان أو زمان. وهكذا بانت النبوة في الأنبياء ، كما بانت الآدمية في النــــاس جميعا ، على أن النبوية و الآدمية يلتقيان مع فارق البلاغة في التلقي ...

فإذا عدنا ، إلى البيان بالمَثَل ، وجدنا أن بلاغة المحاضرة تستلزم وجود أســـبابها ، ومن أسبابها ، الهواء الذي ينقل الموجة الصوتية إلى أذن المتلقي، والضوء الذي تبين بـــه الكلمة المكتوبة على اللوح و الأرض التي يجلس عليها الطالب بالمباشرة أو بالواســـطة (الكرســـــي مثــــلاً) ، وكذلـــــك سلامـــــة الحـــواس ، والصحـــــة العقلية ...

وثمة أسباب أخرى ، وإن لم تكن مرتبطة مباشرةً بالمحاضرة الملقاة، مـــن مثـــل الكرسي واللوح وقلم اللوح ، وقد يستغنى عنهما ، ومن مثل القاعة ومؤثثاهـــا وقـــد يستغنى عنها ، ومن مثل ملابس المتلقي وحقيبته ... وكل ذلـــك مرتبـــط بـــالمتلقي ومتكون بتكون صفة الطالب فيه ، وليس كذلـــك الأرض والهـــواء والضـــوء .... فالأرض والهواء والضوء أصل سابق لتكون المحاضرة و الطالب.

وهنا يبين ، أن الأسباب جميعاً شملها سريان المحاضرة على أختلاف في اللـــــزوم وكمال اللزوم و الاهم و المهم ، و الاصل و المترتب ... بل و مما سيتكون بالمحـاضرة ، مثلاً اقتناء قلم من نوع فاخر ، وقد ، الاستعانة بجهاز التسجيل أو بالحاسوب ثم بشبكة الاتصالات ... الخ وكل ذلك مترتب لا أصل .

ولقد تمثلت المتكونات قدرة الـــ(كن) فكانت و تنوعت و تعددت من حيـــث هي أصل و من حيث هي مترتب و ما زالت تترتب ، فلكل عصـــر بلاغـــة ترتـــب جديدة، و﴿ سُبحانَ الذي خَلَقَ الأزواجَ كلّها مما تُنبِتُ الأرضُ ومنْ أنفُسِهم و مِمّـــا لا يَعْلَمونَ ﴾ ... و لكن الذي لا شك فيه أن المخلوقات التي تمثلت الـــ(كن) فتكونت

بها وتقرَّأت ثم بانت ، منشؤها الأصل واحد ، هو الأرض. فالأرض رحم كل شـــيء ، والعقل الجامع رحم كل علم كما أن أصل ذرية آدم رحم واحد هو رحم حواء ، ومـن قبل فرحم النطفة التي علقت وتعلق بالرحم ، هو الصلب . وبموجب ذلـــك كلـــــه ، يبين أن الكائنات جميعاً قد تلقت علم (جمعه وقرآنـــه) ، فَقُرِئَتْ ، باسمه الجامع الذي جمعها بالــ(كن) ثم كشف عنها بالتكون ، ففرَقَها أشياءَ مخلوقةً مما هو أصـل (الأرض) ومن أنفسنا ومما لا نعلم ، مما هو مترتب.و الذي ما بين الأصل و المـــترتب مواجهـــة وملاقاة أيضاً ، و لا يبغيان ...

وكذلك العلم أصل والخلق مترتب على العلم ، ثم يصير الخلق أصل و العلـــم مترتب على الخلق . فعلم القرآن تبعه خلق الإنسان ، و تبع خلق الانسان علم البيـــان ... فعلم و خلق و علم ... فالإنسان لم يخلق إلا بموجب العلم ، علم القرء والضـــم ، الذي تعلمته الأرض بوصفها أصلاً ، و بتعلم الأرض علم القـــرء والضـــم ، تسلسـل الانسان ، حينا من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ثم سواه سبحانه فبَـــانَ ... وكذلــك الأرض كانت قرءاً فهي و السماء واحد إذْ كانتا رتقا ثم فتقتا ...

فتعليم القرآن إذن بدأ منذ ذلك البدء ، أي منذ بدء الرتق ، ثم ظل يتسلســـل في الكائنات جميعا باعتبار أن كون القرء يستلزم تكون البيان ، و بموجبه فتقـــت الأرض وشقت و فصلت فكانت شقاً و كانت السماء شقاً آخر ، و هكذا ما تكـــون مـــن سماوات وأراضين ومخلوقات ...إنها جميعاً نتاج جمع وضم ثم فرق وشق وفلق وتبـــين ، في كل مكان وكل زمان ثم في كل جزء من أجزاء لا تعد من الزمان والمكان ، مجتمعـــة أو كلاً على حدة ....

فالخلق بيان العلم والعلم جمع الخلق ، ولقد تمثلت الكائنات جميعاً هذه الحقيقـــة وبموجبها سلسلت نوعها. وتمثلها الانسان أصدق تمثيل فسلســـل نوعـــه، وأســـهم في سلسلة النوع الوراثي للمخلوقات جميعاً. فالمخلوقات مســـتعدة للتسلســـل الجديـــد

والمختلف بموجب تمثل نظام القرء فيها . و لقد كان مقدراً للكائنـــات أن تصـــل إلى تلقيح نوعها بغيرها دون حاجة إلى تدخل الانسان في تحقيق ذلك التلقيح مختبرياً مـــن خلال تغيير أو تهجين الصفات النوعية للمخلوقات وبالاستفادة من العلم المسطور فيــها وتماثل نظام الجمع و القرء أو(قرآنيتها) الكونية التي لا تبديل لها في المخلوقات جميعــاً . ولكن الغربيين عجلوا هذا الحدوث وسرَّعُوا تكونه ليس إلا . وكل الذي يجري، بـــأمر الله ، ﴿ ولآمُرَنَّهُمْ فليغيرنَّ خَلْقَ اللهِ ومَنْ يَتَّخذ الشَّيطانَ وليّاً مِنْ دونِ الله فَقَـــدْ خَسِـــرَ خُسْراناً مُبيناً *﴾ (النساء : ١١٩). فالقرآنية واحدة، ولكن درجة الإفادة منها مختلفـــة من حيث الوجهة الرحمانية أو الوجهة الشيطانية ...والأبلغ من ملاقحـــة المخلوقـــات، ملاقحة المخلوق نفسه والتي بموجبها يصير وارداً جعل ملاقحة العين بالأذن بحيث تفيـــد الأذن من وظائف العين، ثم جعلهما يلمسان وجعل الجميع يذوقان ويشـــمان ، كـــل زوج على حدة ، وبجماع الحواس ، وهذا ما يحصل في العقل الجامع ، الـــذي يجمـــع الحواس جميعاً ... وهذا ما ندعو الباحثين إلى تبين كونيته و الإفادة منها الإفادة الـــتي تسعى إلى رضا الرحمن لا إلى غضبه ... و إلى ولاية الرحمن واتباع سنته لا إلى تغيـــير السنة و اتباع ولاية الشيطان كما يحصل غربياً ...وكذلك وارد جمع الصفات النوعيـــة للترب و الأراضين ، وللمادة السائلة ، و لتربة الأرض و صخور القمر ... وهذا مـــا يفسر ثانية شهادة الأرجل و الأيدي و الجلود يوم القيامة ، وكلام الطير ، الذي عُلِّمَـــهُ سليمان ، وسجود النجم و الشجر ، و قول الأرض و السماء " أتينا طائعين"، ونطـــق القرآن يوم القيامة ؛ .. فالـــ " كل شيء " هو الـــ "كل شيء". والكل الأصل متعلـــم نظام القرآن ومقروء به ومخلوق بكونيته و مبين ببيانه. ولقد سرى علم القرآن في الـــ "كل شيء " فنطق كل شيء بنطق القرآن ، وينطق القرآن كما ينطـــق الـــ " كـــل شيء"، لأن علم القرء الكائن في كل شيء ، هو علـــم الله "الذي أَنْطَقَ كُلَّ شَـــيءٍ"، أي هو علم الله الذي قرء الشيء على الشيء بعد أن لم يكن ثمة شيء وشيء وشـــيء،

بل جماع كل شيء ، الذي به تكونت الأشياء وهي تتسلسل بالقرآنية الكائنة في أصلابها ...

ثانياً : تبين التكوّن :

الذي تقضي به بلاغة القراءة الآن،هو العودة إلى التسلسلات الكونية التي بانت عنها آيات النهي عن تحريك اللسان ، تلك التي توجه بها الخطاب القرآني إلى النبي الكريم ، بوصفه تمام بلاغة العلم و الخلق . و لقد كنا لاقينا هناك بين قرآنية التسلسل الكوني للوحي ، وبين قرآنية التسلسل الكوني لخلق الإنسان . و هاهنا ، نلاقي بين ما سبق وآيات الرحمن ، لنتبين ثانية الوحدة الكامنة وراء التعدد ، ثم الـ " كل شيء " الكائن وراء الأشياء ، ثم الـ "كن " الكائن وراء التكون ، ثم القرآن الكائن خلف البيان، ثم نخلص من ذلك كله إلى قرآنية الكون والتكون ثانية ... وهذا هو التسلسل الذي تبين عنه آيات سورة الرحمن ؛

أ- الله سبحانه / المسمى
ب- الرحمن / الاسم
((الرحمن))

ج- قرآنية القرآن (تعليمه ، علمه ، و تعلمه الأول)
د- قرآنية الذات النبوية السارية (العلم و التعلم الأول)
هـ- قرآنية الـ " كل شيء " (العلم و التعلم الثاني)
((علّم القرآن))

و- خلق الإنسان / تمام بيان القراءة (العلم) ((خلَقَ الإنسان))

ز- تعليم البيان (التعلم) ((علمَّه البيان))

التوسّم

فإذا تبينا الأطوار القرآنية حصراً وجدناها ثلاثة (ج ، د ، هـ) كما هي ثلاثة في آيات التحريك ، " وقرآنه " ، " فإذا قرأناه " ، " فاتبع قرآنه " .

فإذا تبينا أطوار العلم وجدناها ثلاثة ؛ (تعليم القرآن) (خلق الإنسان) (تعليمه البيان) .. ، و هي كذلك من جهة التكون الحركي ، إذا نظرنا إلى قرآنية الحركة .

فإذا نظرنا إلى جهة المبين وجدنا ما بعد الآيات الخمس، تتسلسل كذلك ؛ ونترك للقارئ أمر هذا التبين الذي يبدأ بآية ﴿ الشَّمْسُ والقَمَرُ بِحُسبانٍ *﴾ (الرحمن: ٥) حيث تجيء الآيات بعد هذه الآية معطوفة عليها على مدى اثنتي عشرة آية ، لتبدأ السورة بداية جديدة ، فاصلة ﴿ فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تُكَذِّبان * ﴾(الرحمن : ١٣) ، ثم يبدأ تسلسل بياني جديد و آخر و آخر ، على أن الذي يفصل بين التسلسل البياني والآخر دوماً هو آية " فبأي آلاء ربكما تكذبان * " ، ثم يرد آخرها على أولها عند آخر آية من السورة ؛ ﴿ تبارك وجْهُ ربِّك ذو الجَلالِ والإكرامِ ﴾، وما الاسم الذي بدأت به السورة إلا " الرحمن " .

والذي لنا أن نتبينه بعد كل ذلك هو إننا لا بد أن نؤمن بأن التسلسل العلمي يسير من الأصل إلى المترتب ، أي من علم القرآن إلى علم البيان ، وكذلك يتسلسل خلق الإنسان . فالبدء خلق النبي ، ثم خلق الإنسان . فعلم القرآن خاصة النبوة ، وعلم البيان مترتب على ذلك العلم ، فلا علم للإنسان بالقرآن من حيث هو قرآن ، وإنما علمه ينحصر ببيان القرآن أي بتبين نفسه وما في الآفاق بوساطة القرآن. فالبيان تبيان للـ " كل شيء " ولما اختُلِف فيه ، باعتبار أن الاختلاف العلمي وجه من وجوه الاختلاف الخلقي في الـ " كل شيء " الذي كان واحداً ثم فُرِق .

وبعد ذلك فإن اللقاء بين العلمين كائن ، على أن لا جور لأحدهما على الآخر ، فلا الإنسان قادراً على الإحاطة بعلم القرآن، وهو الذي أوتي من العلم قليلة ، ولا

النبي بمحتاج إلى تبين البيان الذي يلزمنا لتحقيق شيء بسيط من المعرفة . فـــالنبي هـــو المبين المبيِّن بالذكر لا بالمدارسة،كما هو الحال معنا نحن الذين لا نتصف بصفة النبوية.

وكمثل ذلك التلاقي ، التلاقي الكائن بين نبوية الجسد الشـــريف ، وجســـدية النبوة ، ثم بين الصفة البيانية للإنسان و الصفة القرآنية له ، فلا فاصل ، ومتلاقيان هما ، مع فارق البلاغة العليا ، و المعاني الكبيرة المتأتية من قبل النبي ؛ ﴿ قالَتْ لَهُمْ رُسلهُمْ إنْ نَحنُ إلاّ بشرٌ مثلُكُم ولكنَّ الله يَمُنُّ على منْ يشاءُ مِنْ عِبادِهِ وما كانَ لنـــا أنْ نَـــأتِيكُم بسُلطانٍ إلاّ بإذنِ الله ﴾ (إبراهيم : ١١) .. فالذي ما بين الأنبياء والبشر هو مواجهـــة ومقابلة البشرية ، والذي يفارق بينهما هو المنُّ الإلهي و المشيئة ، والسلطان . فلا مَـــنَّ ولا مشيئة إن لم يكن ثمة سلطان ، هو سلطان النبوة الذي يتمثله النبي الفـــلاني بقـــدر ويتمثله غيره بقدر ، ويبقى السلطان هو السلطان بعد الإذن بإظهاره، وإبانته بالبشـــرية التي هي وجهة السلطان الجسدية . فالمَنُّ الإلهي سُنَّةٌ كونية ، والأنبياء هـــم الأبلـــغ في التسنن بها والانتظام بقرآنيتها. وللمنِّ الإلهي وجهة أخرى هي وجهة الذيـــن ليســـوا أنبياء، وعلى قدر التسنن التبين ، وعلى قدر بلاغة التسنن ، يختلف المستعدون لتمثـــل القرء والقرآنية أو مخالفتها ، ويتنافس العاملون. وعلى قدر المشيئة ثم تشييئ المشـــيئة ، يستقي كل منا من ذلك العلم الجامع الأصيل ، علم البيان ، علم الماء المعين الذي بـــه حياة الـــ " كل شيء "، ذلك الذي تمثله الحجر وتمثلته العصا ، وتمثله الطين ، وتمثلـــه الشجر ، والطير ، خير تمثيل ، فسبح بحمد ربه ، وسجد . وعلى قدر مقاربتنا لذلـــك التمثل الكائن في الأشياء يبين لنا ما هو موجود فينا من علم ، وما نحـــن مســـتعدون لتبينه، فالعلم ليس ما لم يوجد بعد ، ووُجِد ، بل ما هو موجود وتبين للمتبـــين إنْ في الآفاق أو في نفسه ، في ضوء الإيمان بقرآنية الكون وكونية القرآن. وما على الإنســـان إلا تبين المؤالفة بين العلم الخارجي والعلم الداخلي ، فبين العلمين علاقة وتـــلاقٍ ، ثم بين علم القرآن و علم البيان ، ومن قبل ، بين القرآن الكريم و العقل الجـــامع علاقـــة

وتلاقٍ. ولا تتحقق الولادة إلا بالمؤالفة ، ولادة الــ " كل شيء " أو ولادة تبين كــل شيء . و لهذا جاء عن نبي الرحمة في تبيان بلاغة المؤالفة الكائنة بيننا و بين القرآن قوله؛ " اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه " [1] .

ثالثاً : علقية القرآن – البلاغة و التبين :

إن إيماننا بأن القرآن الكريم ، كتاب معجز ، و أن إعجازه اللساني ، هو سمتــه وعلامته التي تتشعب عنها وتنفرق كل السمات والعلامات الأخــرى ممثلــة بوجــوه إعجازه المتبقية ، ذلك الإيمان أمر كوني تماماً ... فالإعجاز اللساني إذن هو سمة الجمــع بالنسبة إلى سمات الإعجاز الأخرى ، و هي – أي سمات الإعجاز الأخرى – تشــكل سمة الفرق و التشعب والتطرق (نسبة إلى الطريق) ، بالنســبة إلى جمــاع الإعجــاز اللساني – البلاغي – ووحدته وأصالته وعلميته ، كوناً وتكوناً ...

ولكن ذلك الإيمان به حاجة إلى من يضعه موضع التبيين ، و التمثــل ، فيســير بموجبه وعلى وفقه و إلا فإن الإيمان بالإعجاز يتهاوى تماماً ، ونحن نتخذ الســبل دون سبيله ، مع إيماننا بإعجازه . ومن تلك السبل ، أن نُتبعَ القرآن أنفسنا ، لا أن نتبعــه ، ونترل به إلى دركنا لا أن نعلو بأنفسنا إلى مترلته ، وليس ثمة إن نزلنا به و أتبعناه أنفسنا إلا السقف الذي يخر علينا من فوق ...

فالكلمة القرآنية حبة ، أنبتت سبع سنابل ، في كل سنبلة مائــة حبــة ، و الله يضاعف لمن يشاء ، هذه هي سمة الكلمة القرآنية و هكذا يجب أن يكــون الســمْت ، وعلينا إذن أن نرتفع إلى تلك الدرجة التي نكون فيهــا قادرين على تبين سمــة تلــك الكلمة وبلاغتها من خلال تبين فعلها فينا أولاً ، قبل تبين فعلنا فيها ، أي من خـــلال تحسس ذوقها وحلاوتها ، ومن بعد ، تبين نوعها وتربتها وعنصريتها، ثم رد العجز على الصدر، والثاني على الأول ... أي رد التعلم على العلم .

---

[1] مصنف ابن أبي شيبة: ج٧/ ص١٨٩.

علينا إذن أن نسمح لإدراكاتنا الذوقية بجماعها ، أن تتشكل أو تتكون على وفق سمة الكلمة القرآنية – الحبة التي أنبتت سبع سنابل – مفردةً أو تركيباً ، كلمة ثانية وثالثة، مستوى و ثانياً و ثالثاً ، حبة ، ثم سنابل ، ثم حبات، كلمة ثم سوراً ثم آيات. وبموجب ذلك يعلق المعنى ، فالبعيد الذي لا يتعارض مع سمة الحبة قريب ، ونيل المائة من الحبات ، متحقق و لو بعد حين ، و بالعكس فالقريب بعيد ، وبين القرب و البعد تلاقٍ و بينهما برزخ لا يبغيان .

علينا أن نعلق صفة الفرقان بصفة القرآن ، ثم نعكس ، فنحيط الكلمة اللسانية المسموعة المقروءة ، بالكلمة المرئية في عالم الــ " كل شيء " ، عالم الشهود ، أرضاً وسماءً و ما يعلق بهما ، و نعلق الثانية بالأولى ، ثم نعكس. وقبل ذلك علينا أن نمارس نحن دور العلقة ، بالنسبة إلى رحمية الكلمة القرآنية اللسانية ، فتحيط بنا ولا نحيط بها، ونستمد منها ، و لا تستمد منا، ولا تتكور فينا و نتكور فيها ، بدياً ، ودائماً. وإنْ عكسنا ولا بد من العكس ولكن بعد حين لم نكن فيه شيئاً مذكوراً بإزاء الكلمة القرآنية، فنحن نتشكل في العمق منها ، فهي الصغير الكبير ، الصغير كما يبدو للحس، والكبير كما يجب أن يبدو لجماع العقل ... إننا و لكي نقرب من سمت الكلمة، ونقفو أثرها ، لا بد أن نتسلسل في عنصريتها ، و نبين ببيانها ، فهي جهة العلم و نحن جهة التعلم ، وهي الــ " كن " الأولى المكونة لنا و لكل شيء ، فهي غنية ، بغنى قائلها ، ونحن الفقراء. أما بيانها فمفروغ من وجوده، وأمّا نحن فنطلب ما هو موجود، لا ما لم يوجد بعد إلا بوجودنا ، فهي تجري فينا و في كل شيء ، و بها كان كل شيء، وبها كنا نحن الشيء من الأشياء التي يحكمها ويحكمنا نظام الــ "كل شيء "، كلاً على حدة أو مجتمعين ، في عصر بعينه و في كل العصور ، في مكان و في كل مكان ... فأمرها مثيل أمر أمومة الأم لأبنائها ، كلهم بان عنهم رحمها ، و لكل منهم سمة وعلامة ، صورة ولون ، طبع و طبيعة ، مظهر وظهور ، فهم متماثلون مختلفون،

ولكن الرحم واحد ، و هم محاط بهم إذ كانوا يتسلسلون في رحمها ، و المحيط واحد ، وهم متكونون بوصفهم أشياء ، والمكون واحد ... ثم صاروا بعد حين مكوِّنين فالأصالة الرحمية لها والترتيب والصدور لهم. والفاعلية لها ، والمفعولية لهم . والإقراء لها، والتقرؤ لهم. و بين الفاعلية و المفعولية تلاقٍ ، على أن لا يقدح التلاقي بأولية المفعولية على الفاعلية بالنسبة لكل ما هو شيئي فالشيء منفعل أولاً، فاعلٌ ثانياً... خلاصة القول إننا علقة واحدة و علقات مختلفة ، و الرحم واحد ، رحم الكلمة القرآنية. وقس على ذلك علاقة الأشياء بالـ " كل شيء " والأشياء بالقرآن، والحبات بالسنابل و السنابل بالحبة ، و هكذا هي العلاقة بين المعنى الثالث و المعنى الثاني ، وعلاقتهما بالمعنى الأول ...

جاء في تفسير آية ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾، الآية الثانية من سورة العلق ، "والمراد به من علقة ، لأنه ذهب إلى الجمع ، كما يقال شجرة وشجر ، وقصبة وقصب، وكذلك علقة و علق "[1]

ترى هل تتساوق هذه القراءة مع بلاغة العُلوق ؟

ترى أَتبِعْنا الكلمة هاهنا أم تبعتنا ، أَعَلِقْنا بها أم علّقناها بنا ، أحاطت بنا أم سعينا إلى الإحاطة بها ؟ وإن سعينا ، و تحقق نوع من الإحاطة ، و لقد تحقق نوع منها فعلاً فهل ذلك النوع هو الإحاطة البليغة التي تمنع من إحاطة أخرى بسنبلية الكلمة وسماتها ، و هل جرى ذلك النوع من الإحاطة على سمت السمة الإعجازية للكلمة ؟

الذي علينا هاهنا ، هو أن نؤاخي بين أبناء الرحم الواحد ، فنلاقح القراءات ، ثم نعلق بالكلمة التي هي مائدة الرحمن ، و كلمته التي لا تنفد ...

إن عودة سريعة إلى تسلسلات الـ " كن فيكون " ، و تحديداً الوجه السباعي للتسلسلات الآن ، و مظاهر ذلك التسلسل الكائنة في الـ " كل شي " ، وآخرها ما

([1]) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ج٣٠/ ص٢٥١.

تبيناه في مبحث قريب ، أي التسلسلات الخلقية ، و ملاقيها من تسلسلات التحريك والجمع و الإقراء ، تلك العودة تثبت لنا ، ثانية ، كونية البلاغة القرآنية، وهذا مظهر آخر من مظاهرها ، ألا و هو مظهر الطبيعة السنبلية للكلمة .. مظهر الطبيعة الكونية للمثل القرآني — و هذا ما سنتبينه بإطناب في كتاب قادم — ..

فإذا ما نظرنا إلى علقية (العلق) ، في ضوء نظرتنا إلى تسلسلات الـ " كن فيكون"، جعلنا من كلمة (علق) صغيراً متسلسلاً كذلك التسلسل، ثم جعلنا من تبيان كلمة (علق) رحماً علمياً ننشب به نشوب العلقة بالرحم، ثم جعلنا من التبيان العلقي صغيراً ناشباً بالرحم القرآني بكليته. فإذا كان ذلك عرضنا الآية، آية العلق على غيرها من الآيات السمعية أو البصرية. وكذلك فعلنا مع الصغير الموجز الواحد، آية " تبياناً لكل شيء " وكذلك فعلنا مع صغير " كن فيكون " ومع صغير ؛ " اقرأ " ... وفي كل مرة كان الصغير يتسلسل في الكبير ، تسلسل الأصل الذي لا بد من ترتب غيره على أصالة أوليته ... وهذه نظرة أخرى في ضوء الطبيعة السنبلية للكلمة .

أبداً ليست بليغة البلاغة الكونية ، أية قراءة لا تأخذ بكونية الجمع والقرء ، الكائنة بين كلمة (علق) و كلمة (اقرأ) ، فكلمة (علق) سنبلة بسبع سنابل ، تكوّنت من حبة أولى هي : (اقرأ) ، حتى أننا إذا تتبعنا إحصاء الكلمات في ضوء بلاغة العدد ، وجدنا كلمة (علق) ، تحتل الموقع السابع من بين سبعة مواقع تبدأ بـ "اقرأ " وتتسلسل سباعياً هكذا ؛ (اقرأ) (باسم) (ربك) (الذي خلق) (خلق) (الإنسان) (من علق) ، فإذا ما اعترض معترض، لأن (الذي خلق) كلمتان لا واحدة وكذلك (من علق) ، قلنا إن الحرف جهة المعنى و ليس هو المعنى ، فالحرف مجمع التلاقي بين طرفي المعنى الكائنين في الكلمتين السابقة واللاحقة للحرف .

وها هنا سنقرأ الآيتين المباركتين اللتين تبدآن بكلمة (اقرأ) و تنتــهيان بكلمــة (العلق) مقتصرين على إحالتنا إلى تذكر أطوار الخلق شرط البدء بالطور العلقي ، وهــي (العلقة — المضغة — العظام — الإكساء — الإنشاء) .

فإذا ما تبينا ذلك في السورة بكليتها ، وجدنا ، أن الذي نزل من سورة العلــق بدياً، هو الآيات الخمس الأولى من السورة المباركة ؛ " وهن أول رحمة رحم الله بهــا العباد" [1] .

فإذا تذكرنا أن السورة المباركة (العلق) هي أول النزول ، وأن اسمها (العلــق)، وأن أسماء السور توقيفية ، أي أنها وحي يوحى ، فهي من الله لا من واضع بشــري ... إذا تذكرنا كل ذلك ، ثم جمعناه على بدء الخلق ، الذي هو بدء الرتــق و الجمــع ، ثم جمعناه على الكون الأول للأشياء، أي الكون الجامع ، من حيث هو المــادة الســائلة الخليطة أو (الغرينية) الجامعة السابقة للتمظهر الكوني المتمثــل بخلق الأرض وإنــزال الماء من السماء وظهور الكائنات بعد تقدير أقواتها في اليومين الثالث والرابع من أيــام الخلق الستة ... ثم جمعنا كل ذلك على خلق الإنسان مــن قبضــة الأرض ، ســهلها وحزنها و طيبها وخبيثها ... بعد تسلسله في الأرض إذ لم يكن شيئاً مذكــوراً ... إذا تم لنا كل هذا الجمع ... خلصنا إلى أن ، الله سبحانه لم يقل (علق) ، ويريد (علقــة) كما يدرج على ألسنة المتبينين دائماً في مثل هكذا مواضع . و ما ذاك إلا لأن إرادتــه قوله و قوله إرادته ، فلا اختلاف أو مباينة ، بل واحد ووحدة ... وهكذا يتضــح أن الــ (عَلَق) الذي خُلِقَ منه الإنسان، هو (العلق الكوني) الأول، العلق العنصري، حينمـا كان الإنسان متسلسلاً في أمِّه، أو رحمه الأرضي..

وبموجب ذلك ، فالــ(علق) هو المراد و هو المقول . ومجافٍ للبلاغة تمامــاً ، ذلك التعليل الذي درج عليه المتبينون، ألا وهو: (لأنه ذهب إلى الجمع، كمــا يقــال شجرة و شجر ..) إلا إذا نظرنا إلى الكلمة القرآنية (العلق) هاهنا على أنها (حبــة)

---

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم : ج٤/ ص٤٩٨-٤٩٩.

في سنبلة و من سنبلة ، لا على أنها حبة أصل ستنبت سبع سنابل في كل ســنبلة مائــة حبة .. أي إلا إذا نظرنا إلى (الكلمة) من جهة أول البلاغة الذي يســميه البلاغيــون (الفصاحة). وما الفصاحة بلاغة ، وإن كانت الفصاحة تضمر صحة الكلمـــة ... أو إلا إذا نظرنا إليها من جهة الوجهة البشرية للكلمة القرآنية لا من حيـــث الوجهـــة الإلهية، أو من حيث جهة الجزئي لا الكلي ، والسطح لا العمق و الحســي الجزئــي لا العقلي الجامع ، والمترتب لا الأصيل ، والفرق لا الجمع .

إن فعل القراءة في مفتتح السورة المباركة يقابل الكلمة الأخـــيرة (العلــق) ، باعتبار (العلق) آخر وجهة القرء الأولى ، (القرء الخلقي) ، الذي سيتلوه و يقابلـــه القرء العلمي بالنسبة للإنسان من حيث تبدأ الآية الثالثة بـــ "اقرأ " ثانية ، وتنتهي بــــ " ما لم يعلم " ...

نعم، خَلْق الإنسان من علقة، هو الطريق الثاني، الطريق غير المباشــــر، طريــق الواسطة والتسلسل الظاهر، ولهذا الطريق سابق أول كوني جــــامع ألا وهـــو طريــق التسلسل الباطن، والعميق، طريق المباشرة، الذي بدأ مع الخلق الأول للإنسان، وهــــذا أصل وسابق، والطريق الثاني، مترتب ولاحق. وبموجب الطريق الأول خُلِقَ الإنسان من علق، لا من علقة واحدة، خلق من عنصرية الأرض والسماء، إذ كانتا رتقاً ثم فتقتــا... وبموجب ذلك كان الإنسان علقة في رحم الأرض. فهو ــــ أي الإنسان الأول ــــ علــق وعلقة في وقت واحد. وكذلك كان قرؤه وجمعه الأول. وهكـــذا يجــب أن تكــون القراءة، فالقراءة التي خوطب بها النبي وأمره ربّه بها،هي القراءة الجامعة الكونية للأصــل والمترتب. وعلينا التّعلم بعلم هذه القراءة التي تبدأ بالـــ "كل شيء" وتنتـــهي بظـــهور الأشياء، وفنائها. فالعلقة الظاهرة مجموع علق باطن، والتقرؤ الظاهر مجموع تقــــرّؤ باطن وأصل وعميق وأول. والمخاطب الأول بأوّل النزول القرآني، هـــو أول بالنبويّــة الجامعة ولاحقٌ للأنبياء بالجسدية الجامعة و القراءة الجامعة.

إن عودة أخرى إلى مثل الكلمة، والحبة، تثبت لنا أن الكلمة هي الحبّة، مع فارق، وان فالق الحب والنوى، هو نفسه فالق الكلمات والمعاني، فالحبة كلمة، لأنها كانت بالكلمة الأولى التي قالها الله سبحانه للأشياء فكانت، كلمة الـ"كن فيكون". فالحبة التي أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، هي ذاتها الكلمة التي تنبت. فالكلمة حبّة ستنبت سبع كلمات في كل كلمة مائة كلمة.. أي ستنبت سبعة معانٍ في كل معنى مائة معنى... والجمع هاهنا واحد (حبة واحدة)مرةً ، وسبع (سبع سنابل) مرة، وسبعمائة (بضرب ٧ $^{١٠٠×٧}$ ١٠) مرةً، وجمع الجمع؛ سبعمائة وواحدة وسبع: (١+٧+٧٠٠).

على أننا يجب أن لا يمنعنا الكبير من الاعتقاد بأن نظامه وتسلسله أو (تسنبله)، هو عينه تسنبل الصغير، فالكلمة من الآية، كلمة واحدة (حبّة)، والآية كلمة واحدة (حبة)، والسورة الواحدة كلمة واحدة (حبة). والقرآن كله كلمة واحدة (حبّة) والكون جميعه، كلمة واحدة (حبة)... والجميع فتق وفلق وتفصيل وفرق، بعد رتق وقرء جمع...

فإذا ما تذكرنا ان الله يضاعف لمن يشاء، آمنا بعد تذكر، إنّ كلمات ربي لا تنفد، وأننا محدودو العلم والقدرة، وأن ثمة من بلغوا من درجات العلم ما لا يتخيله عقل بشري من عقولنا وذلك بموجب، ﴿ والله يُضاعِفُ لِمَنْ يشاءُ والله واسعٌ عَليمٌ*﴾ (البقرة: ٢١٦)، أولئك هم الأنبياء، وخلاصتهم وبلاغة قرئهم، محمد نبي الرحمة والعلم.

وبموجب ذلك يصير العلم كائناً في الأشياء، الكون العلقيّ البعيد، الذي به حاجة إلى من يتتبع شيئاً من سنبلتيه، وان لم يبلغ مضاعفاته، فالسبعمائة الحبّة، تصيو في أول وأصغر تضعيف لها؛ (٤٩٠٠) حبة، وتتسلسل هذه إلى (٣٤٣٠٠) حبة، وتصير الأخيرة (٣٤٣٠٠٠٠)، وهذا هو الطور الثاني للضعف، أما الطور الثالث؛ فهو (٢٤٠١٠٠٠٠) ثم (٢٤٠١٠٠٠٠٠٠)، وهاهنا يتبين لنا مظهر آخر من مظاهر

التسلسل السباعي لقرآنية التكون... وما هذا إلاّ طور، وعند الله مزيد، فـالله واسع عليم...

ولا نستبعد بعد ذلك، تلك الصلة الكائنة بين رقم المضاعفة الأولى (٤٩٠٠) وبين الرقم الذي بان لنا في مبحث الكينونة الزمنية للكون، فيما بين الزمن الرباني والزمن الأرضيّ... ولا نستبعد بعد ذلك، انّ الرقم الأخير (٢٤٠١٠٠٠٠٠٠)، ينبئ بالكثير فيما يتعلق بعمر الكون، مذ جمعه، الأول في تلك المادة الصغيرة التي لم تنفلق بعد (الحبة)، التي تقابل طبيعتها الرتقية المتماسكة والمضمومة على علق السنابل والحبات جميعاً، علق الكائنات المضموم ــ المقروء في رتق السموات والأرض... ولا نستبعد من ثم علاقة هذه الأرقام بأجزاء الزمن الأرضيّ الصغير و الكبير، وكذلك علاقاتها بالصغير الكبير الإحيائي والكيميائي والفيزيائي...

وهكذا تبدو لنا كلمة (علق) واحداً من حيث هي كلمة لها مظهرها الذي ندركه في سورة العلق. وعلينا أن لا نتجاوز هذا المظهر القرآني إلى حيث مظاهرنا الخاصة، غاضين النظر عن الدلالة الكائنة فيها، والتي هي دلالة المفرد ممثلاً بالكلمة الواحدة ودلالة الجمع ممثلاً بالمظهر الجمعي الأصغر للعلق: (علقة وعلقة وعلقة)، باعتبار أصغر وأقل تسلسل للجمع، و إلا فإن الجمع أيضاً أطوار ثلاثة تتضاعف...

وإذن، الله سبحانه لا يقول وارداته غير قوله، و حاشا له... نحن فقط نقول وقولنا لا يبين عن إرادتنا إبانة بليغة. ونحن وحدنا لا يترتب على قولنا تشيؤ وتخلّق. فإذا نظرنا إلى القول الإلهيّ نظرتنا إلى القول البشريّ، أسأنا القراءة وما انتظمنا بنظامها، ولا يترتب على ذلك إلاّ تأخرنا في الإفادة من رحمانية التبيان... وما ذهاب المتبينين إلى أن "من علق" يريد بها الله (من علقة) إلا مظهر لتلك الإساءة في القراءة التي ضيقت على السعة الدلالية والعلم الكائن في الشيء الذي هو كلمة (علق)، فقلبت بذلك الدلالات إلى دلالة بعينها دون غيرها. وتعليل الذي حصل هو عدم الاستجابة لبلاغة الصغير المتعدد، ثم توقف القراءة عند المظهر الذاتي، وعدم رُقيّها إلى سعة المظهر

القرآني ومضاعفاته. فكلمة (علق) واحد و متعدد، واحد من حيث هي كلمة ومتعدد من حيث هي علقة وعلقة وعلقة... نعم، الاقتصار على (علقة) كشف، ولكنه كشف عن الجزء لا الكل، ولا يتوافق هذا التبيّن مع بلاغة الإقراء القرآني. و قد يُتبين غيره مما هو جزء، ويُتبين ثالث... ولكن تلك التبينات جميعاً، أبعاض ومظاهر وأشياء، لا الـ"كل شيء" من حيث هو مادة سائلة جامعة ومتماسكة، قابلة للتكون.. وليس من حقّنا هاهنا تخطيء المتبينين، حينما يكون التبيّن مشروطاً بالخبرة والدراية والعلم ، بكل الركائز المطلوبة في تبين الأشياء بوساطة القرآن، وإن كان من حقنا أن نقول إنهم قصروا في تبين البلاغة العليا، البلاغة الكونية، بلاغة الـ:كل شيء" والـ"كن فيكون"، التي هي بلاغة القرء والقراءة... أو إنهم تبيّنوها بما يناسب سياقاتهم الكونية، وما سياقاتهم سياقاتنا...

وقد يؤدي القرآن بالمتبيّن حينما تكون الغاية من التبيّن غاية هدم وفساد، (فهو على الذين لا يؤمنون عمىً)، يؤدي بهم إلى التخبط في ظلمات الباطل، تلك الظلمات التي منشؤها زيغ القلوب واتباع ما يؤدي إلى الفتنة... وكذلك الأمر بالنسبة إلى النبيّ الداخل ـــ القرآن الداخل، بوصفه ذلك العلم الذري المكتوب في كلّ واحد منا منذ أول الخلق مسلماً كان أم لم يكن... فقد يؤدي ذلك العلم إلى الضلالة والفساد والقتل والتدمير والهدم والتخريب. فالذي صنع المتفجرات مثلاً، صنّعها بموجب علم كلّي بالـ"كل شيء" مكتوب فيه، تبيّنه فبان.ونفر من أولئك الذين يتبينون القرآن الداخلي، يصنعون به ما صنع نوبل، وما يصنع النوبليّون في كل مكان إلا وسائل الإبادة .. ولا فرق في العلم ها هنا و هناك... فالعلم علق مكتوب في الأكوان والقرآن ولكن الفارق يكمن في الوجه الذي تمثله المتعلم، وجه الرحمة أم وجه النقمة، وجه الرضا أم وجه الغضب، وجه الأمر أم وجه النهي، وجه الهدى أم وجه الضلالة، وجه الرسوخ أم وجه الزيغ... وعلينا أن نتبين ذلك فإن بان لنا انه ليس وجه نقمة،بل

وجه رحمة، صرنا إلى أن لوجه الرحمة درجات أيضاً، ومضاعفات، وان لكل بلاغة ابتداءها الذي يسمى: فصاحة وليست الفصاحة إلاّ درجة من درجات البلاغة.

خلاصة القول، ان إرادة الله قوله، فلا فرق ولا مخالفة. وبموجب ذلك، علينا أن نقرن القول بالإرادة، وإلاّ كيف يكون القول صادقاً وحقانياً؟ وعلينا من بعد أن نقرن الظاهر إلى الظاهر، بوصف الظاهر الأول ظاهر الحس الجزئي، بينما الظاهر الثاني هو ظاهر الحسّ الكليّ... فالكلمة التي أمامي في الوجود القرآني اللساني، أو الخارجي، هي وجود واحد ذو وجهتين. وعليّ أن أُحكِّم الوجهة الأولى في النظر إلى الثانية، آخذاً بنظر الاعتبار فارق الأرضية التي ستنبت فيها هذه الوجهة أو تلك. وما مدخلي إلى قراءة الكلمة إلاّ الحسّ أولاً، فأنا أسمع الكلمة وأراها، وفي ضوء سماعي ورؤيتي لها يترتب عندي تبين أول، أي كون أول، أي قرن أول، أي علقية أولى. عليّ أن أقرنها برحمها الجامع، رحم الحسّ الجامع الذي هو فصاحة العقل الجامع.

والذي بين المدخل الإدراكي والمخرج تسلسلات قرائية تنتهي إلى حيث تلك المادة المكتوبة السائلة، مادة العلم الكوني. وحينما أصل ذاتي بذات الكلمة القرآنية، علي أن أتعلم وصل مدخلاتي الإدراكية جميعاً... وها هنا يصير الحسّ مدخلاً واحداً بوصفه جمعاً ومداخل بوصفه فرقاً، فهو حسّ جامع، وهو سمع وبصر وقلب وعقل ثم تلك المادة السائلة، المادة الذرية...

وبموجب ذلك نقرأ الـ(علق) على أنه علقة واحدة، هي مجموع علقة وثانية وثالثة... وهذا ما سنرجيء قرءه وكونه وبيانه، مفصلاً إلى الجزء الثاني من هذا الكتاب، بإذن الله سبحانه، الرحمن، العزيز الرشيد...

وآخر دعواهم .. أن الحمد لله رب العالمين..

الفهرس